

اقتصاد النسيج في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

محمود هدية

اقتصاد النسيج في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

تأليف
محمود هدية



اقتصاد النسيج في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

محمود هدية

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧.

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٦ ١٧٢٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾

[النحل: ٨٠]

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

[الأنبياء: ٨٠]

إلى خير الخلق محمد ﷺ.

أبي الحنون وأمي الحبيبة.

إخوتي الأعزاء.

زوجتي الفاضلة.

ابنتي فريدة.

أُهدي هذا العمل.

مقدمة

اكتسب الغرب الإسلامي دورًا بارزًا في تشكيل حضارة البحر المتوسط من خلال موروثاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وعلى وجه الخصوص الاقتصادية منها؛ باعتبارها إحدى ركائز الاتصال مع الشعوب والبلدان التي جاورت الغرب الإسلامي؛ ومن هذا المنطلق تكمُن أهمية النسيج في تلك المنطقة، خاصة في العصر الوسيط؛ تلك الفترة التي شكَّلت جانبًا مهمًّا من تاريخ الغرب الإسلامي.

إذ تطور الغرض من اتخاذ المنسوجات كملابس ومفروشات في الغرب الإسلامي؛ لتمثِّل مظهرًا من مظاهر الحضارة، يُرى مردوده في الحياة العامة، في المساجد ودور العبادة والقصور والدواوين وفي كافة مناحي الحياة، خاصة بعد أن اتخذ النَّسيج طُرُزًا ونوعيات ميَّزت أقاليمه في طرق الصنع وسُبل التجارة، وصارت خاماته ونوعياته من العلامات المميِّزة له، فضلًا عن الدور الذي أدَّته تجارة النسيج في تدعيم السياسة الاقتصادية والتجارية في بلدان الغرب الإسلامي؛ لذا اعتلت تجارة النسيج الصدارة وأصبحت واحدة من أبرز التجارات التي ترأَّست قوائم المبادلات التجارية في منطقة الغرب الإسلامي طيلة العصور الإسلامية.

ونبع هذا التميز من اهتمام مُدن الغرب الإسلامي بالنَّسيج وتجارته بإقامة العلاقات التجارية مع مدن الغرب المسيحي، وبلاد السودان الجنوبي ومصر، وبلدان المشرق الإسلامي. وقد ساعد هذا على تبادل الخبرات ومواد النَّسيج الخام، فضلًا عن سعي حكومات الغرب الإسلامي لإنشاء القيساريات والأسواق التي أَوْلت اهتمامها بصناع وتجار النسيج.

ويمثل هذا الكتاب أهميةً كبيرة للمهتمين بدراسة التاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي؛ لأنه يستعرض البيئة الزراعية لتلك المنطقة، فضلًا عن الوضع الصناعي الذي اتُّبع،

والتقسيمات الصناعية وصنوف الصناع، هذا بالإضافة إلى الوجود التجاري من أسواق وقيساريات ونقابات، والعلاقات التجارية التي امتدت شرقًا وغربًا، وقد جاء الكتاب في ستة فصول:

الفصل الأول: تناول أهم العوامل المؤثرة في النَّسيج من زراعة وصناعة وتجارة، مع ذكر أهمية النَّسيج والمنسوجات في الغرب الإسلامي.

الفصل الثاني: عرضتُ فيه للنباتات النَّسيجية الأوَّلية ومناطق زراعتها، بالإضافة للصوف ومراكز توطُّنه، وأهم المراعي ببلدان الغرب الإسلامي، وتطرَّقتُ بالحديث عن زراعة التوت، ونباتات الصباغة، وأهم مناطق إنتاجها بالغرب الإسلامي.

الفصل الثالث: تطرقتُ فيه بالحديث عن أصناف صُنَّاع النَّسيج في الغرب الإسلامي؛ من مبتدئين وصناع ومعلمين، كما ذكرت صُنَّاع النَّسيج من حرَّارين وقطَّانين وصوَّافين وكمَّادين وصبَّاغين، وكذلك فئات صُنَّاع النَّسيج من علماء ونساء وصبية وغلمان بالإضافة لأهل الذمة.

الفصل الرابع: ذكرتُ فيه مراحل صناعة النَّسيج من تجهيز وغَزْل وتصنيع، فضلًا عن مجال مراكز الصناعة الحريرية والصوفية والقُطْنية وكذلك الكَتَّانية، بالإضافة للصناعات الأخرى التي ارتبطت بصناعة النَّسيج من صباغة وغيرها.

الفصل الخامس: أُفرد لدراسة أسواق النَّسيج في الغرب الإسلامي وأهم المنشآت التجارية، مع ذكر أهم أسواق النَّسيج، ونظم النَّسيج التجارية وفئات تجار النَّسيج، وكذلك مقاييس وموازين وأسعار النَّسيج، بالإضافة لطرق بيعه، والحسبة على النَّسيج وتجاره داخل أسواق الغرب الإسلامي.

الفصل السادس: جاء لدراسة أشكال المبادلات التجارية للنسيج في بلدان الغرب الإسلامي من مُنتجات النَّسيج الخام والمنتجات الصناعية (المنسوجات)، وكذلك المبادلات التجارية للنسيج مع بلاد السودان والسودان الغربي، والبلدان المشرقية (الهِنْد والصِّين)، والبلدان المصرية، وبلدان الغرب المسيحي من ميورقة والجمهوريات الإيطالية.

وأخيرًا أتمنى من الله العلي القدير التوفيق والسداد.

الفصل الأول

العوامل المؤثرة في صناعة وتجارة النسيج في الغرب الإسلامي

(١) الواقع الجغرافي للغرب الإسلامي

نظرًا لأهمية الواقع الجغرافي للغرب الإسلامي وجب التنويه له حتى يتسنَّى تكوين تصوُّر جغرافي لمناطق زراعة وصناعة وتجارة النسيج في الغرب الإسلامي.

فيُطلق لفظ بلاد المغرب على المنطقة التي يحدُّها المحيط الأطلسي من جهة الغرب،[١] ومن جهة الشرق أرض مصر،[٢] ويحدُّها من الشمال البحر المتوسط، ومن جهة الجنوب فتحدُّ بلادَ المغرب جبال الرمل (الصحراء الكبرى) التي تمتد من المحيط الأطلسي غربًا إلى ما وراء الصحراء وحتى برقة شرقًا.[٣]

وتنقسم بلاد المغرب إلى ثلاثة أقاليم رئيسية: فتبدأ بإقليم المغرب الأدنى الذي يمتد من الأجزاء الغربية من طرابلس والأراضي التونسية والأجزاء الشرقية الجزائرية،[٤] ثم إقليم المغرب الأوسط الذي يمتد من الأراضي الجزائرية حاليًّا وجبال بني مزغنة وتلمسان،[٥] بالإضافة لإقليم المغرب الأقصى الذي يمتد من وادي ملوية وجبال تازا شرقًا، حتى المحيط الأطلسي غربًا، ومن البحر المتوسط شمالًا حتى جبال أطلس جنوبًا.[٦]

وضمت بلاد المغرب العديد من المعالم الجغرافية من موانئ ومرافئ وجبال ووديان (أنهار)، وانتشرت بها الجبال على طول الشريط الساحلي وما يقع خلف ذلك الساحل من أراضٍ وصحارٍ وجبال كجبال نفوسة، وجبال درن، وجبال أطلس[٧] التي تُعد من أبرز المعالم الجغرافية في بلاد المغرب الإسلامي.[٨]

وشكَّلت هذه الجبال مصدرًا لتدفُّق الأنهار[٩] ويُعتبر نهر وادي سوليت ونهر وادي ملوية اللذان يصبَّان في البحر المتوسط من أهمها، فضلًا عن العديد من الأنهار الداخلية كنهر وادي أم الربيع،[١٠] ونهر وادي سوس ووادي الشليف،[١١] ونهر وادي سجلماسة ونهر فاس،[١٢] بالإضافة لنهر وادي سَبْو،[١٣] ونهر وادي تنفست،[١٤] ونهر وادي درعة؛[١٥] مما أدى لوجود المدن والتجمعات السكانية على ضفاف تلك الأنهار.

وارتبطت طبيعة المغرب — في أقاليمه الثلاثة — بنشاطه الاقتصادي، نتيجة لكثرة السواحل التي يُشرف عليها؛ سواء على المحيط الأطلسي أو البحر المتوسط، ولرداءة خلجان السواحل المطلَّة على الأطلسي، ازدادت أهمية السواحل المطلَّة على المتوسط. والأراضي المغربية في مجملها متوسطة الخصوبة متعددة التربة؛ لاختلاف مناطقها؛ فمنها التربة الجيرية، والرملية التي تكثر في المغرب، والسوداء التي تعتبر من أجود الأنواع والتي تكوَّنت حول الأنهار، وفيها أيضًا الأراضي ذات التربة الحمراء.[١٦]

أما الأندلس فيقترب شكلها من مثلث وتحيط بها مياه البحر من ثلاث جهات: فمن الشرق والجنوب يحدها البحر المتوسط، ومن الغرب والشمال الغربي يحدها مياه المحيط الأطلسي، ومن الشمال يحدها جبل البرتات،[١٧] كما يحيط بها عدة سلاسل جبلية تكاد تُطوِّقها، كما انتشرت بها الوديان الخصبة التي تجري فيها الأنهار.[١٨]

وبذلك وُجد التنوع في سطح أرض الأندلس؛ فكان له أثره على المناخ، إذ يغلب على الأراضي الأندلسية مناخ البحر المتوسط وهو حارٌّ جافٌّ صيفًا، دافئٌ ممطر شتاءً،[١٩] وعلى المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية الجاف بشكل عام، وتسقط الأمطار في النصف الشمالي من الأندلس أكثر من النصف الجنوبي.[٢٠]

وكان لتنوُّع مظاهر السطح والمناخ في الأندلس بهذا الشكل أن أرضها امتازت بالخصب حتى وصفها ابن غالب[٢١] بقوله: «الأندلس شامية في طيب أرضها ومياهها، بما فيه من اعتدالها واستوائها، أهوازية في عظيم جبايتها، عدنية في منافع سواحلها، صينية في جواهر معادنها، هندية في عطرها وطيبها.» وقال عنها الزهري: «هي أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلًا … ومن بركتها أنه لا يمشي الإنسان فيها فرسخين دون ماء، ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها الخبز والزيت.»[٢٢]

وتعددت مصادر المياه في الأندلس متمثلة بمياه الأنهار الكثيرة؛ إذ «يشقُّها أربعون نهرًا»[٢٣] وتكثر فيها العيون والآبار التي لجأ الأندلسيون إلى حفرها في المناطق التي لا تتوافر فيها المياه؛ من أجل تلبية احتياجاتهم وسقي زراعاتهم، فضلًا عن غزارة الأمطار الساقطة

بكمياتٍ كافية للزراعة في بعض جهاتها،[٢٤] فكثرة الأراضي الخصبة مع توافر مياه السقي شجَّعا الفلاحين الأندلسيين على استغلال أراضٍ كثيرة في الزراعة؛ مما ترتب عليه زراعة أغلب المحاصيل الزراعية في الأندلس.[٢٥]

ومن أبرز الملامح الجغرافية للغرب الإسلامي بصفةٍ عامة كثرة الجزر الموجودة به والمطلة عليه، فكان منها جزرٌ كبيرة ومعروفة ومنها صغيرة ومجهولة،[٢٦] فتمتَّعت كل جزيرة من تلك الجزُر بعدة خصائص ميَّزتها بدرجاتٍ متفاوتة عن باقي الجزُر كجزر البليار Baliares[٢٧] التي من أشهرها جزيرة ميورقة، وغيرها من الجزر،[٢٨] وجزيرة صِقِلِّيَّة،[٢٩] التي تُعتبر من الجزُر التي مثلت أهمية كبيرة للطريق البحري بين بلاد المغرب ومدن الغرب المسيحي وبخاصة الجمهوريات الإيطالية، الذي استُخدم باستمرار في عمليات السفر والنقل البحري؛ نظرًا لقصر المسافة بينهما، فضلًا عن وجود العديد من الموانئ الخاصة لإرساء السفن بها للراحة أو التجارة، هذا بالإضافة لأهميتها التجارية التي اشتُهرت بها،[٣٠] فكان لموقعها — في وسط البحر المتوسط — أهميته الاقتصادية؛ مما جعلها محط أنظار القوى التجارية، فنشأت حوله قوًى حضاريةٌ كبرى منذ القدم وتصارعت عليه، وساهم ذلك في إيجاد تسهيلاتٍ كبيرة لتجارة الشعوب التي تقع على هذا البحر، ولا يمكن أن يُغفَل موقع صِقِلِّيَّة المتوسط في قلب رقعة اقتصادية موحَّدة مترامية الأطراف امتدت من الأندلس إلى بلاد الشام.[٣١]

وحصل التجار المسلمون في صِقِلِّيَّة على رُخص للسفر إليها من أجل أعمالهم التجارية قبل سيطرتهم عليها، ليُزاوِلوا نشاطهم التجاري ضامنين العودة بحرية وسلامة إلى أوطانهم عندما يرغبون، بالإضافة للمعاملات التجارية البحرية بين أوروبا وأفريقيا حتى نهاية القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري، التي بدأت في صِقِلِّيَّة وإن كانت محدودة.[٣٢]

(٢) الأيدي العاملة

من المقوِّمات الرئيسية لقيام الصناعة وازدهارها الأيدي العاملة الماهرة والقادرة على أداء الأعمال الموكلة إليها، فأُطلق على من يعملون في الصناعات المختلفة صُنَّاعًا،[٣٣] واشتُهرت العديد من المدن في الغرب الإسلامي بصنَّاعها، كما ذكر ابن أبي زرع[٣٤] أن أكثر الأهالي في عدوة القرويين بفاس القديمة كانوا صنَّاعًا، وفي تلمسان كان الصنَّاع فئةً كبيرة يعيشون حياةً كريمة وينعمون بأوقات لراحتهم، وتونس كان أغلب سكانها من الصُّناع وخاصة صُنَّاع النسيج.[٣٥] واتصف صناع الغرب الإسلامي بالدقة والجد والصبر في أداء أعمالهم،

فجاء وصف ابن غالب[٣٦] مصداقًا لهذا القول عند حديثه عن صناع الأندلس بقوله: «صينيون في إتقان الصنائع العملية وأحكام المهن التصورية؛ فهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النَّصَب في تحسين الصنائع.»

وقد شجَّع حكام الغرب الإسلامي الصُّناع على مزاولة أعمالهم خاصة إبان الحكم الموحدي (٥٤١هـ/١١٤٦م–٦٦٨هـ/١٢٦٩م) بعد اتساع نطاق الدولة الإسلامية، وتبادل الخبرات الصناعية بين رحاب الدولة سواء من الأندلس أو غيرها من البلدان في مختلف الصنائع.[٣٧]

وَسَعَت السلطة في بعض الأحيان إلى مساعدة عمال وصناع النسيج من فترة لأخرى، فهناك رواية عن ربيع القطان[٣٨] أنه في أوقات الحج كان السلطان بالقيروان يعطي صناع القطن كميات من القطن لغزلها وذلك في وقتٍ محدَّد وسعرٍ محدد: «يحسبه عليهم بدينارين القنطار، وكان يسوى دينارًا ونصف، فطرح عليَّ منه ثلاثة قناطير، فهممت أن أعمله وأهيئ ثمنه وأغزله.»[٣٩] ويُفهَم من هذه الرواية أن السلطات — في بعض الأوقات — كانت تراعي أحوال العمال ولا تجور عليهم بل تعطيهم أكثر مما يستحقُّون.

(٣) النقل ومشاكله

كان للطبيعة الجغرافية أثر في أن يصبح البحر المتوسط من أنسب طرق الاتصال البحري الذي ساعد تجار وسكان الغرب الإسلامي على التنقُّل والسفر وممارسة التجارة البحرية،[٤٠] وعلى الرغم من ذلك فلم يخْلُ من بعض الصعوبات التي وقفت حائلًا أمام تقدُّم العمليات التجارية فأعاقتها، وكان للرياح دور في البحر المتوسط خاصة في تحديد أوقات السفر منه وإليه؛ فتعذر السفر خاصة في الفترات التي تزداد فيها سرعة الرياح،[٤١] فساعدت الرياح الشرقية في البحر المتوسط على حركة السفن وساهمت في تنشيط حركة التجارة،[٤٢] التي نشطت في فصلَي الربيع والخريف، فيذكر ابن جبير[٤٣] ذلك: «فالمسافرون إلى المغرب وصِقِلِّيَّة وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلَين انتظار وعدٍ صادق.» فلهذا اعتمدت الملاحة في البحر المتوسط على التجديف؛ لأن سرعة الرياح بطيئة في معظم أوقات السنة؛ فساد الهدوء خلال فترات طويلة من العام.[٤٤]

وكثيرًا ما تسبب هياج البحر في تلف السلع والبضائع والأطعمة الموجودة على سطح السفن، بل كان سببًا في حدوث التلف في السفن نفسها؛ مما هددها بالغرق؛[٤٥] لأن شدة هبوب الرياح يصاحبها هياج للبحر وسقوط للأمطار والبرد، فكان له دور في فساد البضائع

وإلحاق الضرر بالأمتعة الموجودة على سطح السفينة؛ ما بث حالة من الرعب والخوف في قلوب المسافرين والتجار.[٤٦]

ففي خطابٍ مؤرَّخ في عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م، من أحد التجار الأندلسيين بالإسكندرية، يبرهن على أن الأسعار قد تأثرت بعدم وصول السفن التجارية في وقتها، فيذكر كاتب هذا الخطاب أن الحرير ازداد سعره نظرًا لتأخر وصول مراكب الأندلس المحمَّلة بالحرير، لعدم توافق الرياح المناسبة للإبحار، وقد استغلَّ التجار هذا الموقف، وأحجم كل من لديه كمية من الحرير عن بيعها، أملًا في زيادة السعر.[٤٧] وتأثر ازدياد الأسعار بطول المسافة التي تقطعها القوافل، وبالضرائب المفروضة، وتكاليف الشحن.[٤٨]

ومن المشاكل التي تعرض لها التجار خاصة تجار النسيج، الحرائق التي كانت تحدث بصورةٍ خاصة في الأسواق؛ مما يعرضهم لخسارة أموالهم، ففي عام ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م، وقع حريق بأحد أسواق مدينة قرطبة، ويعرف باسم «سوق الكتانين»، والْتهم هذا الحريق الكثير من بضائع التجار.[٤٩]

ووقع حريق في عام ٥٣٣هـ/١١٣٨م في سوق مدينة فاس؛ فكانت الخسائر كبيرة، وقد أسفر عن إفلاس العديد من التجار،[٥٠] ووقع عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م حريقٌ كبير في سوق مراكش، ومشكلة هذا الحريق أنه وقع في الليل وظل مشتعلًا حتى الصباح، وقد الْتهمت النيران معظم ما وُجد في هذه الأسواق من سلع وبضائع «وذهبت في لكائنة للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين، على الأخطار الجسيمة، ما لا يحصى، وافتقر فيها أمةٌ من ذوي اليسار، وأصبحوا يتكففون الناس حيارى على الأقطار».[٥١] وتعرضت فاس لحريق آخر عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م فيذكر ابن أبي زرع[٥٢] عن حريق السوق فيقول: «وفيها احترقت أسواق فاس من قنطرة الصباغين بقرب باب السلسلة؛ فأحرقت سوق السقاطين والغمادين والسبيطريين والصباغين والصوابنيين، ووصلت إلى باب الجنائز من جامع القرويين، فوقف هنالك الشيخ الصالح عبد الله القشتالي بعد أن أحرقت مصاريع باب الجنائز ...» وسوق الصباغين بفاس الذي تعرض للسيول عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م،[٥٣] وأسواق الخياطين وأسواق البزازين.[٥٤]

وعلاوة على ذلك فقد اهتم الحكام بإقامة روابط وعلاقات تجارية داخل الغرب الإسلامي وخارجه بإنشاء الطرق والمراكز والأسواق التجارية، التي ربطت مراكزه بشبكة من الطرق والمسالك الرئيسية والفرعية وارتبطت بالطرق الخارجية وباتجاهاتٍ مختلفة، فمكَّنت هذه الشبكةُ من المسالك والطرق التجارَ من ممارسة أنشطتهم التجارية داخلَه

وخارجه، ففي المغرب الأقصى لم ينقطع إنشاء تلك الطرق والمسالك حتى في حالات الحروب والفوضى السياسية.[٥٥]

كما أثَّرت عوامل القطع والسرقة على حركة التجارة في بلدان الغرب الإسلامي، فكانت من أبرز العوامل التي أثرت وبشكلٍ ملحوظ على حرية التنقل داخل أرجاء الغرب الإسلامي وعبر موانئه، والنتيجة في الغالب خسارة للأموال، وإزهاق للأرواح، وفقدان في كثير من الأحوال للحرية،[٥٦] ونتيجة لغياب الأمن في بعض الفترات اضْطُرَّ المسافرون والتجار لأن يستخدموا الطرق البحرية البديلة في أسفارهم وتجاراتهم؛ مما زاد من أهمية بعض الطرق على حساب الأخرى؛ ففاق السفر عن طريق البحر وجعله يفوق السفر عن طريق البر.[٥٧]

(٤) أعمال القرصنة والقطع البحري

انتشرت أعمال القرصنة في البحر المتوسط وأثَّرت بشكلٍ كبير على سير حركة التجار، وتشير القرصنة — بشكلٍ كبير — إلى فترة العصور الوسطى، وإلى كل الغارات المخرِّبة التي سبَّبت أضرارًا أو عرقلة بأي شكل من الأشكال على التجارة والملاحة البحرية؛ مما أثَّر على التجار والبحارة تأثيرًا سلبيًّا بدرجاتٍ متفاوتة سواء كانت تلك الغارات موجهة من الخارج أو من الداخل — غارات حكومية — وما نتج عنها من مطاردات للمسافرين والتجَّار والسفن التجارية بهدف السلب والنهب.[٥٨]

والقرصان La Corsale هو ذلك الشخص الذي يهاجم السفينة بغض النظر عن هويتها في البحر أو على الساحل وما ينتج عن ذلك من قتل وسرقة وخطف،[٥٩] ولا بد أن يتمتع القرصان بعدة خصائص منها: إجادة الملاحة، وخوض المعارك والحروب البحرية، بالإضافة إلى كونه تاجرًا ماهرًا.[٦٠]

وازدياد حركة القرصنة في حوض البحر المتوسط الغربي يُرجِعه ماس لاتري Mas latrie[٦١] إلى عدة أسباب، منها: التوسع الهائل للتجارة البحرية التي واكبت الحروب الصليبية وساعدت على انتشار أعمال القرصنة البحرية، كذلك الاعتراف القانوني في بعض الأحيان بشرعية ممارسة القرصنة، من جانب حكومات الغرب المسيحي.

وازدادت غارات القراصنة على شواطئ الغرب الإسلامي، وبالأخصِّ على المدن والمراكز التجارية، كمدينة تونس التي مثلت مركزًا تجاريًّا كبيرًا بموقعها المتميز على البحر المتوسط، ففي شهر شوال من عام ٧٠٢هـ/١٣٠١م أغارت ثلاث سفنٍ تابعة لقراصنة كتالونيين على

مرسى تونس، واستولوا على مركب تابع لتجار من بيزا، مُحمَّل بالصوف قيمته ثلاثون ألف دينار،[٦٢] وأغار أحد القراصنة الكتالونيين وهو القرصان بيدرو رابلتة على مدينة بونة وبنزرت واستولى على مركب تجار مسلمين محمل بالعود والقطن والتمر قيمته عشرة آلاف دينار.[٦٣]

وكذلك تجارة النسيج والملابس كانت عرضة للعديد من غارات القرصنة،[٦٤] وهو ما حدث في عام ٨٠٠هـ/١٣٩٧م إذ تعرضت سفينة محمَّلة بالصوف قادمة من ميورقة في طريقها لبرشلونة لغارة من القرصان الباسكي بيرو بايا Pero Paya الذي حرقها بعد أن استولى على كل البضائع التي عليها.[٦٥]

وظهر تأثير القرصنة واضحًا، خاصة قراصنة ميورقة،[٦٦] على حجم المبادلات التجارية بين الموانئ الكتالونية ومدن المغرب الإسلامي خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، خاصة على المنتجات الزراعية والجلد والصوف والأقمشة، وتجارة الملابس، وغيرها من البضائع.[٦٧]

كما كانت الحروب والهجمات سببًا مباشرًا في تراجع بعض المدن، وكان للفتن التي اندلعت في أوائل العصر الموحدي، وبالأخص غارات بني غانية،[٦٨] في حرير مدينة قابس المغربية،[٦٩] وفي عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، تعرضت مدينة فاس لغزوات المرينيين، التي كانت سببًا في خراب المدينة وتعطُّل أحوالها في كل الميادين.[٧٠]

(٥) المعاهدات والاتفاقيات والمراسلات التجارية

كان للمعاهدات والمراسلات والسفارات التي عُقدت بين حكام وخلفاء وسلاطين الغرب الإسلامي، وحكام وملوك الممالك والبلدان الأخرى خاصة الغرب المسيحي، دور في نمو حركة التجارة في الغرب الإسلامي التي أُسست على عدة قواعد ومبادئ كان أهمها: ضمان حرية التجارة وأمان التجار في أموالهم وأنفسهم، بالإضافة لحماية السفن من القراصنة والكوارث البحرية، كذلك تعيين القناصل في المدن والموانئ التجارية وإنشاء الفنادق في تلك الموانئ،[٧١] واستفادت بعض الدول في البداية من تلك التعديلات والمزايا التجارية وبالأخص بيزا، في حين ظل التجار الجنويون والبنادقة ممنوعين من ذلك في بعض الموانئ التجارية خاصة في موانئ المغرب.[٧٢]

وشهدت فترة حكم الموحدين (٥٤١هـ/١١٤٦م–٦٦٨هـ/١٢٦٩م) العديد من الرسائل والمعاهدات التي نصَّت بنودها على احترام حرية التجارة واحترام السفر في البر والبحر،

خاصة من قبل القراصنة الذين شكَّلوا عقبة أمام سير العلاقات بين الدول، ودائمًا ما حرص الحكام والخلفاء على ذكر البنود المتعلِّقة بالحماية من القرصنة ومعاقبة مرتكبيها مع توفير الضمانات اللازمة لذلك،[٧٣] فحاولت الخلافة الموحدية حماية سواحلها من غارات القراصنة من خلال عقد المعاهدات والاتفاقيات وكذلك المراسلات التي حملت آيات الشكوى من تكرار تلك الأعمال، التي نتج عنها في بعض الأوقات توتر للعلاقات أثر على حركة التجارة، وتُظهر تلك المراسلات والمعاهدات حجم المعاناة التي تعرَّضت لها الخلافة الموحدية من أعمال القطع والتخريب.[٧٤]

كما قدم بنو مرين (٦٦٨هـ/١٢٦٩م–٨٦٩هـ/١٤٦١م) بعض التنازلات من أجل الصلح مع أراجون مقابل أن تُصان بنود وشروط المعاهدات مع ضمان سلامة الرعايا المرينيين ومصالحهم.[٧٥] وعقدت الدولة الحفصية (٦٢٥هـ/١٢٢٨م–٩٨١هـ/١٥٧٤م) العديد من الاتفاقيات من أجل توفير الأمن في البحر والبر، ومكافحة القرصنة وعدم تشجيعها، ومعاقبة مرتكبيها خاصة من المسيحيين،[٧٦] حفاظًا على العلاقات المعقودة والعلاقات الطيبة بين صِقِلِّيَّة والدولة الحفصية.[٧٧]

ولكن مع بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي تزايدت أعمال القرصنة الأراجونية والحفصية؛ مما ترتب عليه كثرة الرسائل والشكاوى، التي نصت صراحة على عدم تشجيع القرصنة ومعاقبة القراصنة، وهو ما جاء في معاهدة الصلح بين كلٍّ من «أبي عبد الله محمد الثاني» (٦٩٤هـ/١٢٩٤م–٧٠٩هـ/١٣٠٩م) والملك «خايمي الثاني» ملك أراجون في ١٨ ربيع الأول ٧٠١هـ/٢١ نوفمبر ١٣٠١م.[٧٨]

وسعت السلطة الحفصية عن طريق تلك المعاهدات والاتفاقيات إلى المساعدة في الحد والتقليل بقدر المستطاع من غارات القرصنة التي هدَّدت الحياة البحرية والتجارية، ولو كان ذلك بصورة شبه رسمية عن طريق منع القراصنة من الاستيلاء على السفن التي تحميها معاهدات الصلح.[٧٩]

ولعب بنو نصر (٦٢٩هـ/١٢٣٢م–٨٩٧هـ/١٤٩٢م) دورًا يكاد يكون سلبيًّا أو دور الضعيف الذي لا يمتلك إلا الشكوى والعبارات الرنانة، التي استنكر بها رد الفعل الأراجوني بتجاهله لطلبات غرناطة لمنع قراصنة أراجون والحد من نشاطهم على أقل تقدير، وهو ما يتضح من عدد الرسائل التي أرسلتها غرناطة إلى الحكومة الأراجونية ومعاهدات الصلح التي كثرت وتجددت ولكن دون جدوى، خاصة في الفترة من (٦٩٥هـ/١٢٩٦م–٧٧٩هـ/١٣٧٧م).

(٦) الأهمية النسبية للمنسوجات والملابس عند الغرب الإسلامي

اتخذ الإنسان المنسوجات والملابس في المراحل الأولى من حياته وقايةً تدفع عنه الحرَّ والبرد، ومرحلة التزيُّن كانت مرحلةً تالية اعتبرت من أسباب التحضُّر، ودورًا من أدوار الاعتزاز بالمظهر؛ ما أوجب الاهتمام بها وبطريقة صنعها وإجادتها. وتعدُّ الملابس والمنسوجات من الضروريات التي رافقت الإنسان منذ بداياته الأولى؛ إذ بدأ الإنسان يستعين أولًا بالنباتات ليستر عورته، يقول جل جلاله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾،[٨٠] ومع مرور الوقت شعر بالحاجة إلى كساءٍ يقيه برد الشتاء القارس، ويحميه من رطوبة الأمطار كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾،[٨١] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحبرة. والحبرة: ثياب من قطن محبرة أي: مزينة» (متفق عليه)، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص.»[٨٢]

وكغيرهم عمل سكان الغرب الإسلامي على ستر العورة واتخاذ الزينة من المنسوجات والألبسة كما جاء في القرآن الكريم، وسنة خير الخلق محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فجاء قوله جل جلاله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾،[٨٣] كما أن أول من عمل بمهنة الحياكة والخياطة هو سيدنا إدريس عليه السلام؛ الأمر الذي أضفى على هذه المهنة المزيد من التقدير والاحترام، فمارسها العديد من الناس وتفاخروا بها وتوارثوها جيلًا عن جيل، وفي هذا الإطار يقول ابن خلدون:[٨٤] «اعلم أن المعتدلين من البشر في معنى الإنسانية لا بد لهم من الفكر في الدفء كالفكر في الكنِّ، ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد، ولا بد لذلك من إلحام الغزل حتى يصير ثوبًا واحدًا، وهو النسج والحياكة، فإن كانوا بادية اقتصروا عليه، وإن مالوا إلى الحضارة فصَّلوا تلك المنسوجة قطعًا يُقدِّرون منها ثوبًا على البدن بشكله وتعدُّد أعضائه واختلاف نواحيها، ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصائل حتى تصير ثوبًا واحدًا على البدن ويلبسونها، والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة.»

وجاء القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تذكر النسيج والمنسوجات وهو ما يعطي أهمية لها ولصناعتها وبالتالي تجارتها، فمن أمثلة المنسوجات التي شُرفت بذكرها الجلباب بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾،[٨٥] والجلباب كما ذكره ابن منظور:[٨٦] «ثوب أوسع من الخمار دون الرداء، تغطي به المرأة رأسها وصدرها.» وقيل: «هو ثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة.»

وقيل هي «ملاءتها التي تشتمل بها.» وقوله جل جلاله: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾،[٨٧] السندس هو «الرقيق من الديباج ورفيعه».[٨٨] أما الإستبرق فهو «الغليظ من الديباج وما خشن».[٨٩] وقال كذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾،[٩٠] وكما ذكر ابن منظور:[٩١] «النمرقة والنمرق والميثرةُ ما افترشت است الراكب على الرحل كالمرفقة، غير أن مؤخرها أعظم من مقدمها ولها أربعة سيور تُشد بآخرة الرَّحْل ووسطه.» كما وردت الأريكة وهي «الفُرُش المزينة في السرر».[٩٢] وقد ورد ذكر الأرائك في القرآن الكريم في قوله جل جلاله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾،[٩٣] وفي قوله عز وجل: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾،[٩٤] ذُكر الرَّفْرفُ وهو الرقيق من الديباج «ثياب خضر يُتَّخَذ منها للمجالس»[٩٥] وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾،[٩٦] والزَّرابيُّ «كل ما بُسط واتُّكِئَ عليه، وقيل هي الطنافس لها خمل رقيق متعددة الألوان.»[٩٧]

وارتدى سكان الغرب الإسلامي الصوف، فكان أكثر الملابس انتشارًا لبرودة الجو في بعض مناطقه خاصة في الأندلس وخاصة في فصل الشتاء، كما انتشرت المنسوجات الصوفية نظرًا لتوافر المراعي الخصبة به وظروف الجو المناسبة لتربية الأغنام،[٩٨] لما يعطيه الصوف من رمزية دينية وروحية لهؤلاء الزهاد من خشونة الملمس؛ عملًا بقول الرسول ﷺ: «نوِّروا قلوبكم بلباس الصوف؛ فإنه مذلة في الدنيا ونور في الآخرة.»

وحرَّم الإسلام لبس الحرير للرجال، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حُرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم.»[٩٩] وقد أجاز الحنفيون للرجال ارتداء الألبسة التي لُحمتها من الحرير وسداها من نسيجٍ آخر، أما المالكيون فلم يتفقوا بشأن هذا الأمر،[١٠٠] وقد جاءت بعض النوازل لتعرض أمورًا حول لبس الحرير خاصة لبعض الصناع وصنعهم ملابس الحرير للرجال؛ فسألوا عن الحرير وبيعه هل هو أمرٌ مباح أم مُحرَّم، فقد «سئل ابن عتاب عمن صناعته عمل الحرير، وهل هو في سعة من عمل عمائم منه وشبهها مما لا يلبسه إلا الرجال؟ وهل بيعها مباح له؟ فقال: لا بأس ببيعها وعملها، وإن كانت مما «يلبسه» الرجال؛ لأنه قد يشتريها من لا يلبسها ومن يصرفها في غير ملبس.»[١٠١] ومراد التحريم حظر ارتداء الرجال الحرير. وإمكان البيع بأن المشتري لهذا الثوب المصنوع من الحرير أو لعمامة من الحرير قد لا يستعمل ما اشتراه لنفسه وإنما يهديه لمن لا ذنب عليه في لبسه أو في أمرٍ آخر غير اللبس، وقيام هذا الاحتمال كافٍ لرفع التحريم عن ناسج الحرير وبائعه.

واستعمل أهل الغرب الإسلامي البُرنس ثوبًا خارجيًّا، والبرنس كما عرفه ابن سيده[١٠٢] هو: «كل ثوب رأسه منه ملتزق به سواء أكان دُرَّاعة أو ممطرًا أو جبة.» ويرى دوزي:[١٠٣] «أن البُرنس قد يعني في القديم طاقية، إلا أنها تشير في العصور الحديثة إلى معطف ضخم له قلنسوة.» وهو القميص، ويتكون من قطعتَيْن من القماش تُحاكان من الجانبَيْن ومن أعلى، بحيث يُترك جزء يكون فتحة للرأس ويتميز بطوله إلى نصف الساق وبفتحة في الطوق تمتد إلى الصدر،[١٠٤] كذلك الدُّرَّاعة وهي ثياب لا تكون إلا من الصوف خاصة للفقراء، وهي لباس للمرأة والرجل،[١٠٥] والدرع «ثوب تَجوب المرأة وسطه وتجعل له يدين وتخيط فرجيه».[١٠٦] كذلك الملف وهو ثوب ناعم من الصوف، والغفارات، وهي ثوب يغطي الرأس كما كان يُستعمل في تغطية البدن «وهي خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها».[١٠٧] وكذلك الإزار وهو الثوب الذي يحيط بالجسم كما يشير ابن منظور:[١٠٨] «الإزار كل ما واراك وسترك.» وقيل الإزار الملحفة، وهو ما يُلتَحف به ويُستَر به البدن من أسفله، والجُبَّةُ وهي نوع من الثياب يلبسها الرجل والمرأة،[١٠٩] والملحفة ويعرِّفها ابن منظور بقوله: «اللِّحاف والمِلْحَفُ والمِلْحفة: اللِّباس الذي فوق سائر اللباس من دِثار البرد ونحوه، وكل شيء تغطَّيت به فقد الْتَحَفْت به. واللِّحاف: اسم ما يُلْتَحف به.»[١١٠]

أما البُردُ فهو ضرب من الثياب فيه خطوط موشًّى ... «والبُرْدَةُ هي كساءٌ صغير يُلتحف به على شكل مربع أسود تلبسه الأعراب ... وهي الشملة من صوف مخططة.»[١١١] ويصف دوزي[١١٢] البرود قائلًا: البردة هي قطعة طويلة من القماش الصوفي السميك الذي يستعمله الناس لإكساء أجسامهم به خلال النهار، المتَّخَذ كذلك غطاءً أثناء الليل، أما لون هذا القماش فأسمر أو رمادي.

هوامش

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: ج. س كولان وليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ج١، ص٦.

(٢) الإصطخري: المسالك والممالك، ليدن، ١٩٣٧م، ص٣٦–٣٧. ابن حوقل: صورة الأرض، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٦٤.

(٣) الإصطخري: المصدر السابق، ص٣٧. ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦١–٦٣.

(٤) الإصطخري: نفس المصدر والصفحة.

(٥) المراكشي: المصدر السابق، ص٥٣٥.

(٦) الإصطخري: المسالك والممالك، ص٣٦-٣٧.

(٧) عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط من فتح المغرب والأندلس إلى آخر عصر الولاة (١٣٨هـ/٧٥٦م)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ص٣٩.

(٨) عمر فروخ: المرجع السابق، ص٤٠.

(٩) عامر أحمد حسن: دولة بني مرين تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في إسبانيا، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٣م، ص٢٦.

(١٠) الزهري: الجغرافية، ص١٤٠؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص١٣٧؛ الحميري: الروض المعطار، ص٦٠٥.

(١١) عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، ص٤٢.

(١٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٧٤-١٧٥.

(١٣) الزهري: المصدر السابق، ص١٤٠؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ص١٣.

(١٤) ابن سعيد: نفس المصدر، ص١٢٣.

(١٥) الزهري: نفس المصدر، ص١٤٠؛ الحميري: المصدر السابق، ص٦٠٦.

(١٦) عامر أحمد حسن: دولة بني مرين، ص٢٨-٢٩.

(١٧) أبو الفداء: تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه: رينورد، والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م، ص١٦٩.

(١٨) العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبيان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مطبعة الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٢م، ص٩٥؛ البكري: المغرب، ص٨٤-٨٥؛ ابن غالب: المصدر السابق، ص١٢؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٣م، ج١، ص٥٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥: ص٢١٢-٢١٣.

(١٩) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ج١، ص١٢٨-١٢٩؛ موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ١٩٨٣م، ص٥٢-٥٣.

(٢٠) القرطبي: كتاب الأنواء، نشره: ر. دوزي مع ترجمة فرنسية بعنوان «تقويم قرطبة»، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦١، ص٨٩، ٩٧، ١٠٠.

(٢١) فرحة الأنفس، ص١٢.

(٢٢) الجغرافية، ص٨٠.

(٢٣) الزهري: المصدر السابق، ص٨٠-٨١.

(٢٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، مج٢، ص٥٥٩؛ ابن الخطيب: معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، ضمن كتاب رحلة الطيف، تحقيق: أحمد مختار العبادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار السويدي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص٧٣.

(٢٥) المقري: المصدر السابق، ج١، ص١٢٨-١٢٩.

(٢٦) يقول الإدريسي عن تلك الجزر: «وفيه جمل جزائرَ معمورةٍ ومغمورة ومغفولة ومشهورة ... من الجزائر الكبار جزيرة سردانية وجزيرة قرقشقة وجزيرة صقلِّيَّة، وفيها من الجزائر الصغار مثل جزيرة جربة وبانوسة وجزيرة استرنجلوا وجبل البركان وجزيرة ليبر وجزيرة دندمة وجزيرة أم الحمار ... وجزيرة الراهب وجزيرة قوصة ... وجزيرة مالطة.» نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٨٣.

(٢٧) جزر البليار: أطلق عليها اليونانيون اسم Baliares وأطلق عليها الفينيقيون Cloumba، وأطلق عليها العرب اسم جزر الأندلس الشرقية أو الجزائر الشرقية، وهي تضم كلًّا من جزيرة ميورقة، وجزيرة منورقة، وجزيرة يابسة وفومنتيرة وقبريرة، ومَيُورْقَة هي إحدى الجزر القريبة من الأندلس. عصام سالم سيسالم: جزر الأندلس المنسية التاريخ الإسلامي لجزر البليار ٨٩–٦٨٥هـ/٧٠٨–١٢٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٥–٣٣.

(٢٨) عبد العزيز عبد الفتاح عمر حجازي: البحرية القرطاجية دراسة في دورها الحربي ومقوماته وعلاقاته، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢؛ عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، ص١٩.

(٢٩) صِقِلِّيَّة: تقع في البحر المتوسط وهي على مقربة من جزيرة مالطة، ولقد اختلف المؤرخون في سبب تسميتها؛ فيرجعه البعض إلى أنه يعني التين والزيتون، والآخر إلى سيقلو أخي إيطال الذي سُميت باسمه إيطاليا فضلًا عن العديد من الروايات حولها، وفتحها المسلمون في عام ٢١٢هـ/٨٢٧م على يد أسد بن الفرات، وهي جزيرة كبيرة وعامرة

وتضم عددًا من المدن الكبيرة كبلرم. الإدريسي: المصدر السابق، ج٢: ص٥٨٩–٥٩١؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨.

(٣٠) عبد العزيز عبد الفتاح: المرجع السابق، ص٣.

(٣١) أمين الطيبي: دراسات في تاريخ صِقِلِّيَّة الإسلامية، ليبيا، دار اقرأ، ١٩٩٠م، ص١٨٨.

(٣٢) سلفاتورى بونو: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط، ترجمة عمر محمد البارونى. ليبيا، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثامنة، ع٢، يوليو ١٩٨٦، ص٣١١.

(٣٣) موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢١٥.

(٣٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٥٥.

(٣٥) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: علي عبد الواحد، مكتبة الأسرة، سلسلة التراث، ٢٠٠٥م، ص٣٩١.

(٣٦) فرحة الأنفس، ص١٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص١٤٧.

(٣٧) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص١٥٣؛ موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢١١.

(٣٨) ربيع القطان: هو ربيع أبو سليمان بن سلمان بن عطاء الله القرشي النوفلي، من العلماء الأجلَّاء بالقيروان، لُقِّب بالقطان نظرًا لعلمه بحلج القطن. المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزُهَّادهم ونُسَّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ج٢، ص٣٢٤.

(٣٩) المالكي: المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٨.

(٤٠) عبد العزيز عبد الفتاح: البحرية القرطاجية، ص٢-٣.

(٤١) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار المجمع العلمي، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ص٢٠٧؛ فرناند بروديل: البحر المتوسط، ترجمة: عمر بن سالم، منشورات البحر المتوسط، تونس، ١٩٩٠م، ص٤٧.

(٤٢) عبد الحق البادسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق: سعيد أعراب، المطبعة الملكية بالرباط، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ص١٠٣؛ أحمد مصطفى محمد عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ٢٠٠٧م، ص٢١٤.

(٤٣) رحلة ابن جبير المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٢٨٤؛ فراند برادويل: المرجع السابق، ص٤٧.

(٤٤) عبد العزيز عبد الفتاح: البحرية القرطاجية، ص٥.

(٤٥) البرزلي: فتاوى البرزلي، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ج٣، ص٦٥٧.

(٤٦) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٩٨؛ أحمد إبراهيم رفاعي: مشاكل النقل البري والبحري وأثرها على التجارة في المغرب والأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين ٤٤٨هـ/١٠٥٦م–٦٦٨هـ/١٢٦٩م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ٢٠١١م، ص٩٢.

(٤٧) Goitien. S.D: A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza: Economic Foundations. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967, Vol. 1, p. 303.

(٤٨) أمين توفيق الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من خلال رسائل الجنيزة، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة السادسة، العدد ٢٩، ١٩٨٤م، ص٤٥٩.

(٤٩) ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، (د.ت)، ص٢٢٢.

(٥٠) ابن القطان: نظم الجمان، ص٢٦٨.

(٥١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص٢٥٧.

(٥٢) الدرر السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٧٣.

(٥٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤١٤.

(٥٤) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين «تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين»، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت)، ص٣٩٦.

(٥٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٨٣.

(٥٦) ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تعليق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ج٢، ص١٦٤-١٦٥؛ أحمد إبراهيم رفاعي: مشاكل النقل البري والبحري، ص٨٨.

(٥٧) جواتيان: دارسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تحقيق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م، ص٤١٦.

(٥٨) ممدوح حسين وشاكر مصطفى: الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري سنة ٦٦٨-٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٣٩٠م، دار عمار، عمان، ١٩٩٨م، ص٤٨٤. مصطفى محمد عبد الخالق منصور: علاقة القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط بالمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة (٥١٧-٧١٦هـ/١٢٢٣-١٣١٦م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٥٠.

Anna Unali: Marineros: Piratas y Corsarios Catalanes en La Baja Edad .Media, Sevilla, Renacimiento, 2007, p. 17

(٥٩) Angus Konstam: Piracy: The Complete History, Osprey Publishing, 2008, p. 9; Maximiliano A. Alarcón y Santón y Ramón García de Linares: Los Documentos Arabes Diplomáticos del Archivo de La Corona de Aragón, .Madrid, Impr. de E. Maestre, 1940, p. 169

(٦٠) Maria Teresa, Ferrer i Mallol: Corso y Piratería entre Mediterráneo y Atlántico en la Baja Edad Media, En: La Península ibérica entre el Mediterráneo y el Atlántico. Siglos XIII–XV, V Jornadas Hispano-Portuguesas de Historia Medieval (Cádiz 1–4 abril 2003), Sevilla-Cádiz, Diputación de Cádiz. Servicio de Publicaciones-Sociedad Española de Estudios Medievales, 2006, p. 258.

(٦١) De Mas Latrie: Relations et Commerce de L'Afrique Sseptentrionale ou Maghreb avec les Nations Chrétiennes au Mmoyen Age, Paris, .1886, p. 176

(٦٢) .M. A. Santon. et R. G. de Linares: Los Documentos Arabes, p. 259

(٦٣) Dufourcq: Espange Catalane et Le Maghrib aux XIIIè et XIVè siècles, Presse Universitaires De France, 1966, p. 429.

(٦٤) María Teresa: Transportistas y Corsarios vascos en el Mediterráneo Medieval. Las aventuras Orientales de Pedro de Larraondo (1406–1409), Itsas memoria: revista de Estudios Marítimos del País Vasco, N. 2, 1998, p. 514-515.

(٦٥) María Teresa: Transportistas y Corsarios vascos en el Mediterráneo, p. 513.

(٦٦) Edourdo; Course et Piraterie dans Les Relation enter la Castle et le Maroc, Dans un livre "L'Occident Musulman et l'occident chretien au moyen age", Mohammed Hammam, Faculte des lettres et des sciences humaines-Rabat, 1995, p. 67; David Abulafia: A Mediterranean Emporium: The Catalan kingdom of Majorca, Cambridge: Cambridge University Press, 2002, p. 7.

(٦٧) María Teresa: Op.cit., p. 514-515.

(٦٨) بنو غانية: قوم ينتمون إلى قبيلة مسوفة، ولقب غانية هو نسبة إلى أُمِّهم وهي «غانية» إذ كان المشهور إبان تلك الفترة أن يُلقَّب الرجال بأسماء أمهاتهم، وكان المرابطون يَنسِبون أبناءهم إلى أمهاتهم؛ لأن الرجال أكثروا في التزوُّج من النساء؛ فكان ذلك سبيلًا للتمييز، وكان محمد بن علي بن يحيى المسوفي أرسله الخليفة علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأَندلس، فولَّى أخاه يحيى على قُرْطُبَة، ومحمد هو أخوه الأكبر، وبعد موت محمد فرَّ يحيى إلى جزيرة مَيُورْقَة فملكها وملك جزيرتي منورقة ويابسة أيضًا، وبعد وفاة يحيى تولَّى بعده إسحاق بن غانية هذه الجزر واهتم بأمور الغزو البحري. المراكشي: المعجب، ص٣٤٢–٣٤٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ج٦، ص٢٨٧–٣٨٦.

(٦٩) التجاني: رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م، ص٨٧؛ المرزوقي: قابس جنة الدنيا (غابتها – خليجها – مدينتها – سكانها – تاريخها – رجالها)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١١.

(٧٠) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٥٩.

(٧١) عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع والخامس عشر للميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٩٨.

(٧٢) De Mas Latrie: Apercu des Relations Commercial les L'Itaile avce L'Algerie au Moyen Aage. Extrait du tableau de la situation des etablissements Francais en Algerie 1843-1844, Paris, Imprimerie Royal, 1845, p. 12, 13, 17.

وهو ما جاء في المعاهدة التي أُبرمت بين «أبي يوسف يعقوب المنصور» وحكومة بيزا في عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م والتي حددت أربعة موانئ للتجارة هي: تونس وبجاية ووهران وسبتة، أما الموانئ الأخرى فلا يترددون عليها إلا عند الضرورة.

(٧٣) سلفاتوري بونو: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط، ص٣٢٥. محمد المراني علوي: الإطار العام للعلاقات المغربية مع جمهوريات المُدن الإيطالية، ضمن كتاب «البحر في تاريخ المغرب»، منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، الرباط، ١٩٩٩م، ص٢٢١.

(٧٤) Di Michele Amari: I Diplomi Arabi R. Archivio Florention, Frienze, 1863, p. 7.

(٧٥) وهو ما أكَّدته الرسالة التي أرسلها السلطان «أبو سعيد عثمان الثاني» (٧١٠هـ/١٣١٠م–٧٣١هـ/١٣٣٠م) إلى خايمي الثاني، والمؤرخة في ١ صفر ٧٢٣هـ/ ٩ فبراير ١٣٢٣م بقوله: «ونحن نعرفكم أنكم إذ أردتم الصلح ... فنحن نعطيكم الأربعة وعشرين نصرانيًّا الذي طلبتم ... ونعطيكم أيضًا زيادة عليه ثلاثين نصرانيًّا من بلادكم ... وإذا أردتم سلف ذهب نُسلف لكم ما يتيسر لنا بعد أن تعطونا الضمان والرهان في الذهب.»

M. A. Santon. et R. G. de Linares: Los Documentos Arabes, p. 179.

(٧٦) روبار برنشفيك: تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م، ترجمة: حمادة الساحلي، جزآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ج١، ص٩٣.

(٧٧) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٩٩.

(٧٨) M. A. Santon. et R. G. de Linares: Los Documentos Arabes, p. 247.

(٧٩) برنشفيك: أفريقيا في العهد الحفصي، ج٢، ص٩٦.

(٨٠) سورة الأعراف: آية ٢٢.

(٨١) سورة النحل: آية ٨١.

(٨٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٨٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٨٤) المقدمة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م، ص٨٧١.

(٨٥) سورة الأحزاب: آية ٥٩.

(٨٦) لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص٦٤٩.

(٨٧) سورة الدخان: آية ٥٣.

(٨٨) ابن منظور: المصدر السابق، ص٢١١٧.

(٨٩) ابن منظور: نفس المصدر، ص١٩٩٨.

(٩٠) سورة الغاشية: آية ١٥.

(٩١) لسان العرب، ص٤٥٤٧.

(٩٢) ابن منظور: المصدر السابق، ص٦٤.

(٩٣) سورة يس: آية ٥٦.

(٩٤) سورة الرحمن: آية ٧٦.

(٩٥) ابن منظور: نفس المصدر، ص١٦٩٣.

(٩٦) سورة الغاشية: آية ١٦.

(٩٧) ابن منظور: نفس المصدر، ص١٨٢٢.

(٩٨) عامر: دولة بني مرين، ص٢٧.

(٩٩) أخرجه الترمذي والنسائي.

(١٠٠) دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد، طبعة وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧١م، ص٣٠.

(١٠١) أبو الأصبغ: ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق: يحيى مراد، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٢٨٦-٢٨٧.

(١٠٢) المخصص، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٣١٧هـ، ج٤، ص٨١.

(١٠٣) دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٦٦.

(١٠٤) محمد المقر: اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٦م، ص١٠٥.

(١٠٥) محمد المقر: المرجع السابق، ص١١٠.

(١٠٦) ابن منظور: المصدر السابق، ص١٣٦٢.

(١٠٧) ابن منظور: نفس المصدر، ص٣٢٢٥.

(١٠٨) نفس المصدر، ص٧٠.

(١٠٩) دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٢٢٧؛ محمد المقر: اللباس المغربي، ص١٦٠.

(١١٠) لسان العرب، ص٧٠.

(١١١) المصدر السابق، ص٢٥٠.

(١١٢) المرجع السابق، ص٥٥.

الفصل الثاني

المواد الخام النسيجية في الغرب الإسلامي

يُعَدُّ النَّسيج واحدًا من أهم مقومات النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي؛ لما تمتعت به طبيعة المنطقة من خصوبة التربة وتوافر الموارد المائية فضلًا عن تنوُّع المُناخ؛ مما أدى لتوافر مواده الخام وهو ما انعكس على صناعة النَّسيج وبالتالي تجارته، وما لاقاه النسيج من تشجيع سكان الغرب الإسلامي لمزاولة العمل الزراعي وزراعة المحاصيل النَّسيجية كالقُطْن، والكَتَّان، والقُنَّب وغيرها، وزراعة التُّوت ونباتات الصباغة، بالإضافة لانتشار المراعي وأماكن تربية الأغنام في معظم بلدان الغرب الإسلامي، وهو ما ساعد في تطوير وازدهار المواد النَّسيجية خلال فترة الدراسة منذ القرن ٥هـ/١١م، حتى القرن ٩هـ/١٥م.

(١) النباتات النَّسيجية

(١-١) القُطْن

يُسمى القُطْن عند العرب بأسماء عدة منها الكُرْفُس، والبُرْس والعُطْب[١] والخُرْفُع والطُّوط،[٢] وظل لفظ القُطْن Algodon مستخدمًا من سكان إسبانيا لفترات طويلة،[٣] كما يُسمَّى القُطْن حديث الزراعة بالقُور، والقديم والعتيق منه يُسمى القسْم أو القضْم،[٤] وَتُعمَّر غلة القُطْن في بعض الأحيان نحو العشرين سنة؛[٥] لأن الفلاحين في بعض الأماكن كانوا يلجئون لقطع نباتات القُطْن بالمنجل لتكون صالحة للإنبات مرةً أخرى وهو ما يعرف بـ «التشذيب».[٦]

والقُطْن من النباتات ذات الأصل الهِنْدي، تنمو شمال بلاد الهِنْد أو جنوبها،[٧] أُدخل إلى بلاد الغرب الإسلامي على يد الفاتحين العرب في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي،

وانتشرت زراعته بشكل سريع في الجهات التي امتازت بالتربة الطميية وغزارة المياه،[٨] فزُرع في الجوانب المحاذية للمنطقة الاستوائية في بلاد المغرب، ثم نقله المسلمون إلى الأندلس وشبه الجزيرة الأيبيرية.[٩]

ومن اللافت للنظر أن بعض الإشارات المصدرية تُرجع بداية زراعة القُطْن وبخاصة في الأندلس إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهو ما ذكره بعض مؤلفي هذا القرن — وليس قبل ذلك التاريخ — لأن عريب بن سعد (المتوفى في القرن الخامس الهجري) صاحب كتاب «تقويم قُرْطُبَة» لم يذكر في مؤلفه أي إشارات عن القُطْن، وقد كَتَبَ مؤلفه في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ما يفسر أن البداية الحقيقية للقطن في الأندلس كانت منذ القرن ٥هـ/١١م.

والقُطْن نبات ضعيف يتميز بدقة عيدانه، واستدارة ثمرته، وينشقُّ عنها ألياف القُطْن؛ فلهذا أطلق عليها البعض «صوف الشجرة»[١٠] ويزرع بعلًا وسقيًا، والأرض الملائمة لزراعته هي الأرض الحرشا، ويقول ابن بصال ت٤٩٩هـ/١١٠٥م[١١] في ذلك: «ويوافق من الأرض بالأندلس الحرشا المحسومة، لأنه في هذه الأرض يسرع بنفعه، ولا يتأخر عن وقته، ويكثر حمله، وأما أهل صِقِلِّيَّة فينتخبون له الأرض الكريمة، وقد يفعل هذا أهل السواحل بالأندلس وذلك موافق له فيها.» ويُزرع في شهر شباط/فبراير أو في آذار/مارس،[١٢] وقد تتأخر زراعته إلى منتصف شهر أيار/مايو.[١٣]

ويحتاج القُطْن للحرث والتسميد الكثير قبل الزراعة ونثر البذور، وبعدهما تبدأ عملية الزراعة،[١٤] ففي شهر آب/أغسطس تبرز براعم القُطْن، ويشرع الفلاحون في جمعه في أيلول/سبتمبر، وتبدأ عملية الحصاد في الصباح الباكر، ويُحصد جيدًا ثم يُجمع باليد بكل رفق ولين، ثم يُجفف في الشمس ولا يُترك مدة طويلة معرضًا لأشعتها حتى يحتفظ ببعض رطوبته وليونته ببقائه في الظل،[١٥] لأنه متى جُمع في الحر كُسر جَوْزُه واختلط بالقُطْن ولا يمكن التخلص منه،[١٦] ويكون جمعه بعد النضج وبروز أليافه،[١٧] وإذا خُزِّنَ القُطْن دون أن يُنشر في الشمس فإنه يفسد، وقد تكون الرطوبة نفسها هي سبب فساده.[١٨]

وزُرع القُطْن في بلدان الغرب الإسلامي وازدهر وكثر مع تطور الأساليب الفلاحية لزراعته، فانتشر ببلدان المغرب وبخاصة المناطق المنخفضة منها،[١٩] وكذلك الأطراف الشمالية للصحراء والسهول الساحلية وأيضًا السهول العليا بالمغرب الأقصى؛ حيث مثلت تلك المناطق مكانًا خصبًا لزراعته.[٢٠]

وانتشرت زراعة القُطْن في بعض مدن وقرى المغرب الأدنى والأوسط كقَرْطاجَنة فمن «غلاتها القُطْن والقُنَّب»[٢١] وكذلك قَفْصَة،[٢٢] هذا بخلاف مدينة تُونس الكثيرة القُطْن

«فيظهر الانتفاع به.»[٢٣] كما زُرع في شرق بِجَاية،[٢٤] بالإضافة لمناطق الزاب وبخاصة في مدينة المَسِيلَة فكانت كثيرة القُطْن،[٢٥] وطُبْنَة التي عُرفت بزراعة القطن واشتهرت به.[٢٦]

ومن مدن وقرى المغرب الأقصى التي اشتهرت بزراعة القُطْن: فَاس؛ فزُرع في مناطق السهول والهضاب التي تقع غربها والتي تميزت بخصوبة تربتها وتوافر مواردها المائية؛ ما شكَّل حزامًا حولها من المساحات المزروعة بالقطن،[٢٧] وعُرفت مدينة سِجِلْماسَة بزراعة القُطْن على مساحاتٍ كبيرة من أراضيها؛ فذاع صيتها بجودة إنتاجها ومن ثم تصديره إلى سائر بلاد المغرب،[٢٨] ومدينة البَصْرة[٢٩] التي امتدحها الجغرافيون لكثرة زراعة القُطْن بها فحُمل للكثير من البلاد.[٣٠]

وزُرع القُطْن بكثرة في مدينتي «داي» و«تادلة»، حيث ذكر الإدريسي[٣١] أن «بأراضيها كثيرًا من القُطْن ولكنه بمدينة تادلة يُزرع أكثر مما يُزرع بمدينة داي، ومن مدينة تادلة يخرج القُطْن كثيرًا ويسافر إلى كل الجهات.» لدرجة أن أهالي داي لا يحتاجون لأي قطنٍ آخر بخلاف الذي تنتجه أراضيهم لكثرته وجودته.[٣٢]

بالإضافة لزراعته في قرية أم ربيع التي تقع في جنوب وادي أم الربيع في جنوب غرب بلاد المغرب، فوُجدتْ بها الكثير من مزارع القُطْن بفضل الماء والتربة الخصبة التي وفَّرتها تلك المنطقة والملائمة لزراعة القُطْن،[٣٣] فضلًا عن زراعته في بعض مناطق وقرى المغرب الأقصى، مثل كرَّت، وماستية، ودُوفَانة، وزُرع أيضًا في مستغانم فاشتهرت بالقُطْن فكثر بها،[٣٤] وزُرع أيضًا بأحواز سَلا بكمياتٍ كبيرة.[٣٥]

وهو ما أكده ابن الخطيب[٣٦] بأنها: «معدن القُطْن والكَتَّان.» تلك كانت المناطق التي عُرفت واشتهرت بزراعة القُطْن في مدن وقرى المغرب خلال فترة الدراسة وما قبلها.

وأما المناطق التي انتشرت بها زراعة القُطْن في الأندلس فهي عديدة؛ نظرًا لجودة أراضيها ومحصولها،[٣٧] فمنها مدينة رُنده التي وصفها ابن سعيد[٣٨] نظرًا لكثرة قطنها قائلًا: «فيها مزارع القُطْن كثيرة.» كما كثرت زراعة القُطْن في منطقة وادي آش بالأندلس،[٣٩] وفي حصن بكيران الذي يقع إلى الغرب من مدينة شاطبة بالقسم الجنوبي من الأندلس.[٤٠]

وكثرت زراعته في إِشْبِيلِية فاتسعت حقوله بها لفتراتٍ طويلة[٤١] وبخاصة في جبل الشرف لطبيعة تربته التي جعلت قطنه يتميز بالكثرة والجودة، حتى إنه يفيض عن حاجتها فيُصدَّر إلى باقي البلدان،[٤٢] وهو ما يؤكده العذري[٤٣] عند ذكره مدينة إِشْبِيلِية قائلًا: «ومن فضائل تربة إِشْبِيلِية التي انفردت بها، وخاصتها التي لا تُشارَك فيها ما

تُنبته أرضها من القُطْن الذي يحسن ويزكو في بقعتها.» وأيد ابن غالب[٤٤] ذلك عند حديثه عن إِشْبِيلِية بقوله: «من فضائلها (إشبيلية) التي انفردت بها ما تُنبِت أرضها من عجيب قطنها الذي يحسن فيها ويزكو بها.» وهذا ما أشار إليه ياقوت الحموي[٤٥] بأنها «مما فاقت به على غيرها من نواحي الأندلس زراعة القُطْن.» كما أُشير أيضًا إلى أن القُطْن «يجود بإِشْبِيلِية فيعم بلاد الأندلس.»[٤٦]

هذا بالإضافة إلى أن بعض مدن الأندلس قد تأثرت بشكلٍ كبير بزراعة القُطْن حتى أُطلق على إحدى القرى Algodonales وهي من قرى مدينة قادِس، وقد بقي هذا الاسم حتى في إسبانيا المسيحية.[٤٧]

وخلال الفترات التي خضعت فيها صِقِلِّيَّة للحكم الإسلامي انتشرت وتطوَّرت زراعة القُطْن بأراضيها، والمسلمون هم الذين أدخلوا تلك الزراعة إلى أراضي صِقِلِّيَّة،[٤٨] فزُرع في كل من جزائر البقدونية، وبرطنيق، وقوصرة،[٤٩] وفي قرية ميلاص،[٥٠] ولكن مع زوال الحكم الإسلامي من صِقِلِّيَّة ومع بدايات القرن السابع الهجري/الرابع عشر الميلادي، بشكلٍ مُحدَّد تقلَّصت زراعة القُطْن بعد خلوِّها من سكانها المسلمين؛ وهو ما يُوضِّح ويُبرِز كيف أسهم المسلمون في إدخال زراعة القُطْن إليها ونشرها، فتبوَّأت مركز الصدارة في إنتاج وتصنيع وتجارة القُطْن في مناطق البحر المتوسط بحوضَيه الغربي والشرقي ولفتراتٍ طويلة.

أما عن جزر البليار وبخاصة الجزيرة الكبرى وهي جزيرة مَيُورْقَة فخلال فترة الحكم الإسلامي توسَّعت وانتشرت زراعة القُطْن بأراضيها؛ نظرًا لاهتمام الحكام المسلمين بتلك الزراعة.[٥١]

(١-٢) الكَتَّان

يُعد الكَتَّان من النباتات النَّسيجية التي انتشرت في العديد من بلدان الغرب الإسلامي، فهو نبات ليفي نَسِيجي يبلغ طول نبتته نحو ذراع، دقيق الأوراق والساق، أزرق الزهر له بذور حمراء اللون،[٥٢] عُرف في بعض المناطق عند العرب باسم الزير،[٥٣] ويُزرَع الكَتَّان في شهر تشرين الثاني/أكتوبر ويُحصَد في شهر أيار/مايو ويفضل التبكير في زراعته،[٥٤] والأرض الملائمة له هي الأرض الرملية الرطبة — الأراضي الغرينية السقوية — الغالب عليها الحرارة مع الملوحة حتى يرق الكَتَّان ويغلظ ساقه ويكثر بذره،[٥٥] كما هو الحال في بعض

المناطق في بلاد المغرب، وبخلاف المناطق الحارة فقد زُرع الكَتَّان في المناطق ذات المناخ المعتدل كما بالأندلس، وخاصة في المناطق الجنوبية منها، بالقرب من شَاطبة وطَرْكونة وعلى السواحل الجنوبية للبحر المتوسط،[٥٦] وهو ما يوضح أن الكَتَّان من النباتات التي تتأقلم بصورةٍ جيدة مع المناخ السائد، فزُرع في المناطق الحارة وشبه الحارة في المغرب، وفي المناطق المعتدلة في الأندلس وصقلية.

وانتشرت زراعة الكَتَّان في بلدان الغرب الإسلامي خلال فتراتٍ طويلة، نتيجة اهتمام الخلفاء والسلاطين المسلمين بالزراعة والزراعات النَّسيجية ومنها الكَتَّان باعتباره مصدرًا للكساء، فزُرع في مناطقَ مختلفةٍ من بلدان الغرب الإسلامي؛ وبالأخص في بلاد المغرب،[٥٧] وعلى سبيل المثال؛ فقد انتشرت زراعة الكَتَّان في مدن وقرى المغرب الأدنى؛ كما في بُونة،[٥٨] وفي قَرْطاجَنة،[٥٩] وأيضًا في قَسْطِيلِيَة في الجنوب،[٦٠] وزُرع في سبيبة،[٦١] وفي تَوْزَر،[٦٢] وفي أراضي رادس[٦٣] فكان أهلها لا يجنون أي محصول آخر غيره.[٦٤]

كذلك عُرفت بعض مدن وقرى المغرب الأوسط بزراعة الكَتَّان كمنطقة الأطلس الأوسط الشمالي التي انتشرت بها زراعته،[٦٥] وكذلك في نيجساس التي استغلت وجود العديد من الجداول المائية في زراعة الكَتَّان بأرضيها،[٦٦] وأيضًا في جبال بِجَاية،[٦٧] وكذلك في جيجل وفي جبل جيانة،[٦٨] وفي المَسِيلَة حيث ذكر الإدريسي[٦٩] أن «أهلها يزرعون الكَتَّان وهو عندهم كثير.» وفي كل من فزرونة ومتجية.

وعن زراعة الكَتَّان في مدن وقرى المغرب الأقصى، فقد اشتهر به عدد منها وبخاصة في المناطق المحيطة بمدينة فَاس،[٧٠] وفي البَصْرة انتشرت زراعته حتى عُرفت بـ «بصرة الكَتَّان»[٧١] وهو ما أكده صاحب كتاب الاستبصار[٧٢] بقوله: «وتعرف أيضًا ببصرة الكَتَّان؛ لأن أهلها يتبايعون بالكَتَّان.» وزُرع في أراضي مدينة مغيلة،[٧٣] وفي مغرة،[٧٤] ودرعة كذلك،[٧٥] وفي منطقة الحُمر يجني سكانها الكثير من الكَتَّان،[٧٦] كما وجدت في وادي أم الربيع مزارع الكَتَّان،[٧٧] وزُرع أيضًا بكمياتٍ كبيرة في المناطق المحيطة بمكناسة،[٧٨] وفي المناطق المحيطة بسلا،[٧٩] وفي مدينة ازاجن أو اسجن بفضل العيون المائية الموجودة داخلها.[٨٠]

ومن الملاحَظ أن الإدريسي لم يذكر زراعة الكَتَّان — عند حديثه السابق عن مدينة تَوْزَر ومغيلة خلال القرن ٦هـ/١٢م — ما يوضح أن زراعة الكتَّان لم تكن معروفة في هاتين المدينتين خلال تلك الفترة، في حين ذكرهما ابن الوازن عند الحديث عن الكتَّان، وذلك من خلال مقارنة ومطابقة نص الإدريسي الذي يرجع الى القرن ٦هـ/١٢م وما ذكره ابن الوزان القرن ١٠هـ/١٦م.

وبالنسبة للأَنْدلس فالمناطق التي زُرع فيها الكتَّان عديدة ومميزة بإنتاجها، خاصة في جبل شلير والقرى المتصلة به، ووُصف بأنه أفضل من كتَّان الفيوم؛ المدينة المصرية المشهورة بجودة كَتَّانها على مستوى البلدان.[٨١]

وامتازت البَيْرَة والمناطق التي تحيط بها بكثرة الأماكن المزروعة بالكتَّان،[٨٢] ويرى الحميري[٨٣] أن كَتَّان البَيْرَة «يربو جيده على كَتَّان النيل»، وهو ما أَطلق عليه العامة «القُطْن اللبيري» واعتُبر من أجود أصناف الكَتَّان،[٨٤] وتركزت زراعته في مدينة أَنْدَرش فإليها نُسب «الكَتَّان الفائق» كما وصفها الحموي،[٨٥] بالإضافة إلى مدينة قونجة وهي من أعمال البَيْرَة فكَتَّانها أفضل من كتان غيرها وقد عُرف بالقونجي.[٨٦] وزرع في بَجَّانَة فعَرفت أراضيها الكَتَّان بكمياتٍ كبيرة،[٨٧] وكذا المَرِيَّة التي وُصفت بأنها بلد الكَتَّان،[٨٨] وإِشْبِيلِية التي خَصصت له الحقول الشاسعة لزراعته، وقُرْطُبَة،[٨٩] وشبرب حيث يجود فيهما.[٩٠]

وفي بُرْجة أيضًا كثر الكَتَّان،[٩١] فضلًا عن زراعته في مدينة لاردة بكثرة؛ فتميز كَتَّانها بطيبه، فمنه ما يتجهز به إلى جميع نواحي المنطقة،[٩٢] بالإضافة إلى الكَتَّان الأروني المنسوب إلى أرون وهي ناحية من أعمال بَاجَة بقرب الأندلس،[٩٣] ولما كانت التربة الرملية موجودة بمَالَقَة فقد زُرع الكَتَّان بها ومعها؛ ففاق كَتَّان البلاد المصرية،[٩٤] وزُرع في المناطق ذات التربة الرملية المناسبة لزراعته كما في قَادس.[٩٥]

هذا وقد اشتُهرت صِقِلِّيَّة بزراعة وتصدير الكَتَّان الجيد والرقيق منه،[٩٦] حيث زُرع في قرية ميلاحي وهي إحدى الحصون الكبيرة بها، فكان يتجهز منه بالكَتَّان الكثير،[٩٧] وفي قرية منجية وهي إحدى المعاقل بين الجبال في صِقِلِّيَّة زُرع الكَتَّان بكثرة،[٩٨] بالإضافة إلى الجزائر الصقلية،[٩٩] كما تناثرت زراعة الكَتَّان في مناطق قليلة بمَيُورْقَة.[١٠٠]

(٢) الألياف النباتية الثانوية

(٢-١) القُنَّب

القُنَّب نباتٌ ليفي من فصيلة الكَتَّان،[١٠١] من أصلٍ فارسي عُرف باسم البذور الملكية (شاه دنج) في بلاد فارس،[١٠٢] وقد أدخله الفينيقيون إلى بلاد المغرب.[١٠٣]

والقنب أنواع منه البري والهِنْدي،[١٠٤] له أوراق تشبه ورق الشجر، وسيقانه طويلة وفارغة وبذوره مستديرة،[١٠٥] يُفضَّل في زراعته التأخير، ويُزرَع في الأرض النجيبة، خاصة

السوداء والرملية الكثيرة السماد، وفي الجو الحار الذي يتخلَّله الرطوبة في الفترة من فبراير (شباط) إلى مارس (آذار)، أو في منتصف نيسان وهي الفترة التي يجود فيها القُنَّب ويحسن،[١٠٦] وعلى الرغم من ذلك فزراعته لا تتطلَّب العناية مثل زراعة الكَتَّان، ولكنه يحتاج نفس كميات المياه تبعًا للمنطقة المزروع بها، حيث تختلف من الأماكن الحارة إلى الأماكن المعتدلة، وتُشبه عملية ريه ري محصول الأرز في إبقاء الأرض مغمورة بالمياه مدةً طويلة،[١٠٧] ويُزرَع بطريقتين؛ الأولى: بكثافة للحصول على الألياف، والثانية: يُزرع متباعدًا للحصول على البذور.[١٠٨]

وتمرُّ زراعة القُنَّب بعدة مراحل؛ تبدأ بحرث الأرض بطريقةٍ جيدة، ثم عملية البذر التي تتم نثرًا، ولتعميم غرس القُنَّب تُنثر البذور من الشمال إلى الجنوب ثم من الشرق إلى الغرب، ثم تُغطَّى بقليل من الطين، وبعد عملية النثر تكون عملية الخفِّ والحصاد، ثم عملية التعطين ومنها يُحصل على ألياف القُنَّب،[١٠٩] وبعدها تُدَقُّ سيقانه حتى تتنثر وتُفكَّك ويُسمى نَسِيجه قُنَّب.[١١٠]

والإشارات قليلة عن زراعته أو أماكنها في بلدان الغرب الإسلامي، فقد زُرع في أراضي المغرب الأدنى في قَرْطاجَنَّة حيث ذكر الإدريسي:[١١١] «من غلاتها القُطْن والقُنَّب والكروياء والعُصْفُر.» وكانت زراعته موجودة في بعض مدن وقرى المغرب الأوسط بشكلٍ مُنتظِم في نواحي بِجَاية مع الكَتَّان، خاصة إبان القرن ٧هـ/١٣هـ،[١١٢] وفي ضواحي عنابة التي اشتهرت بزراعة الكَتَّان وتجارة ثياب الكَتَّان كان أكثر أموالها من الكَتَّان،[١١٣] وفي جِيجَل التي لم تكن أراضيها صالحة إلا لزراعة الشعير والكَتَّان والقُنَّب الذي ينمو بكميةٍ كبيرة،[١١٤] وزُرع أيضًا في عدد من مناطق المغرب الأقصى في سهل مغيلة،[١١٥] ووجد في منطقة جبل شفشاون،[١١٦] وزُرع بكثرة في أسجن أو أزاجن لوجود الأراضي المناسبة والمياه الدائمة لزراعة القُنَّب.[١١٧]

ووجد القُنَّب في بعض مدن وقرى الأندلس وبخاصة في مدينة شاطبة بالقرب من نهر شنيل قرب إِسْتِجه الذي استخدم لسقي البساتين وحقول القُطْن والقُنَّب،[١١٨] وزرع في مَالَقَة،[١١٩] وزُرع في صِقِلِّيَّة منذ فتراتٍ طويلة، واستمرت حتى انتهاء الحكم الإسلامي، وزُرع في قرية ميلاص،[١٢٠] وهنا تجدر الإشارة إلى أنه ظل اسم القُنَّب Alconba يُطلق على قرية في الأندلس.[١٢١]

(٢-٢) الحلفاء

تَنبُتُ الحلفاء بالقرب من البرك ومصادر المياه، فهي نبات له أطرافٌ تشبه سعف النخل والخوص،[١٢٢] وهو ناعم ليِّن وصلب صلد معًا.[١٢٣]

تُستخدم الحلفاء بعد النضج في صناعة الحبال ومفردها «حلفة»، والحلفاء قبل أن تنضج يُطلق عليها «النلق»[١٢٤] ومن أشهر الأماكن المعروفة بزراعة الحفاء في الغرب الإسلامي قَرْطاجَنَّة فسميت بـ «قَرْطاجَنَّة الحلفاء»[١٢٥] واشتهرت مدينة لَقَنْت في الأندلس بنمو نبات الحلفاء؛ فكان يتجهَّز بها إلى معظم البلاد كما ذكر الحميري:[١٢٦] «ويُتجهَز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر.» كما انتشرت في نواحي تُدْمِير، فضلًا عن وجودها في قرى إِشْبِيلِية فزُرعت في مجموعة الجزر الموجودة على ضفة نهرها.[١٢٧]

(٢-٣) النخيل

تنجح زراعة النخيل في الأراضي الرملية والسهول في البلاد الحارة، وأحسن الأراضي الملائمة له هي الأرض السبخة المالحة،[١٢٨] وإذا لم تكن الأرض مالحة؛ فيُلقى فيها ملح، ويُفعَّل ذلك كل سنة فيجود النخل فيها،[١٢٩] ويُزرع النخل في شهر يناير (كانون الثاني)،[١٣٠] ويُزرع على شكلَين؛ إما على نواة أو فسيلة،[١٣١] وينبغي أن تُلقَّح النخلة في كل عام، وإذا لم تُلقَّح تحمل تمرًا رديئًا أو لا تحمل شيئًا،[١٣٢] ويُعَمَّر النخل مدة خمسمائة عام،[١٣٣] واتُّخذ من خوص النخيل الحصر والمكاتل والأواني والمراوح ومن ليفها الحبال، فضلًا عن جمال المنظر.[١٣٤]

فوُجد النخيل في العديد من مدن وقرى المغرب الأدنى خاصة قَابِس حيث ذكر المقدسي[١٣٥] أنها «كثيرة النخل والأعناب والتفاح»، فكانت مليئة بأشجار النخيل وبها العديد من أنواع التمور،[١٣٦] وقَسْطِيلِية التي تتميز بكثرة التمور فيها ورخص ثمنها حتى إن بها نهرًا عظيمًا لا يكاد يُرى منه شيء بسبب أشجار النخيل التي غاب فيها،[١٣٧] وفي بلاد الجريد؛ ولذلك سُميت بهذا الاسم نظرًا لكثرة النخيل بأراضيها.[١٣٨]

أما عن بلدان المغرب الأقصى فاشتهرت المناطق الواقعة في الجنوب في الصحراء، وبخاصة في أَوْدَغَسْت، بأن «النخل ببلادهم كثير جدًّا.»[١٣٩] لذلك عُدَّ تمر النخل من أهم المزروعات التي حرص أهل أَوْدغَسْت على زراعتها؛ وذلك لتوافر الظروف المناسبة لزراعته،[١٤٠] وفي سِجِلْماسَة حيث «كانت كثيرة النخل والأعناب»[١٤١] وبها أكثر من ستة عشر نوعًا من التمور.[١٤٢]

أما عن الأندلس فقد تناثرت بها فصائل النخيل بسبب طبيعة مناخها، ففي مدينة البحيرة وجدت أشجار النخيل،[١٤٣] وفي مدينة آلش، ولا يفلح في غيرها من بلاد الأندلس لأن أرضها سبخة،[١٤٤] وفي قُرْطُبَة،[١٤٥] وفي لبلة التي عُرفت بغزارة ما فيها من تمور،[١٤٦] وفي مَالَقَة كثرت أشجار النخيل، خاصة في جهة الساحل.[١٤٧]

(٢-٤) القسطل

شجرة تَنبت في بعض بلدان الغرب الإسلامي، في جوفها ألياف تُستخدم في عمل الثياب، وقد وُجدت هذه الأشجار بصفةٍ خاصة في الأندلس حيث ذكر المقري[١٤٨] عنها: «ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل، وهما عظيمتان جدًّا إحداهما بسند وادي آش، والأخرى ببشرة غَرْنَاطَة، في جوف كل واحدة منها حائك ينسج الثياب، وهذا أمر مشهور.»

وبساحل شَذُونَة نبت المقل الذي يعظم جماره حتى يكون قلبه مثل قلب النخل، وكانت تُصنع منه الغرابيل.[١٤٩]

(٢-٥) التوريري

نبات ينمو ببلاد السودان وبخاصة في الرمال، عُرف بـ «التوريري»، وهو نبات طويل الساق ودقيق، ثماره كبيرة وعند النضج تنتفخ ويُؤخَذ منها ألياف تشبه «الصوف الأبيض» كانت تُستخدم في صنع الثياب والأكسية الخاصة التي لا تتأثر بالنار.[١٥٠]

(٢-٦) التوت

من النباتات التي نقلها العرب إلى الغرب الإسلامي،[١٥١] وموطنه الأصلي بلاد الصِّين والهِنْد، ويُزرَع فيها بعلًا وسقيًا،[١٥٢] وهو على أنواعٍ مختلفة، يُفضل بعضها عن بعض في الطعم واللون، فمنه الحلو ومنه الحامض؛ فالحلو يُقال له الفِرْصاد وعند بعض العرب التوث، وهو لفظ فارسي، والعربي منه توت،[١٥٣] والحامض منه يُقال له الشامي، أما في اللون فمنه أبيض متوسط في الكبر والصغر وهو أحلاها، ومنه أزرق وأحمر وأسود وأصفر وأغبر، ويُزرع التوت في شهر فبراير (شباط) إلى آخر مارس (آذار)، وزراعته تكون على

شكل شتلات وقضبان،[١٥٤] ويُزرع حبًّا، وأجوده زرعًا ما زرقته الطيور على شطوط الأنهار والسواقي ويتحمَّل كثرة الماء.[١٥٥]

وللتوت أهميةٌ اقتصادية، فورقة هي الغذاء الرئيس لدودة القز، التي تُعد مصدرًا مهمًّا لصناعة الحرير، حيث يُستخرج من شرانقها الحرير الخام الذي يُستخدم في صناعة المنسوجات الحريرية،[١٥٦] ونظرًا لأهميته نشأت بعض الخلافات حول زراعة أشجاره، كما أوردتها النوازل الفقهية، فمنها النازلة التي كان فحواها أن لأحدهم شجر توت بملك رجلٍ آخر، فصادف أنه يوجد في تلك الأرض إحدى الأشجار التي تضر بالتوت وتُعدِم منفعته وهي «الدردار»؛ وعليه فقد طالب صاحب التوت بإزالة شجرة «الدرار» حرصًا منه على سلامة الشجرة،[١٥٧] أو أن تحدث الخلافات حول بيع ورق التوت قبل أن ينضج ويورق،[١٥٨] وغيرها من النوازل التي توضح مدى اهتمام مزارعي وصانعي الغرب الإسلامي بزراعة أشجار التوت ومن ثم تربية دودة القز (دودة الحرير).

كل ذلك ألزم المتشاركين في ورق التوت لإبرام عقود شراكة لمنع الخلافات فيما بينهم؛ لهذا قال البرزلي[١٥٩] إن «ورق التوت سلعة تُضمن بالعقد.» فأُبْرمت العقود لهذا الغرض؛ فحُدِّدَت بها أسماء المتشاركين، وكذلك الجهة والحدود بالإضافة لكمية الورق. ويبين بها أيضًا الأضرار التي تلحق به من حشرات أو غيرها مما من شأنه أن يؤثر على أوراق التوت، فيذكر ابن العطار[١٦٠] بعض الأمور التي تضرُّ بورق التوت: «في ورقه تعفن من توالي الغيوث، أو من دود وقع فيه، أو صفرة غلَّته من وهج الشمس أو ما شابه ذلك من جوائحه وقدروا ما أفسد منه بهذه الجائحة»؛ فاستلزم الأمر أن يقوم صاحب ورق التوت باستئجار عامل لرعاية شجر التوت، أو يشاركه في الحرير الناتج منها.[١٦١]

غير أن ما أوردته المصادر حول زراعة التوت بأرض المغرب كان قليلًا وغير كافٍ لإبراز مكانة بلاد المغرب الإسلامي في صناعة الحرير، ولكن من المؤكد أن أبرز الأماكن التي زُرعت بها أشجار التوت كانت قَابِس، التي احتضنت غابتها الكثير من أشجار التوت، وهو ما انعكس على جودة الحرير بأراضيها، الذي كان من أفضل منتجاتها وذاعت شهرته في العالم الإسلامي ولهج بذكره الكثير،[١٦٢] فيذكر البكري[١٦٣] عن جودة أشجار التوت بأنه «يقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها.» وعن قَابِس ذكر صاحب الاستبصار أن بها «شجر التوت كثير ويُربى بها الحرير، وحَرِيرها أطيب الحرير وأرقُّه، وليس يعمل بإِفْرِيقِيَّة حَرِير إلا بها.»[١٦٤]

وكان للفتن التي اندلعت في أوائل العصر الموحدي دور في خراب وقطع أشجار غابة قَابِس التي قضت على أشجار التوت وإنتاج الحرير خلال القرن السادس والسابع الهجريَّين، وهو ما يؤيد عدم تعرض التجاني بالذكر لحرير غابة قَابِس عند حديثه عنها،[١٦٥] وهو ما أكده أيضًا ابن عبد الظاهر[١٦٦] في القرن التاسع الهجري بحديثه عن مدينة قَابِس بقوله: «دخلت إلى مدينة قَابِس بالقرب من القيروان؛ فرأيت مدينةً عجيبة غير أنها خربة جدًّا وليس بها إلا القليل من الناس والعمارة.»

ووُجد التوت في بعض قرى ومدن المغرب الأوسط والأقصى، حيث زُرعت أشجار التوت في غابة مدينة القل التي حوت على أشجار التوت، فكان سكانها يكسبون ثرواتٍ كبيرة من تربية دودة القز.[١٦٧]

كما زُرع التوت بالريف المحيط بفَاس فرُبِّي به دود القز،[١٦٨] وفي شرسال التي انتقلت إليها تربية دودة القز عن طريق المدجنين ومسلمي الأندلس، فغرسوا العديد من أشجار التوت وصار الحرير من أهم موارد المدينة،[١٦٩] كما ساهم المدجنون في زراعة أشجار التوت الأبيض بصفةٍ خاصة في قرية خميس مطغرة أو خميس متغارة.[١٧٠]

أما زراعته في الأندلس؛ فقد زُرع على نطاقٍ واسع؛ لجودة أرضها وصلاحيتها لنمو أشجار التوت، بجانب وفرة الأمطار واعتدال المناخ وملاءمة درجة الحرارة، بالإضافة إلى نسبة الرطوبة التي تطلبتها زراعة التوت،[١٧١] فزُرع في جبل شلير،[١٧٢] وفي أراضي مُرْسِيَة حيث زُرعت به أكثر بساتينها، الأمر الذي جعلها مختصة بزراعته؛ ومن ثم كثر الحرير بها دون سائر البلاد، على الرغم من أن غَرْنَاطَة كانت تُسمى بلاد الحرير إلا أنه يُجلب إليها من مُرْسِيَة، فضلًا عما يُزرع بها، كذلك انتشرت زراعة التوت في مَالَقَة وبخاصة في القرى التابعة لها كنارجة وبلش.[١٧٣]

واشتهرت ألَمَرِيَّة بالتوت؛ فتفوقت على غيرها في صناعة الحرير، فوُجدت بها أشجار التوت بكثرة، واشْتُغلت في تربية دودة القز وإنتاج الحرير بأنواعه المختلفة،[١٧٤] كما زُرعت أشجار التوت في مدينة جَيَّان،[١٧٥] وفي مدينة بيغوا، وأشار المقدسي[١٧٦] إلى ذلك قائلًا: «وهي جبلية ... كثيرة التوت.» وفي أشكوني حيث يوجد بها التوت من غير زراعة.[١٧٧]

وفي مدينة بَسْطَة كان بها من التوت ما لا يُحصَى،[١٧٨] ووادي آش الذي اشْتُهر بالحرير،[١٧٩] وكذلك في فنيانة التي وُصف أهلها بأنهم «أهل غلة وحَرِير» حيث يُزرع بها التوت ويُنتج بها الحرير، كما وجد بها طرز للديباج،[١٨٠] والبَيْرَة كثيرة أشجار التوت فعُرفت بصناعة الحرير،[١٨١] وبَرْجَة التي كانت أكثر «غلتهم الحرير»[١٨٢] وفي قرية دلاية

التي اشتهرت بحَرِيرِها الغالي الثمن،[١٨٣] وأندرش التي وُصف حَرِيرها بالذهب،[١٨٤] كما زُرعت أيضًا أشجار التوت الأبيض في نواحي غَرْنَاطَة،[١٨٥] وهذا النوع من التوت بري؛ إذ ينبت بطبعه دون غراسة، بالإضافة لانتشارها في وادي الثمرات بأرض لورقة «من غير غرس أصلًا».[١٨٦]

أما أراضي صِقِلِّيَّة فكانت زراعة التوت بها قليلة وفي مناطق محددة، خاصة في مدينة شنت ماركو، التي كانت كثيرة الحرير نتيجة وجود أشجار التوت التي زُرعت بأراضيها.[١٨٧]

(٣) الألياف الحيوانية الأولية

(٣-١) الصوف

الصوف نَسِيجٌ مُكوَّن من شعيرات تُغطِّي أجسام بعض الحيوانات من الفصيلة الثديية التي أهمها الأغنام، ويختلف الصوف عن الألياف النباتية في أن الأخير أملس وأكثر ليونة من الصوف، بالإضافة لاختلافه في التركيب الكميائي له؛ فيتميز الصوف بعدة خصائص، منها الملمس اللِّين والدفء والنعومة، كذلك الارتداد، وهي الصفة التي يتميز بها الصوف عن غيره من الألياف النباتية، والارتداد في الصوف أن يستعيد حجمه الطبيعي إذا ما ضُغط عليه ثم أُزيل عنه.[١٨٨]

وكان لانتشار النشاط الرعوي على غيره من الأنشطة الفلاحية في المجتمع المغربي، أثره في أن يمثل مركز القوة؛ في إنتاج الألياف النَّسيجية من تربية الماشية بأنواعها وبخاصة الغنم، ومركز الضعف؛ في إهدار العديد من الأراضي لمزاولة هذا النشاط على حساب الزراعة؛ ولهذا كان الرعي عنصرًا أساسيًّا في عمليات الإنتاج النَّسيجي في مناطق الغرب الإسلامي عامة، والمجتمع المغربي خاصة،[١٨٩] ويذكر صاحب الاستبصار[١٩٠] في هذا الصدد أن بلاد المغرب الأوسط «كثيرة الغنم والماشية، طيبة المراعي، وفيها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها.» وهنا إشارة إلى أن بلاد المغرب ساهمت في نقل الأغنام — من غنم، ومعز، وبقر — إلى البلدان الأندلسية، وخاصة من مَرسى فُضالة، فيذكر الإدريسي[١٩١] أن منها «تُحمل الغنم أيضًا والمعز والبقر.» وهو ما يوضح أن بلاد الأندلس ولفتراتٍ كبيرة كانت تفتقر للأغنام، باستثناء بعض الأماكن التي سيرد ذكرها.

وساهمت الظروف الطبيعية من تضاريس ومناخ في نمو الثروة الحيوانية، ووجود غطاءٍ نباتيٍّ متعدد، وتنوُّع البيئات الجغرافية ببلدان الغرب الإسلامي؛[١٩٢] ما انعكس على الصناعات النَّسيجية في تلك المنطقة.

وتميز الغرب الإسلامي بجغرافيا زراعية ساعدت في ظهور بوادر الاستقرار والثبات داخل المجتمع الفلاحي خلال فترات الاستقرار التي تعقب فترات التحوُّل السياسي،[١٩٣] فالرعي نوعان؛ الرعي المختلط: بمناطق الزراعة ويكون فيها صاحب الماشية هو صاحب الأرض، والرعي الصحراوي: يكون فيها الراعي هو صاحب الماشية،[١٩٤] وهو ما يعطي تفسيرًا حول امتهان العديد من القبائل والعشائر لحرفة الرعي؛ فأطلق عليهم الشاوية، هذا بخلاف أن سلاطين بني مرين اعتمدوا في تربية ماشيتهم على تلك العشائر وعلى غيرها من القبائل البدوية.[١٩٥]

فكان لوجود المراعي وكثرتها في مناطق الغرب الإسلامي أثره في إثراء اقتصاد حكوماته، حيث تُظهر حصيلة الخراج المتحصِّل من بلدان المغرب الإسلامي في عهد بني مرين مدى الازدهار الرعوي بها، من مراعٍ عامة أو مراعٍ خاصة بخلفاء بني مرين؛ فحصيلة الخراج التي تحصَّلت عليه الدولة من تلك المراعي كانت كما يأتي: الخراج من فَاس ١٥٠٠٠٠ مثقال، ومن مراكش ١٥٠٠٠٠ مثقال، ومن سجلماسة ودرعة ١٥٠٠٠٠ مثقال، ومن مكناسة ٦٠٠٠٠ مثقال، ومن سبتة ٥٠٠٠٠ مثقال، ومن أنفى ٤٠٠٠٠ مثقال، ومن تازة ٣٠٠٠٠ مثقال، ومن عصاصة ومليلة والمزمة ما قيمته ٣٠٠٠٠ مثقال، ومن طنجة ٣٠٠٠٠ مثقال، ومن مدينة أَسَفي ٢٥٠٠٠ مثقال، ومن أغمات ٢٥٠٠٠ مثقال، ومن أزمور٢٠٠٠٠ مثقال، ومن بادس ١٠٠٠٠ مثقال.[١٩٦]

واشتُهرت العديد من المدن المغربية بمراعيها كمدن المغرب الأدنى لتنوُّعها — وكان لهذا التنوع أثره في انتشار بعض سلالات الأغنام التي أنتجت أنواعًا جيدة من الصوف، وكان هذا نتيجة للتبادل الثقافي والاقتصادي بين بلدان الغرب والشرق — وبخاصة شبه جزيرة جربة التي يصفها القلصادي[١٩٧] بقوله: «وما خُصت به لين صوف ورطوبته، وتصير الشاة من غير الجزيرة فيها بعد إقامة سنة مثل شياهها في رطوبة الصوف.» وهو ما يعكس مدى جودة المراعي الموجودة بجزيرة جربة؛ مما أثر على جودة صوفها، وهو ما أكده التجاني[١٩٨] بقوله إنها اختصت «بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بإِفْرِيقِيَّة لما ينسج من أثوابها نظير.»

ومن مدن وقرى المغرب الأوسط والأقصى كثيرة الخصب والزرع، كثيرة الغنم والماشية لحسن وطيب مراعيها،[١٩٩] مدينة البَصْرة المغربية التي عُرفت ببصرة الذبيان،[٢٠٠] وبِجَاية

الشهيرة بأغنامها ذات الصوف الجيد والحسن،[٢٠١] وعنابة التي قصدها التجار لشراء صوفها الجيد،[٢٠٢] وانتشرت نوعية من الأغنام قيل إن أصولها من بلاد فارس وبالأخص من مدينة كيس، واعتُبر صوفها من أجود الأصواف التي انتشرت في سجلماسة،[٢٠٣] ووجدة،[٢٠٤] ولعل تلك الأغنام التي يُطلَق عليها أغنام المرينو Merinas-Merino، جُلبت إلى بلاد الأندلس منذ القرن الخامس والسادس الهجريَّين/الحادي والثاني عشر الميلاديَّيْن وتميَّزت بجودة صوفها،[٢٠٥] في حين يُرجِع البعضُ أصل كلمة المرينو إلى لفظ «مرن» للدلالة على نعومة الأصواف ودقَّتها ومرونتها،[٢٠٦] أو نسبة لبني مرين،[٢٠٧] وقد ظهر لفظ المارينو في الوثائق الجنوية في عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ويعكس قيمة تلك الأغنام في الصناعة النَّسيجية الجنوية،[٢٠٨] كما وُجد نوعٌ آخر من الأغنام وهي الكباش الدمانية وهي نوع من الضأن، إلا أنها أجمل شَعرًا، كما ذكر البكري:[٢٠٩] «وعندهم الكباش الدمانية خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل، وشَعرها شعر الماعز لا أصواف لها، وهي أحسن الغنم خلقًا وألوانًا.»

وامتازت المنطقة الواقعة في أطلس الوسط بأنها منطقة جبال متوسطة الارتفاع كجبال الجزائر بمراعيها،[٢١٠] كما امتدت المراعي في بلاد المغرب وبخاصة الأقصى منه، سواء في السهول أو على قمم الجبال أو في الصحراء، لتجعل من الثروة الحيوانية عمادًا أساسيًّا في بنيان الاقتصاد المغربي،[٢١١] كما في فَاس التي كثرت فيها الأغنام حتى بلغ سعر الكبش، في وقت من الأوقات، درهمًا ونصفًا، وسعر البقرة ربع درهم،[٢١٢] وانتشرت الأغنام في جبال بني مزغنة، فكانت أكثر أموالهم من المواشي من البقر والغنم السائمة في الجبال.[٢١٣]

وطنجة لا تمتلك قطنًا ولا كَتَّانًا، ولباس أهلها من الصوف؛ نتيجة وجود ثروةٍ حيوانية غنية من غنم وبقر وغيرها،[٢١٤] كما اشتهر حصن يرارة الواقع في الطريق بين فَاس وسجلماسة بصناعة الصوف «وهو بلد يحسن فيه الغنم، وأصوافها كثيرة، ومن أجودها وأحسنها.»[٢١٥]

وأدَّت الأمطار الصيفية النازلة على الجبال الواقعة في جنوب المغرب لانتشار المراعي الطبيعية بها، حيث أشار البكري[٢١٦] لكثرة المراعي وانتشارها بأَوْدَغَسْت بقوله: «والغنم والبقر أكثر شيء عندهم، يُشترى بالمثقال الواحد عشرة أكباش وأكثر.» ولا شك أن ميدان تربية الماشية عُدَّ من أهم ميادين النشاط الفلاحي في مدينة تسكنها قبائل صحراوية مثل قبائل صنهاجة اللثام،[٢١٧] هذا بالإضافة الى أغنام قسنطينة، فيصفها ابن الصباح[٢١٨] بقوله: «كثيرة الخصب والرخاء، بها الصوف من أغنام العربان.» كما تميزت سبتة — وبالأخص المناطق الواقعة بالقرب من تامسنا — بجودة الصوف؛ نظرًا لتوافر قطعان الأغنام بكثرة.[٢١٩]

ونظرًا لأهمية الأغنام بصفةٍ خاصة والثروة الحيوانية بصفةٍ عامة وإسهامها في دعم الاقتصاد الأندلسي، لاعتماد الصناعات الغذائية والجلدية والنَّسيجية عليها، فقد كانت محط أنظار واهتمام حكام الأندلس؛ لأجل ديمومتها والإفادة منها ومن منتجاتها ومنافعها الأخرى؛ لارتباطها بالحياة المعيشية واليومية بشكلٍ دائم ومستمر؛ إذ امتازت الأندلس بمراعيها الجيدة والموزَّعة على معظم مناطق الأندلس،[٢٢٠] وبخاصة المنطقة الواقعة بين مَالَقَة وغَرْنَاطَة وأَلْمَرِيَّة،[٢٢١] ويمكن القول إن أغلب مناطق الأندلس امتازت بوفرة مراعيها وكثرتها، فوصف ابن حوقل[٢٢٢] ذلك بقوله إنها: «رخيصة الماشية لكثرة المراعي، غزيرة النتاج والمواشي، معدومة الحوائج قليلة الآفة وليس بها عاهة، ولا وحش يؤذيهم من سائمتهم.»

وليس هذا فحسب بل إن مروج إِشْبِيلِية تميزت بأعشابها الكثيفة التي لا تتهشم صيفًا، ويتمادى كلؤها رطبًا، فيصلح إنتاجها وتدوم ألبان ماشيتها، وهي كافية لرعي أعدادٍ كبيرة من المواشي؛ حتى وصفها العذري[٢٢٣] بقوله: «ولو اقتصرت مسارح الأندلس عليها لوسعتهم.» وذكر ابن غالب[٢٢٤] ما يدل على ذلك «ولو كان يقتصر عليها بالمسارح أهل الأندلس لاتسعت لهم.» وحازت هذه الثروة اهتمامًا كبيرًا من قِبَل متولِّيها كما يُشير إلى ذلك عريب بن سعيد.[٢٢٥]

وعن الرعي فقد عُرف إقليم الشرف بتربية المواشي والأغنام بمختلف أنواعها بأعدادٍ كبيرة تكفي لحومها معظم سكان الأندلس، وعُرفت أحواز قُرْطُبَة بكثرة مراعيها واقتناء المواشي فيها والاستفادة منها، واشتهرت مدينة أُورِيُولة وطليطلة بتربية الأغنام،[٢٢٦] هذا فضلًا عن جزيرة شاشين فبها الأغنام البيضاء «لا يكاد يوجد بها شاة سوداء.»[٢٢٧] وتميزت المناطق الرعوية الموجودة في مَالَقَة عن بقية المراعي الأخرى من حيث نوع الرعي ما بين المختلط بمناطق الزراعة أو الرعي شبه الصحراوي.[٢٢٨]

وكان لرعي الأبقار والضأن أهميةٌ كبرى لا سيما في السلاسل الجبلية والسهول القاحلة، التي أكسبت رُندة — التي كانت غنية بالماشية — شهرةً واسعة في إنتاج الصوف، وكانت هذه الماشية تُربَّى في برجة وفي أَنْتَقِيرة، بينما كانت البَيْرَة «يسرح بها البعير ويجم بها الشعير.» وكانت أشكر «مسرح البهائم».[٢٢٩] وامتلكت كل قرية ما يجاورها من سفوح الجبال لرعي حيواناتهم بها، وكان الرعاة في مملكة غَرْنَاطَة يزاولون نشاطهم قرب الحدود مع قشتالة.[٢٣٠] أما صِقِلِّيَّة فكانت كثيرة المواشي من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم،[٢٣١] ومن أبرز سلعها الصوف وشعر الماعز.[٢٣٢]

(٤) الألياف الحيوانية الثانوية

تتعدَّد الألياف الحيوانية الثانوية في بلدان الغرب الإسلامي طبقًا للظروف البيئية والمناخية التي ساعدت في توطُّن بعض الحيوانات ذات الوبر، أو الشعر، أو الفراء، سواء على البر أو في البحر، فاختلفت في حجمها وأماكن توطُّنها.

(٤-١) صوف البحر

اختُصَّت بلاد الغرب الإسلامي بوجود بعض الألياف الطبيعية النادرة التي كان البحر مصدرها، كصوف البحر؛ وهو عبارة عن أليافٍ نَسِيجية تُسْتخلص من أحد الحيوانات الرخوية Pinna Marina تواجدت على سواحل بلاد الغرب الإسلامي وبخاصة المغرب والأندلس، وهي نوع من الحيوانات ذات الصدف تلتصق بالصخور الموجودة على الساحل عند خروجها بواسطة تلك الألياف، واختلف لون هذه الألياف ما بين الأخضر والأسود، وهو ما عُرف عند مسلمي الغرب الإسلامي ب «صوف البحر»[٢٣٣] ويذكر الإصطخري[٢٣٤] نصًّا عن هذا الحيوان عند ذكر شنترين: «وتقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارةٍ على شطِّ البحر؛ فيقع منها وبر في لين الخز، لونه لون الذهب، لا يغادر منه شيئًا، وهو عزيز قليل، يُجمع وتُنسج منه ثياب تتلوَّن في اليوم ألوانًا.»

ويذكر ياقوت الحموي تفصيلًا عن هذا الحيوان وأطلق عليها «الجندبادستر» عند حديثه عن سَرَقُسْطة:[٢٣٥] «انفردت بصنعة السمُّور ولطف تدبيره، تقوم في طرزها بكمالها، منفردة بالنسج في منوالها، وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية، هذه خصوصية لأهل هذا الصقع، وهذا السمُّور المذكور هنا لا أتحقق ما هو، ولا أيَّ شيء يُعنى به، وإن كان نباتًا عندهم أو وبر الدابة المعروفة، فإذا كانت الدابة المعروفة فيُقال لها الجندبادستر أيضًا، وهي دابة تكون في البحر وتخرج إلى البر وعندها قوة ميز، وقال الأطباء: الجندبادستر حيوان يكون في بحر الروم، ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه، فيخرج ذلك الحيوان من البحر، ويسرح في البر؛ فيؤخذ ويقطع منه خصاه ويطلق، فربما عرض له الصيادون مرةً أخرى، فإذا عُلم أنهم ماسكوه استلقى على ظهره وفرج بين فخذيه؛ ليريهم موضع خصيته خاليًا فيتركونه حينئذٍ.» وما قد ذكره المقري[٢٣٦] مستشهدًا بابن غالب عند حديثه عن قُرْطُبَة — ولكن من اللافت أن النصين متطابقان لدرجةٍ كبيرة في الوصف؛ إذ يذكر وبر السمور الذي يصنع بقُرْطُبَة قال: «هنا السمور المذكور ... لم

أتحقق ما هو ولا ما عُني به، إن كان نباتًا عندهم أو وبر الدابة المعروفة، فإن كانت الدابة المعروفة فهي دابة تكون وتخرج إلى البر، وعندها قوة ميز.» ومن الواضح في نص ياقوت الحموي أنه يمتزج بالخرافة والأسطورة عند ذكره لهذا الحيوان.

ووجد صوف البحر على ساحل تُونس وعرف هذا الحيوان بـ «أبو قلمون» أو «القرمود» كما ذكره العامة من أهل بلاد المغرب،[٢٣٧] كما وُجد على شاطئ صفاقس، حيث يصف العمري[٢٣٨] عملية استخلاص تلك الألياف بقوله: «وهو مما يخرج من البحر بصفاقس المغرب، أنا رأيته كيف يخرج، يغوص الغواصة في البحر فيخرجون كمائمَ شبيهةً بالبصل بأعناق في أعلاها زويرة، فتُنشر في الشمس؛ فتتفتح تلك الكمائم الشبيهة بالبصل عن وبر؛ فيسمط، ويخرج صوفه ويُغزل منه طعمة لقيام حَرِير.»

(٤-٢) الأوبار والأشعار والفراء

اهتم سكان الغرب الإسلامي بتربية الحيوانات الوبرية؛ وبخاصة الإبل منها؛ لتوافر البيئات المناسبة. ويذكر ابن أبي زيد[٢٣٩] أنواع الحيوانات التي يُؤخذ منها الوبر حيث يقول في نازلة: «ولو قال غصبته ثوب وبر وقع ذلك على أي ثوب من الوبر شاء، إن قال ثعالب، سنجابًا أو سمورًا أو دلقًا أو غيره من أصناف الوبر ولا يدخل في ذلك الضأن.» ومن هذا النص يتضح أن الوبر يُؤخذ من حيوانات الفراء كالثعالب والسناجب والسمور أو السنور.

ومن بين الحيوانات ذات الوبر والشعر:

(١) الإبل: أخذت الإبل مكانةً مهمة وبارزة في قائمة المواشي التي وُجدت في بلدان الغرب الإسلامي وبخاصة بلدان المغرب، ويرجع الاهتمام بتربيتها إلى أن هذا النوع من الحيوانات يتميز بضخامته وقدرته على حمل الأثقال وتحمُّله للجوع والعطش، هذا إلى جانب تطبُّعه مع ظروف البيئة الصحراوية، فهو يعتمد في شربه على مياه الآبار المالحة التي يكثر تواجدها في تلك المناطق،[٢٤٠] كما أن الجمل هو الحيوان الوحيد الذي يُمكن الناس من القيام برحلات يتراوح طولها بين ألف وألفَي كيلومتر؛ لذا فقد انتشر في بلاد المغرب وهو ما نوَّه إليه ابن حوقل[٢٤١] بقوله: «عندهم من الجمال الكثيرة في براريتهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب.»

واستُخدِمت الإبل كمصدر له أهميته من مصادر الغذاء، لما تُدرُّه من ألبان ولحوم، إلى جانب أنها وسيلة نقل هامة اسْتُغِلت في المجال التجاري والترحال، كما استُفيد بجلودها

وأوبارها في صناعة الأكسية والفرش، وتميَّزت بلاد المغرب بنوع من الإبل عُرف بالمهاري، وآخر عُرف بالنجيبي.[٢٤٢]

ووُجدت الإبل ببلاد المغرب في جزيرة جالطة بالقرب من طبرقة حيث قُدِّرت بأعداد لا تُحصى،[٢٤٣] ووُجد في جبل لونيسا حيث يصف الإدريسي[٢٤٤] أهله بقوله: «وهم قوم ظواعن رحَّالة، والإبل عندهم كثيرة اللقاح، حسنة النتاج، وهم ينسجون المسوح من أوبارها.»

(٢) الماعز: من الحيوانات التي اعْتُمد على أشعارها ووبرها للحصول على النَّسيج، وقد شبه النويري[٢٤٥] شعر الماعز بأنه «صوف»، وقدر عدد الماعز بأقل من الغنم في مناطق الغرب الإسلامي؛ لأنه يُفضِّل المرتفعات عن السهول.[٢٤٦]

فوجد الماعز في بلدان المغرب في هسكورة التي امتازت بأعدادٍ كبيرة منها، بجانب الأغنام لأنها تعيش في مجموعاتٍ كبيرة بجبالها،[٢٤٧] وكان لصاحب أَوْدَغَسْت أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والماعز، كان يعتمد على دخلها ببيع أصوافها وشعرها؛ ما يوضح اهتمام سكان أَوْدَغَسْت بتربية الماعز وكان على رأسهم حاكمها،[٢٤٨] كما وجد الماعز في قادس لوجود نبات الرَّتَم؛ فكان يرتع عليه؛ ولهذا كان يجود ويحسن،[٢٤٩] وتميزت صِقِلِّيَّة بسلعها التي من بينها شعر الماعز.[٢٥٠]

(٣) اللمط: اللَّمْط أو اللمت، وهو حيوان يشبه البقر الوحشي، وصفه البكري[٢٥١] بقوله: «وهو دابة دون البقر، لها قرونٌ دقاقٌ حادة لذكرانها وإناثها، وكلما كبر منها الواحد طال قرنه حتى يكون أكثر من أربعة أشبار، وأجود الدرق وأغلاها ثمنًا ما صُنع من جلود العوائق منها، وهي التي طال قرناها لكبر سنها؛ يمنع العجل علوها.» كما وصفه كذلك بأنه: «صابر على العطش وهو على شبه الغزال لكنه أغلظ منه.»[٢٥٢] ولحم هذا الحيوان جيد، وله طعم الثور إلا أنه أطيب منه قليلًا، ويُدَّخر مملَّحًا في الآنية للحفاظ عليه مدة طويلة وللحفاظ على مذاقه،[٢٥٣] أشار صاحب الاستبصار[٢٥٤] إلى وجوده في أَوْدَغَسْت بقوله: «ومنها تُجلب الورق الخصيفة الجياد، فإن اللمط بأرض أَوْدَغَسْت كثير جدًّا.»

(٤) الفنك: وإلى جانب اللَّمْط وُجد ببلاد الغرب الإسلامي حيوانات الفنك، واختُصَّت به بلدان المغرب، وهو حيوان في قدر الغزال، ويُتخَذ منه الفراء لصناعة الثياب، فانتشر الفنك في بلاد المغرب حيث كانت «دواب الفنك أكثر شيء في هذه الصحراء، ومنها يُحمل إلى جميع البلاد.»[٢٥٥] ووُجد في قسطيلية فيذكر البكري[٢٥٦] عنه: «ولا يُعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان إلا الفنك.»

(٥) السَّمُّور: السمور أو السنور، حيوانات طاردة للفئران،[٢٥٧] وهي أغلى أنواع الفرو،[٢٥٨] وتميزت الأندلس بسمورها،[٢٥٩] واشتُهرت بصناعة السمور؛ العديد من المدن، وبالأخص مدن الأندلس، فعُرفت به كلٌّ من قُرْطُبَة،[٢٦٠] وسَرَقُسْطة.[٢٦١]

(٦) القنيلة: حيوان أصغر وأطيب وأحسن وبرًا من الأرنب، وكثيرًا ما يُلبَس فراؤها، ويستعمله أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا يوجد في بر البربر إلا ما جُلب منها إلى سبتة فنشأ في جوانبها، وقال ابن سعيد:[٢٦٢] «وقد جُلب في هذه المدة إلى تُونس حضرة أفريقيا.» وهو ما يوضح أن هذا الحيوان موطنه الأصلي بلاد الأندلس، وانتقل فتوطَّن في سبتة ثم في تُونس نتيجة عملية التبادل التجاري والزراعي بين شقَّي الغرب الإسلامي، المغرب والأندلس.

كما وجد الدَّلَق وهو حيوان من فصيلة السموريات يقرب من السنَّور، في الحجم، وهو أصفر اللون ببطنه وعنقه، ويميل إلى البياض.[٢٦٣]

هكذا شكَّلت تربية الأنعام دعامةً أساسية في النظام الفلاحي والحيواني في بلاد المغرب بصفة خاصة، وقد خُصِّصت إما للنقل وخدمة الزراعة على مستوى الحياة اليومية، أو التي كانت تقدِّم مادةً أوليةً صناعية من صوف وشعر ووبر ساهم في البناء الاقتصادي للأسرة المغربية.[٢٦٤]

(٥) نباتات الصباغة

كان لازمًا ذكر أهم أنواع نباتات الصباغة في أراضي الغرب الإسلامي، بكونها عماد صناعة الصباغة التي شكَّلت الضلع الثالث في استكمال صناعة النَّسيج بصفة عامة، نظرًا لما أولاه زرَّاع وفلاحو الغرب الإسلامي من اهتمام بزراعة نباتات الصباغة؛ للحصول على أفضل الإنتاجيات؛ لاستخدامها في أمور الصباغة، أو في صناعة الأدوية وغيرها من الصناعات والتجارات. ومن أبرز تلك النباتات:

(أ) القِرْمزُ: من نباتات الصباغة المهمة التي اسْتُعْملت في كثير من بلدان الغرب الإسلامي، وقد اعْتُبر أفضل من آلك الهِنْدي في عمليات الصباغة،[٢٦٥] والقِرْمزُ هو حشراتٌ صغيرة الحجم تنمو على شجر البلوط،[٢٦٦] تُجمع من شهر مارس (آذار) حتى شهر مايو (آيار)، ويتطلب جمع القرمز الخبرة في جمعه وكسره؛ حيث تبدأ عملية جمعه في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس، ثم يُجمع ويُكدَّس في آنية، ويُنقَع في الخل لمدة اثنتي عشرة

ساعة، ثم يُجفَّف في الشمس، ثم يُجمع مرةً أخرى حتى يصير حبوبًا حمراء، وبعدها تكون صالحة للصباغة،[٢٦٧] ومن الأمثال التي انتشرت في مجتمع الغرب الإسلامي وتعكس في حقيقة أمرها خبرة سكان الغرب الإسلامي في عمليات الاهتمام بالقرمز وجمعه: «اركب واهمز، وامشي لجمع القرمز.»[٢٦٨]

ويذكر علي جمعان الشكيل نقلًا عن صاحب كتاب «المعتمد» الذي يصف القرمز بقوله: «حيوان يكون على الشوك كأنه العدس، ثم لا يزال يكبر حتى يصير في قدر الحمص، فإذا كمل نضجه انفتح وخرج من ذلك الحيوان صغار تكبر، وهو أحمر اللون ويُصبَغ به الصوف والحرير ولا يأخذ في الكَتَّان والقُطْن.» كما ينقل عن داود الأنطاكي أن القرمز: «حيوان يتولَّد على ورق الأشجار ... وينمو إلى أن يصير في حجم الحمص، مستديرٌ، شديد الحمرة، نتن الرائحة، يخرج كذبابة ذكر وأنثى ... ويصبغ الواحد منه عشرة من أمثاله من الحرير والصوف صبغًا عظيمًا؛ إذا طُبخ ووُضع الحرير فيه وهو يغلي خفيفًا.»[٢٦٩]

غير أن الجاحظ[٢٧٠] يعطي نصًّا مفصَّلًا عن القرمز فيذكر: «وزعم أن القرمز حشيشة تكون في أصلها دودةً حمراء تنبت في ثلاثة مواضع من الأرض: في ناحية المغرب بأرض الأندلس، وفي رستاق يقال له تارم، وفي أرض فارس. ولا يعرف هذه الحشيشة وأماكنها إلا فرقة من اليهود يتولَّون قلعها كل سنة في ماه اسفندارمذ، فتيبس تلك الدودة ويُصبَغ بها الإبرسيم والصوف وغير ذلك، وخير ما يُصبغ في الأماكن بأرض واسط.»

وانتشرت أشجار البلوط بالأندلس وهي الموطن الأساسي لنمو حشرات القرمز، فقد ذكرها ابن حوقل[٢٧١] عند حديثه عن الأندلس بقوله: «وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تصبغ بها اللبود المغربية.» وكانت مزروعة بقلعة أورِيط،[٢٧٢] وإن أطيب أنواع القرمز الذي انتشر كان في كلٍّ من إشبيلية ولبة، بالإضافة الى مدينة شذونة، وبلنسية،[٢٧٣] فضلًا عن اشتهار صِقِلِّيَّة بطيب قرمزها.[٢٧٤]

(ب) القُرطم: ويُسمى البهرمان أو الإخريج أو الإحريض والمُرِّيق،[٢٧٥] وهو نبات زهره العُصْفُر،[٢٧٦] أو حب العُصْفُر،[٢٧٧] ويستخدم لأغراض الصباغة وهو على نوعَين: شائك وغير شائك، والثاني أفضل من الأول في الجمع والصبغ، ويُزرع القُرطم في شهر شباط (فبراير)، وإن تأخر ففي شهر مارس (آذار)، والأرض الملائمة لزراعته هي الأرض الرطبة؛ لذلك تنجح زراعته في البلاد المعتدلة التي تتميز برطوبة هوائها،[٢٧٨] فهو يُزرع بعلًا وسقيًا،[٢٧٩] ومن فوائده أنه يُستخدَم للصباغة.[٢٨٠]

ونظرًا لطبيعة الأندلس المُناخية فقد انتشرت زراعة العُصْفُر في العديد من المناطق، فاشتهرت بزراعته إِشْبِيلِية؛ حيث يعمُّ عُصْفُرها الأندلس ويُتجهَّز به إلى كل قطر، وقد حاز البر بما استقبلته جهاته والبحر بخواص منافعه،[٢٨١] وتميزت مدينة لبلة بجودة عُصْفُرها،[٢٨٢] وفي مناطق البَيْرَة،[٢٨٣] كما زُرع في مدينة مُرْسِيَة.[٢٨٤]

(ج) الزَّعْفَرَان: نقله العرب إلى الأندلس، ويسميه الأندلسيون الجادي أو الكركم،[٢٨٥] والزَّعْفَرَان هو جنس من النباتات البصلية المعمرة، وهو أنواع، منه بري ومنه زراعيٌّ صيفي، توجد في وسطه شعراتٌ حمر هي الزَّعْفَرَان، وورقه خيطان دقاق، وأجوده الشديد الحمرة زكيُّ الرائحة،[٢٨٦] والوقت المناسب لزراعته هو شهر مايو (أيار)، والأرض الملائمة لزراعته هي الأرض السوداء والرملية والحرشا المضرسة ويُزرع ببصله، وتنجح زراعته في المناطق الباردة، والزَّعْفَرَان لا يحب الماء الكثير،[٢٨٧] إلا أنه زُرع في البساتين لفوائده في الصباغة وفي الطعام، وكدواء أيضًا.[٢٨٨]

وعن مناطق زراعة الزَّعْفَرَان في بلدان المغرب، مدينة أبة الواقعة غرب مدينة الأربس؛ فقد اشتهرت بزراعة الزَّعْفَرَان؛ فكان «بها من الزَّعْفَرَان ما يُضاهي الزَّعْفَرَان الأندلسي في الكثرة والجودة.»[٢٨٩] كما كان بمدينة أولية الزَّعْفَرَان الجيد.[٢٩٠]

وعن أهم مناطق زراعة الزَّعْفَرَان في الأندلس مدينة طليطلة التي تميزت بكثرة زَعْفَرَانها الذي يعم البلاد، المتناهي بالجودة حتى إنه يُتاجَر به فيُصدَّر إلى الآفاق، وسهول طليطلة ويُسمى عند أهلها بالعُصْفُر،[٢٩١] وفي بسطة اختص أهلها بزراعته وامتازوا به عن غيرهم من البلدان، ولا يوجد أطيب منه فيها،[٢٩٢] فبها من الزَّعْفَرَان ما يكفي حاجة الأندلس بأكملها من كثرته فيها،[٢٩٣] فضلًا عن أنه زُرع في مدينة بياسة بكثرة ويُصدَّر إلى الآفاق، وفي مدينة أُبَّدة.[٢٩٤]

وينبت في بلنسية ويزكو بها،[٢٩٥] وتكثر مزارع الزَّعْفَرَان في مدينة وادي الحجارة ويُحمَل إلى الجهات الأخرى،[٢٩٦] كما اشتُهرت بزراعته سهول مدينتي المَرِيَّة وبسطة، وعملوا على تصنيعه، فمهر أهالي بسطة أكثر من غيرهم بتصنيعه وتصديره، بالإضافة إلى سهول مدينة إِشْبِيلِية.[٢٩٧]

(د) شجر الحناء: كثرت زراعة الحناء في عدد من بلدان الغرب الإسلامي وبخاصة المناطق الجنوبية؛ لارتباطها بالمناطق الحارَّة الكثيرة المياه،[٢٩٨] خاصة بلدان ومدن المغرب الإسلامي، فمن مدن المغرب الأوسط التي عُرفت بزراعة الحناء كانت تَوْزَر؛ حيث زُرعت بها الحناء بكميات كبيرة،[٢٩٩] كذلك في قرية بني وازلفن القريبة من مدينة تنس.[٣٠٠]

ومن أهم مناطق زراعة الحناء في مدن وقرى المغرب الأقصى سِجِلْماسَة؛ فقد زُرعت بأراضيها الحناء وتجهز بها إلى سائر بلاد المغرب،[٣٠١] وأَوْدَغَسْت التي اهتمت بزراعة شجر الحناء: «وبها جنان حناء لها غلةٌ كبيرة.»[٣٠٢] ويُذكر عنها في موضعٍ آخر: «وأشجار الحناء وهي في العظم كشجر الزيتون.»[٣٠٣] وأصبحت زراعة أشجار الحناء في أَوْدَغَسْت من أهم المزروعات التي اهتم أهلها بزراعتها؛ حتى إنها تكاد تكون المركز الرئيسي والموطن الأصلي لزراعتها في بلاد السودان الغربي، وترجع هذه الأهمية إلى أن غلة الحناء عُدت من أهم السلع التي اهتم تجار أَوْدَغَسْت ببيعها في أسواقها وتداولها مع المدن السودانية والمغربية.[٣٠٤]

كما انتشرت زراعة الحناء في مدينة درعة كما يذكر ابن سعيد:[٣٠٥] «وأكثر ما ينبت عليه الحنا التي تحمل إلى الأقطار المغربية.» ويذكر الإدريسي[٣٠٦] أيضًا أن أهالي درعة «يزرعون غلات الحناء والكمون والكروياء والنيلج، ونبات الحناء يكبر بها حتى يكون في قوام الشجر، يصعدون إليه، ومنها يُؤخذ بذره ويتجهز به إلى كل الجهات، ونبات الحناء لا يؤخذ بذره إلا في هذا الإقليم.»

أما عن زراعة الحناء في أراضي الأندلس فكانت نادرة وقليلة جدًّا؛ لطبيعة مناخ الأندلس، فجاءت زراعتها بكمياتٍ محدودة جدًّا واسْتُخدمت — نظرًا لقلتها — بغرض استخدامها في العلاج والتزيين والصباغة.[٣٠٧]

(هـ) النيلة: النيلة أو النيلج نبات أُدخلت زراعته من الهِنْد إلى بلاد الغرب الإسلامي على يد الفاتحين العرب، فهي نبات يحتاج إلى الحرارة والسقي لتتم زراعتها بشكلٍ جيد،[٣٠٨] وتركَّزت زراعة النيلة في بعض الأماكن القليلة في الغرب الإسلامي، فزُرعت في كل من منطقة السوس،[٣٠٩] وجبل آيت وأوزكيت من منطقة هسكورة من بلاد المغرب،[٣١٠] وكانت بلدان المغرب في العصر المريني من أكثر البلدان تصديرًا للنيلة لكثرة الطلب عليها في أمور الصباغة.[٣١١]

هوامش

(١) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق: محمد بو خبزة التطواني، دار الغرب الإسلامي، (د.ت)، ج٦، ص٥٧؛ ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص٧٢٥.

(٢) ابن سيده: المخصص، ج٤، ص٦٩؛ النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق، ١٢٩٩هـ، ص١٤٩؛ ابن البيطار: نفسه، ص٥٦٤.

(٣) Maurice Lombard: Textiles Dans Le Monde Musulman Du Viie Au Xiie Siècle, Mouton, 1978, P. 61.

(٤) الدينوري: قطعة من الجزء الخامس من كتاب النبات، عُني بنشره: ب. لوين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥٣م، ص٢٥٣-٢٥٤؛ ابن البيطار: نفسه، ص٦٧٦.

(٥) ابن العوام: كتاب الفلاحة، مدريد، ١٨٠٢م، ج٢، ص١٠٥؛ ابن البيطار: نفسه، ص٦٧٧؛ الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١م، ج٨، ص١٤٦؛ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٦م، ج٣٦، ص٥.

(٦) لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، بحث منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الطبعة الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩م، ج٢، ص١٣٩٦.

(٧) لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، ص١٣٩٣.

(٨) عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج في المغرب الوسيط (الإنتاج والمبادلات)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفَاس، جامعة سيد محمد بن عبد الله بفَاس، ١٩٨٥م، ص٥٠؛ صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٤٤، ١٤١٢هـ، ص٢٠٠.

(٩) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م، ص٢٧٤؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية «عصر المرابطين والموحدين»، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٢٤١.

(١٠) لوسي بولنز: نفس المرجع، ص١٣٩٣.

(١١) ابن بصال: كتاب الفلاحة، عني بنشره: خوسيه ماريا بييكروسا ومحمد عزيمان، مطبعة كريماديمس، تطوان، ١٩٥٥م، ص١١٥؛ النابلسي: علم الملاحة في علم الفلاحة، ص١٤٩-١٥٠.

(١٢) لوسي بولنز: نفس المرجع، ص١٣٩٥.

(١٣) ابن وحشية: الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٣م، ج١، ص٥٢٠.

(١٤) ابن بصال: الفلاحة، ص١١٤-١١٥؛ لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، ص١٣٩٥.

(١٥) النابلسي: الملاحة، ص١٥٠؛ بولنز: المرجع السابق، ص١٣٩٦.

(١٦) ابن بصال: المصدر السابق، ص١١٥.

(١٧) النابلسي: المصدر السابق، ص١٢٠.

(١٨) ابن بصال: نفس المصدر، ص١١٥.

(١٩) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٤١.

(٢٠) محمد حسن: المدينة والبادية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تُونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص٤٧٦.

(٢١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٨٥.

(٢٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٩٢؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٧٧.

(٢٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٧٤.

(٢٤) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص١٤٢.

(٢٥) الحميري: الروض المعطار، ص٥٥٨.

(٢٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٨٥.

(٢٧) ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م، ص٧؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج في المغرب في العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفَاس، جامعة محمد بن عبد الله، ع٢، ١٩٨٥-١٩٨٦م، ص٥٢-٥٣؛ جمال أحمد طه: مدينة فَاس في عصري المرابطين والموحدين ٤٤٨هـ/١٠٥٦م-٦٦٨هـ/١٢٦٩م، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠١م، ص٢٠٧.

(٢٨) الإدريسي: نفس المصدر، ج١، ص٢٢٦؛ الحميري: نفس المصدر، ص٣٠٥.

(٢٩) البصرة: تقع بالقرب من فاس على وادي سبه وهي مدينةٌ كبيرة تطلُّ على ربوة وهي كثيرة الزرع والضرع، لها مراعٍ عديدة وواسعة، كانت تُعرَف بالحمراء لحمرة تربتها. ابن حوقل: المصدر السابق، ص٨١؛ مجهول: الاستبصار، ص١٨٩.

(٣٠) ابن حوقل: نفس المصدر، ص٨٠؛ الإدريسي: نفس المصدر، ج٢، ص٥٣٠-٥٣١.

(٣١) المصدر السابق، ج١، ص٢٤١؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٣١.

(٣٢) الحميري: المصدر السابق، ص٢٣١؛ محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ج٢، ص٦٩.

(٣٣) الإدريسي: نفس المصدر، ج١، ص٢٣٧؛ الحميري: نفس المصدر، ص٦٠٥؛ مقديش: المرجع السابق، ج١، ص٦٤.

(٣٤) البكري: المصدر السابق، ص٦٩.

(٣٥) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢١٤.

(٣٦) معيار الاختيار، ص١٠١.

(٣٧) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٦م، ص٨٨.

(٣٨) المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م، ج١، ص٣٢٩.

(٣٩) الحميري: الروض المعطار، ص٦٠٤.

(٤٠) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠٠-٢٠١.

(٤١) أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد: من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الإنزال الإقطاعي، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م، ص٢٤١.

(٤٢) الحميري: الروض المعطار، ص٥٩؛ مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، مدريد، ١٩٨٣م، ص٦١-٦٢.

(٤٣) ترصيع الأخبار، ص٩٦.

(٤٤) فرحة الأنفس، ص٢٩٣.

(٤٥) معجم البلدان، ج١، ص١٩٥.

(٤٦) صفة جزيرة الأندلس، ص١٩.

(٤٧) محمود مكي: مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا، مجمع اللغة العربية، ع٨٠، ج١، ١٩٩٦م، ص٨٧.

(٤٨) الزهري: الجغرافية، ص١٣١.

Lombard: Les Textiles dans le Monde Musulman, p. 78.

(٤٩) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٤٤.

(٥٠) ميلاص: قرية من قرى صقلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٤.

(٥١) الزهري: نفس المصدر، ص١٢٩.

(٥٢) حنان قرقوتي: ملامح من صناعة النَّسيج عند المسلمين، مجلة الدارة، ع٤، السنة ٢٥، ١٤٢٠هـ، ص١٣٥.

(٥٣) الدينوري: النبات، ص٢٥٥.

(٥٤) النابلسي: علم الملاحة، ص١٣٧.

(٥٥) ابن العوام: كتاب الفلاحة، ج١، ص٤٢؛ النابلسي: المصدر السابق، ص٥٠.

(٥٦) لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، ص١٣٩٩.

(٥٧) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٥٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٦؛ الإدريسي: المصدر السابق، ج١، ص٢٩١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤١.

(٥٩) الإدريسي: نفس المصدر، ج١، ص٢٨٥.

(٦٠) الأندلسي: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٧هـ، ص١٨٦.

(٦١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٨٤.

(٦٢) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥: ص١٠٦.

(٦٣) رادس: مدينة تقع على البحر بالقرب من تُونس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٢.

(٦٤) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٥٤.

(٦٥) عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج، ص٥٠.

(٦٦) أبو أحمد الفَاسي: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق: محمد حمزة الكَتَّاني، دار ابن حزم، بيروت، (د.ت)، ص٢٢٦-٢٢٩.

(٦٧) الوزان: نفس المصدر، ص٤٧٤؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص٣٧٦.

(٦٨) الوزان: نفس المصدر، ص٣٥٩.

(٦٩) الإدريسي: نفس المصدر، ج١، ص٢٦٣.

(٧٠) جمال طه: مدينة فَاس، ص٢٠٧.

(٧١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٨٠؛ البكري: المغرب، ص١١٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص١٠٣.

(٧٢) مجهول: الاستبصار، ص١٨٩.

(٧٣) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٩٨.

(٧٤) الإدريسي: المصدر السابق، ج١، ص٢٦٣؛ مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج١، ص٩٥.

(٧٥) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٢٧.

(٧٦) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٣١١.

(٧٧) مقديش: المرجع السابق، ج١، ص٦٤.

(٧٨) الوزان: نفس المصدر، ص٢٢٠.

(٧٩) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١٠١.

(٨٠) ابن الأحمر: بيوتات فَاس الكبرى، أو ذكر بعض مشاهير فَاس في القديم، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٢م، ص٣٩.

(٨١) الحميري: الروض المعطار، ص٣٤٣.

(٨٢) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٨٤؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١: ص٩١.

(٨٣) ابن سعيد: المصدر السابق، ج٢، ص٩١؛ الحميري: نفس المصدر، ص٢٤.

(٨٤) أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي، ص٢٤٢.

(٨٥) ياقوت الحموي: نفس المصدر، ج١، ص٢٦٠.

(٨٦) الحموي: نفس المصدر، ج٤، ص٤١٥.

(٨٧) ابن الخطيب: خضرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ص٥١.

(٨٨) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١٠٢.

(٨٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٨؛ أحمد الطاهري: المرجع السابق، ص٢٤١.

(٩٠) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٨٥.

(٩١) ابن غالب: المصدر السابق، ص٢٨٤.

(٩٢) الحميري: الروض المعطار، ص٥٠٧.

(٩٣) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٥٩؛ أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس، ص٢٤٢.

(٩٤) خالد بن عبد الله: مدينة مَالَقَة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها دراسة سياسية اقتصادية (٤٢٢هـ-٨٩٢هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ، ص٢٢٥.

(٩٥) سحر سالم: مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأَنْدلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٣٠.

(٩٦) رسلان: دراسة للنسِيج المذهب في صقلية، مجلة الدارة، السنة التاسعة، ١٩٨٤م، ع٤، ص١٠.

(٩٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٩٥؛ الحميري: المصدر السابق، ص٥٦٠.

(٩٨) أماري: المكتبة الصقلية، ص٢٢٥.

(٩٩) الزهري: الجغرافية، ص١٣٢.

(١٠٠) الزهري: المصدر السابق، ص١٢٩.

(١٠١) ابن منظور: لسان العرب، ص٣٧٤٧؛ صادق إبراهيم: القُنَّب، مجلة المقتطف، يونيو ١٩٢١م، المجلد ٥٨، ج٦، ص٥٨٣.

(١٠٢) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٦؛ لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، ص١٤٠٠.

(١٠٣) عثمان الكعاك: العلاقات بين تُونس وإيران عبر التاريخ، الشركة التونِسية للتوزيع، (د.ت)، ص١٨١.

(١٠٤) ابن البيطار: مفردات الأدوية، ص٦٩٤.

(١٠٥) ابن البيطار: المصدر السابق، ص٧٢٥.

(١٠٦) النابلسي: علم الملاحة، ص١٣٧؛ صادق إبراهيم: القُنَّب، ص٥٨٣.

(١٠٧) لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، ص١٤٠٠؛ صادق إبراهيم: المرجع السابق، ص٥٨٤.

(١٠٨) ابن العوام: الفلاحة، ج٢، ص١١٨.

(١٠٩) صادق إبراهيم: نفس المرجع، ص٥٨٣-٥٨٤.

(١١٠) الدينوري: النبات، ص٢٥٥.

(١١١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٨٥.

(١١٢) برنشفيك: تاريخ إِفْرِيقِيَّة في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٣٢.

(١١٣) أماري: المكتبة الصقلية، ص١٧٠؛ برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٣٢.

(١١٤) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٢٣.

(١١٥) نفس المصدر، ص٢٩٨.

(١١٦) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٣٧٦.

(١١٧) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٣٦٥-٣٦٦.

(١١٨) كمال أبو مصطفى: تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص١٠٩.

(١١٩) خالد بن عبد الله: مدينة مَالَقَة، ص٢٣٢.

(١٢٠) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص٢٤٤.

Sarah. C. Davis; Sicily and the Medieval Mediterranean: Communica-tion Networks and Inter-regional Exchange, ProQuest, 2007, p. 157-158.

(١٢١) محمود مكي: مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا، ص٨٧.

(١٢٢) ابن منظور: لسان العرب، ص٩٦٥.

(١٢٣) إميل خطار: صنع الورق من نبات الحلفاء، مجلة العرفان، ع١٤٣، ١٩٢٨م، المجلد ٥، ج١٤، ص٥٢٤.

(١٢٤) ابن هشام اللخمي: ألفاظٌ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مجلة معهد المخطوطات العربي، القاهرة، ١٩٥٧م، المجلد ٣، ج٢، ص٣٠٣.

(١٢٥) العذري: ترصيع الأخبار، ص٤.

(١٢٦) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٧٠.

(١٢٧) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، منشور ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٢٢٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٩٩؛ أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي، ص٢٤٣.

(١٢٨) السجستاني: كتاب النخل، تحقيق: حاتم صالح الضامن، منشورات دار البشائر، (د.ت)، ص٦٨.

(١٢٩) السجستاني: المصدر السابق، ص٦٧؛ النابلسي: علم الملاحة، ص٥٠.

(١٣٠) ابن بصال: الفلاحة، ص٥٩.

(١٣١) السجستاني: نفس المصدر، ص٦٨؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب الجامع لما هو لطرف الدهر حور ولجيد الزمان عقد دُرر، المطبعة العامرِيَّة المليجية، ١٣٢٤هـ، ص٩١-٩٢.

(١٣٢) السجستاني: نفس المصدر، ص٧٠.

(١٣٣) النابلسي: المصدر السابق، ص٩٦.

(١٣٤) السجستاني: نفس المصدر، ص٥٠.

(١٣٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، ١٩٠٩م، ص٢٢٤.

(١٣٦) محمد المرزوقي: قَابِس جنة الدنيا، ص١٤.

(١٣٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢٣٠.

(١٣٨) مجهول: الاستبصار، ص١٥٠؛ مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصرَي الموحدين وبني مرين ١١٣٠–١٤٧٢م، دار المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص٣٠١.

(١٣٩) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٣٥.

(١٤٠) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٧٨؛ مجهول: الاستبصار، ص٢١٥.

(١٤١) البكري: المغرب، ص٩٨.

(١٤٢) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٩٢.

(١٤٣) البحيرة: مدينة بالأندلس من أعمال كورة الجزيرة. العذري: ترصيع الأخبار، ص١١٨.

(١٤٤) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٢٧٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥٠٢.

(١٤٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٦٠.

(١٤٦) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٥٩.

(١٤٧) خالد بن عبد الله: مدينة مَالَقَة، ص٢٢٣.

(١٤٨) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٥٠.

(١٤٩) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٨.

(١٥٠) مجهول: الاستبصار، ص٢٢٥.

(١٥١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٢٧٤؛ صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠١.

(١٥٢) مجلة المقتطف، ربيع الثاني ١٢٩٢هـ، ج٢، ص٢٧.

(١٥٣) ابن البيطار: مفردات الأدوية، ص١٤٢-١٤٣؛ الزهري: الجغرافية، ص٩٤؛ العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٨٧.

(١٥٤) النابلسي: علم الملاحة، ص٤٩.

(١٥٥) النابلسي: المصدر السابق، ص٤٨.

(١٥٦) العمري: المصدر السابق، ج٤، ص٢٣٤.

(١٥٧) ابن لب: تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، تحقيق: حسين مختاري وهشام الرامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ج٢، ص٨٣.

(١٥٨) البرزلي: فتاوي البرزلي، ج٣، ص١٧٦.

(١٥٩) المصدر السابق، ج٣، ص٣٩٨.

(١٦٠) الوثائق والسجلات، اعتني بتحقيقه ونشره: اب. سالميثاوف كورنيطي، مجمع الموثقين المجريطي: المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م، ص٣٩٥.

(١٦١) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص٢٥٤.

(١٦٢) محمد المرزوقي: قَابِس جنة الأرض، ص١٠-١١.

(١٦٣) المغرب، ص١٧؛ الأندلسي: الحلل السندسية، ص١٤٨.

(١٦٤) الاستبصار، ص١١٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٥٠.

(١٦٥) رحلة التجاني، ص١١.

(١٦٦) الروض الباسم، ص٣٧.

(١٦٧) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٣٦٢.

(١٦٨) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٥٣؛ روجيه لوترنو: فَاس في عهد بني مرين، ترجمة: نقولا زاده، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان، ١٩٦٧م، ص١٤٩.

(١٦٩) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٦.

(١٧٠) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٢٢.

(١٧١) محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس من خلال النصوص التاريخية مع تطبيقات على بعض من منسوجاتها الحريرية، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٠، ع٤، ص٢٠٤.

(١٧٢) الزهري: الجغرافية، ص٩٤؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥٠٥.

(١٧٣) خالد عبد الله: مدينة مَالَقَة، ص٢٤٠.

(١٧٤) الزهري: المصدر السابق، ص١٠١-١٠٢؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٢؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص١٤٠؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٧٧؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٨٤.

(١٧٥) الإدريسي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٦٨؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢: ص٥١؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص١٧٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢٩؛ الحميري: المصدر السابق، ص١٨٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٢١٧.

(١٧٦) المقدسي: آثار البلاد، ص٢٣٥.

(١٧٧) الحميري: المصدر السابق، ص٦١.

(١٧٨) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٧٦.

(١٧٩) ابن الخطيب: مشاهدات، ص٨٨.

(١٨٠) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١١٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٤.

(١٨١) الإصطخري: المسالك والممالك، ص٤٤؛ العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٣.

(١٨٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص٩٩؛ مشاهدات، ص٨٢.

(١٨٣) ابن الخطيب: مشاهدات، ص٨٢.

(١٨٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص٨٨؛ معيار الاختيار، ص١١١.

(١٨٥) الزهري: الجغرافية، ص٩٦؛ الوزان: وصف أفريقيا، ص١٧١.

(١٨٦) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠١.

(١٨٧) أماري: المكتبة الصِّقِلِّيَّة العربية، ص١٩٢.

(١٨٨) نصر عوض حسين: صناعة النَّسيج في العصر المملوكي في مصر، ص٢٧.

(١٨٩) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٥٤–٤٥٦.

(١٩٠) الاستبصار، ص١٧٩.

(١٩١) نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣٩–٢٤٠؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص٦٦.

(١٩٢) فاطمة بلهواري: النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، دورية كان التاريخية، السنة العاشرة، ع٨، ص٢٨.

(١٩٣) فاطمة بلهواري: المرجع السابق، ص٢٨.

(١٩٤) مصطفى عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية بالمغرب، ص٨٦-٨٧.

(١٩٥) مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص٢٩٧.

(١٩٦) مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص٢٩٩.

(١٩٧) رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، تُونس، الشركة التُّونسية للتوزيع، ١٩٧٨م، ص١٢٣.

(١٩٨) رحلة التجاني، ص١٢٢.

(١٩٩) مجهول: الاستبصار، ص١٧٩.

(٢٠٠) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٨٠؛ البكري: المغرب، ص١١٠.

(٢٠١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١١٣.

(٢٠٢) مارمول: أفريقيا، ج٣، ص٨.

(٢٠٣) البكري: المغرب، ص١٤٧؛ فاطمة بلهواري: النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، ص٣٠؛ سوادي عبد محمد: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية بسجلماسة، ص٣٣٥.

(٢٠٤) مجهول: الاستبصار، ص١٧٧؛ الحميري: الروض المعطار، ص٦٠٧؛ مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص٢٩٨.

(٢٠٥) مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص٢٩٨؛ ريكاردو كوردوبا: الصناعات المتوسطة، ضمن كتاب «ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات»، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص٢٤٦.

(٢٠٦) الطيبي: العرب في الأندلس وصقلية، ص٣٢٤.

(٢٠٧) مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص٢٩٨؛ مصطفى عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية في المغرب، ص١٢٤.

Munro, John H.: Spanish Merino Wools and the Nouvelles Draperies: an Industrial Transformation in the Late Medieval Low Countries; The Eco-nomic History Review, 2nd ser. 58: 3 (August 2005) 438-439.

(٢٠٨) مصطفى نشاط: إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٣م، ص٧٦.

(٢٠٩) البكري: المغرب، ص١٧١؛ مجهول: الاستبصار، ص٢١٤-٢١٥.

(٢١٠) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤١٧؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٤٩.

(٢١١) فاطمة بلهواري: المرجع السابق، ص٣٠.

(٢١٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٥٠.

(٢١٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٨.

(٢١٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٨٤.

(٢١٥) البكري: المغرب، ص١٤٧.

(٢١٦) المصدر السابق، ص١٥٨؛ مؤلف مجهول: الاستبصار، ص٢١٥.

(٢١٧) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٤٢.

(٢١٨) نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق: جمعة شيخة، مجلة دراسات أَنْدلسية، ٢٠١١م، مج١، ص٦٠.

(٢١٩) عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج في المغرب الوسيط، ص٥١.

(٢٢٠) ابن حوقل: المصدر السابق، ص١١٥؛ ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٥، ٧٠، ١٠١، ١٤٥.

(٢٢١) صالح فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠٦.

(٢٢٢) صورة الأرض، ص١١٥.

(٢٢٣) العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٦.

(٢٢٤) فرحة الأنفس، ص٢٤.

(٢٢٥) الأنواء، ص٣٧، ٣٩، ٦١، ٦٢، ٧٥، ٧٧، ٨٩، ٩١، ٩٧، ١٠٥، ١١٩، ١٣٣، ١٤٥.

(٢٢٦) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠٦.

(٢٢٧) القزويني: آثار البلاد، ص٥٣٩.

(٢٢٨) خالد عبد الله: مدينة مَالَقَة، ص٢٢٣.

(٢٢٩) ابن الخطيب: معيار الاعتبار، ص٧٩، ٨١، ٨٤، ٩١.

(٢٣٠) أحمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص٣٠١.

(٢٣١) القزويني: المصدر السابق، ص٢١٥.

(٢٣٢) لوسي لوبيز: نباتات النَّسيج والصباغة، ص١٤٠٠.

Serjeant. R. B.: Material for a History of Islamic Textiles up to the Mon-gol Conquest Ars Islamica, Vol. 15/16 (1951), p. 55.

(٢٣٣) Goitein. S. D.: The Main Industries of the Mediterranean Area as Reflected in the Records of the Cairo Geniza, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 4, No. 2 (Aug., 1961), p. 180; Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 60.

(٢٣٤) المسالك والممالك، ص٤٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥٤٢.

(٢٣٥) سَرَقُسْطة: مدينة من قواعد الأندلس اشتهرت بمكانتها التجارية لإنتاجها الفاكهة والثياب الجيدة. معجم البلدان، ج٣، ص٢١٢-٢١٣.

(٢٣٦) نفح الطيب، ج١، ص١٩٧.

(٢٣٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢٤٠؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص١٨٩.

(٢٣٨) التجاني: رحلة التجاني، ص٦٨؛ العمري: مسالك، ج٤، ص٩٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٤.

(٢٣٩) النوادر والزيادات، ج٩، ص١٤٥.

(٢٤٠) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٤٢؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٥٧.

(٢٤١) صورة الأرض، ص٩٥.

(٢٤٢) فاطمة بلهواري: النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، ص٣٠.

(٢٤٣) القزويني: آثار البلاد، ص١٧٥.

(٢٤٤) المصدر السابق، الجزء السابق، ص١١١.

(٢٤٥) النويري السكندري: الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية من مخطوطة برلين وبانكي بور، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهِنْد، ١٩٧٠م، ج٣، ص٣٤٨.

(٢٤٦) برنشفيك: تاريخ أفريقيا، ج٢، ص٢٣٤.

(٢٤٧) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٧١؛ مارمول: أفريقيا، ج٢: ص١٠٦.

(٢٤٨) ابن الوزان: المصدر السابق، ص١٧٥.

(٢٤٩) الحميري: الروض المعطار، ص٤٤٨؛ سحر سالم: مدينة قادس، ص١٢٦.

(٢٥٠) Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 55.

(٢٥١) البكري: المغرب، ص١٧١؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٥١.

(٢٥٢) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٣٥؛ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص١١٣.

(٢٥٣) مارمول: أفريقيا، ج١، ص٧٣.

(٢٥٤) مجهول: الاستبصار، ص٢١٤-٢١٦.

(٢٥٥) النويري: الإلمام، ج٣، ص٣٤٨؛ ابن الحشاء: مفيد العلوم ومبيد الهموم «وهو تفسير الألفاظ الطبية الواقعة في كتاب المنصوري للرازي»، تحقيق: جورج. س. كولان وآخرون، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤١م، ص١٠٣.

(٢٥٦) البكري: المغرب، ص٤٩.

(٢٥٧) القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م، ص٣٢٥.

(٢٥٨) Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 73.

(٢٥٩) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٨٤.

(٢٦٠) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٩٧.

(٢٦١) ويذكر العذري عن سَرَقُسْطة: «ولأهل سَرَقُسْطة فضل وحكمة في صنعة السمور والبراعة فيه بلطف التدبير.» ترصيع الأخبار: ص٢٢.

(٢٦٢) ابن أبي زيد: النوادر، ج٩، ص١٤٥، هامش ٧.

(٢٦٣) النويري: النبات، ج٣، ص٣٤٨.

(٢٦٤) فاطمة بلهواري: النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، ص٢٨.

(٢٦٥) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٦٣؛ العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٦.

(٢٦٦) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٠١.

(٢٦٧) دوزي: تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص٢٥٠؛ نصر عوض حسين: صناعة النَّسيج في العصر المملوكي في مصر، ص٤٠.

(٢٦٨) الزجالي: الأمثال العامة في الأندلس، ص٩١.

(٢٦٩) علي جمعان الشكيل: صناعة الأصباغ في الحضارة الإسلامية، مجلة آفاق، السنة الثامنة، ع٣٢، ٢٠٠١م، ص١٤٨.

(٢٧٠) التبصرة بالتجارة في وصف ما يُستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة، عُني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرحمانية، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٣٥م، ص٣٣٩.

(٢٧١) صورة الأرض، ص١١٤.

(٢٧٢) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٨٩.

(٢٧٣) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص١٣؛ المقري: نفح الطيب، ج١: ص١٤١.

(٢٧٤) Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 70.

(٢٧٥) الدينوري: النبات، ص١٦٨.

(٢٧٦) القزويني: عجائب المخلوقات، ص٣٢٩.

(٢٧٧) النابلسي: علم الملاحة، ص١٤٨.

(٢٧٨) ابن بصال: المصدر السابق، ص١١٦.

(٢٧٩) النابلسي: نفس المصدر، ص١٤٩.

(٢٨٠) متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، مج٢، ص٣١٥.

(٢٨١) العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٦؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٥٩؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٦٢.

(٢٨٢) العذري: المصدر السابق، ص١١١؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٦٠؛ الحميري: المصدر السابق، ص١٦٩.

(٢٨٣) العذري: ذكر بلاد الأندلس، ص٩٣.

(٢٨٤) مجهول: نفس المصدر، ص٧٦.

(٢٨٥) الدينوري: قطعة من الجزء الخامس من كتاب النبات، ص٩٧؛ النابلسي: علم الملاحة، ص١٥٤.

(٢٨٦) النابلسي: المصدر السابق، ص١٥٥.

(٢٨٧) ابن بصال: الفلاحة، ص١١٧.

(٢٨٨) متز: الحضارة الإسلامية، مج٢، ص٣١٥.

(٢٨٩) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٩٢.

(٢٩٠) البكري: المغرب، ص٥٣.

(٢٩١) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٨٨؛ الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٠؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٤٣؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٤٧؛ متز: المرجع السابق، مج٢، ص٣١٦.

(٢٩٢) ابن الخطيب: مشاهدات، ص٣١؛ معيار الاختيار، ص٨٤؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٧٦.

(٢٩٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢١.

(٢٩٤) ابن غالب: المصدر السابق، ص٥٥–٢٨٤؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٦٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٢٩.

(٢٩٥) العذري: ترصيع الأخبار، ص١٧؛ الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٩٠؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥١٣.

(٢٩٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٥٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص٦٠٦.
(٢٩٧) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠٤.
(٢٩٨) عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج في المغرب الوسيط، ص٥٠.
(٢٩٩) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٦.
(٣٠٠) الإدريسي: المصدر السابق، ج١، ص٢٥٣.
(٣٠١) الإدريسي: نفس المصدر والجزء، ص٢٢٦.
(٣٠٢) البكري: المغرب، ص١٥٨؛ نبيلة عبد النظير: الأوضاع الحضارية والسياسية لمدينة أودغست، ص١٤٩.
(٣٠٣) البكري: المصدر السابق، ص١٦٨.
(٣٠٤) نبيلة عبد النظير: المرجع السابق، ١٤٩.
(٣٠٥) كتاب الجغرافيا، ص١٢٤؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص٥٦.
(٣٠٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٢٧.
(٣٠٧) أحمد الطاهري: الفلاحة العمران القروي، ص٢٤٤.
(٣٠٨) محمد المقر: اللباس المغربي، ص٨١.
(٣٠٩) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٢٨.
(٣١٠) محمد المقر: المرجع السابق، ص٨١.
(٣١١) مصطفى نشاط: إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، ص٧٥.

الفصل الثالث

صُنَّاع النَّسيج في الغرب الإسلامي منذ القرن ٥–٩هـ/١١–١٥م

(١) أصناف صُنَّاع النَّسيج في الغرب الإسلامي

أعلى الإسلام من شأن الحِرف والصناعات والقائمين عليها بشكل عام، بعد أن كانت تلاقي نوعًا من الاحتقار والازدراء والمهانة في ثقافات العالم القديم من عبرانيين ويونان ورومان، وكذلك العرب قبل مجيء الإسلام،[١] فإن أراد أحدهم أن يسبَّ شخصًا يقول له: «يا ابن الصانع!»[٢] غير أن تلك المفاهيم الخاطئة عن الصِّناعة قد تأرجحت بين التحقير تارة والتقدير تارةً أخرى، خلال فتراتٍ كبيرة من تاريخ الغرب الإسلامي، فالأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨–٢٧٣هـ) في حديثه إلى وزيره هشام بن عبد العزيز يقول: «كنا لا نخلف آباءكم في فيكم، ولا نخلفكم في أبنائكم، فعند من نضع إحساننا ونربُّ معروفنا؟ عند أبناء القَزَّازين والجزارين والحجامين وأشباههم من الغاصين للهيئة، المخلين بالأبهة.»[٣] وعُد الصُّنَّاع في القيروان من طبقة العامة والدنيا بها،[٤] غير أنه خلال الفترات اللاحقة من تاريخ الغرب الإسلامي في العهد الحفصي إبان القرنين ٧-٨هـ/١٣-١٤م ونتيجة لتطور الصِّناعة أصبحت بعض صناعات النَّسيج من المهن التي عمل بها أفاضل الناس، ولم تكن من المهن والحِرف الوضيعة التي حط من شأنها العامة،[٥] هكذا يتضح أن الصِّناعة ومفهومها تغيَّر حسب ثقافة المجتمع المحيط بها، فكلما اختلط المجتمع بالحضارات الأخرى من خلال الصِّناعة والتجارة، كما حدث خلال العهد الحفصي؛ تطورت الصِّناعة وعكست حضارة مجتمعها.

وارتبطت الصِّناعة ارتباطًا لصيقًا بالمواد الخام اللازمة لها، لأن من دونها تنعدم الصِّناعة، فصناعة النَّسيج قامت على نوعَين من المواد الخام؛ المواد الخام الزراعية القائمة على الكَتَّان والقُطْن والقُنَّب وغيرها من النباتات النَّسيجية، والمواد الخام الحيوانية المرتكزة على الصوف والحرير وصوف البحر والأشعار والأوبار وغيرها من الألياف الحيوانية.

وانقسمت صناعة النَّسيج إلى قسمَين: صناعات نظيفة: وهي التي يتعاطاها أصحابها دون أن تتسخ ثيابهم أو أبدأنهم أو يلوثوا أماكنهم التي يشتغلون بها، كالخِياطة التي لا يتسخ بها البدن ولا الثياب ولا المكان، والوراقة والبزازة والصرف والحِياكة وفتل الحبال والغَزْل والرفو، وصناعات وسخة: وهي التي يتَّسخ بدن أو ثَوْب متعاطيها، أو تلوِّث المكان الذي يعمل به، كالقصارة والصباغة؛ ولهذا اتخذت أماكنها خارج المدن، وقد عمل القصارون خارج أبواب المدن.[٦]

ويذكر الدمشقي[٧] في هذا الشأن أن الصناعات انقسمت إلى: صناعاتٍ علمية وصناعاتٍ عملية، فمن الصناعات العلمية الفقه والنحو والهندسة، والصناعات العملية كالحِياكة والفلاحة ومشط الصوف والكَتَّان.

ونتيجة لإلمام صُناع الغرب الإسلامي بأمور صنعتهم، عملوا فيما بينهم على إدراك وفهم واستيعاب طبيعة عملهم بخلق جو من التنافس الحِرفي والمهني فيما بينهم، وهو ما أكده ابن غالب عن مهارة وحذق الأندلسيين لصنائعهم فقد فاقوا أهل العدوة المغربية وقطعوا معاشهم وأخملوا أعمالهم وصيَّروهم أتباعًا لهم ومتصرفين بين أيديهم، ويضيف المقري[٨] أن الأندلسيين «متى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يُميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم.»

ومن الإشارات التي توضح ما وصلت إليه الصِّناعة في بلدان الغرب الإسلامي، الصفات التي اتصف بها حِرفيُّوه وصناعه؛ إذ تميزوا بالخبرة والمهارة في صنعتهم، وعلى سبيل المثال صُناع الحرير والقُطْن؛ حيث تقدموا فيها على غيرهم في هذا الشأن، فيُذكر أن حاكم أراجون جيمس الثاني أرسل صناعًا مسلمين للحَرِير من إسبانيا إلى صِقِلِّيَّة — التي كانت تتبعه في ذلك الوقت — في حين استقدم صناعًا مسلمين للقُطْن من صِقِلِّيَّة للاستفادة من مهاراتهم وخبرتهم،[٩] أو ما فعله جيمس الأول ملك أراجون في عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م، وبعد سيطرته على بلنسية وسقوطها من قبضة المسلمين؛ فقد أعطى صُناع المدينة المسلمين فرصة ليساهموا في ازدهار المدينة صناعيًّا لتعود لسابق عهدها مركزًا للنسِيج، ولم يكتفِ جيمس بهذا، بل منحهم امتيازاتٍ خاصة لمواصلة صنعتهم

وإنتاج سلعهم الجيدة والشهيرة؛ فمنح الحِرفيين الورش والمصانع والحوانيت ملكًا لهم دون البيع لمدة عشر سنوات، بالإضافة لتزويدهم بكل ما يحتاجونه من أدوات وموادَ خام خاصة بعملهم؛ فكانت جميعها معفاة من الضرائب.[١٠]

ويتضح من تلك الإشارات السابق ذكرها؛ أن ما تمتع به حِرفيُّو وصُناع النَّسيج بالغرب الإسلامي من مهارة وإتقان في فنون صنعتهم وجد نوعًا من أنواع التنافسية الصناعية بينهم؛ فكثر الطلب عليهم في البلدان والمقاطعات الأوروبية وازدادت أعمالهم وتنوَّعت، نظرًا لخبراتهم الكبيرة والطويلة في صناعة النَّسيج.

(٢) أصناف صُناع النَّسيج في الغرب الإسلامي

أدى التماسك بين أصحاب الحِرف والمهن إلى ظهور الأصناف وبخاصة فيما يتعلق بالنَّسيج، والأصناف كما يوضِّحها ابن منظور[١١] بقوله: «الصنف النوع والضرب من الشيء، يُقال صنف من المتاع، والجمع أصناف وصُنُوف.» وهو التميُّز بين الأشياء ويقال عنه «التصنيف».

والحِرفيون هم من تجمعهم حِرفةٌ واحدة أو ينتمون لحِرفٍ أخرى، ويكونون فيما بينهم كتلةً واحدة أو ما يشبه نقابةً حِرفية، وهي عبارة عن عَقد تأسيسي يُحدِّده العرف ويُسلِّم به الداخلون ويُقسِمون على احترامه، وانصبَّ اهتمامه على عدة أمور، منها:

- تنظيم أمور الحِرفة والحفاظ على أسرارها.
- الحفاظ على ثبات الأسعار للمنتجات الصناعية.
- الحفاظ على مستوى الصناع.
- مواجهة الأخطار والنكبات.[١٢]

وأظهرت النزاعات والخلافات والاعتداءات — خارجية أو داخلية — بالإضافة إلى الكوارث والنكبات بين أهل الحِرف أنفسهم، لأن يتضامنوا ويتَّحدوا بخلق نوعٍ من التأمين المادي لمجابهتها، كرغبة أحدهم في الزواج ولا يملك ما يكفيه للزواج؛ فيتكاتف الصُّناع بمساعدته بطريقة تحفظ كرامته وتعينه على قضاء حاجته، مثلما حدث في سلا إبان القرن ٨هـ/١٤م فقد استحدث النساجون فيها بالاشتراك مع تجَّار النسيج صندوقًا احتياطيًّا كان دخله من درهمٍ واحد، يُؤخذ عن كل قطعة قماش تُباع، ورصدوا المتجمِّع في ذلك لمواجهة الضرائب العادية والاستثنائية وما يواجههم من أخطار ومشاكل،[١٣] في

حين يُرجِع البعض بداية ظهور الأصناف — النقابات — في الغرب الإسلامي وبخاصة في إفريقية إلى العهد الحفصي، غير أن الأصناف في بلاد المشرق الإسلامي ترجع إلى القرن الثاني الهجري أو القرن الرابع الهجري.[١٤]

وعلى ما يبدو، فإن كثيرًا من سمات التخطيط الإسلامي ساهمت في تواجد أهل الحِرف والصناعات داخل المدن، وهو ما وَضَح عند تخطيط مدن الغرب الإسلامي بوجود بعض التجمعات الخاصة لكل مهنه أو حِرفة؛ فكان لكل نوع منها شارع أو سوق باسمه،[١٥] بدلالة أبواب وأرباض المدن التي سُمِّيت بأسماء مهنها؛ كوادي القصارين بالقيروان،[١٦] وحيُّ الكمادين،[١٧] وقنطرة الصبَّاغين،[١٨] ومقابر القصارين،[١٩] وطاحونة الحلفاويين بتونس،[٢٠] وحيُّ الطرازين بقُرْطُبَة.[٢١]

هذا ومن اللافت للانتباه أن صُناع الغرب الإسلامي — في بعض المدن — كانت لهم شاراتٌ خاصة بهم، فكان لكل صنعة شارة تميزها عن غيرها، وتبرز كل فرقة من أهل الصِّناعة عن الأخرى خاصة عند الاقتضاء والنزاعات التي قد تنشب بينهم، والشارة عبارة عن علم يحمل شعار كل صنعة وما يناسبها، وهو ما ذكره القلقشندي[٢٢] عن بني مرين وخروج السلطان للاحتفال بليلة العيد بقوله: «وفي ليلة العيدين يُنادي والي البلد في أهلها بالمسير، ويخرج أهل كل سوق ناحية، ومع كل واحد منهم قوس أو آلة سلاح، متجمِّلين بأحسن الثياب، ويبيت الناس تلك الليلة أهل كل سوق بذواتهم خارج البلد، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم عليه رَنْك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم.»

وقد أسهمت التطورات الداخلة على أهل الحِرف والمهن في تنظيم هيكلهم وإكسابهم نظامًا متدرجًا فيما بينهم، ولم تكن هذه التدرجات واضحة المعالم في بداية الحكم الإسلامي، لكن سرعان ما تمكن الصُّناع والحِرفيون من تكوين سلم حِرفي فيما بينهم، من خلال تحديد مراحل هذا التدرج، فيبدأ بالمبتدئ، ثم الصانع الأجير، ثم الصَّانع، ثم المُعَلِّم، وفي النهاية يتربَّع على قمة السلم الحِرفي أهل الحذقة والخبرة من الصُّناع وهم النقباء أو الأمناء.

(٢-١) المبتدئ

بين ابن منظور[٢٣] معنى المبتدئ قائلًا: «من أبدأت بالأمر، ابْتَدأتُ به وبدأت الشيء: فعلته ابتداءً.» فالمبتدئ هو أدنى درجات الحِرفيين، فهو الصبي أو الغلام «فإن عطب الصبي

أو الغلام»[٢٤] وينضم هذا المبتدئ إلى مُعَلِّمه ليكتسب ويتعلَّم أسرار المهنة وتقاليد أهلها، وفي بعض الأحيان لم يكن يتقاضى المبتدئ أجرًا نظير عمله، بل إن ولي أمره كان يدفع أجرًا لمُعَلِّمه مقابل تعلُّم وليه الصنعة، وفي بعض الأوقات كان أجر المبتدئ هو عمله كما ذُكر «وقال أيضًا فيمن دفع غلامه إلى من يُعلِّمه الخَبز والطبخ، يكون العبد عند مُعَلِّمه على أجر معلوم.»[٢٥] «أرأيت إن دفعت غلامي إلى خياط أو قصار ... يعلمونه ذلك العمل بأجرٍ معلوم ودفعته إليهم ... وكذلك إن دفعته إليهم ليعلِّموه ذلك بعمل الغلام سنة.»[٢٦] كما حدث لأحمد بن محمد بن زكري الذي كان يتيمًا فربَّته أمه وأرسلته ليتعلم حِرفة الحِياكة وكانت أجرته نصف دينار في الشهر «وأتت به يتعلم الصنعة وأدخلته في طراز عند مُعَلِّم ليتعلم الحِياكة وبقي عنده حتى تعلم النسج.»[٢٧] وفي بعض الأوقات حصل أولئك الصبية المبتدئون على أجر مقابل تأدية عملهم، خاصة أن ذلك العمل كان بنظام العمل لا بالوقت، كما ذكر ابن أبي زيد:[٢٨] «فيمن أجر غلمان يخيطون مشاهرة وهو يقاطع الناس على الثياب، فيطرح على أحدهم ثَوْبًا على إن فرغ منه اليوم فله بقية يومه، وإلا فعليه تمامه في يومٍ آخر لا يحسب له في الشهر.»

فلهذا عمد الصنَّاع وأولياء أمور أولئك المبتدئين إلى تحرير عقد ليحفظ كل طرف منهم حقه، بتحديد نوعية العمل، والوقت، بالإضافة إلى الأجرة المتفق عليها، وفي ظل تلك الظروف عانى المبتدئون من ثقل الجهد الموكول إليهم نتيجة لاستغلال مُعَلِّميهم لهم بشكل قاسٍ ومُهين، خاصة إن كانوا أيتامًا لا ولي لهم أو مُعيل. أما في حالة تعلم الأبناء للحِرفة أو للصنعة من الآباء والأجداد فإنهم يتقنونها بشكلٍ بارع حتى يتوارثوا الحِرفة فيما بينهم ولا تندثر، مثلما فعل أهل الذمة وبخاصة الصُّناع اليهود.[٢٩]

(٢-٢) الصُّناع الأجراء

الأجراء هم من يمارسون أعمالهم لحساب الغير لقاء أجورٍ مُحدَّدة يتقاضونها ممن استأجرهم، وكان يشترط عند استئجار الصُّناع الأجراء أن تُحدَّد الأجرة والوقت حتى لا تنشب خلافات بين الطرفين؛ فكان «لا يجوز لرجل أن يستأجر رجلًا في شيء؛ خِياطة أو صبغ أو خرز أو دلالة حتى يتفق معه على أجرةٍ معلومة.»[٣٠]

وقد يشترك في بعض الأحيان أكثر من عاملٍ أجير في تأدية عملٍ واحد فيما بينهم، كالخِياطة مثلًا، فكانوا يقسمون العمل فيما بينهم،[٣١] والأجراء كغيرهم من العمال يبدأ عملهم في الصباح؛ فمن عادتهم العمل بعد صلاة الفجر وقد يستمر العمل إلى صلاة

المغرب، ويتوقَّف العمل يوم الجمعة ويُخفَّف في شهر رمضان، وتختلف مواعيد العمل من الصيف إلى الشتاء؛ نظرًا لطول مدة النهار في الصيف وأثرها على أداء الصُّناع،[٣٢] وبعض الحالات كان يُؤجَّر الأجير لمدة تطول تصل لشهر «بأن يؤجِّر نفسه في خِياطةٍ شهرًا.»[٣٣]

ونظرًا لطبيعة مجتمع الغرب الإسلامي وما تمتع به من خصوصية؛ يؤدِّي الأجير في أغلب الأوقات عمله داخل بيت مَن استأجره، إما لعدم وجود من يُتابع العمل من الرجال أو لحرص أصحاب العمل على خصوصيته، وفي بعض الأحيان يفسد الصانع ما جاء لإصلاحه أو لعمله، أو يفقد العمل الموكل إليه، كقول أحدهم: «فإني استأجرت خياطًا يخيط لي في بيتي فضاع ما استأجرته له.»[٣٤]

وقد رُوعي عند استئجار الصُّناع الأُجراء أن تُحدَّد مواعيد عملهم، وطبيعة العمل المُوكل إليهم، ومواصفات الإنتاج، مع التنويه بضرورة القيام بتوابع العمل، وعلى من تقع المسئولية فيما يخص الأدوات، بالإضافة لضمان الصانع لعمل يده.[٣٥]

فضلًا عن تحديد المقاسات والأطوال، وهو ما جاء ذكره في أحد العقود بشكلٍ جلي ففي «عقد تاريخه شعبان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، فيه أنه دفع إلى مفرج بن مبارك النساج؛ عشرة مثاقيل قديمة طيبة، على نسج أربعين شقة خز، كل شقة من ستين بيتًا، سعة كل شقة أربعة أشبار، وطولها ست عشرة ذراعًا.»[٣٦] ويذكر الونشريسي[٣٧] في إحدى النوازل عن استئجار صانع لعمل عمامة بقوله: فكانت «عادة هذا الصانع إذا استؤجر على عملها يكتال عرض العمامة بمعاينة ربها، يتفق معه بثمنٍ معلوم بعد أن يحيطا خبرًا بصفتها ولونها، وربما يريه مثلًا يتفقان عليه ويذكر وقت الشروع كاليوم ونحوه، وتارة يشترط تقديم الثمن، وتارة يؤخر إلى الفراغ من عملها.»

وهنا لا بد من الحديث عما يتقاضاه الصانع الأجير وبخاصة أجير النَّسيج؛ لأن في ذلك عُرفًا يُقاس عليه ويُقدَّر، فلا يجوز أن يُستأجر أحد في أمور خِياطة ولا غيرها إلا بعد الاتفاق على أجرة ووقتٍ معلومَين يرضي الطرفين،[٣٨] فمنهم من تقاضى «نصف دينار في الشهر»[٣٩] لأنه أحيانًا وبعد الاتفاق يُنكر صاحب الثوب أو صانعه قيمة الأجرة «فيقول رب الثوب بدرهمين والصانع بأربعة.» نظير خياطته،[٤٠] أو يُؤجر على خِياطة ثِياب تُسمى له وتوصف، أو يصنعها بيده دون غيره وهو من شروط الاتفاق، لأن كثيرًا من الصُّناع ونتيجة لكثرة الأعمال المُوكلة إليهم كانوا يعطون الثياب التي لديهم لصُناع آخرين حتى يفوا بميعادهم ولا يفقدوا زبائنهم، إما لشهرتهم ودقتهم في الصنع، أو لظروف منعتهم

من القيام بالعمل في وقته،[٤١] أو أن خياطًا يعرض عمله وأُجرته على أحد بقوله: «أخيط لك هذا الثوب بمثل ما خطتُ به لفلان من الأجر والصِّناعة والصبَّاغ، يصبغ لرجل ثوْبًا فهو بهذه المنزلة، وكل هذا مكروه عند مالك، وكذلك في الإجارة يقول أؤاجرك نفسي مثلما آجر فلان نفسه.»[٤٢]

وفي بعض الأوقات — وإن قلت — أنكر الأجير العمل الموكل إليه وقيمته، كالذي أوكل إليه أن يبيع فروًا ثم حصل على ثمنه لنفسه، وادعى أن الفرو له وليس لمن استأجره،[٤٣] وهو ما يعني أن الأجرة والإجارة «لا تكون إلا بتسمية معلومة وأجل معلوم.»[٤٤] وقد يحدث هذا نتيجة لعدم وجود عقود أو شهود على ذلك الأمر، أو أحدهم «يحبس العين على الأجرة.» أي يحجب ما كُلِّف بعمله حتى يحصل على أجرته.[٤٥]

(٢-٣) الصانع

الصانع هو المنتصب لبيع صنعته بمحله،[٤٦] وانقسم الصُّناع لفئتين؛ الأولى: وهم الصُّناع المشتغلون بأجرة خاصة في الأماكن التابعة للسلطة كدور الطرز أو من يعملون لدى الصُّناع الكبار والمُعَلِّمين، والثانية: هم من يعملون لحسابهم في حوانيتهم أو منازلهم، إما بتعلمهم الحِرفة أو الصنعة، أو أنها متوارثة عن الآباء والأجداد وفي حالة تعلم الأبناء الحِرفة أو الصنعة من الآباء والأجداد فإنهم يتقنونها بشكلٍ جيد يسمح لهم بمزاولتها.[٤٧]

ووجب على الصانع احترام مُعَلِّمه أثناء مزاولة عمله، ومن مظاهر هذا الاحترام أن يمشي خلفه، ويقضي له حاجاته، مطيعًا لأوامره، مدافعًا عن مصالحه، يتحمَّل عنه العقوبة والهوان،[٤٨] فضلًا على أن يتبع إرشاداته ونصائحه، ولا يتبعه في أمور الغش والتدليس التي عادة ما اشتهر بها بعض من صُناع النَّسيج.[٤٩]

(٢-٤) المُعَلِّم

هو الصانع المنتصب لعمل، ويملك عناصر الإنتاج والصنعة من رأس المال والأيدي العاملة، ومحل الصِّناعة والعمل، وكذلك التنظيم؛ لهذا أُلزِم بأن يقع عليه الضمان فيما يصنعه وما يقع تحت إشرافه من صُناع ومبتدئين وأُجَراء، فكانت علاقته بهم مبنية على الاحترام، يُعلِّمهم أسرار الصنعة ويمكنهم فيها ويعاونهم ويعاونونه، وقد يدفع الصُّناع أجورًا

مقابل العمل لديه، وفي الغالب كانت زهيدة، خاصة المبتدئين منهم والذين تَكفَّل عنهم أولياء أمورهم بدفعها.[٥٠]

وهو ما تؤكده النوازل الفقهية كالذي «دفع غلامه إلى من يعلمه الخبز والطبخ، يكون العبد عند مُعَلِّمه.»[٥١] ما يوضح رغبة أولياء الأمور في دفع صبيانهم وغلمانهم ليتعلَّموا حِرفة أو صنعة، أو كالتي «دفعت غلامي إلى خياط أو قصار ... يعلمونه ذلك العمل.»[٥٢] أو أن هؤلاء الصبية يدفعون أنفسهم لأحد المُعَلِّمين دون علم ولي أمرهم لتعلُّم حِرفة «أريت أن صبيًّا آجر نفسه وهو صغير بغير إذن وليه.»[٥٣]

وقد نُهي عن اتباع أوامر المُعَلِّمين فيما يتعلق بمخالفة الشرع في عملهم، التي يُسفر عنها الغش والتدليس، خاصة بعض الخياطين — المُعَلِّمين — فكان يكلف الصانع الذي يعمل لديه أن يخيط بالخيط غير المفتول؛ لأن الخيط إذا لم يُفتَل لا تكون خياطته قوية بل ضعيفة، أو يأمره بأن يوسع بين الغرزتين أثناء الخِياطة، وفي بعض الأحيان يخيط الثياب المنهي عن خياطتها أو التي لا يجوز لبسها.[٥٤]

(٢-٥) العريف أو النقيب أو أمين الصنعة

ظهر من بين الصُّناع أفرادٌ مهرة نبغوا في أعمالهم وصنعتهم أُطلق عليهم العرفاء، فوُجد عريف لكل مهنة وحِرفة، خاصة من الحاكة وتجار البز، يُلجأ إليه عند وقوع الخلافات في أمور الصنعة والبيع، أو الوقوف أمام بعض الإجراءات الحكومية التعسفية التي كان يلاقيها الصُّناع في بعض الأوقات،[٥٥] لأنه من أهل المعرفة بالهندسة والصِّناعة،[٥٦] لهذا تمتع الأمين بسلطاتٍ واسعة بين أبناء صنعته فهو مرجعهم في نزاعاتهم الشخصية والمهنية،[٥٧] فوقع على عاتقه اختيار الصُّناع الجدد لكل حِرفة أو صنعة،[٥٨] فهو وسيط بين أهل حِرفته والمحتسب في كل ما يتعلق بشئون الحرفة، وله حكمٌ ظاهر وواضح على الصُّناع، يُطلعهم على قواعد وأسس العمل المهنية، بالإضافة إلى أنه المسئول أمام المحتسب عن أي مخالفة فيما يتعلق بالأمانة المهنية للصناع،[٥٩] وللعريف رئيس يسمى عريف العرفاء، أو شيخ العرفاء، فيذكر ابن عبدون[٦٠] في هذا الشأن «يجب على القاضي أن يجعل في كل صناعة رجلًا من أهلها فقيهًا، عالمًا، خيِّرًا، يُصلح بين الناس إذا وقع بينهم الخلاف في شيء من أمورهم ولا يبلغون الحاكم، وهو شيءٌ حسن جدًّا، وهو العريف، ويجب أن يكون أهل ثقة عارفًا بأمور الصنعة، يأمر بعدم خلط الأموال، وأن يراقب الموازين والمكاييل وكذلك السنوج.»

ومن طريقة اختيار العريف — الأمين — نشأت صلة بين السلطة الحاكمة وهؤلاء العرفاء؛ فبواسطتهم أشرفت السلطة على معظم المهن وسير الأمور بالأسواق بالطريقة التي تقبلها.[٦١]

وعلى أثر ذلك كان للحِرفيين والصُّناع دورٌ مهم في مجتمع الغرب الإسلامي، وإن كان ذلك بشكلٍ عام، فتمثل ذلك الدور المجتمعي في:

(١) تعليم أسرار المهنة للصبية المتدربين.
(٢) المراقبة الفنية للمتدربين في المهنة الواحدة ومنع الغش والتدليس.
(٣) المشاركة في تحديد الأجور وأسعار السلع، ويكون ذلك بصفةٍ خاصة للأمناء.
(٤) هو حلقة الوصل بين الحِرفيين والصُّناع والسلطة عن طريق المحتسبين في توصيل طلباتهم وشكواهم للسلطة.[٦٢]

(٣) تضمين صُناع النَّسيج

جاءت مسألة تضمين الصُّناع والأجراء الموكل إليهم صنع أو إصلاح شيء ما كأمرٍ ضروري؛ لأنه لو ترك الصُّناع على حالهم دون تضمين؛ نتج إهمال وضياع وهلاك الأموال والأمتعة، فتكثر الخيانة ويقل الحذر؛ فوجب عليهم الضمان. وفي الأصل أن الصُّناع الأُجراء لا ضمان عليهم؛ لأنهم مؤتمنون، ولأنهم أجراء ولا ضمان على الأجير بقوله ﷺ: «لا ضمان على مؤتمن.»[٦٣] وبقوله ﷺ: «إن على اليد ما أخذت حتى تؤدي.» فتعدَّدت الأسباب التي أدَّت للتضمين ما بين التلف، والعدوان، والغصب، ووضع اليد، والتسبب في الإتلاف؛ فكلها أمور أوجبت التضمين على الصُّناع.[٦٤]

والصانع الأجير أو الأجير المشترك لا يضمن ما أتلفه، فوقع الضمان على الصانع الذي يبيع ما يصنعه أو يصلحه؛ لأنه نَصَّب نفسه لأعمال الناس؛ ما أوجب عليه الإتقان في عمله؛ «لأن الصُّناع ضامنون لما تلف عندهم بأجر أو بغير أجر إلا أن تقوم لهم بينة بأنه تلف من غير سببهم.»[٦٥]

لهذا وقع التضمين على صُناع النَّسيج كالقصار فلا ضمان عليه «إلا ما ضيع أو فرط أو تعدى.»[٦٦] والصبَّاغ والخياط يضمن الثوب إذا أفسده أو أخطأ في إصلاحه أو ضيعه،[٦٧] وكذلك الغسَّال يضمن الثوب إذا ضيعه أو أفسده أو أخطأ فيتحمل قيمة الثوب،[٦٨] والحائك يضمن قيمة الغَزْل.[٦٩]

(٤) شركة الأبدان لصُناع النَّسيج

شركة الأبدان هي اتفاق يشترك فيه اثنان أو أكثر من الصُّناع في عملٍ ما يجمعهما ومكان واحد، وأجاز الفقهاء شركة الأبدان على شروطٍ محددة:

(١) أن تكون الصنعة واحدة.
(٢) الجودة والرداءة واحدة.
(٣) أن تكون النية مجتمعة.
(٤) أن يكون العمل يحتاج إلى آلة كالكمد والنجر والنسج والصيد.
(٥) يعملان في موضعٍ واحد (حانوت) بينهما على السواء أو قدر الأجزاء المشتركة.[٧٠]

لهذا قُدِّر الربح على ما يُنتِج كل صانع من عمله كالخياطين، ويتوقَّف عمل أحدهما على عمل الآخر، فأحدهم يجهز الغَزْل والآخر يقوم بالنسج أو الخِياطة وغيرهما.[٧١]

فمن موجبات شركة الأبدان ألَّا يَعمد أحدهم إلى التفاوض في أمور الصنعة من دون الآخر، أو الاقتراض من غير الآخر، وأن يسعيا معًا ولا يفترقا، وهو ما ألزم كتابة عقود لتوثيق الحقوق؛ فجاءت صيغة عقد شركة الأبدان في الصنعة كما يلي: «اشترك فلان وفلان الحدادان أو الكمادان في عمل الحديد أو الكمد بسوق كذا من مدينة كذا، يقعدان في حانوتٍ واحد، ويعملان فيه على السواء، بعد أن يقيما من أموالهما بالسواء ما تحتاج إليه صناعتهما من آلة ورأس مال، ويكون ما أفاء الله تعالى عليهما فيها من رزق بينهما نصفين، وعلى كل واحد منهما تقوى الله تعالى وبذل النصيحة وإخلاص النية والاجتهاد.»[٧٢]

ومن موجبات هذه الشركة أن يعملا معًا في حانوتٍ واحد كما ذكر الإمام سحنون:[٧٣] «أرأيت الصبَّاغين أو الخياطين إذا اشتركوا على أن يعملوا في حانوتٍ واحد، وبعضهم أفضل عملًا من بعض، أتجوز الشركة بينهم؟ قال مالك: إذا اشتركوا على أن يعملوا في حانوت واحد فالشركة جائزة.» هذا وقد تشارك عدد من الصُّناع في عمل بعض الثياب، وفي هذا الإطار يذكر ابن أبي زيد[٧٤] أنه «ولو شهدوا في ثَوْب أنه غَزْل من قُطْن فلان، ونسج فلان، قال: فالقُطْن قُطْن من شهدوا له بالقُطْن، والغَزْل غَزْل من شهدوا له بالغَزْل، والنَّسيج نَسِيج من شهدوا له بالنسج.»

فمن الواضح أن شركة الأبدان لم تكن موافقة لأحكام الشرع بشكلٍ دائم، واعتبرها الفقهاء شركةً فاسدة بسبب اختصاص البعض بالعمل وبالسلف وهو ما أفسدها.[٧٥]

(٥) صُناع النَّسيج في الغرب الإسلامي

(٥-١) القَزَّاز أو الحرَّار

القَزَّاز لفظ فارسي يُقصد به القائم على تربية دود القز، كما أُطلق على صانع الثياب الحريرية، والحرار هو صانع الحرير،[٧٦] ولم تقتصر مهنة القزازة على الرجال فقط بل عملت بها النساء أيضًا؛ فكثيرًا ما اشتركت النسوة فيما بينهن في شراء بعض الأدوات الخاصة بغَزْل الحرير كـ «ماعون الحرير»، ومنهن من كن يضطررْن للاستدانة لشراء تلك الأدوات.[٧٧]

وانقسم صُناع الحرير إلى عدة أقسام:

(١) إما صانع يعمل بالأجرة عند غيره وينفذ تعليمات مُعَلِّمه، ويأخذ المشورة والرأي منه.

(٢) أو يأتيه الناس بالغَزْل ينسجه لهم وهو ما سُمي بالقبالة.[٧٨]

واتصف قَزَّازو وحرَّارو الغرب الإسلامي بدرجةٍ عالية من المهنية والمهارة فيما يخصُّ صنعتهم؛ ما أثَّر على مكانتهم الصناعية داخل مجتمعهم، كالذي تلقَّى تهديدًا بالقتل من أحد الصُّناع المنافسين لإتقانه عمله وجودة منتجه! إذ حدث لأحد صُناع الحرير المغاربة المقيمين بالقاهرة هو وأخته، أن تلقَّى تهديدًا من قبل بعض صُناع الحرير المصريين المنافسين له داخل المدينة، وأنه إن لم يتوقف عن العمل لانقطاع سبل عيشهم بسبب حزقه ومهارته في صناعة الحرير وعدم قدرتهم على منافسته؛ فإنهم سيقتلونه.[٧٩]

وقد توجب على القَزَّاز أو الحرار أن يراعي عدة أمور، منها:

- منع وصول النجاسة إلى الغَزْل أو الثياب.
- عدم مشيه بقدميه على الغَزْل وبها نجاسة، كما لا توضع على الأرض النجسة أو على موضع نجس، أو نشر الغَزْل على حائط أو حبلٍ نجس.
- أمر صناعه وصبيانه بمراعاة تلك الأمور.

لذا وُضعت المعايير والقواعد لضمان جودة صنع ثَوْب الحرير، منها أن الثوب لا يقلُّ عن اثنين وأربعين بيتًا في النول، وواحدة وعشرين أوقية في الوزن، فما خالف ذلك كان مغشوشًا،[٨٠] وأفضل الحرير الذي تكون سَداه قوية ومتينة، ناعمة الملمس، والثوب الجيد

هو الذي انتظم نسجه وثقل وزنه، أما الرديء منه «فهو ضعيف السَّدَى، خفيف الوزن، رخو النسج، غير زاهي اللون.»[٨١]

وتوجَّب على القَزَّاز والحرار عدم خلط الغَزْل الغليظ والرفيع؛ لأن بعضهم أخذ الغَزْل الرفيع لنفسه وبدَّله بأغلظ منه لغيره، أو بغَزْل الغَزْل العفن الضعيف مع الغَزْل الرفيع ما اعتبر نوعًا من التدليس،[٨٢] أو يحتفظ بعضهم بالخيوط التي تفيض عن الغَزْل والخِياطة، أو يترك أحدًا من صبيانه وغلمانه يرميها، ولكن وجب عليه أن يعطيها لصاحبها مع الثوب، ومنهم من يخيط الثوب أو الخرقة ويكملها بغَزْلٍ سوقيٍّ رديء من عنده أو من غَزْل زبونٍ آخر ليكملها به، ومنهم من يشتري الغَزْل وينسجه لنفسه ويبيعه، فيستخدم الشمع أو الدلك أو بعض المواد التي يترتب عليها إضعاف الغَزْل؛ لأن أغلبهم تساهل في ذلك من أجل البيع والكسب دون بذل مجهود.[٨٣]

كما لجأ القَزَّازون لأمور الغش والتدليس في صنعتهم، بغلي غَزْل الحرير الأبيض الذي عُرف بـ «المصرقة أو المسرقة» نصف غلي وإخراجه ولم يكتمل بعدُ ليصبغ؛ ما يضعف الغَزْل، وبالتالي نسجه عند استعماله،[٨٤] فبعضهم باع الغَزْل إلى الخياطين ولكن سرعان ما يتغير بمجرد غسله لأنه «يتصوف وينفش ويرجع إلى أصله شعرًا.» ومنهم من ينسجه ويبيعه خرقة، أو يمزجه لصنع ثِياب أخرى تكون ضعيفة، أو استخدام بعضهم الشمع أو الزيت أو السمن أو الصمغ أو النشا لجعل الغَزْل أكثر نعومة ولمعانًا وبريقًا فتصير الثياب صفيقة الشكل والملمس بتدليك وجه الغَزْل والثياب بها.[٨٥]

(٥-٢) الكَتَّان

تختلف خيوط الكَتَّان بتنوع خيوطه وأصنافه، فأجوده المصري الجيزي؛[٨٦] لأنه من النوعيات الجيدة وذات الشهرة العالية؛ ولهذا عندما سُئل أحد الفقهاء عن المرأة الغازلة التي تغزل الكَتَّان وتمسك الخيوط بفيها، خاصة في شهر رمضان أثناء فتلها لخيوطه، كانت تستخدم لعاب الفم في ترابط الخيوط وتماسكها، وبما أن الكَتَّان الجيزي من نوعية الكَتَّان ذي الطعم المالح؛ لهذا نهى الفقهاء عن وضع تلك النوعية في الفم لأنه يبطل الصوم؛ فكان الرد «إن كان الكَتَّان مصريًّا فجائز مطلقًا، وإن كان دمنيًّا[٨٧] له طعم يتحلل فهو كذوي الصناعات.»[٨٨]

وتظهر جودة الكَتَّان كلما كان مورقًا ونقيًّا؛ ما يساعد على سرعة غَزْله ونسجه، وكلما كان ألين وأملس وأرطب كان أفضل، على عكس الرديء منه فإنه يتميز بالخشونة

وتفتق النسج وكثرة ما يعلق به،[٨٩] فتوجَّب على الصناع تجفيف الكَتَّان في الشمس لكي يُفرد ويُفند، لأن بعض النسوة كنَّ يدلكن الكَتَّان بالماء كي يزيد وزنه؛ فوجب عليهن تجفيفه، كما توجَّب على اللواتي يغزلن في بيوتهن أن يبعْن غَزْلهن إلى الشيوخ المعروفين بثقتهم في مخالطة النساء، لأن ذلك يعبر عن طبيعة الإسلام والعادات والتقاليد الإسلامية التي تمنع مخالطة الأجانب من الرجال، وفي حالة شرائهن من الأسواق توجَّب عليهن عدم الجلوس على أبواب غزالي وصانعي وتجار الكَتَّان ما كان يُعرِّضهن لمضايقات الصُّناع والتجار، لهذا خُصص للنساء موضع لبيع غَزْلهن داخل الأسواق.[٩٠]

ومن طرق الغشِّ التي اتبعها صُناع الكَتَّان أثناء غَزْلهم ونسجهم الكَتَّان؛ خلط ما يخرج من الكَتَّان الناعم الذي يُعرَف بالقنداس وبيعه على أنه كَتَّانٌ خالص،[٩١] وكذلك جمع السحاح وهو بقايا الكَتَّان بعد ندفه ثم بيعه وهو يشبه بلقط الصوف أو بيعه مكببًا كما في غَزْل القُطْن،[٩٢] فكان يرافق الكَتَّانيين بعض الصُّناع كصُناع الخيش وهو الغليظ من رديء الكَتَّان يصنعون منه بعض الأكسية والمنسوجات،[٩٣] كما مُنع الكَتَّانيون من رشِّ الكَتَّان بالماء أو بجعله في أماكن رطبة كي يرطب، فيثقل وزنه عند البيع.[٩٤] واعتاد الكَتَّانيون استخدام الجير المطفي في تبييض الكَتَّان؛ لهذا خُصص موضع لهم عُرف بـ «دار المبيض».[٩٥]

(٥-٣) القطَّان

القطَّان هو حائك القُطْن، وقيل عنه إنه تاجر القُطْن، وصلب عمله ندف وحَلُّ القُطْن، وهي العملية التي تُعرف بالحلج، والندَّاف ذلك الشخص الذي يقوم بتنظيف القُطْن وفرده، وعمليتا الندف والحلج تحتاج لأيدٍ عاملةٍ كثيرة من العمال،[٩٦] لأن ندف القُطْن يكون بشكلٍ متكرر حتى تزول القشرة السوداء وبقايا بذوره التي تعلق به، لأن وجودها في غَزْل القُطْن يزيد من وزنها ويجلب الفئران والحشرات الضارة له؛ ما يعرض الغَزْل والثياب للتلف والقرض.[٩٧]

ولجأ بعض القطَّانين من أصحاب السمعة السيئة لوضع القُطْن بعد ندفه في الأماكن الندية حتى يرطب ويثقل وزنه عند البيع؛ ما اعتُبر من أنواع الغش والتدليس، ومنهم من يجمع القُطْن المتطاير على الحوائط أثناء الندف ويخلطه مع القُطْن الصافي الذي يسقط من النداف أثناء عمله سافل البسطة، وهي الحجر الصلد الذي يستخدمه القطان في عملية الندف، ثم يبيعه على أنه قُطْنٌ صافٍ، وهو ما نهى عنه المحتسبون، أو يقوم

أحدهم بخلط القُطْن الأبيض بالقُطْن الأحمر، ذي النوعية الرديئة والأقل جودة من القُطْن الأبيض، وبيعه بسعرٍ واحد دون إخبار الزبائن عن أمر القُطْن، كما لجئوا إلى تخبئته أسفل القُطْن الأبيض أثناء البيع وخداع المشتري فلم يعرف إلا عند الغَزْل،[٩٨] ومنهم من حشا الثياب بالقُطْن البالي خاصة، فيجعل القُطْن الجيد في مواضع التقليب وبخاصة في المقدمة والأعمدة، ويترك القُطْن البالي في الأطراف.[٩٩]

(٥-٤) الصواف

والصواف من يقوم بصنع المنسُوجات الصوفية، ومنهم يصنع العمائم، كانوا يضعون أمام مواضعهم قوالب خُصصت لعمل العمائم تُلفُّ عليها وسميت عندهم بالرءوس،[١٠٠] وعمل بعض الصوافين في أربضة خُصِّصت لصِّناعة الصوف، كما بتلمسان؛ فكان بها ربضٌ مخصص في إنتاج الصوف، خاصة الموضع المعروف فيها بمسجد إيلان،[١٠١] ومنهم من امتلك مواضع ودروبًا خاصة به تنتج منسوجات الصوف، بها العديد من العمال والصُّناع والخدام.[١٠٢]

(٥-٥) الحائِك

هو من يقوم بنسج الغَزْل ليصنع ثَوْبا، واعتبرت الحِياكة من الصناعات الضرورية بل إن وجودها من فروض الكفاية في المجتمع،[١٠٣] ولابن خلدون[١٠٤] قول في الحِياكة اعتُبر وصفًا دقيقًا لها؛ فهي «نسج الغَزْل من الصوف والكَتَّان والقُطْن إسداءً في الطول وإلحامًا في العرض وإحكامًا لذلك النسج بالالتحام الشديد؛ فيتم منها قطع مقدَّرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال، ومنها الثياب من القُطْن والكَتَّان للباس.» في حين اعتبرها البعض الآخر من المهن الرذيلة.[١٠٥]

وحدد السبكي[١٠٦] للحائِك معايير يتبعها في عمله بقوله: «ومن حقه ألا ينسج ما يحرم استعماله، ويجوز جعل طراز من حَرِير، بشرط ألا يُجاوِز قدر أربع أصابع.»

واستخدم الحائِك بعض أدوات لإتمام عمله كالحجر الأسود الخشن لتنقية شقق الثياب من القشور، والموازين والأرطال لوزن الغَزْل بعد إتمامه العمل أو عند استلامه من الزبائن، والجرن وهو عبارة عن إناءٍ عميق بقدر أن يوضع فيه الغَزْل والثياب لتغسل أو تُفرَك لإزالة الشوائب والعوالق التي بها، وصنع في العادة من الحجر، ويوضع خارج

موضعه، ويغطَّى بأغطية من الخشب حتى لا تقصده الحيوانات لا سيما الكلب للشرب فينجس الماء، وفي حالة عدم تغطيتها وجب أن «تغسل بالتراب سبع مرات لتنظيفها.»[١٠٧]

وعملية صنع وتجهيز الثياب تتم على حسب رغبة الزبائن، ففي البداية يقوم الحائِك بتنقية الغَزْل، ثم يُحدِّد الأطوال والمقاسات للثياب المراد صنعها،[١٠٨] وبعد تحديد القياس وجب عليه أن ينسج الثوب المصطحب وهو الثوب غير معقد الخيوط، ويزيل تلك الخيوط الغليظة التي لا تتماشى مع النسج؛ كي لا تفسده وتقلل من قيمته، وكذلك المحافظة على قوة الخيوط أثناء النسج كي لا تقطع فوجب عقدها وليس فتلها؛ لأن ذلك يضعف الخيط والثوب،[١٠٩] ما استوجب عليه الحذر عند أخذ تلك الأطوال كي لا يفسد الغَزْل ولا يتحمل ضمانه، وقد حدث أن تعرَّض الحاكة لبعض الخلافات ومنها أن ينسج الثوب على قياسٍ خطأ فيقول أحدهم: «أمرتني بأن أنسج ثَوْبك ثلاثًا في ست، وقال ربه: بل تسعًا في أربع.»[١١٠] أو «أراد صاحب الثوب أن ينسج غَزْله سبعًا في ثمانٍ فنسجه ستًّا في سبع.»[١١١]

وكان على صاحب الغَزْل أن يسلِّم الحائِك الغَزْل وزنًا ويستلمه بالوزن، وذلك بعد غسله تجنبًا لأمور الغش والتدليس؛[١١٢] لأن الغَزْل الذي لا يُغسل يصبه العفن؛ فوجب على الحائِك أو صاحب الغَزْل غسله، وهو ما أشارت إليه أمثال العامة في تحذيرها من هذا بالقول: «كل شيء يهون، إلا الغَزْل المعفون.» فلا ينفع في بيع ولا شراء ولا حِياكة.[١١٣]

ونُصِّب للحاكة عريف منهم «طاهرًا مأمونًا بصيرًا بما يجري من الخطأ والتدليس.»[١١٤] للمراقبة والإشراف لمنع إهدار الوقت والإهمال في أمور الصنعة — في بعض الأحيان — وتفقد أمورهم، ويُلجأ إليه عند وقوع الخلافات، مثلًا: أن يدَّعي صاحب الغَزْل أن الحائك قد أبدل غَزْله وأعطاه بدلًا منه،[١١٥] أو يدعي أن الثوب قُدَّ بغرض المساومة والسرقة،[١١٦] كما نهى العريف الحاكة عن استخدام نثر الدقيق أو ماء الخبز أو النشا أو الجير المشوي أثناء الغَزْل؛ لأنه يداري عيوب النسج؛ ما اعْتُبِرَ نوعًا من أنواع الغش والتدليس،[١١٧] فوضع بعض الغرامات على من يغزل وينسج الغَزْل المنقوض.[١١٨]

وعن أجرة الحاكة فقد اختلفت من حائك لآخر حسب جودة إنتاجه ودقة نسجه بالإضافة لخبرته وشهرته بين الناس؛ فبعضهم حصل على أجرته مقدمًا؛ ما جعله يتكاسل في الانتهاء من نسج الثياب،[١١٩] أو يحصل على أجرتهم بطريق مشاركة صاحب الغَزْل في الغَزْل إذا «قيل للحائك اقطع ما زدت وخذه لنفسك، وادفع قيمة الغَزْل ما لم يكن في القطع ضرر؛ فيُخَيَّر صاحب الغَزْل بين إعطائه أجرة مثله في نسجه أو يشاركه في الثوب.»[١٢٠]

أو يذهب أحد الزبائن إلى حائك ويجده ينسج ثَوْبًا ولم ينتهِ من عمله فيريد أن يأخذه منه ويعطيه ثمنه.[١٢١]

ونتيجة لكثرة الأعمال الموكلة للحاكة استخدموا الكثير من العمال والأجراء والصبية لمساعدتهم في أعمالهم، ففي بعض الحالات — وإن قلَّت — استخدم أحدهم نحو خمسين عاملًا، في حين الغالب على معظمهم ما بين خمسة أو ستة عمال ومبتدئين.[١٢٢]

(٥-٦) الخَيَّاط

اتسم خياطو الغرب الإسلامي بقدرٍ كبير من الحِرفية والمهارة في أمور صنعتهم، نظرًا لتبادل الخبرات الحِرفية مع غيرهم من الصناع، فكان بمدينة تونس في عام ٦٩٠هـ/١٢٨٩م سبعة خياطين من مدينة جنوة،[١٢٣] ما يعطي صورة عن الرواج الصناعي والتجاري لتونس خلال تلك الفترة من خلال وجود العديد من الصُّناع، وبخاصة صُناع النَّسيج؛ لأن أسلوب وطريقة الخِياطة تختلف من بلد لآخر، كطلب أحدهم من خياط بأن يحل أكمام جبة بقوله: «إن المستنصر خلع عليَّ جبة جربية من لباسه، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس، وأريد أن تحلَّ أكمامها، وتُصيِّرها مثل ملابسنا. فقلت له: وكيف يكون العمل؟ قال: تحلُّ رأس الكم ويوضع الضيق بالأعلى والواسع بالطرف. فقلت: وبمَ يحير الأعلى؟ فإنه إذا وُضع في موضع واسع سطت علينا فُرَجٌ، ما عندنا ما يصنع فيها إلا أن رقَّعنا بغيرها.»[١٢٤]

ونَصح خياط ابنه بقوله: «يا بُني لا تكن كالإبرة تكسو الناس وأنت عريان.» أو كالذي سأل أحد الخياطين عن حرب شهدها فوصفها بمفردات صنعته بقوله: «لقيناهم في مقدار الخلفان، فصيَّرونا في مثل قوَّارة، فرُحنا عليهم من وجهين كأنَّا مقراض، واصطفَّت الصفوف كأنها دروز، وتشابكت الرماح كأنها خيوط، فلو طُرحت إبرة لم تقع إلا على زر رجل.»[١٢٥]

واختلفت أنواع الخِياطة ما بين درز وهي الدقيقة الضيقة، وشل وهي الواسعة الخفيفة،[١٢٦] وعلى الخياط أن يحرص بأن تكون الإبرة — أو كما أطلق عليها العامة الميبر أو المئبر[١٢٧] — دقيقة وضيقة الغرزة، والخيط المستخدَم يكون قصيرًا؛ لأنه إن طال انسلخ وانقطع فتله فتضعف خياطته، ولا يخيط بفرد خيط واحد وإنما يخيط بخيطٍ كامل مفتول حتى تقوى الخِياطة ولا تتفتَّل وتضعف،[١٢٨] لهذا وجب على الخياطين اختيار الإبر

الجيدة الصنع خاصة المصنعة من الفولاذ، لأن إبرة الخِياطة تسن ثلاث دفعات وتصقل، وأحسنها المدورة العين.[١٢٩]

وكان على الخياط أن يُجوِّد تفصيله للثوب ويحسن فتحة الجيب، وكذلك سعة التخاريص — وهو ما يزيد من عرض الثوب تحت الكُمَّين — ويجعل الكُمَّين معتدلَين والذيل مستويًا،[١٣٠] فمنهم من يقصُّ الثوب ويخرطه بقدرٍ كبير ليصير ضيقًا في الخواصر، أو يكون جزءًا أكبر من الجزء الآخر وهو من عيوب الخِياطة، كما لجأ بعضهم إلى حشو أكمام وكف الثوب بالرمل، خاصة أثواب الخز؛ لأنها من الأثواب التي تُوزَن قبل وبعد الخِياطة، لتصير ثقيلة الوزن فيُسرق منها بقدر الوزن.[١٣١]

ووجب عليه أيضًا أخذ رأي صاحب الثوب في طريقة الخِياطة المطلوبة، لو أن طريقة الخِياطة تنقص من قيمة الثوب بعد إتمامه، ويعطي لصاحب الثوب تصورًا للطريقة والأسلوب الذي يريد الخياطة بها إما بالوصف، أو يعطيه ثَوْبًا يصنع مثله،[١٣٢] وتعيَّن على الخياط أن يقدِّر أجرته قبل بداية العمل، وخاصة الثياب الثمينة كالديباج والحرير، على أن يأخذها وزنًا لأن هذه النوعية من الثياب تُؤخَذ وزنًا وليس قياسًا؛ لغلو ثمنها،[١٣٣] وأن يتحرَّز عند القياس والقطع، لأن كثيرًا من الزبائن كانوا يفوِّضون الخياط بأن يقطع القياس المناسب على أن يكفي لعمل ثَوْب بقدر لا يزيد ولا ينقص، وإن لم يكفِ فكان الخياط يتحمَّل ثمن الثوب عقابًا له على عدم تقديره في القطع،[١٣٤] كما لجأ بعض الخياطين لأخذ ما تبقَّى من خرطات وقصاصات الثياب ليستكملها في ثَوْبٍ آخر دون علم صاحبها؛ فتعيَّن على الخياط أن يجمع قصاصة الثوب فيحفظه عند طيه للثوب ويعطيها لصاحبها،[١٣٥] أو بعمل الطواقي والأقباع من الثياب والخرق الملبوسة، بعد أن تُغسَل وتُصقَل حتى تصير كأنها جديدة، فتُباع بسعر الجديد أو بما يقاربه، فإذا غُسلت تقطَّعت وتمزَّقت وهو من باب الغش،[١٣٦] أو برقع الثياب؛ لهذا كان يشترط أصحابها رؤية الرقع قبل الخِياطة،[١٣٧] وحرص على عدم ضياع الثوب حتى لا يقع الضمان عليه، فلجأ الزبائن للف الثياب المرادة خياطتها في قطعة قماش — منديل — حتى تكون معروفة ومميَّزة خاصة الثوب الغالي الثمن.[١٣٨]

ومن عادة بعض الخياطين المماطلة وعدم الالتزام بالمواعيد في إنجاز العمل حتى يتردد الناس عليهم باستمرار،[١٣٩] بأن يقول لصاحب الثوب: «يفرغ ثَوْبك بعد ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر ثم لا يفي له بذلك.» وهو ما نهى عنه ﷺ بقوله: «ويل للصانع من غد وبعد غد، وويل للتاجر من تالله وبالله.»[١٤٠] فوجب عليه الانتظام في عمله بأن يبدأ بالأول فالأول، ولا يُقدِّم أحدًا على آخر.[١٤١]

وفي الأوقات التي كثرت فيها أعمال الخياطين، وخاصة المعروفين منهم، لجئوا لإعطاء الثياب لأحد من غلمانهم أو صبيانهم ليخيطها،[١٤٢] أو يستأجر خياطًا آخر على أجرٍ معلوم «ويأخذ على خياطته درهمًا»؛ لذا اشترط الزبائن عليهم بأن يخيطوها بأنفسهم ولا يعطوها لأحد،[١٤٣] وفي بعض الأحيان اعتاد الناس إعطاء الثياب دون شرط أو قيد في أجرة أو وقت، ويدفعون لهم ما يطلبون لثقتهم فيهم وجودة إنتاجهم، خاصة لأهل الثقة من الخياطين.[١٤٤]

ولجأ بعضهم لعقد اتفاق مع الخياط ليُسرع في خِياطة ثَوْبه بإعطائه أجرًا مضاعفًا «تعطيني الثوب بعد غد ولك ثلاثة دراهم.» أو يستأجره لمدةٍ معلومة لعمل ثِياب، ويشترط عليه ألا يصنع لأحد غيره وله الأجرة مقدَّمًا،[١٤٥] أو يعطيه ثَوْبًا ويطلب منه أن يخيطه قميصًا، والزائد منه يأخذه،[١٤٦] كل هذا على سبيل التحفيز للخياط لإنجاز العمل الموكل له، وفي حالة إخلاله بعمله كان يُعرَّض في بعض الأوقات للعقوبة والمساءلة لعدم التزامه بوعده، وأُمر الخياطون بأن تكون أجرة الخِياطة متناسبة مع ثمن الثوب، بحيث لا تتعدَّى الأجرة ثمن الثوب؛ لأن هذا فيه إخلال. كما نُهي الخياطون عن خِياطة ثَوْب امرأة تُعرف بالبغاء، والمتبرِّجة من النساء، وكذلك للمكاس وغيره ممن تشوبه سمعةٌ سيئة،[١٤٧] هذا فضلًا عن عدم خِياطة أثواب الحرير للرجال.[١٤٨]

ووجب على الخياط المحافظة على سلامة حانوته أو منزله ومقرِّ صنعته من السرقة أو الحريق؛ لأنها عُرضة للحريق أو السرقة أو ضياع أو إتلاف الثياب،[١٤٩] وبالنسبة للنسوة اللاتي اعتدن أن يخطن بأنفسهن فكانت منازلهن مقرَّهن الدائم وبخاصة الفقيرات منهن، فكن يخطن ثِياب أهل بيتهن، أو يفضلن قضاء وقت فراغهن في الخِياطة.[١٥٠]

وعلى الرغم من كل هذا فكانت الوضعية الاجتماعية والمالية للخياطين كسائر طبقات الصناع، فمنهم من عانى من الفقر الشديد وعدم القدرة على الإنفاق على أسرته، كأحد الخياطين كان «يخيط بالربع، فتزوج امرأة على أن ينفق عليها من صنعته، ثم طلقها، ثم طلبت نفقتها؛ فادعى فقره.»[١٥١] وبعضهم اضْطُرَّ للعمل داخل المساجد أو أعلى أسطحها لعدم قدرته على امتلاك حانوتٍ خاص به، كما فعل بعض خياطي تونس؛ إذ لجئوا إلى الرواق الشرقي بجامع الزيتونة بأعلى سطحه؛ مما دعا السلطة لاستغلال تواجدهم بالأعلى بصفةٍ مستمرة في مراقبة المنطقة المحيطة بالمسجد.[١٥٢]

(٥-٧) القَصَّارُ

القصارة هي عملية بَلِّ وغسل الغَزْل من الحرير أو الكَتَّان أو الصوف أو القُطْن،[١٥٣] ونشره، فإذا جفَّ أُعِيد عليه بالماء حتى يبيضَّ ويُنقى بإزالة «الوسخ والدنس والليبس والغلظ»، والقصارة تمرُّ بعدة مراحل، ووجدت أفران (الكوش) خاصة لغلي الغَزْل بمدن الغرب الإسلامي، كالتي كانت خارج مدينة فاس؛ لأنها من الأماكن الباعثة للروائح الكريهة وغير المستحبة،[١٥٤] وعلى القَصَّار عند مباشرة عمله ألَّا يقصر بماء نجس غير طاهر، ولا يبسط الغَزْل أو القماش على أي شيءٍ نجس، ولا يمشي عليه بأقدامه تجنبًا للنجاسة.[١٥٥]

وتتم عملية القصارة على عدة مراحل؛ فمثلًا قصارة الحرير، تبدأ بوضع القَصَّار قِدرًا من النحاس (القصرِية) على النار ويُملأ بالماء، فإذا بدأ بالغليان رُميت فيه قطع الصابون الصغيرة التي تُجرد بالسكين، حتى ينحلَّ الصابون ويغلي، وبعدها يضع القَصَّار القماش المراد قصره ويُقلب بواسطة قضيب خشبي يُوضع بين لفات القماش حتى لا تتداخل بعضها في بعض، ويُقلَّب من أعلى إلى أسفل والعكس، وبعد أن تُنظف ينزل القدر عن النار ويُخرَج القماش ويُغسَل بالماء العذب غسلًا جيدًا، ثم يمشي القَصَّار بقدميه على القماش من أجل أن يصل إليه الماء بشكلٍ جيد.[١٥٦]

وقد يستعجل بعض القَصَّارين عملية القصر باختصار بعض مراحلها، ما يعرض الغَزْل إلى الهدر والتلف،[١٥٧] أو باستخدام بعض المبيضات التي تُفسد الغَزْل أو الثياب المراد قصرها كالكبريت،[١٥٨] أو روث الحيوانات،[١٥٩] أو الجير غير المطفى؛ فيتسبب في حرق الثياب،[١٦٠] ولكن أفضل ما اسْتُخْدم لتبييض الغَزْل الرماد، فلم يسلم من الغش؛ لهذا كثيرًا ما تعرض بائعوه للمساءلة من المحتسبين.[١٦١]

وبعد عملية القصارة يدخل الغَزْل مرحلةً جديدة وهي مرحلة العصر والتجفيف؛ لأنه لو تُرك الغَزْل مبلولًا لفترةٍ طويلة أصابه التعفن، فتجفيف الغَزْل يتم باستخدام المفتل، وذلك بليِّ الغَزْل وعصره، وكثيرًا ما أُصيب الغَزْل بالوهن وإضعاف خيوطه،[١٦٢] أو عن طريق ضربه على الحجارة، أو ضربه بالمزاريب، أو ضربه على القصرة أو الطابية التي يستخدمها القصار في عصر الثياب مما عرَّض الغَزْل للقطع كذلك.[١٦٣]

ولما ارتبطت القصارة بوجود الماء، انتشر القصارون على ضفاف الأنهار والعيون والموانئ حيث وُجد بميناء سبتة خمسة عشر مقصرًا،[١٦٤] وبأرباض فاس أكثر من مائة وعشرين دكانًا للقصر «يغسلون القماش في برجٍ جميلٍ مشمس يسقونه من حينٍ لآخر

بماء النهر فيكون مكسوًّا بالعشب طوال السنة عندما تُنشر الثياب.»[١٦٥] وعلى سواحل مدينة المرسى والحمامات انتشر القصارون فكان أكثر أهلهما من قصاري الأقمشة،[١٦٦] وصفاقس فكان «القصارون يقصرون القماش وينشرون بجوارهم».[١٦٧]

وبعد عملية التجفيف يدخل الغَزْل المرحلة الأخيرة وهي النشر في الشمس، ونُهي عن نشر الثياب لأكثر من ثلاثة أيام حتى لا تهون وتفقد ألوانها لكثرة تعرضها لأشعة الشمس،[١٦٨] فنشر القصارون الغَزْل والثياب المقصورة بجوارهم كما هو الحال في باب المنشر بمدينة توزر،[١٦٩] ونفس الأمر في سبتة التي كان بها المقاصر مقسَّمة بين مقاصر غَزْلية — للغَزْل — وعددها تسعة عشر مقصرًا، ومقاصر للثياب وعددها خمسة وعشرون مقصرًا تقع تحت الأسوار والأبراج والأبواب بمدينة سبتة، فلكل مقصر برج من أبراج السور تُنشر فيه الثياب والغَزْل نهارًا وتُجمع ليلًا،[١٧٠] كما اشتُهرت سوسة بقصرها للثياب بتقصير ثِياب القيروان الرفيعة والثياب التي تُنتج في سوسة نفسها.[١٧١]

لهذا خُصصت بعض الأماكن والمواضع لنشر الغَزْل والثياب، عُرفت لدى العامة؛ فتجنب الحطَّابون السير بها حتى لا تثقب أحمالهم الثياب وتقطعها،[١٧٢] لأن منهم من ينشر الثياب بطريقةٍ خاطئة بنشرها على الحجارة وفي الطرقات؛ ما يعرِّضها للسرقة أيضًا،[١٧٣] أو بنشرها في موضع تكثر فيه الرياح وتشتدُّ فتقذفه الرياح بعيدًا؛ فوجب على القَصَّار تخيُّر الوقت المناسب لنشر غَزْله.[١٧٤]

هذا وقد استخدم القَصَّار بعض الأدوات التي تساعده في نشر الغَزْل أو الثياب المقصورة، كالمشجب؛ وهو عودٌ مربوط في طرفيه حبل يُعلَّق في أحد أركان البيت، أو استخدم المقصر لنشر الثياب عليه،[١٧٥] بالإضافة إلى الحبال أو الخشب لنشر الثياب، والتي ذكرها العامة في أمثالهم بقولهم: «بالنهار حلبة، وبالليل خشبة.» ويقصد بـ «الحلبة» حبل القَصَّار، و«الخشبة» ما تعلق عليه الثياب.[١٧٦]

وتعرض القصارون في عملهم لبعض الأمور، بأن يخطئوا في قصر الثياب بحرق جزء منها فتُقطع وتُثقب، أو إساءة تخزينها بوضعها في أماكن بها فئران فتقرضها،[١٧٧] أو يعطي الثياب لرفَّاء لإصلاحها دون علم صاحبها؛ ما اعْتُبِر نوعًا من أنواع الغش؛ فحذر المحتِسبون من ذلك وأمروا الرفَّائين والدقاقين بألَّا يصلحوا ثَوْبًا إلا بوجود صاحبه منعًا للغش، ومنهم من يعير ثِياب زبائنه لغير أصحابها بقصد تأجيرها لكسب المال، ويتعلَّل بأنه لم ينتهِ من تقصيرها، خاصة في أوقات المواسم والأعياد،[١٧٨] أو يقصر الثياب القديمة ويبيعها على أنها جديدة، فإن لُبست ثم غُسلت ظهرت سمرتها وتغير لونها وتقطَّعت سريعًا.[١٧٩]

في حين ادعى بعض القَصَّارين ضياع الثياب بعد حصولهم على الأجرة المتفق عليها، أو أنهم لجئوا للهروب بعد إعطائها لقَصَّارٍ آخر لاستكمالها دون علم صاحب الثوب ودون إعطائه أجرته،[١٨٠] أو يضيع الثوب ويعطي صاحب الثوب ثَوْبًا آخر تفاديًا للمساءلة من المحتسبين.[١٨١]

(٥–٨) الغَسَّال

الغَسَّال أو كما أُطلق عليه في بعض بلدان المشرق «البابا»[١٨٢] فالمعلومات المتوافرة عنه قليلة وغير كافية، لكن ما ذُكر في بعض كتب النوازل يوضح أن مهنة الغَسَّال من المهن المحتقَرة داخل مجتمع الغرب الإسلامي، فالغسَّال هو ذلك الشخص الذي يغسل المنسوجات المقصورة، أو يغسل الغَزْل الذي يدخل مرحلة الكمادة، وأيضًا الثياب الوسخة التي يرتديها أصحابها، وتتم عملية الغسل بالأيدي أو عن طريق استخدام لوحةٍ خشبية تُحَكُّ بها الثياب مع إضافة المياه لغسلها وتنظيفها، فعمل في مهنة الغَسَّال الرجال وبعض النساء كما كان بالقيروان، وعمل بها أيضًا أهل الذمة في بلدان الغرب الإسلامي، وهو ما نهى عنه الفقهاء لارتباطهم بعدم طهارة الثياب.[١٨٣]

ويحصل الغَسَّال على عمله عن طريق الخياطين، يرسلون إليه الثياب لغسلها بعد إتمام خياطتها بناءً على طلب أصحابها، أو يتجول الغَسَّال بين الأحياء والشوارع والبيوت مناديًا على الثياب الوسخة، لأن كثيرًا ممن لم يكن لهم خَادِمات في بيوتهم أعطوا الغَسَّال ثِيابهم لغسلها، حتى إذا تجمَّعت لديه كمية تكفيه ويستطيع غسلها يذهب بها لأحد الأماكن المخصصة لذلك، أو يذهب بها لأحد المجاري المائية لغسلها، وأُجِّرت تلك المواضع في كثير من الأحيان إلى الغسَّالين بمقابلٍ مادي، سواء من قبل السلطة أو من المسيطرين على تلك الأماكن.[١٨٤]

وتتم عملية الغسل على أكثر من مرحلة، فكلما فرغ من جزء نشره على حبال أو على الجدران، ثم يكمل ما تبقَّى لديه، وفي كثير من الأحيان تعرض الغَسَّال للسرقة إما عن طريق سرقة قطع الثياب أو سرقة الحبال بما عليها من ثِياب،[١٨٥] وكثيرًا ما تحمل الغَسَّال قيمة الأثواب التي تُسرق منه أو التي تُستبدل أو تُغالَط.[١٨٦]

واستخدم الغَسَّال عددًا من العمال الأجراء لمساعدته في عمله يأخذون الثياب ويذهبون بها إلى البحر لغسلها، واستخدم عددًا من الأدوات التي تساعده على ذلك من أوانٍ ودسوت،[١٨٧] بالإضافة للمواد التي تساعده على تنظيف ما علق بالمنسوجات من

أوساخ، فاستخدم الأشنان في إزالة الدهون من على الحرير،[١٨٨] كما استخدم الأترج في إزالة الحبر، واستخدم اللبان الحار لإزالة الشمع من على الطراز، واستخدم الأشنان وخل الخمر في إزالة السواد من الثياب، واستعملوا أيضًا العديد من المواد لإزالة ألوان الصباغة باستخدام حبِّ الرمان والكبريت والصابون، بالإضافة للعديد من الطرق لغسل المنسُوجات الرفيعة والثمينة كالشاش والشرب للمحافظة عليها، فكان لدقة الغَسَّال في تأدية عمله وإخلاصه بعد غسله للثياب يجد صاحبها صعوبة في التعرف عليها من نظافتها كغسالي فاس التي كان بها مائتا دكان لهؤلاء الغسالين.[١٨٩]

(٥-٩) الكمَّادُ

الكمادة هي تغيُّر اللون وذهاب صفائه وبقاء أثره، والكُمْدَةُ هي تغير اللون،[١٩٠] وكمد الثوب أي دقَّه بصقال الكمد، وهي مرحلة تأتي بعد الغسل والقصر، وتشترك الكمادة والقصارة في نفس الوظيفة، فلهذا خلط العامة بين أدوات القَصَّار وأدوات الكماد، وأطلق على الخشبة التي استخدمها القَصَّار مكمدة في حين أنها مقصرة،[١٩١] فأكمل القَصَّار والكماد كلٌّ منهما الآخر في العمل، فأشار البعض بأنها حِرفة واحدة، وأمر أصحاب النَّسيج «القَصَّار أن يدفعه بعد كمال عمله للكماد.»[١٩٢] في حين أشار بعض الفقهاء إلى أن القصارة حرْفة والكمادة حِرفة أخرى، وهو ما أشار إليه البرزلي[١٩٣] بأن «الكمادين والقَزَّازين يجعلون النشا في الكمد.» هو ما يوضح استقلالية الكمادة وأنها حِرفة بذاتها.

وخُصص للكمادين بمدينة تونس حي بالقرب من باب قرطاجنة عُرف بحي الكمادين يعملون فيه بالأجرة،[١٩٤] في حين الكثير من سكَّان صفاقس كانوا من القصارين والكمادين.[١٩٥]

ومن اللافت للانتباه أن أصحاب الثياب شاركوا الكمادين في تكميد ثِيابهم «وإن كمد الكمَّاد الثوب وكمده معه صاحبه فأصابه خرق، فإن كان من كمد صاحب الثوب فلا ضمان على الكماد.»[١٩٦] وهذا لم يمنع قصاري النَّسيج من التدليس والغش في صنعتهم؛ مما دفع الفقهاء والمحتسبين إلى مراقبتهم ومحاسبتهم، كعدم استخدام النشا في الكمادة لأنه يظهر النَّسيج في حالة على غير حالتها فتبدو جديدة «كمعالجة الثوب القديم بالقصارة ومع الكمد يوهم ذلك أنه جديد.»[١٩٧] وما عُرف بتبليط الشقق «فكان التبليط جائزًا إن لم

يكن فيه — نشا — من العلوك وما في معناها مما يغترُّ به المشتري؛ فيظن أن ذلك من صحتها مما خالطها مما يسد عيونها.»[١٩٨] ووجب على الكماد تكميد الثياب بشكلٍ جيد؛ كي لا يكون الثوب «مخلخلًا ويتصفق».[١٩٩] وتنظيف الثياب مما يعلق بها، وتمييزها وتقسيمها حتى لا تُخلط مع غيرها فتضيع أو تتبدل.[٢٠٠]

(٥-١٠) الصبَّاغ

الصبَّاغ وهو معالج الصبغة، وحِرفته الصباغة، وعَمِل الصبَّاغون خارج المدن؛ لما ينبعث من روائحَ كريهةٍ أثناء عملهم، ولأنها من المهن التي تلوث المكان فتواجدوا بجوار الأنهار والمجاري المائية،[٢٠١] وقد اشتهرت مدينة نارجة بالصباغة خاصة الحرير.[٢٠٢]

واستخدم الصبَّاغون عدة ألوان ما بين حيوانية ونباتية تساعده في صبغ المنسوجات، وبعض الألوان المقلَّدة لعملية الصبغ كاستخدام المثنان لصنع اللون الأخضر،[٢٠٣] أو البَقَّم للحصول على اللون الأحمر، أو استعمال الحناء عوضًا عن الفُوَّة، فلا تثبت الألوان لمدةٍ طويلة وبمجرد أن يعرض الثوب للشمس تغير لونه،[٢٠٤] وكثر استخدام اللون الأحمر، وكان يُحصَل عليه من حب الرمان فنسب إليه، كالذي ذُكر في بعض هدايا يوسف بن تاشفين ومنها: «ألف شقة من لون حب الرمان.»[٢٠٥] كما لجئوا لاستخدام العَفْص والزاج لصبغ الثياب باللون الأسود، ولكن بمرور الوقت تصير كحلية اللون،[٢٠٦] أو يصبغ بعضهم الثياب بـ «الحربث» لأنه أرخص من النيلة كما يذكر ابن الحاج[٢٠٧] ومن الغشِّ والخديعة أيضًا ما يفعله بعضهم من صنع الغَزْل بالحربث وهو يحرق الغَزْل ويذهب بقوَّته ويترك الصبغ بالنيلة وهي نافعة للغَزْل غير مُضرَّة له، وقد استخدم بعض الصبَّاغين البول في الصباغة وهو ما عرف بالأرشلة لأنه من النجاسة، بالإضافة إلى أنه يخرق الثوب، كما أن لونه يذهب بعد فترة من صباغته به،[٢٠٨] ووجب على الصبَّاغ ألَّا يصبغ بمحرم كالصبغ بالدماء مثلًا.[٢٠٩]

وكثيرًا ما تحدث بعض الخلافات حول الصباغة «بأن يقوم أحد الأشخاص بإعطاء الصبَّاغ ثَوْبًا لكي يصبغه، فيقوم بصبغه أحمر، فيقول صاحب الثوب: إني أمرتك بصبغه أصفر.» أو «لكثرة الألوان التي كان يستخدمها».[٢١٠] وفي بعض الأحيان أجَّر الصبَّاغون الثياب التي عندهم في المناسبات أو سلفوها،[٢١١] ونُهي الصبَّاغ عن صبغ الثياب القديمة وخِياطة الممزَّق منها وبيعها على صفة الجديدة،[٢١٢] كل هذا كان من باب الغش والتدليس

الذي اعتاد بعض الصبَّاغين فعله، أو يُتلِف الثوب إما عن طريق القطع أو السرقة بنشرها على الحوائط وفي الطرقات بين حوانيتهم؛ لأنهم مدُّوا الحبال بينها لنشر المنسوجات المصبوغة،[٢١٣] أو بالحرق بتركها فترةً طويلة تُصبغ على الموقد.[٢١٤]

وحاول الصبَّاغون تفادي أمور السرقة والتبديل وضياع الثياب المراد صباغتها، بأن يكتب الصبَّاغ اسم صاحب الثوب بالحبر عليها؛ منعًا لسرقتها أو اختلاطها أو فقدها،[٢١٥] كما عملوا على قياس شقاق البز أو شقاق الكَتَّان بتحديد الطول والعرض؛ ضمانة للصباغ وصاحب الثوب، وهو ما أَلْزمه المحتسبون عليهم.[٢١٦]

واختلفت أجرة الصباغة من لون لآخر وحسب المادة المستخدمة، لهذا كانت تُحدَّد الأجرة عن طريق اتفاق يُعقَد بين الصبَّاغ وصاحب الثياب، ففي بعض الأحيان وقع الخلاف بين الصبَّاغ وصاحب الثوب حول القيمة المتفق عليها مقابل صبغ ثَوْب «هو أن يقوم الصبَّاغ بصبغ الثوب بعشرة دراهم عصفرًا، ويقول صاحب الثوب بل بخمسة؛ فالصبَّاغ مُصدَّق لأنه لا يكلف نفسه خسائر.»[٢١٧] وفي الغالب كانت أجرة الصباغة لا تتعدى ١٠٪ من قيمة الثوب.[٢١٨]

(٥-١١) الفرَّاء

الفراءون هم صانعو الفِراء، وتكمن صنعة الفراء في صنع الملابس والثياب المصنوعة من فرو الحيوانات، وكان من عادة بعض الفرائين أثناء بيعهم أن يعرضوا الفرو السيئ ويخصوا الجيد لأصحاب المال والنفوذ من مجتمع الغرب الإسلامي؛ لهذا أمر المحتسبون بأن يُعرَض الفرو على الملأ ويُنادى عليه حتى يتمكَّن الفقير قبل الغني من الشراء، ولا يكون حكرًا على أحد،[٢١٩] وكثيرًا ما لجأ الفراءون لترتيب وتنظيف وجوه الفراء كي تبدو حسنة وجيدة لتواري عيوبها، باستعمال بعض المواد لتحمير الفراء البالية لتبدو جيدة، وكان بعضهم يمدُّ الفِراء ليصير طويلًا عن طريق الضرب بالمقراض؛ فإذا لبس فترةً قصيرة رجع إلى حالته،[٢٢٠] ومنهم من يقوم بتوسيع فتحة أطواق الثياب؛ فوجب عليهم استخدام خيط الحرير الغليظ ليقاوم الشد والجذب أثناء الخِياطة؛ لهذا أُمر الفراءون بأن تكون الخِياطة جيدة وضيقة الغرزة،[٢٢١] أو بحشو وتبديل الفرو القديم بالجديد؛ لذا كان عليهم عريف منهم لمراقبتهم وتفقد أمورهم.[٢٢٢]

(٥-١٢) الحَصَّار

الحصَّار وهو صانع الحُصر، وللحصارين عريف أو أمينٌ خاص بهم يُختار من الصُّناع المهرة، كما كان في بلدان الغرب الإسلامي،[٢٢٣] واستخدمت الحُصر في فرش الجوامع والمساجد في تونس، وصُنعت من «سعفٍ رفيع محكمة الصنعة» ففُرش بها جامع الزيتونة،[٢٢٤] وتُصنع الحُصر من الحَلْفاء، فلجأ بعضهم لصنعها من الحلفاء القصيرة بعد أن تُطبخ الحلفاء بغرض خداع المشترين بأنها مصبوغة وجيدة، وهو ما عرضها للقطع والتلف؛ فوجب على الحصارين إجادة وتحسين الخِياطة في الحُصر أو البرغ، بأن يأخذوا لويتين أو ثلاث لويات من الحبال من اليمين والشمال حتى يشتد الحبل فلا تكون هزيلة، ومنهم من يُقصِّر الحُصر ليوفر الحبال،[٢٢٥] وفضل أن تكون تلك الحبال من غَزْل الكَتَّان وبخاصة الخيوط المعتدلة منها وبطريقةٍ جيدة، فلا تكون «مثل الغربال، وهو أبيات أعلاها مائة، وما دونه تسعون، وما دونه ثمانون، وما دونه سبعون، وما دونه ستون.»[٢٢٦] ومن الحصارين من يصنع الحبال والأربطة،[٢٢٧] فصنعوا الحبال من الليف أو الخوص كحبال القلس وهي حبال اسْتُخدمت في السفن.[٢٢٨]

(٥-١٣) صانع الغرابيل

صُنعت الغرابيل من الحلفاء ومن الشعر أيضًا، وعُرف صانع الغرابيل بالغزَّال، ووجب صنعها من الشعر بأن تُغسل جيدًا، وألا يُستخدم شعر الحيوان الميت؛ لأنه خشن ويتقصف بشكل سريع،[٢٢٩] ويُسمر حديد المغازل ويُشدُّ خياطته حتى لا تنحلَّ ويصير الغربال معوجًّا،[٢٣٠] ووجب عليه تنظيم الخصاصات وهي فتحات وثقوب الغربال،[٢٣١] وفي قُرْطُبَة استقر صُناع الغرابيل بالقرب من المسجد وبخاصة في سوق «بلاط مغيث».[٢٣٢]

(٦) فئات صُناع النَّسيج في مجتمع الغرب الإسلامي

مارست فئاتٌ عديدة من مجتمع الغرب الإسلامي النَّسيج؛ فاشتهر بعضهم بمزاولته في مراحله كافة من تصنيع وبيع وتجارة، خاصة ممن عاصر فترة الدراسة وما قبلها من الأئمة والعلماء من مشاهير وأعيان ونساء وصبية ممن أشارت لهم كتب التراجم والسير والمناقب والنوازل.

(٦-١) فئة العلماء

عمل بالنَّسيج الكثير من العلماء؛ لارتباط تلك الصِّناعة بأمور الزهد والتقشف ورغبتهم في الحصول على قوت يومهم من صنع أيديهم؛ فزاولها المتصوِّفة في بلدان الغرب الإسلامي،[٢٣٣] كالعالم ظاهر بن يزيد الزاهد من أهل قُرْطُبَة، فكان قَزَّازا يبيع القز ويصنعه.

وقد انتسب للقُطْن من عمل به وتاجر فيه، ومنهم قاسم بن مطرف بن عبد الرحمن أبو محمد من أهل قُرْطُبَة، كان يُعرَف بالقطان،[٢٣٤] كذلك ربيع القطان فقد امتلك حانوتًا لبيع القُطْن، ومحمد بن سليمان ابن أحمد أبو عبد الله (ت٤١٩هـ/١٠٢٨م) من أهل إشبيلية عُرف بالقطاني، وأبو جعفر حمديس القطان عمل في القُطْن وكان يبيعه في السوق، وأبو عمران موسى كان حلاجًا، وأبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن بن المعز الصنهاجي المعروف بالتلمساني احترف النسج وأقام بسلا، كذلك أبو الحسن علي بن عبد الله القطان المعروف بابن الحلاج الذي ورث حانوت قُطْن عن والده، فعمل في ندف القُطْن حيث يذكر «كنت أعمل القُطْن، فنتفرغ من العمل بالعشي؛ فيضيق الوقت، وكانت نوالات بُنيت غصبًا على وادي القصاري.»[٢٣٥]

ومن هؤلاء الذين عملوا بالكَتَّان وانتسبوا لصنعتهم به، أبو عمرو هاشم بن مرور التميم فكان يشتري الكَتَّان ويُوزِّعه على الفقراء والأرامل.[٢٣٦] ويمكن أن يُضاف إلى هؤلاء مَن عَمِل في هذا المجال كالرفاء والمطرز، منهم عبد الرحمن بن يوسف بن نصر من أهل قُرْطُبَة كان رفاءً يرفأ الثياب ومنها يتعيَّش.[٢٣٧]

وتأتي الخِياطة ضمن تلك المهن التي انتسب إليها عدد من العلماء، كالوليد بن سعيد بن وهب الحضرمي الإشبيلي أبي العباس (ت٤١٩هـ/١٠٢٨م) الجبَّاب، والجبَّاب هو من يبيع الجباب ويخيطها، فعُرف بها وعمل بالخِياطة بمراكش، وعمل أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الصنهاجي (ت٥٩٢هـ/١١٩٥م) في حِياكة الجبب، وكذلك أبو محمد عبد الله الشريف الذي عمل بالخِياطة «فكان يأكل من كد يده من الخِياطة وبعض التجارة وكان بسوق الصوافين من بجاية.»[٢٣٨] وكذلك أبو العباس أحمد بن إبراهيم المعروف بابن القطان عمل بالخِياطة ثم احترف التجارة، فكان يخرج من تلمسان إلى سبتة وفاس ويعود بالمال الوفير،[٢٣٩] كما تعايش محمد بن أحمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم الأنصاري الساحلي (ت٧٣٥هـ/١٣٣٥م) من حِرفة الخِياطة، وأبو سعيد خلف بن محمد الخولاني «فرأس ماله مقص بنصف درهم، وحلقة بربع، وإبرة مخروبة، وكان إذا خاط بدرهمين

لا يخيط شيئًا حتى ينفقهما.» ومنهم من كان دقيقًا بالخِياطة لدرجة الإبهار مثل عبد الله سبحان الله، فيقول: «خِطتُ لبعض المشايخ ثَوْبًا بالديار المغربية فلما دفعته إليه أخذه ونشره ... فإذا كل غرزة في هذا الثوب مكتوب عليها سبحان الله.»[٢٤٠] ومحمد بن أحمد بن طاهر المعروف بالخدب، عمل بالخِياطة في مدينة فاس، وأبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط عمل بالخِياطة في حانوت له بحي القبابين بتلمسان.[٢٤١]

ومنهم من كان «مُعَلِّمًا» للخياطين كالإمام أبي عبد الله محمد بن يعلى التاودي، وكذلك محمد بن يوسف الزاوي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) فكان خبيرًا في الخِياطة واستقر بمصر وزاول حِرفته بها، ومحمد بن عبد الله التونسي أبو عبد الله (ت٨٨٨هـ/١٤٨٣م) عمل بالخِياطة بمدينة الإسكندرية،[٢٤٢] بالإضافة للشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله الغماز من الخياطين «وكان طول مجاورته بمكة يتسبب فيها بالخِياطة.»[٢٤٣] ومحمد الخياط بسويقة الدوح بفاس، وسيدي محمد أبو طاق الخياط.

ومنهم من خالط تجار البز كالشيخ علي بن محمد المراكشي، فجالس تاجرًا للبز في باديس «فكان يعطيه أثوابًا من حانوته يخيطها له بالأجرة.»[٢٤٤] وكذلك العابد الفاضل مروان الخياط مارس عمله في بيته بخِياطة جبب الصوف،[٢٤٥] بالإضافة لأبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار من مراكش واستوطن بتلمسان من العاملين بحِياكة الصوف بتلمسان، امتلك العديد من ورش وتربيعات الصوف في الموضع الذي يسكنه بدرب شاكر في تلمسان، خُصص أغلب هذا الدرب له ولعماله وخدامه العاملين. ويذكر ابن مرزوق[٢٤٦] عن مدى إتقانه لمهنته «فكان يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع.»

وأُطلق لقب البزاز على بعضهم ممن عمل في بيع الحرير أو ثِيابها، وهي لفظة تُقال لمن يبيع البز، واشتهر به جماعة من المتقدمين والمتأخرين،[٢٤٧] فهذا أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي أبو الفضل (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) كان بزازًا، وعمل محمد بن عبد الله بن هاني بن هابيل اللخمي أبو عبد الله (ت٤١٠هـ/١٠١٩م) من أهل قُرْطُبَة بزازًا،[٢٤٨] وكذلك هشام بن محمد بن عبد الفاخر المعافري، ويحيى بن عمر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قحطة الأنصاري أبو بكر من أهل قُرْطُبَة، ومحمد بن عبد الله المطماطي، وسليمان بن يحيى المعروف بابن ستهم كان يتاجر بالبز ويقصد الأسواق بتجارته،[٢٤٩] ويحيى بن سحنون من أهل بادس كان من تجار البز.[٢٥٠]

وأشير لمن عمل مُقصرًا للثياب،[٢٥١] فهذا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهمذاني الوهراني أبو القاسم (ت٤١١هـ/١٠٢٠م) من أهل بجانة، فكان معاشه من ثِياب يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قُرْطُبَة، فتُباع له ويبتاع في ثمنها ما يصلح لبجانة، ويجلب كتبه فيُقرأ عليه من ذلك، وكان يرد قُرْطُبَة كل عام إلى أن وقعت الفتنة، فإذا سكنت أطال سكن داره ببجانة، وإن خاف صار بألمرية، فكان غير مستقر إلى أن مات،[٢٥٢] وكذلك الشيخ أحمد بن سوسان ممن عاش ببلاد المغرب، فقد عمل بالخِياطة والقصارة.[٢٥٣]

وكان عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م) من أهل قُرْطُبَة ويُعرف بالقنازعي ونُسب لصنعته وهي عمل القنازع فكان يصنعها، ويُرجح أنها صناعة القلانس أو هي غطاء للرأس يشبه القلانس،[٢٥٤] كذلك أحمد بن عبد الله أبو عمر (ت٤٠٤هـ/١٠١٣م) من أهل قُرْطُبَة عُرف بالقنازعي، ومحمد بن محمد بن سليمان السوسي الروداني، فكان يحسن عددًا من الحِرف والصناعات الدقيقة كالطراز.[٢٥٥]

ومن الصناعات الأخرى صناعة الحصر، وأطلق على صانعيها الحصارين،[٢٥٦] منهم أبو عمر الحصار (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، والفقيه أبو عمران المارثي «فكان يعمل الخوص بيده في خلوته، ويبيعه ويتصدق منه؛ لأنه كان يرى كراهية البطالة عن شغل لمثله.»[٢٥٧] وكذلك عروس المؤذن الشهيد كان يتعيش من عمل الحلفاء،[٢٥٨] كما عمل محمد بن سحنون المصري (ت٧٠٥هـ/١٣٠٥م) بالحلفاء وتقوَّت منها،[٢٥٩] ومنهم من عمل بالصناعات الثانوية للنسِيج كأبي الغصن السوسي الذي عمل في صناعة الغرابيل، وتعايش منها واقتات.[٢٦٠]

وأطلق أهل الأندلس على صانع القلنسوة القلاس،[٢٦١] فهذا محمد بن عيسى بن رفاعة الخولاني أبو عبد الله (ت٣٣٧هـ/٩٥٨م) من أهل رية، يحيى بن نجاح أبو الحسين، مولى جعفر الحاجب الفتى الكبير، مولى الحكم بن عبد الرحمن المستنصر من أهل قُرْطُبَة (ت٤٢٢هـ/١٠٣٠-١٠٣١م) عُرف بابن القلاس وتوفي بمصر.[٢٦٢]

(٦-٢) النساء

أعطى الإسلام للمرأة المسلمة حريةً كاملة في التصرف في أملاكها، وجعل لها ذمةً ماليةً منفصلة بعيدة عن زوجها، ولم يمنعها من ممارستها لبعض الأعمال والمهن التي لم تخرج عن إطار الدين الحنيف، وهو ما أيده ابن حزم[٢٦٣] في أن النساء يساهمن في النشاطات

الصناعية «فمن النساء الطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمستخفة والمُعَلِّمة والصَّنَاع في المغزل والنَّسيج.» فكان النَّسيج من بين تلك الصناعات التي دارت في فلك المبادئ والشريعة الاقتصادية للإسلام وبرعت فيها النساء بصفةٍ خاصة.[٢٦٤]

ومن المفيد الإشارة إلى أن بعض الحِرف لم تقتصر على الرجال فقط، بل شارك فيها عددٌ كبير من النسوة فاحترفن أغلبهن الغَزْل والنسج،[٢٦٥] فبرزت — المرأة في الغرب الإسلامي — في ممارسة أعمال الغَزْل والنسج للصوف والقُطْن والكَتَّان بالإضافة إلى تربية دودة القز لإنتاج الحرير،[٢٦٦] في حين يرى البعض أن حق المرأة في ممارسة العمل في بلدان الغرب الإسلامي، وبصفةٍ خاصة في أعمال الغَزْل والنسج، مُثبَت وظاهر أكثر من أي مكان آخر،[٢٦٧] على عكس النساء الغازلات في مصر وبخاصة اليهوديات، فتطلب منهن العمل داخل منازلهن مع أخذ رخصة من السلطة تبيح لهن العمل بمنازلهن حتى تستطيع السلطات تقدير الضرائب المقدَّرة عليهن،[٢٦٨] فقلَّما حدث هذا داخل مجتمع الغرب الإسلامي، فقد حدث لامرأة من غرناطة تبيع الحرير أن تعرضت للتهديد والضرب بالسياط في حالة عدم دفع ما عليها من ضرائب؛ فأباح العلماء عدم الإكراه والتهديد والإجبار في أخذ الضرائب وبخاصة من النساء.[٢٦٩]

فوُجد النول والمنسج في معظم بيوت الغرب الإسلامي؛ نتيجة لملاءمة تلك المهنة لطبيعة المرأة وجلوسها لفتراتٍ طويلة داخل منزلها؛ فلجأت إليه لقضاء أوقات فراغها من جهة، ومن جهةٍ أخرى للمساعدة في نفقات البيت والأولاد والزوج عند افتقاد العائل أو الاحتياج للمال،[٢٧٠] وهو ما دفع البعض لأن يُطلِق على هذا الوضع الصناعي للنسِيج بـ «دولة النساء» نتيجة لارتباط أعمال النَّسيج ومتعلقاته بطبيعتهن،[٢٧١] أو كما اصْطُلِحَ على تسميته في بعض بلدان المغرب الإسلامي بـ «التويزة» التي تعني باللهجة المغربية العمل المشترك أو الخدمة المشتركة، وهي أن النساء كن يخرجن لمجالس يغزلن فيها لامرأة منهن في منزلها؛ ما تدعوهن هي لغَزْله من كَتَّان أو صوف إعانة أو رفقا،[٢٧٢] أي أن نساء الغرب الإسلامي كن يتشاركن في الغَزْل بمراحله المختلفة.

بالإضافة لذلك كن يلجأن إلى استلاف واقتراض المواد الخام من الجيران لإكمال الغَزْل المطلوب منهن «إلا أنه أعوزني شيء من الصوف فطلبته من جارة لي فكملت به الكساء.»[٢٧٣] فلهذا اتسم النسج النسائي بالطابع العائلي، بينما نسج الرجال اتسم بالحِرفية والمهنية والتنظيم.[٢٧٤]

ويذكر ابن حزم[٢٧٥] أنه في بعض الأوقات كان النساء يُرغَمن على عمل الغَزْل للحفاظ عليهن وصونهن فيقول: «وقرأت في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غَزْل يشتغلن بها أبد الدهر؛ لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تتشوَّف إلى الرجال، وتحنُّ إلى النكاح.»

واتُّخذ من بعض النساء الماهرات، العارفات بأمور صنعتهن والمتقنات، مُعَلِّمات ومدرِّبات للصبايا لتعليمهن فنون النسج من غَزْل ونسج وخِياطة وطراز وغيرها، فكانت الصبايا يذهبن لمُعَلِّماتهن في بيوتهن يتعلمن الخِياطة والطراز، ومثال على ذلك والدة أبي عبد الله محمد بن محمد الربعي «فكانت مُعَلِّمة للبنات تغزلهن ... فإنهن يغزلن مصليات.»[٢٧٦] ومنهن من ذاع صيتهن في هذا الشأن واستمرت تعلم وتدرب الأطفال لمدة ثمانية أعوام،[٢٧٧] أو إحداهن طالبها الناس بأن تنشئ مكانًا لغَزْل النَّسيج لجودة غَزْلها ودِقَّته، حتى إن أخاها لم يلبس إلا من إنتاجها.[٢٧٨]

ويتبيَّن من هذا أن أعمال الغَزْل للنساء احتضنتها منازلهن في أغلب الأوقات؛ لأن المحتسبين والفقهاء أوصوا بذلك الأمر منعًا للفتنة،[٢٧٩] بالإضافة إلى أن بعضهن كن يغزلن في البوادي خلف قطعان الماشية والأغنام، كما كانت تفعل نساء جبل بني منصور من بلاد المغرب، فكن يخرجن خلف الغنم لممارسة أمور الغَزْل.[٢٨٠]

ومُدحت المرأة لإتقانها أمور الغَزْل والنسج، وهو ما نطقت به أمثال العرب: «نِعْمَ لَهْوُ الحُرةِ الغَزْلُ.»[٢٨١] وهو ما أكده رسولنا الكريم ﷺ: «نعم لهو المؤمنة في بيتها الغَزْل.» وما أكدته أمثال العامة في بلدان الغرب الإسلامي: «كل مر، تغزل أمك جر.» أو «كلما قلبت غَزْلي، لطمت صدري.» و«معها غَزْل، وعليها غزول.»[٢٨٢] ويرجع السبب في ذلك إلى أن النساء كن يتقنَّ مهنة الغَزْل بشكلٍ دقيق كنسوة تونس ومكناس اللائي اشتهرن بغَزْل الصوف والحرير والقُطْن وأخرجن قطعًا فنية غاية في الدقة والجودة،[٢٨٣] فبعضهن كن يقررن ويقدرن وزن وقيمة الغَزْل قبل البدء في غَزْله ونسجه بمجرد النظر إليه نتيجة لخبرتهن،[٢٨٤] لهذا عملت النساء بنسج الثياب والطراز حسب ما يتماشى مع النسق والاتجاه العام داخل المدن والقرى بتوجيه من التجار أو الزبائن أصحاب الثياب، كما صنعت نساء جبل زهون من بلاد المغرب «وتنسج النسوة فيه أقمشةً صوفية مصنوعة حسب طراز البلاد».[٢٨٥]

فانقسم دور النساء في صناعة النَّسيج في بيوتهن إلى:

أولًا: الإنفاق على البيت: فبالنسبة للنساء الفقيرات اللائي احتجن للمال، واضطررن للعمل، كن يغزلن النَّسيج مقابل أجر ووقت معلومَين؛ ما جعلهن ملتزمات بالوقت لاحتياجهن للمال، حتى إنهن لم يتوقَّفن عن العمل في أوقات الصيام خلال شهر رمضان لتوفير نفقات بيوتهن والمحافظة على مصدر رزقهن، ومن ثم فقد أخذن الرخصة من الشيوخ لصحة صومهن، وخاصة من يغزلن الكَتَّان ويضعنه بأفواههن، فأباح الشيوخ صومهن، وذلك على حسب نوع الكَتَّان أو النَّسيج المستخدم،[٢٨٦] أو أنهن كن يطرحن الغَزْل للبيع من أجل الإنفاق على البيت، كما فعلت جارية أبي عمرو ميمون بن عمرو، فكانت تغزل وتبيع غَزْلها وتنفق عليه من ذلك،[٢٨٧] أو لجأن لتغطية نفقات المنزل من مأكل ومشرب وغيره،[٢٨٨] كما كانت تصنع عائشة بنت الشيخ أبى موسى عمران الحاج سليمان المنوبي التي عُرفت بالسيدة المنوبية؛ فغَزْلت الصوف وأصبح مورد رزقها، أو مَن تَرَكها زوجُها للجهاد ولم يكن لديها عائل فعملت في الغَزْل والنسج في بيتها، كزوجة بكار المرواني التي أبت مساعدة أحد لها، فغَزْلت وباعت غَزْلها لنساء البلدة اللائي تخصصن في هذا الأمر فقالت: «فلنا من العجائز من ينظر في حالنا ويبيع غَزْلنا ويتفقد أحوالنا.»[٢٨٩] أو كالتي دفعت غَزْلها إلى أحد الشيوخ ليبيعه ويشتري لها لعدم قدرتها على الخروج لبيع الغَزْل، أو أنها تعففت عنه.[٢٩٠]

ثانيًا: ما تعلق بالإنفاق على أولادهن: فبعض نساء الغرب الإسلامي كن يغزلن ويخطن الثياب لأولادهن؛ لتوفير النفقات ولاستغلال أوقات فراغهن،[٢٩١] أو عمل أولادهن بأمور النَّسيج فتغزل الأم ويبيع الأولاد في السوق، وبذلك يشترك كلٌّ من الأم والأولاد في عملية إعداد النَّسيج ومن ثم بيعه، كما حدث بالنسبة لأولادٍ «استأجروا أنفسهم في غنم يرعونها يتَّخذون من صوفها بغير إذن أربابها؛ فما اجتمع عندهم من ذلك أعطوه إلى أمهم فتعمله لهم ثم يبيعونه في السوق.»[٢٩٢]

ثالثًا: مشاركة أزواجهن في الإنفاق على البيت: يتضح دور نساء الغرب الإسلامي جليًّا في تلك الأمور التي تتعلق بمشاركة الزوج في تغطية نفقات البيت، فمنهن من أعطت زوجها الغَزْل ليبيعه للإنفاق على البيت، فتقاسما العمل فأصبحا شريكين فيه،[٢٩٣] كالقاضي المصعب بن عمران الهمذاني الذي تولى أمور القضاء للأمير هشام بن عبد الرحمن «الرضا» الذي كان يجالس ويشارك زوجته العمل أثناء جلوسها على النول

ويصنع لها الخيوط،[٢٩٤] أو كما فعلت زوجة القاضي عبد الله بن محمد بن مسحور الهواري بغَزْلها كسوة من القُطْن لزوجها ليرتديها،[٢٩٥] أو من اقتات من عمل بناته في الغَزْل كالمعتمد بن عباد؛ فبعد أن سُجن بأغمات عاش مما تنفقه بنته من غزل «واستقر بأغمات، واقتات من غَزْل بناته.»[٢٩٦] وكذلك زوجة الشيخ الفقيه أبي بكر بن هذين الذي كان عيشه من غَزْلها، فيشتري الكَتَّان فتغزله وينسج منه أبدانًا، وما يزيد عن حاجتهم يشتري به كَتَّانا.[٢٩٧]

وكغيرهن، تطرقت النساء لأمور الغش والتدليس في عملهن، فمنهن من كانت تدلُّك الصوف بشحم الخنزير ليلين ويرطب فيصير كالحرير في ملمسه فيُباع بثمنٍ مرتفع، كما فعلت نساء مدينة الشاشين «إذا استجارت المرأة منهم الصوف، مشَّطت الشاة كل صباح، ودهنت صوفها بشحم الخنزير؛ فيلين الصوف، ويأتي كالحرير، فيتخذون منه الثياب.»[٢٩٨] أو تدلك الكَتَّان بالماء لكي يرطب ويثقل وزنه،[٢٩٩] أو تخلط الغَزْل الجيد بنوعٍ رديء، أو تبيع الغَزْل مكببًا.[٣٠٠]

ومن الأمور التي مُنعت النساء عن عملها عند الغزل أو البيع، الاختلاط بالرجال خاصة في الأسواق؛ لهذا وجب عليهن أن ينتدبن أحدًا للبيع أو الشراء نيابة عنهن،[٣٠١] كما خُصص لهن مكان لبيع غَزْلهن، ولهن شيوخ معروفون بثقتهم في مخالطة النساء يبتاعون لهن أو يرسلن منتجاتهن إليهم، أو يرسلن منتجاتهن مع سيدات قعيدات كبيرات في السن للسوق لبيع الغَزْل،[٣٠٢] كما منعن أيضًا من الجلوس في حوانيت الصُّناع والتجار للبيع أو للشراء،[٣٠٣] وعلى الرغم من هذا لم يمنع عمل النساء في السوق وخارجه كمن عملت سواقة — الدلالة — تنادي على السلع والأمتعة على المنازل لبيعها وعرضها على النساء.[٣٠٤]

وقد حذر ابن عبدون[٣٠٥] من مخالطة النساء اللائي عُرفن بالبغاء وممارسة الرذيلة، وإبعادهن عن حوانيتهم واللائي لُقِّبْنَ «بالطرازات»، وربما سُموا بهذا الاسم؛ لأن هذه النوعية من النساء كن يرتدين الملابس المطرَّزة والمزركشة بغية إظهار مفاتنهن وإثارة الرجال.

ويبدو أن النساء لم يمارسن الأعمال الأخرى المرتبطة بالنَّسيج من قصارة أو كمادة أو صباغة أو غيرها؛ لأنها من الأعمال الصعبة التي استلزمت القوة لتأديتها، ولكن من المؤكد أنهن مارسن أمور الغَزْل والنسج والخِياطة، وهي المهن التي تماشت وما أمر به الدين الحنيف، والظروف الاجتماعية من عادات وتقاليد.

(٦-٣) الصبية والغلمان

كما وضح أن الصبية والمبتدئين، عملوا في صناعة النَّسيج لدى الصُّناع والتجار،[٣٠٦] حتى يكتسبوا خبرات مُعَلِّميهم ويصيروا فيما بعدُ صنَّاعًا معروفين؛ فاستخدمهم الصُّناع في أمور الغَزْل والنسج وبخاصة الحرير؛ لأنه من أنواع النَّسيج الدقيقة ويتطلَّب نوعًا من الرقة والدقة والليونة من قِبَل الصُّناع حتى لا تتقطَّع خيوط الغزل؛ فاسْتُخدمت الصبية والغلمان في هذا الأمر نظرًا لملمس أيديهم الناعم، وهو ما يحافظ على خيوط الحرير من القطع.[٣٠٧]

فدفعت النساء — خاصة الفقيرات منهن — أولادهن إلى الصُّناع المشهورين ليعلموهم أسرار الصنعة بدرجة تؤهلهم فيما بعدُ أن يكونوا صُنَّاعًا مهرة، أو دفعوهم لأحد التجار المعروفين ليخبرهم طرق البيع وفنونه، كأبي ميسرة بن نزار أحمد الفقيه الذي أرسلته والدته لأحد تجار الثياب «الرهادنة»، «وكان عنده عدد من الصبيان، فكان يعطيهم سلع الزبائن كي يبيعوها.»[٣٠٨] وأبي العباس السبتي الذي يعطي نموذجًا لإحدى الأسر الفقيرة التي تُوفي عائلها ويُتِّم أولادها، فحملته أمه لأحد البزازين ليتعلَّم صناعة يتعيَّش منها، ولم تكن الأم تمتلك شيئًا سوى غَزْل الصوف الذي تبيعه وتقتات منه،[٣٠٩] أما في حالة أن الوالدين ميسورا الحال فكان لا يجوز لهما إرسال أبنائهما لتعلم الغَزْل بأجر عند الصُّناع لأنهما لا يحتاجان لذلك،[٣١٠] ومن الصبية من عمل بالنَّسيج داخل البيت تحت إشراف أهله وذويه.[٣١١]

فضلًا عن إرسال الصبايا من الفتيات إلى مُعَلِّمات النَّسيج لتعلم أمور الخِياطة والطراز، فكن يذهبن إلى بيوت — كما وضح سابقًا — المُعَلِّمات لتعلم فنون الصنعة، وغالبًا ما كانت تلك الجلسات تدور في جو من الروحانيات والتعبد، فكن يُعلِّمن الأطفال النسج وهم يصلون على النبي ﷺ، واعتادوا على ذلك؛ فصار هذا الأمر عادة من عادات النسج «وكانت مُعَلِّمة للبنات تغزلهن، وكنا نرى أن كثرة تردد الشيخ إلينا إنما كان ليسمع الصلاة على النبي ﷺ من أفواه الصغار، فإنهن يغزلن مُصلياتٍ على النبي ﷺ حسبما هو معلوم في ذلك عندهن.»[٣١٢]

ورغبة من الصُّناع في المحافظة على مهنتهم وأسرارها وتوريثها لأولادهم، ساعدوهم وأكسبوهم خبراتهم التي تجمعت لديهم عبر السنين وتوارثوها أبًا عن جَد،[٣١٣] وهو ما جاءت به أمثال العامة: «صنعة ولدك، ولو كان حشاش.»[٣١٤] ونذكر حادثة وقعت وهي أن أحدهم كان يقيم مع أبويه وإخوته وسافر إلى بلدٍ آخر وكان حائكًا، وبدأ ينسج في

ذلك البلد حتى جمع مالًا كثيرًا فاشترى به أملاكًا، فلما تُوفي أبوه طالبه إخوته بنصيبهم من عمله وأمواله على الرغم من أن أباه لم يساعده. والمقصود من تلك الحادثة أن مهنة النَّسيج كانت منتشرة بين أفراد الأسرة خاصة، وبين معظم الأسر عامة.[٣١٥]

(٦-٤) أهل الذمة

عمل العديد من الصُّناع الذميين في حِرف وصناعات النَّسيج، فمنهم من كان يصنع الغَزْل ويبيعه، ومنهم من كان يقوم بعمليات الصباغة للمنسوجات والثياب،[٣١٦] وكان أكثرهم في بلاد المغرب «حمالين وخياطين وكيالين.»[٣١٧] وفي الأندلس مارس الصُّناع اليهود الصناعات الرذيلة والوضيعة خاصة صناعة الأصباغ؛ فهيمنوا عليها، على الرغم من أنهم نُبذوا بسبب الأوساخ والإزعاج الذي يسببونه والروائح الكريهة التي تصدر عن عمليات الصبغ،[٣١٨] والبعض الآخر عمل في جمع القرمز وتصنيعه.[٣١٩]

أما من أسلم من اليهود فأُتيح له ممارسة بعض الحِرف كما في فاس «وأما من أسلم من اليهود فاحترف بخِياطة الملف والثياب وضفر القيطان الذي يُخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيفها.»[٣٢٠] وهو ما يوضح ممارسة اليهود لمعظم الأنشطة الصناعية والتجارية للنسِيج وبخاصة في فاس؛ فكان بها أكثر من ألفي يهودي عملوا في صناعة الحرير والثياب الأرجوانية.[٣٢١]

هوامش

(١) احمادو تال ديالوا: المرجع السابق، ص٥٠.

(٢) الإمام سحنون: المدونة الكبرى للإمام مالك من رواية سحنون عن ابن القاسم ويليه مقدمات ابن رشد لما اقتضته المدونة من الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ج٧، ص٣٩٥.

(٣) بوادلية بواتية: رؤية السلطة والمجتمع إلى الصُّنَّاع والحِرفيين ببلاد الأندلس عصرَي الإمارة والخلافة، دورية كان التاريخية، ع١١، ٢٠١١م، ص٢٣.

(٤) احمادو تال ديالوا: الصِّناعة بالقيروان، ص٥٢.

(٥) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٩.

(٦) ابن أبي زيد: النوادر، ج٧، ص٧٠؛ احمادو تال ديالوا: المرجع السابق، ص٦٥–٦٧؛ محمد حسن: المرجع السابق، ص٤٨٠.

(٧) الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديئها وغشوش المدلسين فيها، مطبعة المؤيد، مصر، ص٣٩.

(٨) نفح الطيب، ج٤، ص١٤٨.

(٩) الطيبي: المسلمون في الأندلس وصِقِلِّيَّة، ص٣٢٧.

(١٠) Margarita Campos. Kent; Figurative Hispano-Arabic textiles of the Almoravid and Almohad dynasties: historical and ideological implications of their design and iconography, The Ohio State University, 1980, p. 23.

(١١) المصدر السابق، ص٢٥١١.

(١٢) محمد منير سعد الدين: النقابات عند المسلمين، مجلة التراث العربي، السنة ١٢، ع٤٧، ١٩٩٢م، ص٥٧.

(١٣) محمد المنوني: مشاهد عمالية من واقع مغرب الأمس، مجلة دعوة الحق، السنة ١٥، ع١٤٦، ص١١٣-١١٤؛ محمد منير سعد الدين: المرجع السابق، ص٦١.

(١٤) احمادو تال ديالوا: الصِّناعة بالقيروان، ص٩٠.

(١٥) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٣.

(١٦) ابن الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله: أبو القاسم بن عيسى بن ناجي (ت٨٣٩هـ)، تحقيق: إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م، ج٣، ص٢٨.

(١٧) ابن عظوم: كتاب الأجوبة، تحقيق: محمد الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، ٢٠٠٥م، ج٧، ص١٦٩.

(١٨) الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٦٧م، ص٤٢؛ المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حَلَّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣م، ص٤٩.

(١٩) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد بن أبي شنب، طبعة المطبعة الثعالبية، بالجزائر، ١٩٠٨م، ص٧٩.

(٢٠) السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص٤٣.

(٢١) توريس بالباس: المُدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة إليو دورو دي لابنيا، مراجعة، نادية محمد جمال الدين وعبد الله بن إبراهيم العُمير، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص٢٨٤.

(٢٢) المصدر السابق، ج٥، ص٢٠٧؛ محمد المنوني: مشاهد عمالية من واقعٍ مغربي، ص١١٣.

(٢٣) لسان العرب، ص٢٢٣.

(٢٤) احمادو تال ديالوا: الصِّناعة بالقيروان، ص٩٤.

(٢٥) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج١٠، ص٧١.

(٢٦) سحنون: المدونة، ج٣، ص٣٩٧.

(٢٧) ابن مريم: البستان في ذكر علماء تلمسان، ص٣٩.

(٢٨) المصدر السابق، ج٧، ص٤١.

(٢٩) نافذ سويد: الحِرفيون ودورهم التاريخي في تطور المدينة العربية الإسلامية، مجلة التراث العربي، السنة ١٩، ع٧٦، ١٩٩٩م، ص١٥٥.

(٣٠) القباب: شرح مسائل ابن جماعة التونسي في البيوع، دراسة وتحقيق: محمد إبراهيم الكشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص٢٦٦.

(٣١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٢٣٤.

(٣٢) روجى لوترنو: فاس في عصر بني مرين، ص١٤٧.

(٣٣) القباب: البيوع، ص٢١٠.

(٣٤) ابن زمنين: منتخب الأحكام، تحقيق: عبد الله بن عطية الغامدي، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص٣٤٨.

(٣٥) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٤٧. وأورد الجزيري نصًّا لعقد استئجار صانع حُدِّد فيه ما ذكر «استأجر فلان فلانًا النساج لنسج الكَتَّان أو القُطْن أو الحرير، في طرازه، وعلى آلته، بحاضرة مدينة كذا، بسوق كذا، بحومة مسجد كذا، لمدة أولها شهر كذا، بكذا وكذا، دفع المستأجر منها كذا، وقبضها الأجير، ويدفع إليه باقيها عند انقضاء كذا، إجارة عرفَا قدرتها، وتواصفا العمل صفة تحققاها، وعرفا مبلغها ومنتهاها؛ لكونهما من أهل البصر بها، وشرع الأجير في العمل لأول مدة الاستئجار، وعليه الاجتهاد من ذلك وبذل النصيحة وأداء الأمانة في سرِّ أمره وجهره بأبلغ طاقته وأقصى مجهوده بلا شرط ولا مثنوية ولا خيار على سنة المسلمين في استئجارهم الجائز بينهم ومرجع دركهم.» المقصد المحمود، ج١، ص٣٢٠.

(٣٦) ابن إصبغ: ديوان الأحكام، ص٣٨٠.

(٣٧) المعيار، ج٦، ص٢٣٣.

(٣٨) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج٦، ص٤٠٤؛ القباب: شرح مسائل البيوع، ص٢٢٦.

(٣٩) ابن مريم: البستان في ذكر علماء تلمسان، ص٣٩.

(٤٠) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٤٢.

(٤١) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٧، ص٤٠، ٤٦.

(٤٢) الإمام سحنون: المدونة، ج٣، ص٣١٤.

(٤٣) سحنون: المصدر السابق، ج٩، ص١١١.

(٤٤) الإبياني: مسائل السماسرة، تحقيق: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص٣٨.

(٤٥) وائل عبد الكريم حسن: أحكام تضمين الصُّناع وأصحاب الحِرف في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠١م، ص٨١.

(٤٦) الإمام سحنون: المدونة، ج٣، ص٤٠٠.

(٤٧) نافذ سويد: الحِرفيون ودورهم التاريخي في المدينة الإسلامية، ص١٥٥.

(٤٨) احمادو تال ديالوا: الصِّناعة بالقيروان، ص٩٤.

(٤٩) المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، مطبعة دار التراث، القاهرة، (د.ت)، ج٤: ص١٥.

(٥٠) احمادو تال ديالوا: الصِّناعة بالقيروان، ص٩٤.

(٥١) ابن أبي زيد: النوادر، ج١٠، ص٧١.

(٥٢) الإمام سحنون: المدونة، ج٣، ص٤٣١.

(٥٣) الإمام سحنون: المصدر السابق، الجزء السابق، ص٤٤٠.

(٥٤) ابن الحاج: المصدر السابق، ج٤، ص١٩.

(٥٥) الإبياني: مسائل السماسرة، ص٩٢؛ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عُني بنشره: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٦٤-٦٥.

(٥٦) الزهري: الجغرافية، ص٩٢.

(٥٧) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١٩.

(٥٨) ابن بسام: المصدر السابق، ص١٠٨.

(٥٩) ابن عبدون: المصدر السابق، ص٥١، ٥٣، ٥٨.

(٦٠) نفس المصدر، ص٢٤؛ الإبياني: المصدر السابق، ص٩٢.

(٦١) نافذ سويد: الحِرفيون ودورهم التاريخي في المدينة الإسلامية، ص١٥٣.

(٦٢) نافذ سويد: المرجع السابق، ص١٥٤.

(٦٣) ابن رحال: المصدر السابق، ص٧٥.

(٦٤) وائل عبد الكريم: المرجع السابق، ص١٨: ٢٢.

(٦٥) الجزيري: المقصد المحمود، ج٢، ص٣٥١؛ ابن رحال: تضمين الصناع، ص٧٨؛ وائل عبد الكريم: أحكام تضمين الصُّناع وأصحاب الحِرف في الفقه الإسلامي، ص٣٢-٣٣.

(٦٦) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج٧، ص٦٨.

(٦٧) الإمام سحنون: المدونة، ج٣، ص٣٧٣؛ ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٧، ص٧٠-٧١، ٨٤-٨٥.

(٦٨) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٧، ص٨٢، ج١٤: ٤٠٩.

(٦٩) سحنون: المصدر السابق، الجزء السابق، ص٣٧٢.

(٧٠) الإمام سحنون: نفس المصدر، ص٣٩٦–٤٠٠؛ زروق: شرح زروق على متن الرسالة، دار الفكر، ببيروت، ١٩٨٢م، ج٢، ص١٥٦؛ جمال أحمد طه: تطور الشركات التجارية في الغرب الإسلامي، مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، يناير ٢٠١١م، ص٨٨.

(٧١) ابن أبي زيد: رسالة الإمام ابن أبي زيد القيرواني، جمع: صالح عبد السميع الأبي الأزهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٣٨هـ، ص٤٠٧-٤٠٨.

(٧٢) الجزيري: المقصد المحمود، ج٢، ص٣٤٦.

(٧٣) المدونة، ج٣، ص٥٩٦.

(٧٤) النوادر والزيادات، ج٩، ص٧.

(٧٥) جمال أحمد طه: تطور الشركات التجارية في الغرب الإسلامي، ص٨٨.

(٧٦) محمد سعيد مغاوري: الألقاب وأسماء الحرف والصناعات والوظائف في ضوء البرديات العربية، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠م، ج٢، ص٦٨٩.

(٧٧) المازري: فتاوى المازري، تحقيق: الطاهري المعموري، الدار التونسية للنشر، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، ١٩٩٤م، ص٣٢٨.

(٧٨) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١١.

(٧٩) علي أحمد: العاملون فى ميدان الاقتصاد والخدمة في المشرق العربي من الأندلسيين والمغاربة منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مجلة التراث العربي، ع٤١، ١٤١١هـ، ص١٥٠.

(٨٠) السقطي: آداب الحسبة، ص١٢٠.

(٨١) الدمشقي: محاسن التجارة، ص٢٦.

(٨٢) ابن الحاج: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨٣) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٢؛ ابن بسام: معالم القربة، ص٢١٨.

(٨٤) ابن الحاج: المصدر السابق، ج٤، ص١١. والمصرقة أو المسرقة أخذت في الإسبانية بمعنى Mscorca وهو مجموع الخيوط على المغزل. ابن هشام: لحن العامة، ص٣١٥.

(٨٥) ابن الحاج: نفس المصدر والجزء والصفحة؛ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٤، ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٤؛ ابن بسام: المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٨٦) ابن بسام: نفس المصدر، ص٢٢٦؛ الشيزري: المصدر السابق، ص٧٠.

(٨٧) لعله يقصد بها مدينة دمنيا أو دمنو وهي قريةٌ مصرية توجد بصعيد مصر من غرب النيل. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٧٢.

Maya Shatzmiller: Women and Wage Labour in the Medieval Islamic West: Legal Issues in an Economic Context, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 40, No. 2 (1997), p. 194.

(٨٨) الونشريسي: المعيار، ج١، ص٤٢٢.

Maya Shatzmiller: Op.cit., p. 194.

(٨٩) الدمشقي: محاسن التجارة، ص٢٤.

(٩٠) الشيزري: المصدر السابق، ص٧٠، ابن عبد الرءوف: المصدر السابق، ص٨٧؛ ابن بسام: معالم القربة، ص٢٢٦.

(٩١) الشيزري: نفس المصدر، ص٧٠.

(٩٢) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٢.

(٩٣) ابن الحشاء: معيد النعم، ص٤٢؛ سعيد مغاوري: الألقاب وأسماء الحِرف والوظائف، ج١، ص٣٨٨.

(٩٤) ابن عبد الرءوف: نفسه، ص٨٧.

(٩٥) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٥، ص١٨٥.

(٩٦) ابن عروس: ابتسام الغروس ووشي الطروس، ص٣٢٩؛ المالكي: رياض النفوس، ج٢: ص٣٢٨. وحدث أن نظر نداف إلى غيم متقطع في السماء وقال: «كأنه قُطْن يندف في ديباج أزرق.» الثعالبي: خاص الخاص، عُني بتصحيحه: محمود السكري، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٨٠٩م، ص٦٥.

(٩٧) ابن بسام: معالم القربة، ص٢٢٥؛ الشيزري: نهاية الرتبة، ص٦٩؛ السقطي: آداب الحسبة، ص٦٤.

(٩٨) ابن بسام: المصدر السابق، ص٢٢٥؛ الشيزري: المصدر السابق، ص٦٩؛ ابن الدباغ: معالم الإيمان، ج٣، ص٢٤.

(٩٩) ابن رشد: فتاوى ابن رشد، ص٩٢١.

(١٠٠) مجهول: الاستبصار، ص١٢٩.

(١٠١) ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص١٩٠.

(١٠٢) ابن مرزوق التلمساني: المصدر السابق، ص١٨٨–١٨٩.

(١٠٣) العبيدي: صُناع النَّسيج في الآثار العربية الإسلامية في العصر العباسي، مجلة المورد، وزارة الإعلام، العراق، ١٩٨٦م، ص٣٢.

(١٠٤) المقدمة، ج٢، ص٨٧٢.

(١٠٥) إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٧٧.

(١٠٦) معيد النعم، ص١٣٤.

(١٠٧) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٤–٦٦.

(١٠٨) الشيزري: المصدر السابق، ص٦٥.

(١٠٩) الشيزري: نفس المصدر، ص٦٤؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٥.

(١١٠) ابن أبي زيد: النوادر، ج٧، ص٧٠، ٧٣، ٨١.

(١١١) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٤١.

(١١٢) الشيزري: نفس المصدر، ص٦٤؛ ابن عبد الرءوف: المصدر السابق، ص١٠٥؛ البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٣٩٨–٣٩٩.

(١١٣) الزجالي: أمثال العامة في الأندلس، ص٢٥٥.
(١١٤) ابن بسام: معالم القربة، ص٧٣.
(١١٥) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٤.
(١١٦) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٣٤٣.
(١١٧) ابن بسام: المصدر السابق، ص٧٤؛ الشيزري: المصدر السابق، ص٦٥؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٤؛ العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales du Institut Francis de Damas. R، ١٩٦٧م، ص١٢٣.
(١١٨) العقباني: المصدر السابق، ص١٣٥.
(١١٩) القباب: شرح مسائل البيوع، ص٢٤٦.
(١٢٠) البرزلي: المصدر السابق، ج٣، ص٥٤٥-٥٤٦.
(١٢١) القباب: المصدر السابق، ص٢٤٦.
(١٢٢) روجي لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٥٠.
(١٢٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٨٤.
(١٢٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى، القاهرة (د.ت)، ج١، ص٢٠١.
(١٢٥) الثعالبي: خاص الخاص، ص٦٥.
(١٢٦) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٧.
(١٢٧) الميبرك أو المئبر وهي مسلَّة من الحديد، وأيضًا الميبر هي الخرقة التي تحفظ بها الإبر. ابن هشام: لحن العامة، ص٣١٨.
(١٢٨) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٩؛ السقطي: آداب الحسبة، ص٦٢. الشيزري: المصدر السابق، ص٦٧؛ ابن بسام: معالم القربة، ص٢١٩.
(١٢٩) ابن بسام: نهاية الرتبة، ص٣٢٨.
(١٣٠) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٧.
(١٣١) الشيزري: المصدر السابق، ص٦٧، السقطي: المصدر السابق، ص٦٢.
(١٣٢) ابن أبي زيد: النوادر، ج٧، ص٤٠، ٧١.
(١٣٣) الشيزري: نفس المصدر، ص٦٧.
(١٣٤) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٢، ص٧٨، ٢٤٣؛ ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢: ص٢٤٢؛ السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٣٥-١٣٦.

(١٣٥) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٧، ص٩٠؛ ابن الحاج: نفس المصدر، ج٤، ص٢١؛ ابن عمر: أحكام السوق، ص١٤٠.

(١٣٦) ابن الحاج: نفس المصدر، ص٢٢.

(١٣٧) القباب: شرح مسائل البيوع، ص٢٥١.

(١٣٨) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٥٠.

(١٣٩) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٧.

(١٤٠) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٢٤.

(١٤١) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٥٤٩.

(١٤٢) القباب: المصدر السابق، ص٢٦٣.

(١٤٣) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٧، ص٧٨؛ ابن زمنين: المصدر السابق، ص٣٥٢–٣٥٤.

(١٤٤) القباب: نفس المصدر، ص٢٦٠.

(١٤٥) ابن أبي زيد: نفس المصدر والجزء، ص٣٩–٤٧.

(١٤٦) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٦، ص٥٧.

(١٤٧) ابن الحاج: المصدر السابق، ج٤، ص٢٠، ٢٤.

(١٤٨) ابن الحاج: نفس المصدر والجزء، ص٢١؛ السبكي: مبيد النعم، ص١٣٥.

(١٤٩) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج٧، ص٧٥؛ ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢: ص٢٤٢؛ لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٣٤.

(١٥٠) لوترنو: المرجع السابق، ص١٣٤.

(١٥١) ابن عظوم: كتاب الأجوبة، ج٢، ص١٢٤.

(١٥٢) فيذكر «كان الخياطون والرفاءون يجلسون بالسطح الأعلى من شرقي الجامع يعملون أشغالهم هناك ويحرسون، ولم تكن هناك بناءات مرتفعة تمنع النظر.» الأبي: إكمال إكمال المُعَلِّم في شرح صحيح مسلم (إكمال الإكمال)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج٢، ص٢٧٩-٢٨٠.

(١٥٣) الإمام سحنون: المدونة، ج٣، ص٣٧٣.

(١٥٤) ابن عيشون: الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق: زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٧م، ص٤٩.

(١٥٥) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٦.

(١٥٦) ابن الحاج: المصدر السابق، ج٤، ص١٦-١٧؛ الملك المظفر: نفس المصدر، ص١٥٩.

(١٥٧) ابن الحاج: نفس المصدر والجزء، ص١٧.

(١٥٨) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص٥٤.

(١٥٩) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٧.

(١٦٠) السقطي: آداب الحسبة، ص٦٣؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١١٥؛ ابن الحاج: المصدر السابق، ج٤، ص١٦؛ ابن عروس: ابتسام الغروس ووشي الضروس، ص١٩٦.

(١٦١) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٣٢، ١٨٥، ٤٠٠.

(١٦٢) السقطي: المصدر السابق، ص٦٣؛ ابن عبد الرءوف: المصدر السابق، ص١١٥.

(١٦٣) ابن عبد الرءوف: نفس المصدر، ص١١٥؛ ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٩؛ ابن الحاج: نفس المصدر والجزء، ص١٧؛ ابن منظور: لسان العرب، ص٣٦٤٩.

(١٦٤) السبتي: اختصار الأخبار، ص٤٩.

(١٦٥) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص١٦١.

(١٦٦) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٥٤-٤٥٥.

(١٦٧) مقديش: نزهة الأنظار، ج٢، ص٢٩٩.

(١٦٨) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٧.

(١٦٩) التجاني: رحلة التجاني، ص١٥٨؛ الأندلسي: الحلل السندسية، ص١٨٣؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج٢، ص٢٩٩.

(١٧٠) السبتي: اختصار الأخبار، ص٤٩-٥٠.

(١٧١) البكري: المغرب، ص٣٦.

(١٧٢) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٤٧؛ ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢: ص٢٤٣.

(١٧٣) السقطي: آداب الحسبة، ص٦٣؛ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٧.

(١٧٤) ابن أبي زيد: النوادر، ج٧، ص٧٠.

(١٧٥) الجبي: شرح غريب ألفاظ المدونة، تحقيق، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥م، ص٥٧.

(١٧٦) الزجالي: الأمثال العامة، ص١٥٦.

(١٧٧) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٤٥؛ ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٤٢؛ الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٣٣٠، ٣٤٥.

(١٧٨) السقطي: المصدر السابق، ص٦٣؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١١٥؛ الشيزري: المصدر السابق، ص٧٢؛ ابن الحاج: المصدر السابق، ج٤، ص١٧-١٨.

(١٧٩) ابن الحاج: نفس المصدر والجزء، ص١٨؛ ابن عمر: أحكام السوق، ص١١٧.

(١٨٠) ابن أبي زيد: النوادر، ج٧، ص٧٨؛ ابن فرحون: المصدر السابق، ج٢: ص٢٤٣.

(١٨١) ابن زمنين: المصدر السابق، ص٢٥٢؛ ابن فرحون: نفس المصدر والجزء، ص٢٥٠.

(١٨٢) البابا: لفظ لمن يقوم بغسل وصقل الثياب وغير ذلك، وهو لفظٌ رومي معناه الأب، وكان يحرص على إزالة النجاسة من الثياب عند غسلها بإضافة الماء حتى يذهب ذلك. السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٣٨؛ هامش ١.

(١٨٣) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج١١، ص٣٩؛ البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٤: ص٣١٥؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص٦٨؛ احمادو ديالوا: الصِّناعة بالقيروان، ص٧٧؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٨١.

(١٨٤) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٧، ص٦٨.

(١٨٥) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج١٤، ص٤٠٩؛ ابن الوزان: المصدر السابق، ص٢٤٤.

(١٨٦) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٧، ص٨٢؛ ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٥٠؛ البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٣٩٨-٣٩٩.

(١٨٧) الوزان: نفس المصدر، ص٢٤٤.

(١٨٨) ابن الحشاء: معيد النعم ومبيد النقم، ص٥؛ الملك المظفر: المخترع في فنون من صنع، ص١٨٧.

(١٨٩) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٤.

(١٩٠) ابن منظور: لسان العرب، ٣٩٢٨.

(١٩١) ابن هشام اللخمي: لحن العوام، ص٣٠٩؛ احمادو تال ديالو: الصِّناعة بالقيروان، ص٧٤.

(١٩٢) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٤٣.

(١٩٣) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٢٦٥.

(١٩٤) ابن عظوم: كتاب الأجوبة، ج٧، ص١٦٩، هامش ١؛ محمد حسن: المرجع السابق، ص٤٨١.

(١٩٥) البكري: المغرب، ص٢٠.

(١٩٦) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٤٦.

(١٩٧) البرزلي: المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٥؛ ابن المناصف: تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، ورقة ٨٣ب.

(١٩٨) العلمي: نوازل العلمي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٨٣م، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨.

(١٩٩) السقطي: آداب الحسبة، ص٨٤.

(٢٠٠) الجرسيقي: رسالة في الحسبة، ص١٢٤.

(٢٠١) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٢.

(٢٠٢) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٧٨.

(٢٠٣) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٧١.

(٢٠٤) السقطي: المصدر السابق، ص٦٢؛ ابن عبدون: المصدر السابق، ص٥٠؛ الشيزري: المصدر السابق، ص٧٢.

(٢٠٥) مجهول: الحُلَل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زماعة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص٢٧.

(٢٠٦) الشيزري: نفس المصدر، ص٧٢.

(٢٠٧) المدخل، ج٤، ص١٢.

(٢٠٨) ابن هلال: الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، طبعةٌ حجرية، فاس، ١٩٠١م، ص٣.

(٢٠٩) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٣٦.

(٢١٠) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج٧، ص٨٠؛ ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢: ص٢٤٣؛ ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٥١؛ الونشريسي: المعيار، ج٨: ص٣٢٣.

(٢١١) السقطي: آداب الحسبة، ص٦٣؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١١٥؛ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٧٢.

(٢١٢) ابن المناصف: تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، ق٨٣أ.

(٢١٣) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ص٧١؛ ابن عبد الرءوف: المصدر السابق، ص١١١؛ البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٤، ص٣١٥؛ ابن زمنين: المصدر السابق، ص٣٥٢.

(٢١٤) ابن فرحون: المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٤.

(٢١٥) ابن بسام: معالم القربة، ص٢٢٦؛ الشيزري: المصدر السابق، ص٧٢.

(٢١٦) ابن عبد الرءوف: نفس المصدر، ص١٠٥.

(٢١٧) ابن أبي زيد: النوادر، ص٨٣.

(٢١٨) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٨٣.

(٢١٩) ابن بسام: معالم القربة، ص٣٣٨.

(٢٢٠) ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٣؛ ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٠: العقباني: تحفة الناظر، ص١٢٤ ...

(٢٢١) ابن عبدون: المصدر السابق، ص٥٢.

(٢٢٢) ابن بسام: المصدر السابق، ص٣٣٨.

(٢٢٣) ابن بسام: معالم القربة، ص٣٣٩.

(٢٢٤) ابن بسام: المصدر السابق، ص٣١-٣٢.

(٢٢٥) السقطي: آداب الحسبة، ص٦٤؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٢.

(٢٢٦) ابن بسام: نفس المصدر، ص٣٣٩.

(٢٢٧) سعيد مغاوري: الألقاب وأسماء الحِرف والصناعات والوظائف، ج١: ص٣٤٢.

(٢٢٨) ابن منظور: المصدر السابق، ص٣٧٢١؛ محمد عبد الجليل بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس — بطريقة التَّأثيل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٩م، ص٩٩.

(٢٢٩) ابن بسام: نفس المصدر، ص٣٤١.

(٢٣٠) السقطي: المصدر السابق، ص٦٤–٦٨؛ ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٢.

(٢٣١) الجبي: ألفاظ المدونة، ص٥٤.
(٢٣٢) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٤٤١.
(٢٣٣) مصطفى نشاط: إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، ص٨١.
(٢٣٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٣٦٨ (رقم ١٠٧٤).
(٢٣٥) ابن الدباغ: المصدر السابق، ج٣، ص٢٤، ٣٠.
(٢٣٦) ابن الدباغ: معالم الإيمان، ج٢، ص٣٤٢.
(٢٣٧) ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج٢، ص٤٧٨ (رقم ٧٠٠).
(٢٣٨) الغبريني: عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ص١٩٥-١٩٦.
(٢٣٩) ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، ص١٦١.
(٢٤٠) الباديسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف، ص١٠٨.
(٢٤١) ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص١٨١.
(٢٤٢) علي أحمد: العاملون في الاقتصاد في مصر، ص١٥٦.
(٢٤٣) الباديسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف، ص١٥٠.
(٢٤٤) الباديسي: المصدر السابق، ص٧٢.
(٢٤٥) المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص٢٦٧.
(٢٤٦) المصدر السابق، ص١٨٨-١٨٩.
(٢٤٧) السمعاني: الأنساب، ج١، ص٢٣٩.
(٢٤٨) ابن بشكوال: كتاب الصالة، ج٢، ص٧٣٦ (رقم ١١٠٢).
(٢٤٩) الباديسي: المقصد الشريف والمنزع اللطيف، ص١١٩.
(٢٥٠) الباديسي: المصدر السابق، ص١٤٧.
(٢٥١) السمعاني: الأنساب، ج٤، ص٦٠.
(٢٥٢) ابن بشكوال: نفس المصدر، ج٢، ص٤٧٥-٤٧٦ (رقم ٦٩٧).
(٢٥٣) الباديسي: نفس المصدر، ص١٢١.
(٢٥٤) ابن بشكوال: نفس المصدر، ص٤٨١-٤٨٣ (رقم ٧٠١).
(٢٥٥) محمد المنوني: مشاهد عمالية، ص١١٤.
(٢٥٦) ابن عبد الرءوف: رسالة في الحسبة، ص١٠٢.

(٢٥٧) ابن سعيد: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، سلسلة الذخائر ١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٥٤م، ص١٣٧.

(٢٥٨) ابن الدباغ: معالم الإيمان، ج٣، ص٥.

(٢٥٩) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص٢٤.

(٢٦٠) المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص١٦٢.

(٢٦١) ابن هشام اللخمي: ألفاظٌ مغربية، ج١، ص٢٩٣.

(٢٦٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، ج٣، ص٩٥٦ (رقم ١٤٧٤).

(٢٦٣) طوق الحمامة في الألفة والأُلَّاف، طبعة دمشق، ١٩٣٠م، ص٣٢.

(٢٦٤) معجب سعيد: صورة المرأة في خطاب ابن رشد، مجلة التراث العربي، السنة ٢٧، ع١٠٥، ص٢٦.

(٢٦٥) الزهري: الجغرافية، ص١٠٢؛ ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٥.

(٢٦٦) ابن سعد: الأنواء، ص٤٩؛ عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين «عصر الطوائف الثاني ٥١٠-٥٤٦هـ/١١١٦-١١٥١م»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص٤٠٣.

(٢٦٧) Maya Shatzmiller: Women and Wage Labour in the Medieval Islamic West, p. 194.

(٢٦٨) Maya Shatzmiller: Op.cit., p. 195.

(٢٦٩) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٢٣٧-٢٣٨.

Maya Shatzmiller: Ibid., p. 195.

(٢٧٠) معجب سعيد: صورة المرأة في خطاب ابن رشد، ص٢٦؛ راوية عبد الحميد شافع: المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قُرْطُبَة، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص١٧٣.

(٢٧١) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٧.

(٢٧٢) العقباني: تحفة الناظر، ص٧٧؛ عبد الهادي التازي: دور المحتسب في السوق، مجلة رسالة التقريب، ع٥، ١٤١٥هـ، ص١٣٢.

(٢٧٣) التادلي: التشوف، ص١٤٦.

(٢٧٤) برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٢٣.

(٢٧٥) طوق الحمامة، ص٣٢؛ محمد المنوني وآخرون: التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، ص٩١.

(٢٧٦) ابن عروس: ابتسام الغروس ووشي الطروس، ص٢٠١.

(٢٧٧) ابن عظوم: الأجوبة، ج٤، ص٢٩٤؛ برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢: ص١٧٨.

(٢٧٨) علي أحمد: العاملون في الاقتصاد في مصر، ص١٥٠.

(٢٧٩) ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص٨٧.

(٢٨٠) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٣٣٣.

(٢٨١) احمادوا تال ديالو: الصِّناعة بالقيروان، ص٥٩.

(٢٨٢) الزجالي: الأمثال العامة، ص٢٥٦-٣٤٦.

(٢٨٣) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٤٧؛ مارمول: أفريقيا، ج٢، ص١٤١.

(٢٨٤) ابن عروس: ابتسام الغروس ووشي الطروس، ص١٤٦.

(٢٨٥) الوزان: نفس المصدر، ص٢٩٤.

(٢٨٦) Maya Shatzmiller: Women and Wage Labour in the Medieval Islamic West, p. 194.

(٢٨٧) أماري: المكتبة الصِّقِلِّيَّة العربية، ص١٩٣، ٣٥٢.

(٢٨٨) ابن الدباغ: معالم الإيمان، ج٣، ص١٥١؛ التادلي: التشوف، ص١١٧.

(٢٨٩) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٣٣٣-٣٤٠.

(٢٩٠) التادلي: التشوف، ص٢٧٤.

(٢٩١) المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص٣٤٧.

(٢٩٢) المالكي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٩.

(٢٩٣) الصومعي: مناقب أبي يعزى، ص١٨٢؛ محمد الهبضي: فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٨م، ص١٦٤.

(٢٩٤) راوية عبد الحميد: المرأة في المجتمع الأندلسي، ص١٧٣-١٧٤.

(٢٩٥) الجزنائي: زهرة الآس، ص٩٦.

(٢٩٦) ابن الخطيب: تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م، ص١٦٤.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 33.

(٢٩٧) ابن الدباغ: معالم الايمان، ج٢، ص٢٦٦.

(٢٩٨) القزويني: آثار البلاد، ص٥٣٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٣٦.

(٢٩٩) ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص٨٧.

(٣٠٠) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٢.

(٣٠١) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج٦، ص٢٧٥؛ العقباني: تحفة الناظر، ص٧٨؛ الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٠٩.

(٣٠٢) ابن عبد الرءوف: المصدر السابق، ص٨٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٣٣٩-٣٤٠؛ راوية عبد الحميد: المرأة في المجتمع الأندلسي، ص١٧٤.

(٣٠٣) الشيزري: المصدر السابق، ص٦٩؛ ابن عبد الرءوف: نفس المصدر، ص٨٧.

(٣٠٤) ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بو عياد، مكتبة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص١٩٤.

(٣٠٥) رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٧.

(٣٠٦) المجيلدي: التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق: موسى لقبال، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص٧٥.

(٣٠٧) Lombard: Les Textiles, p. 237.

(٣٠٨) المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص٣٦٢-٣٦٦.

(٣٠٩) الصومعي: مناقب أبي يعزى، ص٢٣٩؛ القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص١٨٩.

(٣١٠) الجزيري: المقصد المحمود، ج١، ص٣٢٨.

(٣١١) مجهول: الاستبصار، ص١٨٨.

(٣١٢) ابن عروس: ابتسام الغروس ووشي الطروس، ص١٤٦.

(٣١٣) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص٢١٦؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٦٠؛ مصطفى عبد الرحيم: النشاط الاقتصادي، ص١٠٩.

(٣١٤) الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، ص٣٨٨.

(٣١٥) محمد الهبضي: فتاوى تتحدى الإهمال، ص١٦٨.

(٣١٦) الجنحاني: دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص١٠٨-١٠٩.

(٣١٧) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، نُشِرَ في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ٦، ع١-٢، ١٩٥٨م، ص١٣.

(٣١٨) Margarita Campos. Kent; Figurative Hispano-Arabic textiles of the Almoravid and Almohad dynasties, p. 22.

(٣١٩) إبراهيم سيد الناقة: الأسواق التجارية والصناعية في الأندلس في عصر الخلافة الأموية والخلافة الموحدية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١٠م، ص١٩٢.

(٣٢٠) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٢٤.

(٣٢١) Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 50.

الفصل الرابع

مراحل ومراكز صناعة النَّسيج في بلدان الغرب الإسلامي

بلغت صناعة النَّسيج في بلدان الغرب الإسلامي مرحلة من التقدم كانت بدايتها من القرن ٤هـ/١٠م، واستمرت حتى القرن ٨هـ/١٤م،[١] وهو ما أكده عدد من المؤرخين والرحالة منذ القرن الرابع الهجري؛ فابن حوقل[٢] الذي زار الأندلس عام ٣٣٧هـ/٩٤٨م أعطى وصفًا يعكس تقدم صناعة المنسوجات بأنها فاقت في جودتها وصناعتها وحجمها إنتاج أي بلدٍ آخر، فتفوَّقت على ما كان يُصنع بالعراق على الرغم مما تمتعت به بغداد في هذا الشأن إبان تلك الفترة.

واستمر هذا حتى القرن الثامن الهجري حيث يقول العمري:[٣] «إن أهل الأندلس ... يلبسون الثياب الرفيعة الملونة من الصوف والكَتَّان ونحو ذلك، وأكثر لباسهم في الشتاء الجوخ، وفي الصيف البياض.» ولأن تصل صناعة النَّسيج لهذه الدرجة من الإتقان، فلا بد أنها قد مرت بعدة مراحل من الإعداد للتصنيع والغَزْل، ومن ثم خروجها على شكل مَنْسوجات حَرِيرية وصوفية وقُطْنية وكَتَّانية، وهو ما سيبين فيما يلي:

(١) مراحل صناعة النَّسيج

(١-١) مرحلة التجهيز

تدخل المواد الخام النَّسيجية — الحيوانية أو النباتية — عدة مراحل حتى تصير في النهاية منتجًا يُلبس أو مادة جاهزة للتصنيع، ومن بين تلك المرحل والخطوات:

(أ) تجهيز الصوف: لا يدخل الصوف مراحلَ كثيرةً حتى يخرج في صورته النهائية على هيئة ألياف وشعيراتٍ ناعمة تكون صالحة للاستخدام في أمور الغَزْل والنسج أو حتى الاستعمال الشخصي؛ فالصوف يُحصَل عليه من جزة الفروة التي تغطي جسم الضأن من الخرفان أو الكباش، وتُقصُّ بالمقراض لتكون مناسبة، ثم تُضرب بالقضيب لتُفرد وتلين، وبضربها تتبين نوعية هذا الصوف من الخرفان أو الكباش، لأن صوف الخرفان يكون أطول من صوف الكباش،[٤] وبعدها ينظف الصوف من الوذح، وهو ما يعلق به من أبعار وبول الغنم أو التبن أو الحسك.[٥]

وتتباين أطوال وأشكال الصوف؛ بحسب مدة بقاء الصوف على بدن الضأن ومكانه على جسمه؛ لهذا يُفضَّل الحصول على الصوف الذي مرَّ عامان على بقائه على بدن الضأن؛ فالصوف المتَّخذ من جذع وعنق الغنم يكون قصيرًا، والمتَّخذ من ثني الغنم فهو طويل وقوي، وصوف الظهر يأتي في المرتبة الأولى المفضلة للصناع والتجار، أما صوف الجنبَين والخاصرة فهو في المرتبة الثانية، وبالنسبة لصوف البطن فيكون في المرتبة الثالثة، كذلك صوف الفخذين يقبع في المرتبة الرابعة للصناع والتجار من حيث الاختيار.[٦]

وبعد تنظيف الصوف من الوذح وما يعلق به يُغسل غسلًا جيدًا فيصير جاهزًا كي يُنفَش وتُسرَّح أليافه وتنفك، فالألياف الطويلة تُمشَّط عن طريق مشطٍ كبيرٍ مصنوع من الخشب أو الصدف، وهو من الأدوات الأساسية التي تُفكُّ بها عقد الصوف، وقد احتكر صناعتها بعض الصناع اليهود وخاصة المقيمين في مدينة فاس خلال القرن ٧-٨هـ/١٣-١٤م،[٧] وبالنسبة للألياف القصيرة يتم تنقيتها عن طريق مشط يتكون من لوحَين بهما أشباه مسامير يُحك بها الصوف؛ فيعلق بالمسامير ما بقى متشبثًا بالصوف من عقد، وما حل من الصوف فيصعد لأعلى اللوح فيصير جاهزًا ليدخل مرحلةً جديدة،[٨] كما اسْتُخْدِمت بعض النباتات الشوكية في تسليك شعيرات الصوف، وهو ما عرف عند صناع المغرب بصفةٍ خاصة بـ «القرظاج» وهو ما ذكره ابن قزمان بقوله: «أر بعد لس شير من قزظاج ولا تهجم فلس اغرنون.»[٩]

ثم يدخل الصوف مرحلة الغَزْل التي أطلق عليها «العميتة» فكانت تتم باليد،[١٠] وتكمن في تحويل ألياف الصوف لخيوط، وغالبًا ما تقوم بتلك العملية النساء؛ لما تطلبته عملية الغَزْل من المهارة والدقة وهو ما يتناسب وطبيعة التوافق الجسمي للمرأة.[١١]

(ب) تجهيز الكَتَّان: تُعتبر زراعة الكَتَّان من الزراعات التي تحتاج للكثير من الماء، وهو ما وُجد ببلدان الغرب الإسلامي نتيجة كثرة الأودية العذبة والعيون والآبار بها، بالإضافة

إلى التربة الرملية الصالحة لزراعة الكَتَّان، فيزرع الكَتَّان بداية من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ويُحصَد في شهر مايو (آيار)، ويُضاف إليه روث البهائم ويُزرع بطريقة تُسهِّل وصول المياه إليه ومن ثم غمره، فحرص الفلاحون على ألَّا يُسقى الكَتَّان بالمياه المالحة؛ لأنها تفسده، فروي بالمياه العذبة، ثم يُنظَّف ويُنقَّى من الأعشاب الضارة الموجودة به للحصول على أفضل إنتاجيه من ألياف الكَتَّان، ومن العلامات التي تشير لنضجه وبداية حصاده اصفرار اللون،[١٢] وبعدها تبدأ عملية الجمع، فيجمع الكَتَّان في حزم، كلٌّ منها يقارب في مجمله راحة اليد؛ ليستطيع العمال والفلاحون تطويقها بكلتا يديهم وهو ما يقارب حجم الذراع أي ما يعادل «٤٧سم» تقريبًا، ثم يُترك الكَتَّان لمدة أربعة أو خمسة أيام في الشمس مع تغطية بذوره حتى تجفَّ، ثم تُفرك الأوراق الجافة المعلَّقة على سيقانه، وتُوضع الجذور لأعلى ويُوجَّه الكَتَّان في اتجاهٍ معاكس مع الحرص والحفاظ على سلامة البذور كي لا تتفتح وتفسد.[١٣]

وبعدها مرحلة نقع الكَتَّان وغمسه بالمياه أو كما أطلق عليها المقريزي «الهدار»[١٤] التي تتم في برك ومستنقعات مياه خُصصت لذلك أو في الأنهار، كما كان يحدث في نهر قُرْطُبَة وبخاصة في أيام الصيف؛ مما أدى لتغير طعم ورائحة مياه النهر،[١٥] وتستمر هذه المرحلة من شهر أبريل حتى يونيو، بترك مياه البرك لفترة لتسخن بواسطة الشمس؛ نظرًا لارتفاع درجات الحرارة في هذه الأوقات من السنة، وفُضلت المياه العذبة للحصول على ألياف كَتَّان بيضاء، أما المياه الراكدة العكرة التي يُنقع فيها الكَتَّان فتُخرج الكَتَّان رمادي اللون ومعها تقل جودة الكَتَّان، وفي بعض الأحيان كان يُلقى روث البهائم في المياه للإسراع في نضج الكَتَّان.[١٦]

أما عملية الغمر فيُوضع الكَتَّان في حزم مع غمر الأجزاء السفلية منها في الماء، ثم توضع أحجار أو عوارض خشبية ثقيلة عليها كي لا تطفو سيقانه على السطح، وبعد عملية الغمر يتم إخراج الكَتَّان لتهويته في الشمس مع ضرورة تقليبه من مرة لأربع مرات، حتى يصير الكَتَّان ناضجًا بنسبةٍ كبيرة، وهذه العملية تتم في شهر يوليو.[١٧]

وبعدها تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل تجهيز الكَتَّان وهي الحلج، وذلك بغمر الكَتَّان في الماء، ثم تبدأ مرحلة «تعطين الكَتَّان»، وتستغرق هذه العملية ما يقرب من الشهر مع الأخذ في الاعتبار أن مدة الغمرة تختلف من منطقة لأخرى حسب درجة الحرارة، ففي المناطق الحارة تستمر هذه العملية مدة ثلاثين يومًا كما هو الحال في بلاد المغرب، أما في المناطق الرطبة فكانت تصل إلى خمسين يومًا متتالية حتى ينضج الكَتَّان، كما

في الأندلس وصِقِلِّيَّة، وتُعرف عملية النضج عن طريق إمساكها بالأصابع مع الضغط على ساق الكَتَّان، فإذا فُصلت أليافه عن الساق أصبح صالحًا، أو عن طريق أخذ بعض سيقانه وضربها على المياه، فإذا تسلَّخت صارت ناضجة، وفي هذه الحالة يتم رفع الكَتَّان من برك المياه تجنبًا للتعفُّن،[١٨] ثم يخرج الكَتَّان ليجف من سبتمبر حتى أكتوبر وبعدها يُضرب الكَتَّان بالمطارق الحديدية أو الخشبية للحصول على الألياف.[١٩]

وتبدأ مرحلة التصنيع من حيث ما انتهت إليه مرحلة التجهيز، فجودة الكَتَّان تبدأ من تلك المرحلة، وهو ما يعني أن أي تقصير في مرحلة من المراحل السابقة يأتي سلبًا على جودة الكَتَّان، وهو ما أبرزته إحدى وثائق الجنيزة التي تُبين أن لون الكَتَّان كان متغيِّرًا عن لونه الطبيعي والمعتاد؛ ويرجع ذلك لأن الكَتَّان لم يحظَ بالوقت الكافي حتى يجفَّ في الشمس،[٢٠] فأولها مرحلة تمشيط الكَتَّان وهي تتم بواسطة الفلاحين أو عمال مأجورين، لديهم الخبرة الكافية للقيام بتلك العلمية، مستخدمين أمشاطًا خاصة مُعدة لذلك،[٢١] وبعدها تصير ألياف الكَتَّان جاهزة للغَزْل، ثم تُجمع الخيوط على شكل خُصل وتُجهَّز للصباغة وتُلفُّ على بَكَر أو قضبانٍ خشبية.[٢٢]

(ج) تجهيز الحرير:[٢٣] قبل الحديث عن الحرير ومراحل تصنيعه وإنتاجه، لا بد من الإشارة إلى تلك الحشرة التي تنشأ عليها صناعة الحرير، والتي تُعدُّ عماد صناعة الحرير ألا وهي دودة القز، فهي دودةٌ صغيرة تَقْطُن الأشجار؛ تتغذَّى على ورق التوت، وتحقق لنفسها قدرًا من الحماية عن طريق ما تنسجه من لعابها كي تحفظ نفسها من البرد والحرارة والرطوبة، وتُنتج خيوطًا لامعة ومنها يُصنع الحرير.[٢٤]

ولكن سرعان ما انتشرت صناعة الحرير في الإمبراطورية البيزنطية زمن الإمبراطور جستنيان ٥٣٦م،[٢٥] وتُعتبر صناعة الحرير من الصناعات القلائل التي قامت بمدينة تونس في أربطةٍ حصينة وورش، وتُباع في الأسواق في العصر الأغلبي للحفاظ على سِرِّها، وقد انتقلت صناعة الحرير لبلاد المغرب الإسلامي في عهد بني الأغلب (١٨٤هـ/٨٠٠م–٢٩٦هـ/٩٠٩م) إلى قَابِس ومنها إلى تُونس،[٢٦] فكان أول مصنع أُنشئ في أرضٍ أوروبية أقيم بمدينة بليرم في صِقِلِّيَّة،[٢٧] ومنها وصلت أساليب تربية دودة القز وصناعة الحرير إلى إيطاليا، والتي بلغت أوج ازدهارها في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.[٢٨]

وتبدأ عملية إنتاج الحرير في فصل الربيع حيث يُجلب البزر «الشرانق» لتدخل عملية التحضين، وهذه العملية قامت بها النساء بانتقاء الشرانق لرعايتها وتحضينها، وتمت

هذه العملية في الأندلس كما ذكر عريب بن سعد (ت القرن ٥هـ)[٢٩] في شهر فبراير: «وتبدأ النساء بتحضين دود القز حتى تفقص.» فتحضن النساء البزر (الشرانق) لمدة أسبوع بوضعها تحت أثداء النساء وصدورهن، ثم تخرج وتنثر على أوراق التوت المقطعة، فتأكل لمدة ثلاثة أيام، وتُسمى تلك العملية بـ «الإطعام»، ثم تنقطع عن الأكل وهو ما يُعرف بـ «التصويم»، وتتكرر هذه العملية أكثر من مرة، حتى يجيء موعدها فيكثر لها العلف حتى تنتج الصلجة أو «الفليجة»[٣٠] وتتم عملية فقس دود القز في شهر مارس وفيه «يتولد الحرير»[٣١] نتيجة لاعتدال الجو وملاءمة نسبة الرطوبة لها.[٣٢]

ومع عملية الفقس تبدأ الديدان في نسج الخيوط حولها، ورُوعي عند بداية ظهور الخيوط إبعادها عن المياه، وخاصة مياه المطر حتى لا تلين «الفليجة» — الصلجة — وتُثقَب عن طريق الفراشات ولا يُنتَج الحرير، وقد ذكر ابن قزمان[٣٣] تَعرُّض دود القز للماء والأمطار في بعض أزجاله. ولهذا كانت تُنقل الفليجات (الشرانق) قبل خروج الفراشات إلى الشمس حتى تموت، وتستخلص خيوط الحرير، ثم تُترَك الفليجات الباقية ليثقبها الدود وتخرج الفراشات لتفقس وتبيض وتستمر دورة حياة «دود القز» مرةً أخرى.[٣٤]

وتبدأ مدة حياة الدودة من التحضين إلى الفقس تتغير حسب الأقاليم والطقس ما بين سبعة وثلاثين وخمسين يومًا، وتصل في الأندلس لستين يومًا،[٣٥] ويُسمى الحرير قبل أن يُنقى من أغراسه «درفس»[٣٦] والمنقى يعرف بـ «الإبرسيم» وهو الحرير الخام.[٣٧]

ولما كان الحصول على ورق التوت لازمًا لتغذية دود القز؛ فقد تعاون الكثير من الزرَّاع والصنَّاع بالاشتراك فيما بينهم لإنتاج الحرير، أطلق عليها الفقهاء «شراكة في علوفة الحرير»؛[٣٨] وهو ما أغرى كثيرًا من الفلاحين والزراع في بعض الأوقات لبيع أوراق التوت قبل أن تُورق على الأشجار لتهافت صناع الحرير ومربي دودة القز لشرائها؛[٣٩] وهو ما أوجد بعض الخلافات والخصومات والجوائح؛[٤٠] فأوجب تدخل الفقهاء لحلِّها. فعندما سُئل الفقهاء عما هو جائز في شركة علوفة الحرير، أجاب بأن يقوم صاحب أشجار التوت باستئجار أحد ليجمع الورق الخاص بحصته في الشركة أو أن يقوم بتربية الدود بنصيبٍ معلوم على أن يكون ذلك منصوصًا في عقد محرَّر بينهم،[٤١] وأوجز ابن سراج[٤٢] شروط الشراكة في علوفة الحرير بقوله: «الشرط الأول: أن يكون الورق قد ظهر وبدأ صلاحُه، الشرط الثاني: أن ينظر إلى الورق ويحزرها ويعلم مقدارها بالحزر والتخمين، الشرط الثالث: أن يشترطا أنهما إن نفد الورق واحتاجا إلى ورقٍ آخر أن يشترياها معًا من غير أن يختص أحدهما بشراء دون الآخر، الشرط الرابع: أن يكون العمل معلومًا إما بالشرط

وإما بالعادة، الشرط الخامس: أن يكون العمل معلومًا بينهما على حسب الشركة كما كان الشراء بينها كذلك.» أما عند قسمة لوز الحرير فكان بعضهم يريد قسمته بالوزن أو بالعد، فأوجب الفقهاء أن يُقسَّم بالوزن لأن العدَّ تؤثر عليه الأحجام،[٤٣] كل تلك الخلافات أوجبت كتابة عقود تحفظ وتضمن حقوق الطرفين المشتركَين في شركة وزراعة ورق التوت.

وبعدها يدخل الحرير مرحلة الجمع، التي تبدأ من شهر أبريل بجمع إنتاج الحرير من المزارع والقرى قبل أن يُرسَل إلى دور الطِّراز، وهو ما يذكره ابن سعد[٤٤] أنه يتم في شهر مايو ويبدأ دخول الحرير في مرحلة التصنيع الفعلي بإصدار الأوامر للمنتجين بأن يسلموا غَزْلهم إلى دور الطِّراز، بقوله: «أيام شهر مايو عددها ثلاثون يومًا ... وفيه تخرج الكتب في القرمز والحرير والغاسول للطراز.»

ثم تأتي المرحلة الأخيرة من مراحل تصنيع الحرير بإصدار الكتب والمراسيم وإعطاء الأوامر إلى المسئولين عن مراقبة عملية صناعة الحرير والإشراف عليها من قِبَل المحتسبين والمشرفين، وتتم في شهر أكتوبر، بتسليم الحرير لدور الصناعة لإتمام أعمال الصباغة، فيخبر ابن سعد:[٤٥] «وتخرج الكتب في الحرير والصباغ السماوي للطراز.»

ومن خلال ما ذكره ابن سعد عن مراحل تصنيع وإنتاج الحرير وبخاصة في الأندلس، يتَّضح أنها خضعت لرقابةٍ حكومية أُشرف عليها في جميع مراحلها، فكان إنتاج الحرير بمثابة عملٍ قومي تباشر عليه الدولة، وهي تلك الفترة التي تميزت بها الأندلس بإنتاج الحرير، ولكن مع ضعف الحكومات الإسلامية في الغرب الإسلامي وعدم الاهتمام بمربي وصناع الحرير وسقوط العديد من المعاقل والحصون الإسلامية في الأندلس، والتي كانت من أهم المراكز الصناعية لإنتاج الحرير، فضعفت وانهارت تلك الصناعة، وخير مثال على ذلك قُرْطُبَة وألْمرية.

كما تُعدُّ عملية حلِّ الحرير من أهم الأعمال في إنتاج الحرير، ويتم فيها تحويل الشرانق إلى خيوط لاستعمالها في الصناعة أو البيع، وتتمحور تلك العملية في تفريغ الشرنقة أي تحويلها إلى خيطٍ متصل، ولهذه العملية مراحل كثيرة أهمها التخنيق، وهي قتل الفراشة داخل الشرنقة حتى لا تخرج وتثقب الفليجة، ثم سلق الشرانق حتى تلين خيوطها ويسهل حلها، ثم إزالة الرغس أي اللزوجة التي تصاحب الحرير وهي لعاب دود القز،[٤٦] وإمساك خيط الشرنقة ونزع ما لا يصلح للاستعمال، وأخيرًا جذب بضعة خيوط لعدة شرانق وجمعها وحلُّها معًا، ولفُّها على الدولاب حتى إذا بردت الْتصق بعضها ببعض وصارت خيطًا واحدًا، هو الذي يُحول في النهاية إلى خيطٍ صالح للاستعمال. ولإتمام

عملية حل الحرير لا بد من توافر عدة أدوات، منها: «الخِلْقين» وهو عبارة عن إناءٍ نحاسي واسع العمق يُملأ بالقَدر اللازم ماءً، وتُضرم النار تحته حتى غليان الماء، فتُسلق الشرانق فيه حتى تتخنق، ويتم تحريك الشرانق داخل الإناء عن طريق عصًا، وذلك بطريقةٍ دائرية لفصل الشرانق عن الخيوط، حتى تصير لامعة وساخمة وبرَّاقة بعد تنقيتها.[٤٧]

وكذلك لا بد من توافر «الدولاب» وهو عبارة قطعةٍ خشبية لها ماسكة من الحديد لتديره، مُثبَّتة على قاعدةٍ خشبية ترتكز على ست خشبات، خمس منها ثابتة، والسادسة متحركة — سهلة الخلع — يمكن حلُّها عند عملية فكِّ الحرير الذي يكون مشدودًا على الدولاب ويُثبت فوق الخلقين، وفوق الدولاب لوحةٌ خشبية يُركز عليها ثلاث أو أربع خشبات وبَكَر لبرم الخيط، وجدت به كرةٌ خشبية تساعد على تسليك الخيوط على الدولاب أثناء البرم، وأُطلق على هذه الآلة الطاحونة، وعُرفت تلك العملية برَدَن الحرير،[٤٨] وبعدها تُنزع الخيوط وتُوضع على سقالة خشبية لنشرها حتى تجف، وبعد أن تجف تُكبُّ على سقالةٍ خشبيةٍ مستديرة، وبعده تُجمع الخيوط لتُفتل، وبذلك تكون خيوط الحرير جاهزة لأن تدخل مرحلةً جديدة وهي الغَزْل، وكانت تتمُّ باستخدام المغزل.[٤٩]

(د) تجهيز القُطْن: كما ذُكر — سابقًا — أن القُطْن يُشرع في جمعه في الصباح الباكر بداية من شهر سبتمبر قبل أن تشتدَّ حرارة الشمس، ويكون باليد بكل رفق ولين، ثم يُعرض في الشمس ليُجفَّف، ثم يُرفع ولا يُترك لفتراتٍ طويلة في الشمس حتى يحتفظ ببعض رطوبته وليونته ببقائه في الظل،[٥٠] لأنه متى جُمع في الحر كُسر جوزه واختلط بالقُطْن ولا يمكن التخلص منه، وهو ما يهدر الكثير من الوقت في تخليصه، وإذا خُزِّن القُطْن دون أن يُنشر في الشمس فسد،[٥١] ومن مراحل تجهيز القُطْن المهمة التخلُّص من محارين القُطْن وهو كل ما يعلق به من قشور وحب أثناء عملية جمعه، وتُعرف هذه العملية بالحَلْج، ثم يدخل بعد ذلك مرحلةً جديدة وهي الندف وهي فك القُطْن من العُقد وتشابك نَسِيجه، ليُحَلَّ ويُنَفَش فيكون جاهزًا للغَزْل.[٥٢]

(١-٢) مرحلة الغَزْل

لإتمام تلك المرحلة لا بد من توافر الأدوات اللازمة لعملية الغَزْل من أنوال ومغازل وعمال وغيرها من الأدوات التي تساعد في عملية الغَزْل، والتي اعْتُبِرت قوام صناعة النَّسيج برُمَّتها، فبدونها لا تكتمل العملية الصناعية للنسِيج، وهو ما أوضحه ابن الخطيب[٥٣] من خلال النص الذي أورده حول دار الطِّراز المريني بفاس يتضح أن به «آلات النسج

وضخام المناول»، وألواح الرسوم الخاصة بكتابة أسماء الخلفاء والملوك على الثياب والأعلام، بالإضافة لأدوات التنعيم والصقل والتصفيق كالشمع الذي خُزن بكمياتٍ كبيرة حتى بلغ مخزونه «جبال الشموع»، فضلًا عن خيوط الذهب والفضة التي كانت تُطعَّم بها الثياب الملوكية. واسْتُخدمت المغازل في عملية الغَزْل وهي من العمليات التمهيدية التي تكمن في خروج الألياف بشكلٍ مبروم ومنتظم حتى تصير جاهزة.[٥٤]

والمغزل عبارة عن قضيبٍ دقيق الطرفين،[٥٥] يُصنع من الخشب أو من الحديد أو النحاس،[٥٦] اسْتُخْدم لغَزْل الألياف النَّسيجية واستخدمته النساء بصفةٍ خاصة، فكن يجلسن في وضعية القرفصاء — متربعة — ويضعن الخيوط باليد اليسرى، وتُلفُّ حول الكف، أو أنها تَلفُّ الخيوط على قضيب من الغاب، وتضع المغزل في اليد اليمني، ويتم إيصال أو لضم الخيط بالمغزل عن طريق خيطٍ مغزولٍ آخر كي يُسهِّل عملية اللضم، وهو ما عُرف بالطعمة، ثم تُرفع اليد اليسرى في مستوى الكتف الأيسر، ويمسك المغزل من الأسفل عن طريق سبابة وإبهام اليد اليمنى، ويُبرم الخيط من اليسار إلى اليمين مع رفع اليد اليسرى لأعلى، ومن ثم يُلفُّ حول المغزل، وتتكرَّر تلك العملية بنفس الخطوات للحصول على الخيوط والكمية المطلوبة ثم تُكبَّب أي تُلفُّ وتُجمَع.[٥٧]

وللحصول على غَزْلٍ منتظم ودقيق لجأت النساء إلى الجلوس في أماكنَ مرتفعةٍ حتى يخرج الغَزْل مُتقَنًا ودقيقًا، أو إلى الجلوس على مقاعدَ مرتفعةٍ أو في النوافذ، أو لجأن لحيلةٍ أخرى عن طريق ثقب فتحة في أرضية سقف المنزل، وفي العادة يكون بين كل طابق وآخر، ويتركن المغزل يتدلى إلى فناء البيت، فيمثل ثقل المغزل دورًا في أن يظل الخيط مشدودًا فيُبرم برمًا قويًّا وجيدًا، فيخرج الغَزْل في شكلٍ منتظم ودقيق.[٥٨]

بالإضافة لذلك اسْتُخدم النَّوْل أو المنوال في عملية الغَزْل وهو تلك الخشبة التي يُلفُّ عليها خيوط النسج،[٥٩] وعُرف بالقرناس أو القرنور أو القرنون وهو تحريف للفظة المغزل المستخدم في إسبانيا Cardus،[٦٠] وجودة صنع المِرْدن من الأمور المهمة التي تُوكل لأهل الأمانة من الصناع وأكثرهم صلاحًا ودينًا؛ لأن تعاملاتهم تكثر مع النسوة، وأجود أنواع المرادِن المصنوع من خشب السنط الأحمر الخالي من السُّوس والغَرَق؛ لأنه لو كان به عند البَرْم انكسر.[٦١]

وقُسِّمت الأنوال حسب الاستخدام، منها البدائي الذي اسْتُخدم في صناعة بعض الأقمشة والثياب للفقراء والبدو — ولعله المردن السابق ذكره — أما النوع الأكثر تطورًا فهو الذي خُصِّص لصناعة الأقمشة المزركشة والثمينة،[٦٢] ومنها النَّوْل العمودي البسيط،

وهو من الأنواع القديمة التي كانت منتشرة وأُطلق عليها النوال أو النير، وهو ما ذكره الونشريسي[٦٣] عن «مسألة كراء الحاكة النير الذي ينسجون به مع الغرس الذي فيه من النيارين، فإذا فرغوا من النسج أخذوا غرسه وأتوا بغرسٍ آخرَ في منسجهن، وكانت هذه المسألة حيَّرت الصناع منهم عن صناعة الحياكة والحرارة.» ويتضح من النص السابق أن النير عبارة عن منسج اسْتُخدم في عملية النسج يتكون من خشبتين أفقيتَين متطابقتَين ممدودة عليهما السدى، وتشدهما دعامتان عموديتان، وتمرُّ الخيوط بواسطة اليد من خلالهما،[٦٤] ومن النساجين والغزَّالين مَن مارَس أعماله على المغازل، وبخاصة في الطريق أو أمام المنازل والحوانيت، فكان يرتدي سروالًا قصيرًا فتنكشف عورته أثناء الغَزْل، فبعضهم كان يلجأ لوضع حصر أمام المغزل حتى لا تراهم أعين الناس.[٦٥]

ولضرورة وجود النَّوْل وتوافره في الأسواق انتشر صناع الأنوال في مدن الغرب الإسلامي، كما في فاس؛ فقد تخصَّصت جماعة من الصناع في صناعة الأنوال ودواليب الغَزْل التي استخدمها الحاكة،[٦٦] لتوافر المواد الخام من أشجار البقس وبخاصة حول مدينة سلا وضواحي مدينة تطوان وفاس،[٦٧] ومن لم يمتلك من الصناع المناسج لجأ لاستئجارها من الصناع على أجرٍ معلوم ومدةٍ معلومة،[٦٨] غير أن ذلك لم يمنع حدوث بعض الخلافات بين النساج وصاحب المنسج حول الأجرة المتفق عليها، أو على مقدار النسج الذي ينسج على المنسج، في أن يقول أحدهم: «إن عملت ملحفةً واحدة إلى ذلك الأجل تعطني خمسة دراهم، وإن عملت اثنتين تعطني عشرة دراهم.» أو ما يتبقى من غَزْل يُعلَّق بالمنسج فيأخذه صاحب المنسج ولا يعطيه إلى النساج الذي بدوره كان يأخذه من صاحب الغَزْل دون وجه حق.[٦٩]

وخُصِّص النَّوْل الأفقي للرجال فهو مُعقَّد بعض الشيء، فهو مكوَّن من عدة أجزاء منها الدواسة، وهي عبارة عن بدال أو رافعة تُدار بواسطة القدم للتحريك والدرء، والدف وهو الجزء الذي يتم من خلاله عملية النسج الفعلية، وتشمل أجزاءً كبيرة من النَّوْل، بالإضافة إلى المشط وهو عبارة عن قطعةٍ خشبية وُضعت بها بعض المسامير والأسلاك، يمر بين الخيوط كي يحافظ على المسافات بينها، ويقوم بضمِّ خيوط اللحمة، بالإضافة إلى المكوك، وهو عبارة عن أداة تحمل خيط اللُّحمة داخل علبة من الخشب،[٧٠] ويجلس النساج خلف النَّوْل.[٧١]

وتبدأ عملية النسج بتحريك النسَّاج الدواسة بقدمه، وتمرير مكوك الخيط باليد، ثم تحريك قدمه اليمنى وينتهى باليسرى، حتى يتمكَّن من تمرير المكوك الذي يحمل

خيوط اللُّحمة، ثم يقوم النسَّاج بقذف المكوك بواسطة اليد يمينًا ويسارًا على التوالي، بحيث يتمكن من دمج خيوط اللُّحمة والسَّدَى، ثم يقدم بيده لتحريك المشط لضم الخيوط المنسوجة من السدى أو اللحمة بعضها لبعض، أو ضم الحبيكة كي لا تُخلل وتتصفق؛ فيكون بينها عيون تُضعف من قوة الثوب، وبعدها يقوم النسَّاج بتحريك قطعة الثياب بواسطة القلاب.[٧٢] ويُرجِع البعض بداية ظهور الأنوال بهذا الشكل إلى الهند بين القرن ٥–٩هـ/١١–١٥م وسرعان ما انتقل إلى بلدن الغرب الإسلامي.[٧٣]

وعلى كل ما سبق تأثَّرت البيئة المحيطة في الغرب الإسلامي بتطور صناعة الغَزْل وبخاصة في تُونس؛ فأدَّى ذلك إلى ظهور بعض التجمُّعات الكبرى وبخاصة حول الحواضر والمدن لجمع الغَزْل من المناطق المحيطة، كما حوَّل الناحية الجنوبية من مدينة تُونس التي تُعرف بـ «مسبحة مقرين للغَزْل» فكانت مستودعًا كبيرًا للغَزْل المتجمِّع من المدن والبوادي ومعامل ومصانع الغَزْل المختلفة ليدخل مرحلة التصنيع، وقد حرصت السلطة على حماية هذا الموضع؛ لأهميته الصناعية والتجارية.[٧٤]

(١-٣) مرحلة التصنيع

قبل الاستطراد في تلك المرحلة وذكر خطواتها والتطرق لأهم مواضعها ومنتجاتها ومراكز صناعتها، لا بد من الإشارة إلى دُور الطِّراز الخاصة والعامة في بلاد الغرب الإسلامي، التي انتشرت خلال فترات تاريخها، فبوجودها تأثرت صناعة النَّسيج؛ مما ساهم في تنوع الإنتاج النَّسيجي بإنتاج نوعيات تميزت بها بلدان الغرب الإسلامي عن غيرها واشتهرت بها.

(أ) دور الطِّراز في الغرب الإسلامي[٧٥]

أُطلق الطِّراز أول الأمر على الكتابة الزخرفية الموجودة على المنسوجات، فهو لفظٌ أعجمي مأخوذ من كلمة طرازيدين أو ترازيدين وتعني التطريز وعمل المدبج، وقد شاع مدلولها على الدُّور والمصانع التي تقوم بإعداد تلك الصناعات،[٧٦] وانقسم الطِّراز إلى: الطِّراز الخاص وهو ما خُصص إنتاجه للخلفاء والملوك، والطِّراز العام ووُجِّه إنتاجه لعامة الناس والبلاط أيضًا، وكلاهما خضع للمراقبة من قبل السلطة.[٧٧]

فدُور الطِّراز الخاصة أماكن معدَّة لصناعة ثياب الخلفاء والسلاطين والملوك، فاتُّخذ لها أمهر النساجين والحاكة والخياطين وأفضل الصباغين لإنتاج ما يتطلبه البلاط، وهو

ما ذكره ابن خلدون[٧٨] بقوله: «وكانت الدور المعدَّة لنسج أثوابهم في قصورهم تُسمى دور الطِّراز لذلك.» وكُلف شخص يتولى الإشراف على خزائن المَنْسوجات عُرف بـ «الوكيل» وهو القائم بشئونها.[٧٩]

وحوت دور الطِّراز كل ما يلزم لصناعة ثياب ونَسِيج الخلفاء والملوك وخاصتهم؛ فلم تهتم بإنتاج ما يحتاجه السوق المحلي بشكل كبير؛ فسعت جاهدة لإنتاج أجود الثياب التي حُظر بيعها في الأسواق وللعامة، فخضعت للرقابة الحكومية من قِبَل المحتسبين حتى لا يتدنَّى إنتاجها، وتخرج المَنْسوجات مثلما حُدِّد لها عن طريق المحتسبين ثم تُختم فتصير جاهزة،[٨٠] فزُودت بالأنوال وبخاصة الضخام منها التي تنسج الخيام — كما وضح — كالأنوال الخاصة بصناعة الثياب «وآلات النسج وضخام المناول»، كما كان بها ألواح الرسوم الخاصة بكتابة أسماء الخلفاء والملوك على الثياب والأعلام، بالإضافة لأدوات التنعيم والصقل والتصفيق كالشمع الذي خُزن بكمياتٍ كبيرة حتى بلغ مخزونه الكثير بها «جبال الشموع»، فضلًا عن مواد الصباغة «عقار الصبغ»، فضلًا عن خيوط الذهب والفضة التي كانت تُطعَّم بها الثياب الملوكية.[٨١]

وأُسندت وظيفة الإشراف على دور الطِّراز للمقربين من الخلفاء والملوك، وأُطلق على القائم عليها اسم «صاحب الطِّراز» فكان يشرف ويراقب على الأعمال، ويدفع الرواتب وغيرها من «أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم، وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس.»[٨٢] فكان الصقالبة والفتيان المعروفون بالأكابر في عهد بني أمية هم من تولوا هذا الأمر منذ خلافة عبد الرحمن الناصر ومن بعده ابنه الحكم المستنصر؛[٨٣] فكان يتفقَّد دار الطِّراز ويطلع على أمورها بنفسه ويتابع العاملين بها ويستفسر عن أوضاعهم وما يتعلق بسير أعمالهم.[٨٤]

وأول من اتَّخذ الطِّراز هو الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك،[٨٥] والأمير عبد الرحمن بن الحكم وهو أول من أنشأ دارًا للطراز في الأندلس،[٨٦] كما يذكر ابن الخطيب:[٨٧] «وفي أيامه اتُّخذ الطِّراز الذي كان حديث الرفاق، وطرفة أهل الآفاق.» وهي في الأصل تطور واتساع لدار البُرد أو الدار البردية التي كانت تقع غرب قصر قُرْطُبَة التي كانت من بُنيان الأمير عبد الرحمن بن معاوية.[٨٨] ويدلِّل انتشار دور الطِّراز في مدن الغرب الإسلامي وبخاصة مدن الأندلس على مدى اهتمام الدولة لتوثيق الأحداث والمناسبات عن طريق تطريزها وتصويرها على الأعلام والرايات.[٨٩]

وسعى الخلفاء والحكام على توفير ما تتطلَّبه دُور الطِّراز من موادَّ خام وبخاصة في عهد الأمويين الذين أصدروا الأوامر للولاة في شهر أيار (مايو) من كل عام بجمع إنتاج الحرير وإرساله لمعامل الطِّراز الموزَّعة بمناطق الأندلس المختلفة،[٩٠] وهو ما أشار ابن الخطيب[٩١] إليه بقوله: «ومن آثاره التي ضُربت بها الأمثال وقضيت منها العجائب، حال الطِّراز ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكُسى وملابس الحرم وغير ذلك ... ولو تتبَّعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ويناغون به المشرق من بضاعتهم ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب.» ويُفهم من هذا النص أن مَنْسوجات الغرب الإسلامي وبخاصة الأندلسية المصنَّعة بدُور الطِّراز كانت تضاهي في جودتها ودقَّتها وحجم المصنوع منها؛ المنسوجات المشرقية التي ذاعت شهرتها آنذاك، كما يُعتقد أن تلك التقاليد الخاصة بدور الطِّراز ظلَّت باقية في غرناطة بعد سقوط العديد من الممالك الأندلسية على يد إسبانيا ولفتراتٍ طويلة.

كما وُجدت ببلاد المغرب دُور الطِّراز التي أنتجت كل ما يتعلق بالخلفاء والحكام من ثياب ومَنْسوجات، فكان بالقيروان دار طراز خاصة بها، وما يدل على ذلك وجود باب من أبواب القيروان يعرف بـ «باب الطِّراز»[٩٢] كما أشار الإدريسي[٩٣] إلى وجود دار طراز اختصت بإنتاج الحرير في مدينة قابِس «فكان بها فيما سلف طرز يعمل بها الحرير الحسن». وفي هذا إشارة، على الرغم من أن قَابِس لم تكن عاصمةً إدارية للحكومات الإسلامية في الغرب الإسلامي، فإنها كانت قاعدة لإنتاج الحرير في فتراتٍ ليست قليلة، وهو ما يعكس وضع المراكز الصناعية ومراكز إنتاج النَّسيج في بلدان الغرب الإسلامي، ورغم عدم توافر نصوصٍ تاريخية تذكر وجود دور للطراز بالمغرب في عهد المرابطين فإن الدلائل الأخرى تساعد على افتراض وجود بعض دور للطراز في عهد المرابطين، خاصة في زمن يوسف بن تاشفين (٤٠٠–٥٠٠هـ/١٠٠٩–١١٠٦م) والذي اتخذ قرارًا يُفضي إلى إثبات اللقب الذي اتَّخذه في طرازه دون وجود دور للطراز،[٩٤] غير أن خلفاء الموحدين حرموا على أنفسهم الطِّراز في بداية حكمهم، فلم يكن لهم شيء من طراز «فكانوا يتورَّعون عن لباس الحرير والذهب؛ فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم ...»[٩٥] لكن بعض الإشارات الأخرى تشير إلى وجود دور طراز في مدينة أغمات في العصر الموحدي،[٩٦] ووُجد بفاس دار طراز لملوك بني مُرين اختصت بإنتاج الثياب والخيام والأعلام الخاصة بهم وببطانتهم وفرق الجيش، فخضعت لسلطانهم وتصرفاتهم لإنتاج ما يلزم للبلاط السلطاني،[٩٧] وينوِّه برنشفيك[٩٨] إلى أن الحفصيين لم يمتلكوا دور طرز خاصة بهم على غرار سلاطين الأندلس والمشرق الإسلامي.

أما عن الأندلس فكان بها من دور الطِّراز الكثير؛ كدار الطِّراز والخلع بقُرْطُبَة، التي أنشأها الأمير عبد الرحمن الأوسط، وتقع في مقدمة السوق العظمى غربي قصر الخلافة،[٩٩] وأمر بأن يُعيَّن بها مملوكه «خلف الفتى الكبير» ناظرًا عليها وذلك في عام ٣١٣هـ/٩٢٥م، وعُرفت آنذاك بدار البرد،[١٠٠] وبإِشْبِيلِية وُجدت دار للطراز خاصة أيام إبراهيم بن حجاج اللخمي الذي استقلَّ بإِشْبِيلِية وقرمونة فبها «يُطرز فيها على اسمه كفعل السلطان إذ ذاك.»[١٠١] وبمقالة أيضًا دار طراز للمَنْسوجات على غرار إِشْبِيلِية وقُرْطُبَة.[١٠٢]

ووجد بصِقِلِّيَّة دار طراز على أيام الفاطميين وظلَّت قائمة إلى عهد الملك الصقلي وليام الطيب (١١٦٦–١١٨٩م)، واستمر يعمل بها في مصانعها ومعاملها صناعٌ مسلمون على الرغم من انتهاء الحكم الإسلامي بها، أمثال يحيى بن فتيان الطراز، فيطرز بالذهب داخل دار الطِّراز، وهي الصورة التي نقلها ابن جبير[١٠٣] بقوله: «ومن أعجب ما حدَّثنا به خديمه المذكور، وهو يحيى بن فتيان الطِّراز، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك.» ومن جملة الهدايا التي أرسلها المعز بن باديس إلى المعز لدين الله الفاطمي عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م «الثياب الصقلي والثياب السوسي والفرقات والعمائم الصقلي عدة ألوف.»[١٠٤] ما يعكس دقة الصناعة الصِّقِلِّيَّة ودور الطِّراز في تلبية احتياج البلاط.

وعن دور الطرز العامة فقد انتشرت في معظم المدن والتجمعات العمرانية بالغرب الإسلامي؛ نتيجة لامتلاكها القدرة على الإنتاج لتلبية احتياجات ومتطلبات العامة وكذلك احتياجات البلاط إن لزم الأمر، كما بتدمير حيث يذكر العذري[١٠٥] أن بها «عمل الطِّراز العجيبة والصناعة الغريبة»، وببسطة فكان بها «الطِّراز الشريفة».[١٠٦] ولكي تتضح أهمية دور الطِّراز العامة في الغرب الإسلامي كان لا بد من الحديث عن مراكز صناعة النَّسيج في الغرب الإسلامي.

(٢) الصناعات النَّسيجية ومراكز صناعتها

مع توافر المواد الخام والمقوِّمات الزراعية والصناعية اللازمة لتصنيع النَّسيج، برزت العديد من المواضع التي اختصت بإنتاج نوعٍ معين من خام النسيج، أو إنتاج أنواعٍ معينة من المَنْسوجات، أو أن أهلها اختصوا وبرعوا في تصنيع أو صباغة أو التمهيد لتصنيع بعضها.

وهو الحال بالنسبة لسكان تُونس وما حولها من الحاكة؛ فأنتجوا أجود المَنْسوجات كالعمامات الرفيعة المسمَّاة بالعمامات التُّونسية، التي نالت قسطًا كبيرًا من الشهرة بالحياكة «فكان يغزل بها غَزْل ويُباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب، وبسوسة تُقصر

ثياب القيروان الرفيعة.»[١٠٧] وكذلك مدينة الأربس[١٠٨] فسكانها انقسموا إلى طائفتين الأولى من الحاكة والثانية من الفلاحين.[١٠٩]

أما مدينة المرسى ومدينة الحمامات على ساحل البحر المتوسط فسكانهما اشتغلوا بقصارة الثياب وتخصصوا في صناعة الأقمشة الكَتَّانية،[١١٠] وسكان هنين عملوا في صناعة المنسوجات وبخاصة القُطْنية، وصفاقس فبعض سكانها عملوا بالنَّسيج،[١١١] ووهران التي أكثر سكانها من الحاكة.[١١٢]

كما اشتُهر حصن بكيران بكثرة معامل وأماكن صناعة النَّسيج لإنتاج الثياب البيضاء التي فضلها أهل الأندلس؛ لهذا ارتفعت أسعارها بطريقةٍ ملحوظة نظرًا لكثرة الإقبال عليها، وراجت تجارتها، وأخذ تجار النَّسيج بالعمل على تصدير كمياتٍ كبيرة منها.[١١٣]

ولإيضاح الأهمية الاقتصادية لمراكز إنتاج النَّسيج في الغرب الإسلامي، وجب على الباحث التطرُّق بالحديث عن عاصمتين من أهم عواصم النَّسيج خلال فترة الدراسة، واللتان تنوعتا في إنتاج المَنْسوجات الحريرية والصوفية والقُطْنية والكَتَّانية، واختلفتا في كمية الإنتاج على الرغم من تباعد الفترة الزمنية التي ازدهرتا فيها، وجمعتهما منطقةٌ واحدة — الغرب الإسلامي — وهو ما استوجب إظهار تلك المفارقة.

مدينة ألمرية: من المدن التي تبوَّأت الصدارة في إنتاج النَّسيج وبخاصة إنتاج الحرير كانت مدينة ألمرية الأندلسية؛ الأمر الذي جعل كل من زارها يتحدث عن مَنْسوجاتها وعن دقَّتها وجودتها؛ فلم تكن فقط مركزًا مهمًّا في الغرب الإسلامي فحسب، لكنها تحوَّلت إلى مصدرٍ مركزي لإنتاج النَّسيج أيضًا وبعض المصنوعات المرفهة للممالك المسيحية المجاورة.[١١٤]

وانتقلت صناعة الحرير إليها عن طريق بعض الممالك والمدن المجاورة وبالأخص مدينة بجانة التي عُدَّت من أهم مراكز إنتاج وتصنيع الحرير إبان القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين؛ فكانت المَنْسوجات الحريرية بها «تُحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها.»[١١٥] ومع بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وعلى أثر انتقال معظم صناع وحرفيي بجانة إلى مدينة ألمرية، وازدهرت وشهدت صناعة الحرير بألمرية تقدمًا ملحوظًا وما واكب ذلك من انهيارٍ اقتصادي وسياسي بإقليم بجانة خلال تلك الفترة.[١١٦]

وقد اشتهرت ألمرية بـ «صناعة الوَشي والديباج على اختلاف أنواعه، ومن صنعة الخَز وجميع ما يُعمل من الحرير ما لم يصر مثله في المشرق ولا في بلاد النصارى.»[١١٧]

وهو ما ميزها عن سائر البلاد فكانت تنتج الديباج[118] «ما حسن صبغه وانتظمت نقوشه ودق حَرِيره وصفق نسجه وأشرق لونه وثقل وزنه وسلم من النار.»[119]

وذكر الزهري[120] في حديثه عن مدينة ألمرية أن «فيها كان يُعمل الديباج المُحكَم الصنعة مثل المرنجات المعروفة بالعداديات وثياب السندس الأبيض وهو دِيباج أبيض ... كله لا يخفى على أحد من صناعته شيء، وفيها استنبطت ثياب المعمة المعروفة بالخلدي، ليس في ثياب الحرير كلها أتم منها مجالًا ولا جمالًا؛ لذلك سُميت بهذا الاسم، وهو مشتقٌّ من الخلد ... وأكثر صناعة نسائهم الغَزْل الذي يقارب الحرير في سوقه وأكثر صناعة رجالهم الحياكة.» وصُنع بألمرية من صنوف الحرير الكثير من الديباج والوَشي والسقلاطوني والبغدادي والستور[121] «والأصبهاني والجرجاني بالإضافة إلى الستور الملكية والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير.»[122] وفي هذا النص دليل على أن مصانع الحرير بألمرية اتبعت في صناعتها التقليد لبعض منتجات المشرق الإسلامي كالعتابي والأصبهاني والجرجاني وهو ما أُشير إليه، ويعكس مدى ما وصل إليه صناع الغرب الإسلامي، وبخاصة صناع ألمرية، من مهارة في إتقان جميع صنوف المَنْسوجات الحريرية لدرجة أنها طابقت في جودتها ودِقَّتها بلادها الأصلية،[123] وهو ما يوضح عمليات الصنع والبيع للمَنْسوجات المقلدة من الحرير ذات السمعة الجيدة من الجرجانية وغيرها الذي قد أُنتج في ألمرية، حتى إن أبًا من عدن طلب بعض الحرائر الجرجانية من ألمرية من أجل جهاز عرس ابنته فجاءت بسهولة من الأندلس،[124] ووُجد بألمرية ثمانمائة طراز من طرز الحرير النفيسة وألف منوال للديباج.[125]

مدينة فاس: عاصمة النَّسيج في بلدان الغرب الإسلامي من الكَتَّان والصوف والقُطْن والحرير، بفضل ما هيأته الطبيعة من جودة التربة وتوافر مصادر المياه بالإضافة إلى الأيدي العاملة الماهرة، وما يَقدم إليها من مواد خام سواء محلية أو عن طريق التجار والمزارعين، فضلًا عن كونها مركزًا إداريًّا وسياسيًّا خلال فترات طويلة من تاريخها؛ ما أهلها لأن تكون إحدى عواصم النَّسيج في الغرب الإسلامي.[126]

فخلال فترة حكم الموحدين وخاصة أيام الخليفة الناصر الموحدي ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، كان بفاس ٣٠٦٤ موضعًا خاصًّا بالنَّسيج وطرزه،[127] بالإضافة للعديد من الأماكن التي خُصصت لصنع وبيع وتجارة النَّسيج ومتعلقاته،[128] كما وُجدت بها بعض الأزقة والشوارع الخاصة بالحاكة والنساجين،[129] ما يعكس المكانة الاقتصادية والصناعية التي وصلت إليها فاس فيما يتعلق بصناعة النَّسيج، فهذا العدد الكبير من دور

النَّسيج يُبرز كيف أنها زجَّت بالعمال والصناع فأصبحت قبلة النَّسيج، ففي ظل حكم بني مرين كان لهم دار طراز بفاس باعتبارها دار حكم، واستمرت تنتج المَنْسوجات الفاسية،[١٣٠] وخلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وعلى إثر ما سمح به تخطيط مدينة فاس من إقامة العديد من حوانيت النَّسيج، استمرت فاس في تقدمها النَّسيجي؛ فكان بها ٢٥٠ محلًّا للحياكة، و١٥٠ دكانًا لصباغة الغَزْل، بالإضافة للعديد من حوانيت القطانين وأسواقهم؛ فكان بها ٣٠ دكانًا لباعة الأشرطة القُطْنية وبعض السروج، وبعض الأماكن الخاصة ببيع الأقمشة الصوفية الغليظة، فكان عددها ١٠٠ دكان و١٤١ دارًا مخصصة لأمور الغَزْل تستجلب الصوف القادم من الرعاة والفلاحين المحليين فيدخل في تلك الدور لإنتاج الثياب والمَنْسوجات الصوفية، والعديد من الحوانيت الخاصة بالمَنْسوجات، فكان بجوار باعة الشمع العديد من باعة الخيوط النَّسيجية، وبجوارها حوانيت تبيع الحبال والخيوط وحبال الخيل وأرسانها المصنوعة من القنب، فضلًا عن حوانيت بيع الكَتَّان والثياب والكثير من الأسواق الخاصة بالنَّسيج،[١٣١] والكثير من الحوانيت المُعدة التي خُصصت لصناع الأشرطة الكَتَّانية والقلاع والشقق الكَتَّانية، وكذلك قماش الكَتَّان الغليظ الذي يُستخدم في تغطية الشوارع والأسواق، كالذي اسْتُعمل في تغطية صحن جامع القرويين.[١٣٢]

(٢-١) المَنْسوجات القُطْنية ومراكز صناعتها

ارتدى مسلمو الغرب الإسلامي النَّسيج القُطْني كغيره من المَنْسوجات نظرًا لتوافر المواد الخام الخاصة به، وهي القُطْن، في عددٍ من بلدانه، وذلك من وقتٍ طويل، منذ دخوله على يد الفاتحين العرب، فتميزت مواضع دون غيرها بصناعة المَنْسوجات القُطْنية، فمن بين تلك البلدان بلاد المغرب، فلم تنشط بها مواضع لصناعة المَنْسوجات القُطْنية بقدر ازدهار المَنْسوجات الصوفية والكَتَّانية، على الرغم من عدم قلة الأراضي المزروعة بالقُطْن، لكن لجأ سكانه لمزج القُطْن بالكَتَّان تارة والصوف تارة أخرى والحرير، فأنتج القماش «السفساري» في تُونس، وهو قماش مصنوع من حَرِير وقُطْن،[١٣٣] كذلك أنتجت نساء مكناسة أقمشة من الحرير والقُطْن أو من القُطْن والصوف حَملت اسم البلد وذاع صيتها ببلدان كثيرة لنعومتها وجودتها،[١٣٤] وبرع سكان قصر طلمثية في إنتاج ثيابٍ مصنعة من القُطْن والكَتَّان نُقلت إلى العديد من البلدان،[١٣٥] وصنع أهل ندرومة أقمشةً قُطْنية غاية في الدقة والليونة،[١٣٦] ومدينة سلا التي كانت محطًّا للقُطْن والكَتَّان فأنتج صناعها الأقمشة

والملابس المصنعة من القُطْن الناعمة،[137] ومن القُطْن صنع الأَوْدَغَسْتيون أُزر سمونها الشيكات.[138]

كما اشتهرت الأندلس بصناعة المَنْسوجات القُطْنية وبالأخص بوادي أش، فأنتج أنواعًا من المَنْسوجات القُطْنية الرقيقة،[139] وهو ما يُستنتج من قول الإدريسي[140] الذي جاء فيه: «وتُصنع من حصن بكيران ثياب بيض تُباع بالأثمان الغالية وهي من أبدع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض.» وأغلبها كانت ملابس للنوم أو ملابس داخلية، كما بأرون أصناف من المَنْسوجات القطينة العديدة،[141] بالإضافة لمدينة شبرب التابعة لبلنسية.[142]

وصِقِلِّيَّة التي اختصت بعض مدنها بإنتاج المَنْسوجات القُطْنية كمدينة بليرم؛ فكان بها العديد من الحوانيت الخاصة بالقطانين والحلاجين،[143] فاستمرت تنتج تلك النوعية لفتراتٍ طويلة على الرغم من انتهاء الحكم الإسلامي بها، وظلت العديد من المصطلحات الصناعية باقية لصناعها.[144]

(٢-٢) المَنْسوجات الكَتَّانية ومراكز إنتاجها

برع صناع الغرب الإسلامي في إنتاج المنتجات الكَتَّانية بأصنافها العديدة وبالأخص مدن المغرب، فمن مدن المغرب الأدنى تُونس أنتجت أنواعًا مميزة من القماش عُرف بـ «القماش الأفريقي» وهو من الثياب الرفيعة المصنعة من القُطْن الممزوج بالكَتَّان، أو من الكَتَّان الخالص يسمو في جودته عن النصافي البغدادية، فاعْتُبرت من أحسن كساوي المغرب بفضل سكانها فمعظمهم كانوا من الحاكة، فضلًا عن نسائها؛ فقد تميزن في أمور الغَزْل وأتقنَّه بشكلٍ بارع،[145] وهو ما أكده الصومعي[146] في أن أحدهم كان يرتدي ثوبًا من الكَتَّان مصنوعًا في تُونس بقوله: «وعليه ثوب كَتَّان من عمل تُونس وفي القبة أقطفة ومخاديد وعليها ستور حسن.»

فمن بين مدن المغرب الأدنى والأوسط المعروفة بإنتاج المنسوجات الكتانية قسنطينة؛ فهي من بين المراكز المهمة والمعروفة بإنتاج المَنْسوجات الكَتَّانية، وصدَّرت جزءًا كبيرًا من إنتاجها لمدن الجنوب في السودان،[147] وكذا مستغانم التي اشتهر سكانها بنسج الأقمشة الكَتَّانية الرقيقة،[148] والمهدية التي نُسب لها الثياب السوسية المهدوية،[149] وسوسة التي عُدت من أبرز مراكز صناعة الكَتَّان نظرًا لانتشار زراعة الكَتَّان هذه واحدة، والثانية أن

صناعها برعوا وأجادوا في غَزْل الثياب وخاصة المرتفعة الثمن؛ فحُملت إلى البلاد شرقًا وغربًا، فنُسبت إليها الثياب الرفيعة السوسية.[١٥٠]

وتميزت كل من صفاقس وعنابة بصناعة المَنْسوجات الكَتَّانية فغالبية سكانهما كانوا من الحاكة،[١٥١] ومدينة توزر التي اشتهرت بزراعة الكَتَّان الجيد، ومدينة بِجَاية التي امتاز صانعوها بعمل الأقمشة والمفروشات والزرابي على الطِّراز المغربي لتوافر المواد الخام من كَتَّان وقنب، قامت عليها صناعة الأقمشة الكَتَّانية بها،[١٥٢] ومدينة قفصة المميزة بإنتاج الأقمشة الكَتَّانية،[١٥٣] ومتيجة كانت من أهم مراكز إنتاج الكَتَّان في الغرب الإسلامي.[١٥٤]

ومن مدن المغرب الأقصى التي عُرفت بإنتاج المَنْسوجات الكَتَّانية مدينة سبتة؛ فقد تميزت بصناعات النَّسيج كافة، وقد تلت صناعة المراكب باهتمامها، فمنتجاتها صدرت إلى باقي البلدان في الشرق والجنوب والشمال بفضل تجارها والتجار الواردين إليها، لشراء منتجاتها وبخاصة «الكبوط» الكَتَّاني الذي صُدر لبلدان الغرب الأوروبي،[١٥٥] وزرع سكان جبل مغسة كمياتٍ كبيرةً من الكَتَّان؛ لأن معظمهم من حاكة الأقمشة الكَتَّانية.[١٥٦]

هذا وقد أنتجت درعة نوعًا من ثياب الكَتَّان المقاومة للنار، نتيجة لوجود نوع من الحجارة عرف بـ «تاوطغيت» تُحك بها اليدان حتى تلين لتُسْتخدم في غَزْل ونسج الكَتَّان، فيُصنع منها القيود والحبال، وصُنعت منها المناديل المقاومة للنار، التي خُصَّ بها ملوك زناتة وكانت عندهم «من أعظم الذخائر»،[١٥٧] فكان يُباع بسوق بنكور نوع من البرانس المقاومة للماء، تهافت عليها التجار، والتي صُنعت بها.[١٥٨]

واشتهرت الأندلس بصناعة المَنْسوجات الكَتَّانية، وكان أجودها كَتَّان البيرة فهو «الرفيع الذي له الفضل البائن.»[١٥٩] ويضيف الحميري[١٦٠] قائلًا: «فكَتَّان هذا الفحص [البيرة] يربو جيده على كَتَّان النيل.» كما ينسب ياقوت الحموي لأندراش الكَتَّان الفائق،[١٦١] ولكَتَّان أرون فضل على سائر الكَتَّان الأندلسي لجودة الزراعة والصنع؛ فتغنى شعراء الأندلس بكَتَّانها، كما اشتهرت قادس بصناعة المَنْسوجات الكَتَّانية؛ نظرًا لتوافر البيئية الزراعية للكَتَّان.[١٦٢]

وعُمل بالأندلس «الكَتَّان الدني للكسوة ويُجلب إلى غير مكان، حتى ربما وصل إلى مصر منها الكثير.»[١٦٣] كما أضاف ابن حوقل:[١٦٤] «ويُستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكَتَّان ثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقًا، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوي الجيد.» وكانت باجة رائدة خلال القرن ٥هـ/١١م في إنتاج الكَتَّان، وبلنسية وكيران كانا مركزين لإنتاج الكَتَّان.[١٦٥]

وتبوأت صِقِلِّيَّة خلال القرن ٥-٦هـ/١١-١٢م مكانة مميزة في إنتاج المَنْسوجات الكَتَّانية ذات النوعية الجيدة التي نافست مثيلاتها في مصر والشام؛ فكان الثوب الصقلي المصنوع من الكَتَّان يساوي في مصر إبان الحكم الفاطمي أكثر من عشرة دنانير مصرية كما ذكر الرحالة ناصر خسرو أثناء زيارته لمصر.[١٦٦]

(٣-٢) المَنْسوجات الحريرية ومراكز صناعتها

ازدهرت صناعة الحرير في الكثير من المدن المختلفة لبلدان الغرب الإسلامي، ففي الأندلس ازدهرت صناعة الحرير خلال القرن ٥-٦هـ/١١-١٢م نتيجة اهتمام السلطات الحاكمة بإنتاج الحرير، فأصدرت له المراسيم الخاصة بإنتاجه، وتفاوتت درجة الإتقان والجودة من مركز لآخر، ومن مدينة لأخرى حسب المقومات الصناعية المتوافرة لديها، فكان لبعضها السبق؛ إذ تربعت على عرش إنتاج المَنْسوجات الحريرية دون غيرها.

فالمعروف أن الحرير هو الخَزُّ قبل أن يُغزل، وأطلق عليه المسلمون القَز، وإذا غُزْل يُسمى إِبْرَيْسَم وعند خلطه بالصوف يطلق عليه خَزًّا، وبعد صباغته يسمى عند ذلك حَرِيرًا،[١٦٧] وأفضل أنواع الخَزِّ هو الذي سداه تكون قوية ومتينة، ناعم الملمس، وما انتظم نسجه وثقل وزنه، أما الرديء منه؛ فهو ضعيف السدى، خفيف الوزن، رخو النسج، غير زاهي اللون،[١٦٨] فعبر العامة وبخاصة المجتمع الأندلسي عن جودة الخَزِّ ودقته بالمثل الشعبي: «شبهت الخَز بوبر المعز.»[١٦٩]

وأجود أنواع الحرير الإِبْرَيْسَم «النقي الحسن اللون السالم من الأحلاف والأوساخ الملتبسة لبعض خيوطه، فتكون خيوطه شكلًا واحدًا ليس فيها بعض غليظ وبعض دقيق ولا معدة … فهو أفضل.»[١٧٠] وأفضل أنواعه الكوفي، فكان يُخلَط في بعض الأوقات مع الكَتَّان، مع اختلاف قدر الحرير أو الصوف.[١٧١]

أما الديباج؛ فأصله من بلاد فارس وهو من أكثر الأنواع شهرة ودلالة عن المَنْسوجات الحريرية،[١٧٢] فاختلفت أنواع وأغراض الديباج ما بين الملبس وللتعليق أو فرش داخل البيوت «فأفضله ما حسن صبغه وانتظمت نقوشه ودق حَرِيره وصفق نسجه وأشرق لونه وثقل وزنه وسلم من النار.» وخير ما يعدُّ منه يصنع لا بد أن يكون مائتي شبر، أما إذ كان للتعليق فكان مائة وعشرين شبرًا.[١٧٣]

ولم تكن ببلدان الغرب الإسلامي — وبخاصة بلاد المغرب — صناعة الحرير ومَنْسوجاته على نفس المكانة التي تمتعت بها الأندلس، والتي لاقت مَنْسوجاته الكَتَّانية

والقُطْنية والصوفية من الشهرة ما لم تلقها المَنْسوجات الحريرية نفسها؛ فانتشرت تلك الصناعة في عدد من مناطق وبلدان المغرب ما بين غَزْل ونسجٍ وطراز، كمنطقة السوس التي اشتهرت بصناعة الخَزِّ.[١٧٤]

وقد احتكر الصناع اليهود صناعة الحرير الموشَّى بالذهب؛ حتى إنهم أطلقوا على أرباب العمل والعمال الذين يمارسون هذه المهنة اسم الصقليين نسبة لعملية الصقل التي تتم في صنع الحرير، أو نسبة ليهود صِقِلِّيَّة الذين أتوا للمغرب وجلبوا معهم أسرار هذه الحرفة التي امتازوا بها، فصُنعت شارات سلاطين بني مرين وبني حفص من الحرير الأبيض وكُتب عليها بالذهب آيات من القرآن الكريم،[١٧٥] كما طُعِّم الحرير بالذهب والفضة لتوشَّى به الأقمشة الحريرية كي تزيد من قيمتها، والتي قُصر إنتاجها على كبار رجال الدولة والفئات الاجتماعية المترفة؛ ما جعل الثياب الحريرية من تلك الشاكلة ثانوية لدى الصناع والزبائن والإنتاج.[١٧٦]

وفي المغرب الأدنى انتشرت المَنْسوجات الحريرية، وبالأخص مدينة قَابِس، التي بها طراز حَرِير وناسجو حَرِير كثر،[١٧٧] فإليها يُنسب الحرير القَابِسي، وهو ما أشارت إليه رسائل التجار اليهود عند حديثهم عن جودة الحرير القَابِسي لكثرة الطلب عليه،[١٧٨] كانت مدينة تُونس التي وُجدت بها مراكز لصناعة الحرير قد بُنيت لها أربطة محصَّنة وبعيدة عن أعين الناس؛ لأن صناعة الحرير بتونس لا تُصنع بالأسواق بل في أماكنَ بعيدةٍ عن أعين الناس للمحافظة على أسرارها وجودتها، وعُرفت تلك الأربطة بفنادق الحرير،[١٧٩] كما ساعد الغرناطيون القادمون من الأندلس إبان القرن التاسع والعاشر الهجريين/الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين في أن تكون مدينة شرشال مركزًا لصناعة الحرير؛ لأن جلهم من نساجي الحرير ومربي دود القز.[١٨٠]

ومن مناطق إنتاج الحرير في المغرب الأوسط كانت مدينة توزر التي أنتجت أغطية من حَرِير وصوف بالإضافة للثياب الموشاة التي اشتهرت بها،[١٨١] واشتهرت تلمسان بإنتاج وتصنيع الثياب التلمسانية المصنَّعة من صوفٍ وحَرِيرٍ مختم وغير مختم ذاعت شهرته في كثير من المواضع.[١٨٢]

ومن مدن المغرب الأقصى التي أنتجت المنسوجات الحريرية واشتهرت بتجارتها مدينة نَوْل لمطة، التي مزجت بين الحرير والقُطْن أو بين الحرير والكَتَّان، أو الحرير والصوف في إنتاجها، وتعدَّدت ألوانها بين الأبيض والأحمر والأخضر ولاقت شهرةً واسعة

وعُرفت بالثياب السفسارية،[١٨٣] ومدينة سبتة قبلة إنتاج النَّسيج خلال فتراتٍ طويلة من تاريخ الغرب الإسلامي؛ فكان بها العديد من الحوانيت لبيع وتصنيع وإنتاج الحرير، بالإضافة لكثرة أطرزة الحاكة فكانت لا تحصى، وإبان القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وُجد بها ما يزيد على خمسة آلاف مشغل للحياكة يعمل بها قرابة عشرين ألف عامل،[١٨٤] وفيها إحدى وثلاثون تربيعة خاصة بالحرارين وهم نساجو الحرير،[١٨٥] ويصفها ابن الصباح[١٨٦] بقوله: «مدينة سبتة حاضرة من حواضر الأندلس في الكسوة واللباس والسيرة والعادة ... كثيرة ألوان الثياب من لباس الحرير والملف والأفرنقيات والجباب في بلاد زناتة والقبلارات أطوارًا أطوارًا أي ألوانًا ألوانًا.»

كما تميزت الأندلس بإنتاج الحرير على نطاقٍ كبير من «حَرِير الاستغزال»، والحرير «الأحمر النقي الطيب غاية الطيب» وحَرِير «السقلاطون» الذي استعمل في المناسج الفاخرة،[١٨٧] وهو من الحرير المطرز بخيوط الذهب ومن أفضل أنواع الحرير لكثير من التجار؛ لما يتمع به من ألوانٍ براقة،[١٨٨] ففي بسطة وُجدت الطرز الشريفة التي صُنع بها «طرز الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يُعلم له نظير».[١٨٩] نتيجة توافر الأراضي المخصصة لزراعة أشجار التوت، وتوافر الأيدي العاملة المدرَّبة والماهرة؛ ما جعل صناعها ينتجون نوعًا من أنواع البسط لا يُصنع مثلها في أي مدينة أخرى، وهو ما يعني تفرد بسطة بنوع من الديباج.

ووُجد بتدمير «الطرز العجيبة والصناعة الغريبة»،[١٩٠] فتفوقت في هذا على قُرْطُبَة، وأجاد أهلها هذه الصناعة إجادةً تامة،[١٩١] أما مدينة مرسية فتخصصت في صناعة البسط الرفيعة والشريفة لخبرة صناعها في هذا الشأن وكذلك الثياب المطرزة بالذهب.[١٩٢]

وعُدت مالقة مركزًا مهمًّا لإنتاج النَّسيج وخاصة الحرير فكانت على قدرٍ كبير من الأهمية الصناعية لألمرية،[١٩٣] فيذكر ابن سعيد[١٩٤] عند حديثه عن نارجة المالقية وعن دقة أهلها وحذاقتهم بصناعة الحرير وصبغه: «اجتزت في إحدى المرات مع والدي قرية نارجة فرأينا جماعات كبيرة من الأهالي نصبوا خيامهم في مكانٍ مكشوف متسع في بطن وادي القرية وقاموا جميعًا بجمع وغَزْل وصباغة الحرير، ولما سأل موسى وابنه الصناع: بما يُعرف ذلك الموضع؟ قالوا: الطِّراز، قال موسى: اسم طابق مسماه، ولفظ وافق معناه، ثم قال الشعر: بنارجة حيث الطِّراز المنم، فرد ابن سعيد: أقم فوق نهر ثغره يبتسم.» ومعظم العمال، في أثناء عملهم، بعضهم يشرب، والبعض الآخر يغني ويطرب، في وسط جوٍ مليء بالبهجة والسرور، وهي عادة اتخذها الأندلسيون بشكلٍ عام، كما يذكر عنها

ابن الخطيب:[١٩٥] «وحلل دِيباجها البدائع ذات تطريز ... والحلل التي تلح صنعاء فيها بالطلب وتدعو إلى الجلب.»

كما أُنتج الحرير بكمياتٍ كبيرة في حصن شنش التابع لمدينة مالقة،[١٩٦] الذي انفرد بصناعة الديباج المذهب والثياب المحلاة بخيوط الفضة الجافة التي تُسمى «الدست» كما ذكره ابن الخطيب[١٩٧] في قوله: «إلى الدست الرهيف ذي الورق الهيف.» وأُنتجت أيضًا ثياب الحرير في العصر الموحدي، وبخاصة الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة، التي تُصدر إلى المشرق والمغرب وتُباع بأغلى الأسعار، وربما تجاوز ثمن الحلة الواحدة الآلاف، واستمرت في تقدمها حتى القرن ٨هـ/١٤م، فاتجهت المَنْسوجات الحريرية القادمة من نارجة نحو بلدان المغرب ومصر والأمراء المسيحيين في ممالكهم، كما شهدت بذلك المدونات النصرانية بكثرة إنتاج مالقة للديباج والوَشي أثناء حديثها عن زيارة عدة سفن قشتالية لمالقة عام ٨٠٦هـ/١٤٠٤م، وعودتها محملة بالضيافة من مَنْسوجات الحرير الموشَّى واتصف بالجودة والرقة،[١٩٨] فكانت «أكثر بلاد الله حَرِيرا.»[١٩٩]

وبالنسبة لإقليم البشارات الذي كثرت به أشجار التوت فاتُّخذ منه مركزٌ للصناعات الحريرية فكان به ٦٠٠ قرية يعمل أهلها في هذا المجال،[٢٠٠] وأنتجت قلعة أيوب أنواعًا من الغفارات المذهبة حُملت إلى العديد من الجهات،[٢٠١] كذلك قُرْطُبَة اعْتُبرت مركزًا مهمًّا لإنتاج الصناعات الحريرية من الديباج والوَشي قبل أن تحل محلها ألمرية إبان القرن الخامس الهجري/العاشر الميلادي، فأصبحت قُرْطُبَة بعد ذلك سوقًا رائجًا لعرض وبيع المنتجات الحريرية المصنَّعة بألمرية،[٢٠٢] وكذا الحال بالنسبة لمدينة جيان أو كما عُرفت «جيان الحرير»؛[٢٠٣] لكثرة إنتاجها من الحرير؛ فكان بها أكثر من ثلاثة آلاف قرية من قراها تعمل في صناعة الحرير نتيجة توافر الأيدي العاملة من زُرَّاع وصُنَّاع دأبوا على تربية دود القز ومن عملوا بالصناعات الحريرية، إذ يذكر الإدريسي روايتَين عن الحرير في مدينة جيان؛ إحداهما، كما يبدو، قد أخذها من مصدرٍ أقدم،[٢٠٤] يذكر من خلالها أن جيان كان «لها زائد على ثلاثة آلاف قرية، كلها يُربَّى فيها دود الحرير.»[٢٠٥] والرواية الثانية وهي ربما تعبر عن وقته تقول بأن في «جيان قرًى كثيرة تشف على ستمائة قرية يُتخذ بها الحرير.»[٢٠٦]

ومدينة سَرَقُسْطة التي اشتهرت بإنتاج أفخم المَنْسوجات الحريرية وأفضلها نظرًا لخبرة صُناعها وشهرتهم في إنتاج الثياب وبخاصة «الثياب السرقسطية»، وقد قال ابن العذري[٢٠٧] عن الثياب السرقسطية: «ولأهل سَرَقُسْطة الحكمة في صنعة السمور

والبراعة فيه بلطيف التدبير يقوم في طرازها بكمالها منفردة بالنسج وهي الثياب المعروفة بالنسبة بالسرقسطية، ولا تُدانَى تلك الصنعة ولا تُحكَى في أفق من الآفاق.» ما يوضح دَوْر الطرز العامة في سَرَقُسْطة التي أنتجت الثياب التي لا تضاهيها ثياب في كثير من البلدان نتيجة مهارة وحذاقة صناعه؛ مما جعلها تصدر إلى الكثير من الجهات.[٢٠٨]

وأنتجت غرناطة الحرير وصنعته بدرجاتٍ متفاوتة، فاشتهرت بنوع من الثياب المحررة عُرف بالملبَّد المختم ذي الألوان العجيبة والتي تميزت به لفتراتٍ طويلة،[٢٠٩] كما أنتج وادي آش مختلف أنواع الثياب من خيوط الإبريسم.[٢١٠]

كما كانت قرى جبل شلير والمتصلة به بها «أفضل الحرير»[٢١١] وهو ما أكده الزهري[٢١٢] بقوله عن جبل شلير: «إنها من أكثر بلاد الله حَرِيرًا.» كما كان حصن البيرة من أفضل المراكز التي أنتجت الحرير «وبكورة البيرة حَرِيرٌ كثير يُفضَّل ويُقدَّم على غيره.»[٢١٣] فصُدِّر حَرِير البيرة إلى العديد من البلدان «ويعم الآفاق ويكثر حتى يصل إلى أقصى بلاد المسلمين.»[٢١٤] ففي عصر بني أمية جُمع أيام الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن «ألفا رطل حَرِير، وألفا رطل عصفر».[٢١٥] كما أنتجت قرية فنيانة إحدى القرى الصغيرة من قرى الأندلس، والقريبة من وادي آش، نوعًا من الحرير الفخم والجيد وهو من طراز الديباج.[٢١٦]

وعُرفت صِقِلِّيَّة بصناعة وإنتاج الحرير، فكان من بين المنتجات التي لاقت رواجًا كبيرًا داخل الأسواق الصِّقِلِّيَّة خلال القرن ٥هـ/١١م، فاعْتُبِرت موضعًا لإنتاج الحرير منذ عصر النورمان،[٢١٧] ومع بداية الحكم الإسلامي تميزت سيراكوزة بإنتاج الحرير السيراكوزي المنتج في شرق صِقِلِّيَّة، بالإضافة لحَرِير مدينة بليرم ومازارا اللتين اشتهرتا بإنتاجه،[٢١٨] على يد الصناع المسلمين بعد أن أدخلوا دود القز إلى صِقِلِّيَّة وطرق تصنيع الحرير، إذ أُرسلت العباءات الحريرية الدقيقة الصنع من صِقِلِّيَّة إلى مصر زمن الحكم الفاطمي للخليفة المعز،[٢١٩] بالإضافة للصناع اليهود الذين جلبهم روجر الثاني ٥٤٢هـ/١١٤٧م من الجزر اليونانية فساهموا في ازدهار صناعة الحرير مع الصناع المسلمين.[٢٢٠]

(٤-٢) المَنْسوجات الصوفية ومراكز صناعتها

عُرف الصوف الجيد لدى الصناع والتجار بنقائه ولِينِه؛[٢٢١] فخير الأكسية المصنوعة من الصوف اللَّيِّن، المستوية الدقيقة النسج الجيدة الصباغة القوية لحسن نسجها ونعومة

صوفها ورِقَّة ملمسها، ليس فيها غليظ أو دقيق، فوجب المحافظة عليها من الغبار ومن السوس، وأفضله اللبود الصينية، ثم المغربية وبخاصة اللبود الحمر منها،[٢٢٢] فلجأ بعض النسوة لاستخدام بعض المواد التي تُضفي على الصوف الليونة والنعومة، كما فعلت نساء جزيرة شاشين فكُنَّ يدهنَّ الصوف بشحم الخنزير.[٢٢٣]

ومن مدن المغرب الأدنى التي اشتهرت بصناعة المَنْسوجات الصوفية مدينة قفصة التي امتازت بصناعة الأردية والطيالس والعمائم الصوفية فكانت غاية من الرقَّة،[٢٢٤] كما صُنعت بطرَّة — إحدى قاعدتي بلاد نفزاوة ببلاد الجريد — ثياب وأقمشةٌ صوفية جيدة؛ فزاد الطلب عليها وصُدِّرت إلى الإسكندرية وغيرها من البلدان،[٢٢٥] ونُسب إلى مدينة درجين، وهي من أواخر بلاد الجريد، القماش الدرجيني الذي يُضاهي الثياب السجلماسية،[٢٢٦] وسوسة فخلال فترات طويلة استمرت منذ القرن ٥هـ/١١م حتى القرن ٨هـ/١٤م أَنتجت أنواعًا من الأكسية الرقيقة والثياب الصوفية مما لا يقدر أحد على صنعها؛ لمهارة أهلها في أمور الغَزْل والنسج دون غيرهم في هذا الأمر،[٢٢٧] فقصَدَها المسافرون والتجار لشراء الثياب السوسية الرفيعة،[٢٢٨] فيذكر صاحب كتاب الاستبصار[٢٢٩] عنها أنها «مخصوصة بكثير الأمتعة وجود الثياب الرقاق وقصارها وجميع أشغال الثياب الرفيعة من طرازها وكمدها، لا يُصنع ببلد مثل صنعته بهذه المدينة، والثياب السوسية معلومة لا يوجد لها نظير، لها بياضٌ رائق وبصيص لا يوجد في غيرها، ومنها تُجلَب الثياب الرفيعة مثل عمائم المعمور وغيرها، تساوي العمامة مائة دينار وأزيد.»

ومن مناطق المغرب الأوسط تميزت مدينة وجدة بجودة أغنامها وصناعتها للأكسية الصوفية التي عُرفت بالعبيدية، فكان الكساء الواحد منها يساوي خمسين دينارًا أو أزْيَد،[٢٣٠] ومدينة بِجَاية كان أكثر أهلها صناع أقمشة وأغطية صوفية،[٢٣١] كما اشتهرت جزيرة قرقنة بأكسيتها الصوفية الناعمة،[٢٣٢] فضلًا عن جزيرة جربة التي تميزت بشياهها الجيدة وصوفها الناعم الحسن والتي اختصت دون غيرها بحسنه؛ فبرع أهلها في عمل الصوف ومشتقاته من عمائم وأردية صُدرت للعديد من البلدان،[٢٣٣] ومن قسنطينة حُملت المَنْسوجات الصوفية إلى الكثير من البلاد،[٢٣٤] واشتُهرت عنابة بصناعة الأغطية المقلمة «الحنبلي».[٢٣٥]

وتلمسان المدينة ذات الصناعات المعروفة والمعلومة، فيذكر ابن الحاج النميري[٢٣٦] أن بها «مصانع يعجز عن وصفها كل لسان.» فلا عجب أن تكون الصناعات النَّسيجية

وبخاصة الصوفية من بينها «فكان أغلب تكسُّبهم الفلاحة وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق ... بذلك عُرفوا في القديم والحديث، ومن لدنهم يُجلب إلى الأمصار شرقًا وغربًا.»[٢٣٧] لأنها «دار مملكة يُعمل فيها من الصوف كل شيءٍ بديع من المحرَّرات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكلكلة وغير ذلك ... ويوجد فيها كساءٌ كامل وزنه تسع أواقٍ ونحوها.»[٢٣٨] فكانت بها مناطق وأحياء مخصصة في إنتاج الصوف كدرب ابن شاكر الذي امتلك أغلبه الصانع أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن النجار فكان ينتج الثياب الصوفية الرفيعة،[٢٣٩] التي اشتهرت بها تلمسان كما يقول ابن مرزوق التلمساني:[٢٤٠] «ثياب الصوف التلمسانية الخالصة.» فهذه الثياب كان منها المختم وغير المختم والتي نُسجت من الصوف الخالص أو صوف وحَرِير؛ لأن صناعها من الرجال والنساء اتخذوا أنواعًا من الكنابيش لا توجد في بلدٍ آخر، بالإضافة إلى البرانس الرقيقة والرفيعة التي صُنعت من الصوف،[٢٤١] كما يخرج من مسجد إيلان بتلمسان كل يوم «حمل للبضع من عمل الصوف، وهذا موضع من آحاد المواضع.»[٢٤٢]

أما عن بلدان المغرب الأقصى التي اشتهرت بصناعة المَنْسوجات الصوفية فمنها سِجِلْماسَة المدينة الشهيرة بمَنْسوجاتها الجيدة والمميزة على كافة الأصعدة وبخاصة الصوفية منها، فكان لموقعها المميز وتوافر المواد الخام الأولية بها وبالمناطق المجاورة لها، بالإضافة إلى الأيدي العاملة الماهرة من رجال ونساء احترفوا العمل بالنَّسيج، وأنتجت سِجِلْماسَة أقمشةً رقيقة وصل ثمن إحداها إلى عشرين دينارًا، وذلك خلال القرن الرابع الهجري/التاسع الميلادي،[٢٤٣] فنساؤها ينسجن ثيابًا من صوفٍ رفيع تفنَّنَّ في غَزْله واشتهرن به كما اختصصن بعمل نوع من الأُزُر،[٢٤٤] على غرار ما يُصنَع في مصر ويفوقه، وبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين دينارًا ويزيد، كما عملن قطعًا من الثياب تسمى غفارات ويصبغنها بأنواعٍ جيدة ويبلغ ثمنها مثل ثمن الأُزُر، كما اختصت نَوْل لمطة بصناعة برانسَ غاليةٍ وأثوابٍ سفسارية تميزت بصناعتها لكثرة قطعان شياهها،[٢٤٥] بالإضافة إلى جبل مديونة شرقي فاس، فكانت نساء أهل البلد يصنعن نوعًا من البرانس الصوفية مقاومة للمطر عُرفت بالبرانس المديونية،[٢٤٦] وفي هذا إشارة إلى قدرة صناع الغرب الإسلامي على إنتاج ملابس مقاومة للأمطار لا تمتص الماء، فإن دل ذلك فإنما يدل على براعة الصانع الإسلامي في إنتاج مثل هذه الملابس في وقت توافرت فيه موادُّ خام محدودة.

وتميز سكان جبل بني يازغة من نواحي فاس بالصوف الناعم والرقيق فكان لينًا كالحرير، فصنعت نساؤه منه المعاطف الفاخرة والأكسية الرفيعة كالحرير،[٢٤٧] بالإضافة

إلى نساء بلدة أفزة اللائي برعن في صناعة برانس وخمارات من الصوف فكن «يربحن من المال أكثر من رجالهن إلى حد ما.»[٢٤٨] وسكان مدينة آزُكِّي كانوا يلبسون ثياب صوف يُنتِجونها يسمونها بلغتهم «القداور».[٢٤٩]

وعُرفت تادلة بصنع البرانس الصوفية الشهيرة،[٢٥٠] وإقليم هسكورة كثير الأغنام أنتج نساجوه الأقمشة الرفيعة من الصوف لتلبية الاحتياجات المحلية من الثياب، وأُشيد بثياب أَسَفِي الصوفية لدقة صناعها فهي «بلد موصوف برفيع الثياب الصوفية»، التي ينتجها الصناع المحليون،[٢٥١] ومدينة أغمات إبان القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي قد اشتهرت بصناعة الأكسية والمَنْسوجات الصوفية من العمائم والأردية، التي حُملت إلى بلاد السودان، غير أنها فقدت شهرتها في هذا المجال إبان الحكم المريني.[٢٥٢]

وعملت نساء مدينة فيقيق أقمشةً صوفية غاية في الرقة والدقة شُبهت بالحرير في نعومتها وبيعت بأسعارٍ غالية في كل من تلمسان وفاس،[٢٥٣] وحاك سكان مدينة محرس علي أو المحرس الجديد الأقمشة الصوفية الجيدة،[٢٥٤] وصُنع أيضًا ببلاد ركراكة أكسية من الصوف في غاية الرقة والنعومة تلحَّفت بها نساء مراكش.[٢٥٥]

وتميزت مدينة أَوْدَغَسْت بإنتاج المَنْسوجات الصوفية، فأنتج الأَوْدَغَسْتيون اللثام والأكسية والغفائر من الصوف، وذلك لما مثله من عادة في حياتهم اليومية، مما أدى لازدهار صناعته لتلبية الاحتياجات المحلية، ومعها تطوَّرت صناعة الثياب الصوفية خلال القرن ٥هـ/١١م،[٢٥٦] ويرجع إلى وفرة الأغنام بها التي تُؤخذ من جلودها الأصواف اللازمة لصناعة هذه الملابس المتنوعة، كما نسجوا من أوبار الإبل الملابس والعباءات.[٢٥٧]

كما تميزت بعض المواضع الأندلسية بجودة إنتاجها للمَنْسوجات الصوفية، نتيجة لتوافر الأغنام الحسنة كثيرة الصوف والوبر والشعر في بعض من أماكنها، بالإضافة إلى مهارة صناعها فكانوا الحاذقين بأمور صنعتهم، وهو ما أكده ابن حوقل[٢٥٨] إذ امتدح الصوف الأندلسي بقوله: «ومن الصوف قطع كأحسن ما يكون، منه الأرمني المحفور الرفيع الثمن، إلى حُسن ما يعمل بها من الأنماط، ولهم من الصوف ... فيه وفيما يعانون صبغه.» وقد أنتجت مدينة «أشكر» نوعًا من الحلل الموشاة من الصوف الرفيعة، عُرف بـ «الأشكري» نسبة إليها، وقد اختص الأعيان بارتدائها، وقد أشاد ابن الخطيب بها لجودة أغنامها أو «الإشكرلاط».[٢٥٩] وكذلك جنجالة؛ فقد أنتجت من وطاء الصوف «ما ليس يمكن صنعه في غيرها باتفاق الهواء والماء.»[٢٦٠]

(٣) صناعات ارتبطت بصناعة النَّسيج

(٣-١) صناعة الأصباغ

الصبغ هو الطريقة التي يتم بها رسب مادة ملونة على نَسِيجٍ ما، شريطة أن يبقى اللون دون تغير بعد تعرضه للهواء والشمس،[٢٦١] وقد ارتبطت صناعة الأصباغ ارتباطًا وثيقًا بصناعة النَّسيج منذ بداياتها والتي انتشرت في العديد من المدن الإسلامية بصفةٍ عامة وفي مدن الغرب الإسلامي بصفة خاصة، فكان لها مراكزها الصناعية المعروفة والشهيرة بها.[٢٦٢]

فبرع صباغو الغرب الإسلامي في استخدام الأصباغ المختلفة الألوان، مستفيدين من النباتات التي تدخل في صناعتها «ولهم ... الأصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تُصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخَزِّ والقز.»[٢٦٣] كما برعوا في تحويل المَنْسوجات القديمة إلى مَنْسوجات تبدو جديدة بصبغها وتغيير ملمحها، وهو ما نهى عنه المحتسبون والفقهاء لاعتباره نوعًا من أنواع الغش والتدليس.[٢٦٤]

وتعددت الألوان واختلفت باختلاف مكوناتها، ما بين الأبيض، والأسود، والأحمر، والأخضر، والأزرق، والأصفر، وما اشتُقَّ منها من ألوان، فاختلف الأحمر في درجاته ما بين الأرجوان، وهو شديد الحمرة، والبرهمان، وهو أقل منها في الحمرة، والمُفَدَّم والمُضَرَّج ثم المُورَّد،[٢٦٥] كما استعمل القرمز للحصول على اللون الأحمر، وكذلك العندم أو البقم، وهو خشب شجرٍ عظام تنبت بأرض الهند، فورق هذا النبات مثل ورق اللوز الأخضر، وساقه وأفنانه حمراء، ويُصبغ بطبيخ خشبه،[٢٦٦] كما لجأ الصباغون إلى استخدام الحناء للحصول على اللون الأحمر أيضًا.[٢٦٧]

فبجانب تلك المكونات استعمل الصباغون بعض المواد الأخرى للحصول على اللون الأحمر كـ «الطرطار» وهو ما تسرب من غليظ الخمر. وقد نهى الفقهاء والعلماء عن استخدام الطرطار في الصباغة، فجاءت الأمثال العامية لتؤكد استعمال الطرطار في الصباغة «تلاقي الشب مع الطرطار، وخرجت صباغة هندية.»[٢٦٨] كما استخدم اللك للحصول على اللون الأحمر وأيضًا بعض الرخويات للحصول على اللون الأحمر، من بعض الحيوانات البحرية الرخوية من ذوات الصدف، فيُكسر الصدف وتُجمع في أحواض حتى تتحلَّل المواد بداخلها، ثم تُجمع الرواسب للحصول على اللون الوردي والبنفسجي، وبعد

نشرها في الشمس يُحصل على اللون القرمزي بعد صبغها بهذه المادة؛ ما أعطى الملابس لونًا برَّاقًا وناصعًا.[٢٦٩]

أما الأصفر؛ فاسْتُخْدِم العصفر والزعفران للحصول عليه، فيقال: «ثَوب مُزَعْفَر — مَصْبوغ بالزَّعْفَران.» كما حُصل على الأصفر بخلط الأبيض والأحمر،[٢٧٠] فالأصفر درجات، منها الأصفر الفاتح، والجلوقي والجنار، كما استخدم الصباغون الأسود لصبغ الثياب، فكان منه درجات من أسود مفحم، وأجون وفاحم، وحالك وحائك، وحلوك ومحكوك، وخداري ودهوجي، وغربيب وغدافي،[٢٧١] كما حُصل على اللون الأسود من لحاء شجر الجوز الذي انتشرت زراعته في المناطق الجبلية بالمغرب والمناطق المحيطة بالريف المغربي؛ فشجر الجوز قبل النضج يكون لونه أخضر، وبعد النضج يصير أسود بعد أن يُقطَف ويُعرَّض للهواء، فكثر استعماله في كثير من مصابغ المغرب الأقصى.[٢٧٢]

واللون الأزرق أُطلق عليه الأكحل أو السماوي،[٢٧٣] فيُحصَل عليه من شجرة النيلج أو النيلة، وأُدخلت النيلة إلى بلدان الغرب الإسلامي على أيدي الفاتحين المسلمين،[٢٧٤] فهي من أهم مصادر اللون الأزرق، ويُستخرج منها النيل المشتق من مصطلح أنيلين الإنجليزية Aniline. والنيلج المعروف عند الصباغين هو نبات له ساق وفيه صلابة وله شعب دقاق، عليه ورق صغار على جانبي ساقه، ولونه يميل إلى الزرقة، وعرف بالعلظم، فيُغسل ورقه بالماء الساخن؛ لأنه يتكوَّن على ظهر الورق ما يشبه الغبار، ويُؤخَذ الماء الذي به النيل حتى يرسب فيه على ما يشبه الطين، ثم يُصفَّى من الماء ويُترك ويُجفَّف،[٢٧٥] ولصباغة الصوف بالنيلة يتم وضعه في وعاء به ماء ويُضاف إليه قليل من الجير وخلاصة التمر المسحوق، والحناء المجفَّفة المسحوقة ثم تُضاف إليها النيلة المسحوقة، ثم يُغلى، ويُبرَّد ويُغطَّس فيها الصوف باليد حتى يتشرَّب الصبغ، وبعدها يُعرَّض لأشعة الشمس.[٢٧٦]

وتدرَّج الأخضر، من الفاتح إلى الداكن الذي عُرف بالجوزي أو النفضي، كما ذكر العمري:[٢٧٧] «والسلطان يمتاز بلبس الخَزِّ ولونه الخضرة والسواد، وقال: وهو اللون المسمى بالجوزي وبالغبار والنفضي.»

واستخدمت بعض المواد الأخرى لتثبيت الألوان، كالشب والملح،[٢٧٨] فالشب اسْتُعْمِل لتبييض وتدليك الثياب بعد حياكتها وصبغها.[٢٧٩] بالإضافة لاستعمال العصفر في عمليات الصبغ، فكان من النباتات التي استفاد بها مسلمو الغرب الإسلامي للحصول على اللون الأصفر.[٢٨٠]

وأجاد صباغو الغرب الإسلامي استخدام العديد من النباتات للحصول على الألوان؛ جعلت مَنْسوجاتهم تلاقي الرواج التجاري في العديد من البلدان، وأبرزت مهارتهم،

وأضفت نوعًا من الجمال من كثرة ما استخدموه من ألوان، وهو ما توضحه رسالة أرسلها صباغٌ يهودي تبرهن على ما وصل إليه المسلمون في الصباغة، يقول: «خمسة أغطية رقيقة: واحد بلون دم غزال، وواحد بلون البنفسجي الخالص، وكذلك البني المحمر «المسك الملونة»، وواحد فضي، والأصفر المكثف واحد؛ واثنان آخران بألوانٍ بيضاءَ نقيةٍ نظيفة؛ وآخر يميل إلى اللون الأصفر؛ وثمانٍ من سجاد الصلاة: اثنتان من اللون الأبيض واثنتان من الأزرق النيلي، واثنتان من الأخضر، واثنتان من الأحمر. وأرجوك يا سيدي، الأحمر يجب أن يكون الأحمر أحمر كما ينبغي أن يكون ممكنًا، وهكذا الأبيض والأصفر. واربد الأبيض والأزرق، بدلًا من لون البصل ويكون فاتح اللون، والرصاص الملون (أي الرمادي)، وتكون أفضل من البقية السابقة في قوائم الملابس والفراش الذين جُلبوا من قبلُ.» [٢٨١]

وشكلت الصباغة نسبةً كبيرة من تكلفة المَنْسوجات، فقد أوردت وثائق الجنيزة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بعض الرسائل من قبل بعض التجار، التي توضح أن سعر ٦٦ قطعة من الحرير غير مقصور تساوي ٣٠٠ دينار، متوقع خسارة مبلغ ٢٠ دينارًا، وقدر قرمز للصباغة ٥٨ دينارًا، النفقات (ضرائب وغيرها) ٢٥ دينارًا، أجور الصباغين ٢٠ دينارًا، لصباغة «الأسود والأخضر» ٢٤ دينارًا، فإن مجموع التكاليف بخلاف ثمن الحرير ١٧٤ دينارًا، والمجموع العام ٤٧٤ دينارًا لصبغ عدد ٦٦ قطعة من الحرير، وبالتالي من أصل التكلفة الإجمالية من ٤٧٤ دينارًا، وأنفق ١٢٩ دينارًا على الصباغة؛ ما يعني أن أكثر من ربع التكلفة كانت على الصباغة، وتكلفة مواد الصباغة أعلى أربع مرات بالنسبة لأجور الصباغين فضلًا عن تكلفة الصباغة.[٢٨٢]

وانتشر الصباغون في معظم المراكز الصناعية في الغرب الإسلامي، فشُيِّدَت لهم أماكن خاصة بهم خارج أسوار المدن وبعيدًا عن الطرق لما تُسبِّبه من أضرار وروائحَ كريهةٍ بالإضافة إلى الضجيج المتكرِّر؛ فلهذا نصح الفقهاء وولاة الأمر بوجودها خارج نطاق المدن،[٢٨٣] فكان بفاس ١١٦ دارًا للصباغة، لتوافر منابع المياه المتوافرة بها، فاعتاد الصباغون الذهاب إلى الأنهار والبرك الموجودة بها لغسل الغَزْل.[٢٨٤]

واشتهرت توزر بصباغها للمَنْسوجات، فبها موضع اسْتُعْمل في عمليات الصباغة عُرف بباب المنشر، كان يلجأ إليه القصَّارون والصباغون لنشر الثياب المصبوغة والأمتعة الموشية، بفضل ما وُجد به من مياه ساعدت الصباغين على أداء عملهم كما ساهمت نوعيتها الموجودة بتلك الموضع على جودة الصباغة وتثبيت الألوان فتعطيها رونقًا وجمالًا.[٢٨٥]

وكان بسبتة نحو ٢٥ مقصرًا للصباغة، تقع أسفل الأسوار والأبراج والأبواب، لكل مقصر برج من أبراج المدينة،[٢٨٦] وعَرفت أَوْدَغَسْت الصباغة، ولكن على نطاقٍ ضيق، ويرجع الفضل في معرفة الأَوْدَغَسْتيين لهذه الصناعة للمغاربة الوافدين عليها، وما جلبوه معهم من ملابس مصبغة بالحمرة والزرقة، فبدأ الأَوْدَغَسْتيون يستفيدون من خبرتهم ويطبقونها.[٢٨٧]

وعُدَّت الأندلس إحدى المعاقل الشهيرة والمركزية في صناعة الأصباغ بفضل هيمنة اليهود على تلك الصناعة، فوُضع لهم عدد من المعايير والشروط الصارمة للحافظ على هذه الصناعة،[٢٨٨] وقد استخدم أهالي حصن البلوط صبغة الزنجفور للمَنْسوجات،[٢٨٩] واستفاد أهلُ الأندلس عمومًا وسكان إِشْبِيلِية ولبلة وشذونة وبلنسية خاصة من وجود القرمز لصبغ المَنْسوجات الحريرية والصوفية،[٢٩٠] فيجمعه الصباغون من شجر البلوط ويستخلصون منه اللون الأحمر، فالحرير عادة كان يصبغ في موضع إنتاجه؛ إذ اشتهرت إحدى قرى مالقة وهي نارجة بصباغة الحرير، فكان أهلها ينصبون الخيام قرب النهر، وكانوا يعتبرون ذلك عيدًا بالنسبة لهم؛ فأطلقوا حناجرهم بالغناء أثناء عملهم بصبغ الحرير، وعُرف الموضع الذي يصبغون فيه الحرير بالطِّراز، فذكر ابن سعد[٢٩١] أن كُتُب حكَّام بني أمية من الحرير كُتِب عليها بالصبغ السماوي للطراز.

(٣-٢) صناعة البُسُط

اعتاد العرب والمسلمون على استخدام البسط في فرش أرض دورهم وأرصفة المساجد، كما استخدموها في تزيين الجدران، واسْتُعمل شعر الماعز في نسجها، ولكن بدرجة أقل من الصوف في صناعة البسط، أما السجاد الفاخر (البسط) فقد امتزج الحرير بالصوف عادة لإنتاج نوعياتٍ جيدة ومميزة منه.[٢٩٢]

ومن بين تلك النوعيات الطنافس التي حرص على استخدامها مسلمو الغرب الإسلامي، وهو ما أكدته أمثالهم «الركوب على الخنافس، ولا المشي على الطنافس.»[٢٩٣] فصنع سكان أَوْدَغَسْت الأُزر ويسمونها الشيكات،[٢٩٤] بجانب السجاد والحصر المصنوعة؛ نظرًا لأن هذه الصناعة قديمة بها، ومن ثم تطوَّرت مع زيادة العلاقات مع بلاد المغرب.[٢٩٥]

والمسلمون الفاتحون هم أصحاب الفضل في إدخال هذه الصناعة إلى الأندلس، فعن مدينة جنجالة يذكر الإدريسي[٢٩٦] أنه: «يُعمل بها من وطاء الصوف ما ليس يمكن صنعه في غيرها باتفاق الماء والهواء.» فإليها يُنسب الوطاء الجنجالي،[٢٩٧] كما كانت مدينة بياسة

وبسطة من أهم مدن إنتاج البسط التي لا نظير لها في البلدان،[٢٩٨] فنُسب لبسطة «طرز الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يُعلم له نظير.»[٢٩٩] كما اشتهرت مدينة مرسية بصناعة «البسط الرفيعة الشريفة، ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم.»[٣٠٠] وتميزت تنتالة، إحدى قرى مرسية، بإنتاج نوع من البسط الجيدة «واختصت بالبسط التنتالية التي تُسفَّر لبلاد الشرق، وبالحصر التي تُغلَّف بها الحيطان المبهِجة للبصر.»[٣٠١]

بالإضافة لمدينة قونقة (كونكة) «فيُصنع بها من الأوطية المتَّخَذة من الصوف كل غريبة.» هذا كما اشتهرت مدينة ألش بصناعة البسط الرائعة والفاخرة التي لا مثيل لها في كثير من البلدان،[٣٠٢] وتميزت مدينة تدمير بصناعة البسط،[٣٠٣] وانتشرت أيضًا صناعة البسط في مالقة، ولعل Alfombra الإسبانية، التي تعني سجادة أو بساط، جاءت من الكلمة العربية الحمرة أو الخمرة أي الحصير.[٣٠٤]

(٣-٣) صناعة الشاشية

صناعة الشاشية أو صناعة الطاقية هي إحدى الصناعات التي اشتهرت بها مدن وصناع الغرب الإسلامي، وأصل صناعة الشاشية جاء من مدينة شاش وإليها تُنسب تلك الصناعة، فصُنعت الشاشية في القيروان ومنها إلى بلاد السودان، فأشار الإمام سحنون[٣٠٥] إبان القرن الثاني الهجري أن صناعة الشاشية كانت موجودة بالقيروان.

وتتكون الشاشية من قلنسوة مظفورة بالإبر، ثم تُلبَّد بالماء والصابون، ثم تُحلَج بنوع من الخرشوف يُسمى الكرضون والقلانس حتى تخرج شعرتها الحريرية، وتُليَّن وتُملس ثم تُصبَغ بالقرمز وتُحلَج مرةً ثانية، وجُعل لها زر من الحرير، ويؤكَّد على دخول الحرير في تلك الصناعة، وتُلبَس الشاشية على الرأس وتُوضع فوقها عمامة في أغلب الأحيان.[٣٠٦]

وعُرفت تُونس بصنعها ولبسها،[٣٠٧] وهو ما أكدته الأمثال العامة «خرجت الشاش ... قد الرأس.»[٣٠٨] كما كان للأَنْدلسيين دور في دفع هذه الصناعة بتُونس؛ فنهضوا بها وطوَّروها وطبعوها بنمطهم الخاص؛ فأُسِّست للشاشية حوانيتُ وأسواق خاصة بها فوجد بتُونس أربعمائة حانوت للشاشية،[٣٠٩] فكان بعض سكان تُونس من صناع الشاشية فخورين بتلك الصناعة، وإن أحدهم يخدم فيها بإتقان وحسن صنع وصبغ، فكان الصانع منهم يُفضِّل الخسارة على أن يفقد سمعته وسط الصناع والتجار من أهل صنعته؛ فكان لا يخرج عمله إلا وعليه خاتمه.[٣١٠]

ولعل من بين أبرز العائلات الأندلسية التي عُرفت بحذقها لهذه الصناعة عائلة «كرباكة» من مدينة كباكة، عائلة «سيدة» من مالقة، عائلة «طروال» من مدينة تريل، عائلة «العروسي» من جبل الأوراس قرب قُرْطُبَة، عائلة «ويشكا» من جهة ويشكا، وعائلة «القسطلي» من قرية كاستيا في غرب البرتغال، لورقة، الريكاخون، الإيراني، الكاشو، الدرافل، كذلك عائلة الأخوة ذات الأصول الغرناطية العريقة بالإضافة للعديد من العائلات الأخرى، كعائلة بالمة من بالما، وعائلة وويشكه من ويشكة.[٣١١]

وانتقلت الشاشية إلى فاس ومنها سميت Fez بالفرنسية، على أيدي الصناع الأندلسيين،[٣١٢] وكان لصناع الشاشية أمينٌ خاص بهم، فكان من أمهر الصناع وأكثرهم خبرة وحذقة بتلك الصنعة، وهو أمين الشواشية وفي العادة يُنتخب من الصناع.[٣١٣]

(٣-٤) صناعة الحِبال

تُعدُّ الحبال من المواد النَّسيجية التي اسْتُعملت في الحياة اليومية بشكلٍ شبه أساسي في بلدان الغرب الإسلامي وغيرها من البلاد، فصُنعت الحبال من شعر الماعز أو الصوف أو من الألياف المستخرَجة من النباتات الأخرى كالخوص أو لحاء الشجر أو القُطْن أو الكَتَّان أو القنب، وأجود الحبال تلك المصنعة من القنب،[٣١٤] حيث يُؤخذ ويُدَقُّ ثم يُفتل ويُسمى هذا النوع من الحبال «القَرْن»[٣١٥] وهناك نوعٌ آخر من الحبال وهو «الخَيْطة»[٣١٦] وهو حبل يُتخَذ من شجرة تعرف «السَّلبَ»، فهو أجود ما يُتخذ من الحبال وتُصنع منه مختلف الحبال ويمتاز بالصلابة وهو ليف المقل، وهناك «المغزل»[٣١٧] «وهو حبل دقيق يستخدمه النساجون.» وتُغزل الحبال بالمغازل وتُسمى المبارم، أو عن طريق البرم، الذي كان يتم بطريقتين إما شزرًا أو يسرًا.[٣١٨]

(٣-٥) صناعة الحُصر

ارتبطت صناعة الحصر بالنَّسيج، وأُطلق على صانعيها الحصارون فصنعوا القفاف والسلال والمكانس، خاصة من الحلفاء الطويلة المتوافرة في العديد من المدن، بخاصة مدن المغرب الأدنى كمدينة قرطاجنة، فكان الصناع يصنعونها أمام عيون زبائنهم، واسْتُخْدمت الحصر في تغطية الحيطان أو الفرش على الأرض بالمنازل والمساجد، واختصت مرسيه بصناعة الحصر الفاتنة المبهجة للنظر «التي تُغلف بها الحيطان المبهجة للبصر.»[٣١٩]

ومن مدن المغرب الأقصى أَوْدَغَسْت، وقد انتقلت صناعة الحصر لأَوْدَغَسْت عن طريق الوافدين إليها من الشمال الأفريقي؛ فكان الأَوْدَغَسْتيون يصنعون الحصر من نبات يشبه الحلفاء أو الديس، إلا أنه أقوى منه وأكثر سمكًا.[٣٢٠] ومن مدن وقرى الأندلس التي عَرفت صناعة الحصر شذونة،[٣٢١] ومدينة لقنت،[٣٢٢] كما وُجدت بعض الأماكن الخاصة بإنتاج الحصر والسلال والأواني المصنوعة من الخوص بقُرْطُبَة.[٣٢٣]

وأُطلق على صانع الحصر؛ الحَصَّار،[٣٢٤] فقد عمل بصناعة الحصر العديد ممن ذكرتهم كتب المناقب والسير، فمنهم أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر أبو العباس (ت٣٩٢هـ/١٠٠١م) من أهل قُرْطُبَة، اشتهر بابن الحصَّار،[٣٢٥] وأبو عمر الحصار الإمام الزاهد (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م).[٣٢٦]

هوامش

(١) ريكاردو كوردوبا: الصناعات المتوسطية، ص٢٤٦.

(٢) صورة الأرض، ص١٠٩.

(٣) مسالك الأبصار، ج٤، ص٢٢١.

(٤) ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٣.

(٥) الحسك: نبات له ثمرة خشنة يعلق بصوف الإبل. ابن منظور: المصدر السابق، ص٨٧٤.

(٦) بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس، ص٥١.

(٧) لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٣٩.

(٨) بلقزيز: المرجع السابق، ص٤٧-٤٨.

(٩) ديوان ابن قزمان، زجل ٩٠، ص٢٨٧.

(١٠) يقول ابن سيده: هو فَتْل الصوف باليَدِ حتى يَصِير خُصَلًا فيغزل، وهي العَمِيتة. المخصص، ج٤، ص٨٩.

(١١) حنان قرقوتي: ملامح من صناعة النَّسيج عند المسلمين، ص١٣٣.

(١٢) Vincent Lagardère: Culture et industrie du lin en al-Andalus au Moyen Âge (VIIIe-XVe s), Studia Islamica, No. 74, (1991), p. 151-152.

(١٣) Vincent: Op.cit., p. 153; Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century A.D. as Seen in Merchants' Letters from the

Cairo Geniza, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 63, No. 2 (April 2004), p. 82.

(١٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٧٢.

(١٥) ابن رشد: فتاوى ابن رشد، ص٨٩٧.

(١٦) Vincent Lagardère: Op.cit., p. 157; Moshe Gil: Op.cit., p. 82.

(١٧) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج١، ص٢٧٢.

Vincent Lagardère: Culture et industrie du lin en al-Andalus au Moyen Âge, p. 82.

(١٨) Vincent Lagardère: Op.cit., p. 159; Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 83.

(١٩) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٣.

Moshe Gil: Ibid., p. 83-84.

(٢٠) Moshe Gil: Op.cit., p. 84.

(٢١) وهو ما تم ذكره في إحدى وثائق الجنيزة والمؤرَّخة بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٠٥١م، وتراوح ثمن شراء تلك الأمشاط في مصر ما بين دينار ودينار وثلث.

Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 84.

(٢٢) Vincent Lagardère: Culture et industrie du lin en al-Andalus au Moyen Âge, p. 159.

(٢٣) تذكر بعض الروايات أن أول من عَرف الحرير الطبيعي وطرق استخراجه هي الإمبراطورة «سجي بنج شي» زوجة الإمبراطور «هونج تي» حاكم بلاد الصين، وذلك عام (٢٦٠٠ق.م)، إذ لاحظت الإمبراطورة وجود بعض الديدان على شجرة التوت بالحديقة الملكية، تقوم بعمل شرانق من خيوطٍ لامعةٍ دقيقة، فجمعت الأميرة عددًا من الشرانق وتمكَّنت من حلها بغَلْيها في الماء ثم صنعت نولًا، ونسجت عليه قطعةً صغيرة من القماش، فاحتفظ الصينيون بسر صناعة الحرير، وادَّعوا بأن الخيوط الحريرية تُستخرج من «جزة» فرو الخراف بعد غليها بالماء وتعريضها للشمس الساطعة المضيئة؛ فلهذا سنَّت السلطة الصينية القوانين الرادعة لكل من يُحاول تهريب ديدان القز أو الشرانق؛ وبذلك حافظ الصينيون على هذا السر قرابة الثلاثة آلاف سنة. حميدة محمد البقلي: الحرير الطبيعي عند العرب، مجلة منبر الإسلام، السنة ٣٦، ١٣٩٨هـ، ع١، ص١٢٤.

(٢٤) وفي ذلك يعرفها القزويني بقوله: «دودة القز: وهي دويبة إذا شبعت من الرعي طلبت مواضعها من الأشجار والشوك، ومدَّت من لعابها خيوطًا رقاقا ونسجت على نفسها كُنًّا مثل الكيس؛ ليكون حرزًا لها من الحر والبرد والرياح والأمطار ونامت إلى وقت معلوم.» عجائب المخلوقات، ص٣٦٦.

(٢٥) فهناك رواية تقول: إن ديدان القزِّ نقلها رجلا دين صينيان وعدهما جستنيان بعطاءٍ جزيل إن تمكنا من إحضار المواد اللازمة لتربية ديدان القز وطرق صناعة الحرير، فتحقق ذلك عام ٥٥٠م، فقد جلبا بويضات ديدان القز وبذور شجر التوت في تجويف عصيهما. حميدة محمد البقلي: المرجع السابق، ص١٢٥.

Goitein S. D.: The Main Industries of the Mediterranean Area, p. 173–174.

(٢٦) عثمان الكعاك: العلاقات بين تُونس وإيران، ص١٨٧.

(٢٧) حميدة محمد البقلي: الحرير الطبيعي عند العرب، ص١٢٧.

(٢٨) الطيبي: العرب في صِقِلِّيَّة والأندلس، ص٣٢٦.

(٢٩) الأنواء، ص٤٩؛ القزويني: عجائب المخلوقات، ص٣٦٦؛ محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس، ص٢٠٥.

(٣٠) القزويني: المصدر السابق، ص٣٦٦.

(٣١) ابن سعد: المصدر السابق، ص٦٣؛ محمد مرسي الكحلاوي: المرجع السابق، ص٢٠٥.

(٣٢) محمد مرسي الكحلاوي: نفس المرجع، ص٢٠٥.

(٣٣)

رأتني في المحج، قالت إيش تسأل دودة الحرير؟ (لس) تفرغ من رعد؟

ديوان ابن قزمان، ص١٦٥.

(٣٤) القزويني: نفس المصدر، ص٣٦٦.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 73; Goitein: The Main Industries of the Mediterranean, p. 177.

(٣٥) محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس من خلال النصوص التاريخية، ص٥١.

(٣٦) ابن منظور: لسان العرب، ص١٣٦٣؛ بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس، ص٤٣.

(٣٧) ابن الحشاء: مفيد العلوم ومبيد الهموم، ص٧.

(٣٨) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص١٩٢.

(٣٩) الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص٧٣.

(٤٠) كتاب الوثائق والسجلات، ص٣٩٥.

(٤١) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٣٦.

(٤٢) فتاوى قاضي الجماعة، ص١٩١-١٩٢.

(٤٣) الونشريسي: المصدر السابق، ج٨، ص١٣٠.

(٤٤) الأنواء، ص٩١؛ محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير، ص٢٠٥.

(٤٥) المصدر السابق، ص١٣٣؛ محمد مرسي الكحلاوي: المرجع السابق، ص٢٠٦.

(٤٦) الرغس: الجمع الأرغاس، وهي التي تخرج عن الولد، ورَغَسَ الشيء: مقلوب عن غَرَسَه. ابن منظور: لسان العرب، ص١٦٨١.

(٤٧) بلقزيز: المرجع السابق، ص٤٣؛ حنان قرقوتي: المرجع السابق، ص١٣٨.

(٤٨) بلقزيز: نفس المرجع، ص٤٤؛ حنان قرقوتي: نفس المرجع، ص١٣٨.

(٤٩) ابن سيده: المخصص، ج٤، ص٦٨.

Lombard: Les Textiles Dans Le Monde Musulman, p. 241.

(٥٠) ابن وحشية: الفلاحة النبطية، ج١، ص٥٢٠؛ النابلسي: علم الملاحة، ص١٥٠؛ لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنَّسيج، ص١٣٩٦.

(٥١) ابن بصال: الفلاحة، ص١١٥.

(٥٢) بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس، ص٥٩.

(٥٣) محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، ١٩٧٩م، ص٣١؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج بالمغرب الوسيط، ص٥٤.

(٥٤) Lombard: Les textiles Dans le Monde Musulman, p. 242.

(٥٥) بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس، ص٧٨-٧٩.

(٥٦) Lombard: Op.cit., p. 241.

(٥٧) بلقزيز: المرجع السابق، ص٧٩؛ حنان قرقوتي: ملامح من صناعة النَّسيج عند المسلمين، ص١٣٣؛ محمد المقر: اللباس المغربي، ص٨٤.

Lombard: Ibid., p. 242.

(٥٨) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٤٧.

(٥٩) الرازي: مختار الصحاح، ص٤٩٩.

(٦٠) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٨.

(٦١) ابن بسام: معالم القربة، ص٣٢٩.

(٦٢) روجي لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٣٢.

(٦٣) المعيار، ج٨، ص٢٩٥.

(٦٤) برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٢٣.

(٦٥) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٤.

(٦٦) روجي لوترنو: المرجع السابق، ص١٣٥.

(٦٧) محمد المقر: اللباس المغربي، ص٨٣.

(٦٨) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٢٢٨؛ محمد المقر: المرجع السابق، ص٨٤.

(٦٩) الونشريسي: نفس المصدر والجزء، ص٢٢٣؛ ج٨، ص٢٩٥.

(٧٠) نصر عوض حسين: صناعة النَّسيج في مصر المملوكية، ص٤٠.

(٧١) برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٢٣؛ بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس، ص١٤٦.

(٧٢) بلقزيز: المرجع السابق، ص١٤٧؛ نصر عوض حسين: المرجع السابق، ص٤٠.

(٧٣) Lombard: Les textiles dans le monde musulman, p. 240–241.

(٧٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٨.

(٧٥) ويخبر ابن خلدون عن الطِّراز بقوله: «الطِّراز: من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن تُرسَم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ... وكانت الدُّور المعدَّة لنسج أثوابهم في قصورهم تُسمى دور الطِّراز لذلك، وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطِّراز.» المقدمة، ج٢: ص٦٧١.

(٧٦) محمد المقر: اللباس المغربي، ص٨٧.

(٧٧) حنان القرقوتي: ملامح من صناعة النَّسيج، ص١٥٠.

(٧٨) المصدر السابق، ج٢، ص٦٧١-٦٧٢.

(٧٩) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٢٤؛ محمد المقر: اللباس المغربي، ص٨٣.

(٨٠) سحر سالم: دور الطرز في الأندلس في عصر الدولة الأموية، ضمن كتاب «بحوث مشرقية ومغربية في الحضارة الإسلامية»، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص٩٠؛ عبد المنعم عبد العزيز رسلان: دراسة للنسيج المذهب في صِقِلِّيَّة، ص١٠.

(٨١) محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، ص٣١؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج بالمغرب الوسيط، ص٥٤.

(٨٢) ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٦٧٢.

(٨٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٩١، ٢٥٩.

(٨٤) ابن حيان: المصدر السابق، ص٩٢.

(٨٥) ابن الزبير: الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد الله، تقديم ومراجعة: صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٥٩م، ص٢١٠.

(٨٦) سحر سالم: دور الطِّراز في الأندلس في عصر بني أمية، ص٨٩؛ محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس، ص٢٠٢.

(٨٧) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص٢٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢: ص٩١.

(٨٨) سحر سالم: المرجع السابق، ص٨٧.

(٨٩) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص١٥-١٦؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج٢: ص٩١.

(٩٠) ابن سعد: الأنواء، ص٥٨.

(٩١) المصدر السابق، ص٤٠.

(٩٢) البكري: المغرب، ص٢٥.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 44.

(٩٣) نزهة المشتاق، ج١، ص٢٧٩؛ مقديش: نزهة النظار، ج١، ص١٠٧.

(٩٤) جمال طه: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في عصرَي المرابطين والموحِّدين ٤٥٠هـ/١٠٥٤م إلى ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادي، ٢٠٠٠م، ص٨٥.

Serjeant: Op.cit., p. 44.

(٩٥) ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٦٧٢؛ كولان: الأندلس، ص١٨١-١٨٢.
(٩٦) جمال طه: المرجع السابق، ص٨٦.
Serjeant: Ibid., p. 44.
(٩٧) محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، ص٣١.
(٩٨) إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢١.
(٩٩) أحمد فكري: قُرْطُبَة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص١٨٥؛ كولان: الأندلس، ص١٨١.
(١٠٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٩١؛ سحر سالم: دور الطِّراز في الأندلس في عصر بني أمية، ص٨٩؛ محمد مرسي الكحلاوي: المرجع السابق، ص٢٠٢.
(١٠١) ابن عذاري: المصدر السابق، ج٢، ص١٢٧؛ كولان: المرجع السابق، ص١٨١.
(١٠٢) خالد بن عبد الله: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، ص٢٤٨.
(١٠٣) رحلة بن جبير، ص٢٩٩؛ حنان القرقوتي: ملامح من صناعة النَّسيج، ص١٥٥.
Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 44.
(١٠٤) ابن الزبير: الذخائر والتحف، ص٦٩.
(١٠٥) ترصيع الأخبار، ص٩.
(١٠٦) ابن غالب: وصف الأندلس، ص٢٨٤.
(١٠٧) البكري: المغرب، ص٣٦.
(١٠٨) الأربس: مدينة على مقربة من القيروان وتونس طيبة الزعفران. الحميري: الروض المعطار، ص٢٤.
(١٠٩) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٣٦.
(١١٠) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٥٤-٤٥٥.
(١١١) مارمول: أفريقيا، ج٣، ص٩٥.
(١١٢) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٣٩٩.
(١١٣) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠٠-٢٠١.
(١١٤) Margarita Campos. Kent; Figurative Hispano-Arabic textiles of the Almoravid and Almohad, p. 16.
(١١٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٤.

(١١٦) محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، ص٢١٢؛ محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس، ص٢٠٨.

(١١٧) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص١٩٣-١٩٤، ج٢، ص١٩٣-١٩٤.

(١١٨) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٦٢.

(١١٩) الدمشقي: محاسن التجارة، ص٢٥؛ النويري: الإلمام، ج٣: ص١١٤.

(١٢٠) الجغرافية، ص١٠٢.

(١٢١) ابن غالب: وصف الأندلس، ص٢٨٣-٢٨٤.

(١٢٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٢؛ محمد الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير، ص٢٠٨.

(١٢٣) محمد مرسي الكحلاوي: نفس المرجع، ص٢١١.

Sharon Hoshta: Almeria Silk and the French Feudal Imaginary Toward a "Material" History of the Medieval Mediterranean, Medieval abrications .dress, Textiles, Clothwork, and other Cultural Imagnings, palgrave, p. 168

(١٢٤) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص٢٢٣–٢٢٥.

(١٢٥) الإدريسي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٦٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٧٧؛ ابن الوردي: خريدة العجائب، ص١٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٣٨، المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٦٣.

(١٢٦) جمال طه: مدينة فاس، ص٢١٠؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج، ص٥٣.

(١٢٧) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨؛ الجزنائي: زهرة الأس، ص٤٤؛ جمال طه: المرجع السابق، ص٢١١؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج في المغرب، ص٥٣.

(١٢٨) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المُسَمَّوْن اليوم بالبلديين، تحقيق: نوال علي محمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ١٩٩١م، ص٢٤٥: ٢٤٧.

(١٢٩) جمال طه: المرجع السابق، ص٢١١.

(١٣٠) العلوي: المرجع السابق، ص٥٤.

(١٣١) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥؛ المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، ص٣١؛ جمال طه: المرجع السابق، ص٢١١؛ العلوي: المرجع السابق، ص٥٣-٥٤.

(١٣٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٦٣؛ مارمول: أفريقيا، ج٢: ص١٥٥.

(١٣٣) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٩٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٤٢؛ برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج٢، ص٢٤١.

(١٣٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص١٤١.

(١٣٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٣١٦.

(١٣٦) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٣٨٤؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٥.

(١٣٧) الوزان: المصر السابق، ص٢١٤؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج في المغرب، ص٥١.

(١٣٨) مجهول: الاستبصار، ص٢١٧.

(١٣٩) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٩٢.

(١٤٠) المصدر السابق، ج٢، ص٥٥٧.

(١٤١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٣٦.

(١٤٢) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص١٦.

(١٤٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٢٠.

(١٤٤) Sarah. C. Davis; Sicily and the Medieval Mediterranean, p. 156.

(١٤٥) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٤٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٢؛ الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٤٧؛ برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢: ص١٤١.

(١٤٦) مناقب أبى يعزى، ص٢٦٤.

(١٤٧) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٢٨؛ مارمول: أفريقيا، ج٣، ص١١.

(١٤٨) الوزان: نفس المصدر، ص٤٠١.

(١٤٩) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٠-٢٣١.

(١٥٠) التجاني: رحلة التجاني، ص٢٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤٥؛ الأندلسي: الحلل السندسية، ص٢٨١.

(١٥١) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٣٣، ٤٦٠.

(١٥٢) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٣٧٦.

(١٥٣) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٥١٥.

(١٥٤) البكري: المغرب، ص٦٥.

(١٥٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص٩٩؛ مارمول: أفريقيا، ص٢١٧.

(١٥٦) الوزن: المصدر السابق، ص٣٦٠.

(١٥٧) الحميري: المصدر السابق، ص٣٣٥.

(١٥٨) البكري: المغرب، ص١٥٥.

(١٥٩) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص١٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١: ص١٩٦.

(١٦٠) صفة جزيرة الأندلس، ص٢٤.

(١٦١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٢٠٨.

(١٦٢) سحر سالم: قادس، ص١٣٠.

(١٦٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٩.

(١٦٤) المصدر السابق، ص١٠٩.

(١٦٥) موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢١٩.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 39.

(١٦٦) فائق بكر الصواف: بعض مظاهر الحضارة في صِقِلِّيَّة، ص١٢٧.

(١٦٧) ابن الحشاء: مفيد العلوم، ص٤٢.

(١٦٨) الدمشقي: محاسن التجارة، ص٢٦.

(١٦٩) الزجالي: الأمثال العامة في الأندلس، ص٤٣١.

(١٧٠) الدمشقي: المصدر السابق، ص٢٥؛ النويري: الإلمام، ج٣، ص١١٣؛ ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية، ص٧-٨.

(١٧١) الجاحظ: التبصرة بالتجارة، ص٣٣٤.

(١٧٢) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents of the Eleventh Century, p. 33.

(١٧٣) الدمشقي: المصدر السابق، ص٢٥.

(١٧٤) أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م، ص٢١١؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٦٤.

(١٧٥) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٤٨، ٢١٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥: ص٢٠٦.

(١٧٦) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص١٧٥–١٧٧؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج، ص٥٧.

(١٧٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٧٩؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج١: ص١٠٧.

(١٧٨) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents of the Eleventh Century, p. 33.

(١٧٩) عثمان الكعاك: العلاقات بين تُونس وإيران عبر التاريخ، ص١٨٧.

(١٨٠) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٠٥.

(١٨١) الأندلسي: الحلل السندسية، ص١٨٣.

(١٨٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٩٨.

(١٨٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٢٥؛ العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٥٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٤٢؛ برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج٢: ص٢٤١.

(١٨٤) المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٥١؛ روجى لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٣٣.

(١٨٥) السبتي: اختصار الأخبار، ص٣٧.

(١٨٦) أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص٣٥.

(١٨٧) الجزيري: الوثائق والسجلات، ص٥٣؛ أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي، ص٢٤٣.

(١٨٨) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents of the Eleventh, p. 33.

(١٨٩) الحميري: وصف الأندلس، ص٤٥.

(١٩٠) الحميري: المصدر السابق، ص٩.

(١٩١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥٨؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص١٩٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢١٧.

(١٩٢) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٤٠؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٣٩؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٧٦؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٠١.

(١٩٣) Margarita Campos. Kent; Figurative Hispano-Arabic textiles of the Almoravid and Almohad dynasties, p. 18.

(١٩٤) المقري: المصدر السابق، ج١، ص١٧٨؛ خالد بن عبد الله: مدينة مالقة، ص٢٥٠.

(١٩٥) معيار الاعتبار، ص٥٢.

(١٩٦) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٧٥؛ المقري: نفس المصدر والجزء، ص١٦٤.

(١٩٧) مفاخرات مالقة وسلا: ٥٩؛ خالد بن عبد الله: المرجع السابق، ص٢٦٣.

(١٩٨) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٤٠؛ المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٤٢٤؛ المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٢١٩-٢٢٠، ج١، ص١٨٧؛ خالد بن عبد الله: المرجع السابق، ص٢٥٢-٢٥٣؛ ريكاردو: الصناعات المتوسطية، ص٢٤٦.

(١٩٩) الزهري: الجغرافية، ص٩٤.

(٢٠٠) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٣٧.

(٢٠١) الحميري: الروض المعطار، ص٤٦٩.

(٢٠٢) أحمد فكري: قُرْطُبَة في العصر الإسلامي، ص٢٥٦؛ محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس، ص٢١٧.

Sharon Hoshta: Almeria Silk and the French Feudal Imagnary Toward, p. 168.

(٢٠٣) محمد مرسي الكحلاوي: المرجع السابق، ص٢١٦.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 38.

(٢٠٤) موسى: النشاط الاقتصادي، ص١٩٧ هامش رقم ٣.

(٢٠٥) صفة جزيرة الأندلس، ص٧٠.

(٢٠٦) الإدريسي: المصدر السابق، ج١، ص٣٥٠.

(٢٠٧) ترصيع الأخبار، ص٢٢؛ ابن غالب: وصف الأندلس، ص٢٨٧-٢٨٨؛ المقري: المصدر السابق، ج١، ص١٩٧.

(٢٠٨) الزهري: الجغرافية، ص٨٢.

(٢٠٩) الزهري: المصدر السابق، ص٩٦، المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٠١.

(٢١٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٦١؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٩٢.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles., p. 37.

(٢١١) القزويني: آثار البلاد، ص٥٠٥.

(٢١٢) المصدر السابق، ص٩٤.

(٢١٣) الإصطخري: مسالك الممالك، ص٣٥.

Serjeant: Op.cit, p. 38.

(٢١٤) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٢٤.

(٢١٥) العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٣.

(٢١٦) الحميري: المصدر السابق، ص١٤٤؛ محمد الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير، ص٢١٨.

Serjeant: Ibid., p. 34.

(٢١٧) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents of the Eleventh Century, p. 33; Sarah. C. Davis: Sicily and the Medieval Mediterranean, p. 213.

(٢١٨) Moshe Gil: Op.cit., p. 33-34.

(٢١٩) فائق بكر الصواف: بعض مظاهر الحضارة في صِقِلِّيَّة، ص١٢٧.

Sharon Hoshta: Almeria Silk and the French Feudal Imaginary Toward a “Material” History of the Medieval Mediterranean, p. 174.

(٢٢٠) Moshe Gil: Op.cit., p. 33; Sarah. C. Davis: Op.cit. p. 213.

(٢٢١) الدمشقي: محاسن التجارة، ص٢٥.

(٢٢٢) الجاحظ: التبصرة بالتجارة، ص٣٣٧-٣٣٨؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص٢٥-٢٧.

(٢٢٣) القزويني، آثار البلاد، ص٥٣٩.

(٢٢٤) مجهول: الاستبصار، ص١٥٤؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٧٨؛ موسى: النشاط الاقتصادي، ص١٤٧؛ برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٤١.

(٢٢٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٨؛ برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢: ص٢٤٢.

(٢٢٦) مجهول: الاستبصار، ص١٥٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٣٦؛ برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٤١.

(٢٢٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٢٧؛ الحميري: المصدر السابق، ص٣٣٠؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص٥٧؛ موسى: المرجع السابق، ص٢٢١.

(٢٢٨) التجاني: رحلة التجاني، ص٢٦.

(٢٢٩) المصدر السابق، ص١٩٩.

(٢٣٠) مجهول: الاستبصار، ص١٧٧؛ مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية، ص٢٩٨.

(٢٣١) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٢٣.

(٢٣٢) مصطفى عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب، ص١٢٠.

(٢٣٣) التجاني: رحلة التجاني، ص١٢٢؛ الأندلسي: الحلل السندسية، ص٣٥٧.

(٢٣٤) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٢٨؛ مارمول: أفريقيا، ج٣، ص١٦.

(٢٣٥) جميلة مبطي المسعودي: المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة ٦٢١هـ وحتى سنة ٨٩٣هـ، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٠م، ص١٢١.

(٢٣٦) فيض العباب وإفاضة قدح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، إعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص٤٨٨.

(٢٣٧) ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، ص١٨٩، هامش ١٨٨.

(٢٣٨) الزهري: الجغرافية، ص١١٣.

(٢٣٩) ابن مرزوق التلمساني: المصدر السابق، ص١٨٨-١٨٩.

(٢٤٠) المسند الصحيح، ص١٢٩.

(٢٤١) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٥٩؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٤٢.

(٢٤٢) ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، ص١٩٠.

(٢٤٣) البكري: المغرب، ص١٤٧؛ مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ص٢٩٨؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النسيج، ص٥٦-٥٧.

(٢٤٤) الأزر: أو الأرز أو الإزار وهو الثوب، أُطلق على الرداء الطويل الذي تلتف به النساء، صُنع من الحرير أو من الصوف. دوزي: المعجم المفصل، ص٣٧-٣٨.

(٢٤٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٢٥؛ مجهول: الاستبصار، ص٢١٣؛ عبد العزيز العلوي: المرجع السابق، ص٥٦.

(٢٤٦) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٤١؛ موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٢١.

(٢٤٧) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٣٦٤؛ مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٢٨٢.

(٢٤٨) ابن الوزان: المصدر السابق، ص١٩٠.

(٢٤٩) مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص٥٥.

(٢٥٠) مصطفى نشاط: إطلالات على تاريخ المغرب، ص٨٤.

(٢٥١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١٠٤؛ عبد العزيز العلوي: المرجع السابق، ص٥١-٥٢.

(٢٥٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣٢.

(٢٥٣) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٥٠٤.

(٢٥٤) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٦٦؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ص٣٩.

(٢٥٥) موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٢١؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية، ص٢٦٤.

(٢٥٦) نبيلة عبد النظير باكير عبادي: الأوضاع السياسية والحضارية لمدينة أودغشت «أَوْدَغَسْت» منذ القرن الثاني الهجري وحتى سقوط المدينة في القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادى، ٢٠٠٢م، ص١٤٩.

(٢٥٧) البكري: المغرب، ص١٥٨، ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، ص١٢٠.

(٢٥٨) صورة الأرض، ص١١٤.

(٢٥٩) معيار الاختبار، ص١١٠.

(٢٦٠) الإدريسي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٦٠.

Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 39.

(٢٦١) محمد المقر: اللباس المغربي، ص٨٠.

(٢٦٢) علي جمعان الشكيل: صناعة الأصباغ في الحضارة الإسلامية، ص١٤٧.

(٢٦٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٩.

(٢٦٤) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٣٩.

(٢٦٥) ابن سيده: المصدر السابق، ج٤، ص٩٦؛ صالح العلي: ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، ص٩٠.

(٢٦٦) الدينوري: النبات، ص١٧٥؛ علي جمعان الشكيل: المرجع السابق، ص١٤٧-١٤٨.

(٢٦٧) محمد المقر: المرجع السابق، ص٨٠.

(٢٦٨) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص٣١٤-٣١٥.

(٢٦٩) محمد المقر: نفس المرجع، ص٨٢-٨٣.

(٢٧٠) ابن سيده: المخصص، ج٤، ص٩٦.

(٢٧١) صالح العلي: ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، ص٨٨-٨٩.

(٢٧٢) محمد المقر: نفس المرجع، ص٨٢.

(٢٧٣) ابن سعد: الأنواء، ص١٣٣.

(٢٧٤) المقر: نفس المرجع، ص٨١.

(٢٧٥) علي جمعان الشكيل: صناعة الأصباغ في الحضارة الإسلامية، ص١٤٧-١٤٨.

(٢٧٦) المقر: اللباس المغربي، ص٨١.

(٢٧٧) مسالك الأمصار، ج٤، ص٩٨.

(٢٧٨) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٨٥؛ جان ديفيس: أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، ضمن كتاب «تاريخ أفريقيا العام، أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر»، المشرف على المجلد، ج.ت. نياني، اللجنة العلمية الدولية لتحَرِير تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو)، منظمة الأمم المتحدة، ١٩٨٨م، ج٤: ص٤٢٩.

(٢٧٩) محمد المقر: المرجع السابق، ص٨٢.

(٢٨٠) الدينوري: كتاب النبات، ج٣، ص١٦٧-١٧٢.

(٢٨١) Goitein: The Main Industries Of The Mediterranean Area, p. 182.

(٢٨٢) Goitein: Op.cit., p. 183; Moshe Gil: References To Silk In Geniza Documents Of The Eleventh Century, P. 35.

(٢٨٣) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٥٠؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١١١.

(٢٨٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨؛ ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٩.

(٢٨٥) التجاني: رحلة التجاني، ص١٤٢، ١٥٨؛ مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية، ص٣٠٢؛ برنشفيك: تاريخ إفريقية، ج٢، ص٢٨٣.

(٢٨٦) السبتي: اختصار الأخبار، ص٤٩؛ أمين توفيق الطيبي: النشاط الاقتصادي والعلمي في مدينة سبتة، ص٣٠٠.

(٢٨٧) البكري: المغرب، ص١٥٩.

(٢٨٨) Margarita Campos. Kent; Figurative Hispano-Arabic Textiles Of The Almoravid And Almohad, P. 22.

(٢٨٩) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٢٠؛ الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٨٧.

(٢٩٠) العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٦؛ ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٣٩-٤٠.

(٢٩١) الأنواء، ص١٣٣.

(٢٩٢) جمال محرز: السجاد الإسلامي ومشتقاته في إسبانيا، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١١، ١٩٦٣م، ص١٨٥.

(٢٩٣) الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، ص٢٩.

(٢٩٤) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص٢١٧.

(٢٩٥) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٨٤.

(٢٩٦) نزهة المشتاق، مج٢، ص٥٦٠.

(٢٩٧) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٧٢.

(٢٩٨) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٨٦.

(٢٩٩) الحميري: المصدر السابق، ص٤٥.

(٣٠٠) نفس المصدر، ص١٨٢.

(٣٠١) المقري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٢١.

(٣٠٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩٧؛ القزويني: آثار البلاد، ص٥٠٢.

(٣٠٣) العذري: ترصيع الأخبار، ص٩.

(٣٠٤) خالد بن عبد الله: مدينة مالقة، ص٢٦٨.

(٣٠٥) عثمان الكعاك: العلاقات بين تُونس وإيران عبر التاريخ، ص١٨٢-١٨٣.

(٣٠٦) عثمان الكعاك: المرجع السابق، ص١٨٦؛ مصطفى عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية بالمغرب، ص١٢٩.

(٣٠٧) مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص١١٨؛ دوزي: المعجم المفصل للملابس، ص٦٨.

(٣٠٨) الزجالي: الأمثال العامة، ص٢٠٥؛ ابن هشام اللخمي: لحن العوام، ص٢٩٣.

(٣٠٩) عثمان الكعاك: نفس المرجع، ص١٨٢-١٨٣.

(٣١٠) مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص١١٨.

(٣١١) عثمان الكعاك: العلاقات بين تُونس وإيران عبر التاريخ، ص١٨٦؛ حسام شاشية: العائلات الموريسكية في تُونس بين الحاضر والمستقبل المساهمة والمحافظة، شفشاون، المغرب ٢٨-٢٩-٣٠ أكتوبر ٢٠٠٩م، ص٣.

(٣١٢) لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٣٥؛ عثمان الكعاك: العلاقات بين تُونس وإيران عبر التاريخ، ص١٨٢-١٨٣؛ مصطفى عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية في المغرب، ص١٢٨.

(٣١٣) مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص١١٨؛ عثمان الكعاك: المرجع السابق، ص١٨٦.

(٣١٤) الدينوري: النبات، ص٢٥٣–٢٥٥.

(٣١٥) ابن منظور: لسان العرب، ص٢٦١٢.

(٣١٦) ابن منظور: المصدر السابق، ص١٣١٢.

(٣١٧) ابن منظور: لسان العرب، ص٢٦١٢.

(٣١٨) الدينوري: المصدر السابق، ص٢٤١-٢٤٢.

(٣١٩) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٢٠١، ج٣، ص٢٢١.

(٣٢٠) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٧٢.

(٣٢١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٠١.

(٣٢٢) الحميري: المصدر السابق، ص١٧٠.

(٣٢٣) أحمد فكري: قُرْطُبَة، ص٢٥٣.

(٣٢٤) ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص١٠٢.

(٣٢٥) ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ص٥٥ (رقم ١٩٨).

(٣٢٦) ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٥٨٨ (رقم ٨٧٤).

الفصل الخامس

أسواق النَّسيج ونظمه التجارية في الغرب الإسلامي منذ القرن ٥–٩هـ/١١–١٥م

اعْتُبرت تجارة النَّسيج ولفتراتٍ طويلة من الدعائم الأساسية القائم عليها النشاط التجاري في الغرب الإسلامي، نتيجة للتطور الصناعي والتجاري الذي شهده النَّسيج خلال تلك الفترة وما قبلها، وهو ما جعل البعض ينعت هذا التطور بـ «حضارة النَّسيج».[١]

والتجارة كما يعرفها ابن خلدون:[٢] «محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء ... وذلك القدر النامي يُسمى ربحًا، فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ... وإما أن ينقلها إلى بلدٍ آخر تَنفُق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه؛ فيعظم ربحه ... ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطلب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أُعلمها لك في كلمتين: اشتراء الرخيص وبيع الغالي، فقد حصلت التجارة إشارة منه بذلك إلى المعنى.» ويذكر الثعالبي[٣] في هذا الشأن أن: «التدبير نصف التجارة ... والأرباح توفيقات ... والتجارة أمارة ... واشترِ لنفسك وللسوق.»

(١) أسواق النَّسيج في الغرب الإسلامي

من المعروف أن الأسواق هي محور الحياة الاقتصادية وبخاصة التجارة لأي بلد، ومرآة حياة أي مدينة وعنوان نشاطها التجاري والصناعي، بل والاجتماعي أيضًا،[٤] وقد حفلت بلاد الغرب الإسلامي بالكثير من الأسواق التجارية التي بِيعت فيها المُنتجات الزراعية والصناعية المحلية أو ما يرد إليها — من المناطق الأخرى — من بضائع سلع، كما هو الحال في سوق مدينة تفزة الذي كان يَعرض مُنتجات مدينة فاس، خاصة من المَنْسوجات والأقمشة الكَتَّانية والإبر وغيرها من أدوات الخياطة.[٥]

وتشابهت أسواق الغرب الإسلامي في مظهرها العام — تقريبًا — مع أسواق العالم الإسلامي، فأغلبها مرتب، ومعظمها مسقوف كي لا تتعرض لعوامل الطبيعة من أمطار ورياح وأشعة الشمس، والبعض الآخر مكشوف،[٦] ومعظمها ذات شوارع ضيقة،[٧] كأسواق قابس التي بها جهاز من الصوف الكثير،[٨] وكذلك أسواق المهدية فرُتِّبت على حسب المهن والحرف والصناعات، فكل طائفة في سوق، وكذلك أسواق زويلة رُتبت بأسواقها دكاكين البزازين،[٩] كما وُصفت أسواق فاس بأنها مرتَّبة ومنسَّقة،[١٠] ومدينة شلب، فكان الترتيب ميزة أسواقها طبقًا لقول الحميري:[١١] «مرتبة الأسواق.» كما اشتهرت مدينة طلبيرة بأسواقها الجميلة الترتيب،[١٢] وقُرْطُبَة التي كانت لا يشبهها «في كثرة أهل، وسعة رقعة، وفسحة أسواق، ونظافة محال.»[١٣] وقد اشتهرت بعض الأسواق بمنسوجاتها كسوق نكور التي يُعمل بها برانس لا ينفذ منها الماء.[١٤]

وعَرَفت بلاد الغرب الإسلامي عددًا من الأسواق التجارية، منها الثابتة الدائمة التي تكاد تكون في كل مدينة، كما بسبتة فبها «مائة وأربعة وسبعون سوقًا.»[١٥] وأسواقٌ أخرى أسبوعية ونصف أسبوعية أو شهرية، كسوق الأحد ويعرض فيه المَنْسوجات الصوفية،[١٦] وسوق مدينة جربة الذي كان يُعقد بشكلٍ أسبوعي ويقصده الأعراب والتجار الوافدون «سائقين شياههم وحاملين معهم كميةً وافرة من الصوف».[١٧] وسوق مدينة آغلة الذي يُقام أسبوعيًّا ويقصده العرب وفلاحو المنطقة لشراء الجلود والصوف والشمع.[١٨]

ولما كان التخصص من سمات أسواق المدن العربية الإسلامية وأسواق الغرب الإسلامي بصفة خاصة، وهذه السمة ساعدت على تنظيم النشاط التجاري والاقتصادي بشكلٍ عام، تجمع أهل كل حرفة ومهنة في مكان يُساعدهم على ترابط أهل تلك الحرفة أو المهنة، ويُسهِّل على رواد الأسواق عملية شراء ما يحتاجون، ويساعدهم على انتقاء الأجود والأرخص من البضائع، فيذكر ابن عذاري[١٩] أن لأهل كل حرفة في الأندلس سوقًا خاصًّا بها، ومن بين الأسواق التخصصية؛ أسواق النَّسيج، فلم تكن ببعيدة عن مركز أي مدينة من مدن الغرب الإسلامي، فانتشر بها تجار وباعة النَّسيج كما حدث في عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م–٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) إذ استقر أصحاب المهن والتجار في الأسواق الجديدة المبنية بجوار المسجد الجامع بإشبيلية.[٢٠]

ومن بين الأسواق التخصصية أسواق الغَزْل؛ كسوق الغَزْل بالقيروان،[٢١] وأسواق الخياطين وأسواق البزازين،[٢٢] وسوق الثياب والقراقين،[٢٣] وسوق الأقمشة الصوفية.[٢٤] وأسواق الصباغين هي الأخرى من الأسواق التخصصية، فكان الصباغون يرتادونها، ومن يريد شراء الثياب المصبوغة، أو من يرغب في صبغ الثياب كسوق الصباغين بفاس.[٢٥]

وكثرت بتونس أسواق النَّسيج ومن بينها سوق الغَزْل الذي ترددت عليه النساء بصورةٍ كبيرة على عكس الرجال،[٢٦] ما جعل العامة يُطلِقون أمثالهم «يدم تتقنع الحول، يفترق سوق الغزل.» ما يدل على ارتباط النساء بسوق الغَزْل،[٢٧] ويعتبر سوق الغَزْل بسوسة من أشهر أسواق الغَزْل بالغرب الإسلامي، ويشتد التعامل التجاري به بين صلاتي الظهر والعصر حيث «عادة أهل سوسة في أن أكثرهم لا يغيب عن سوق الغَزْل حتى صلاتي الظهر والعصر.»[٢٨] وسوق الخياطين بها معروف وعامر ومزدحم،[٢٩] بالإضافة لسوق الوزر الذي يرجع للعهد الحفصي (٦٢٥–٩٨١هـ/١٢٢٨–١٥٧٤م)[٣٠] فضلًا عن سوق الحرارين أو سوق الخزازين كما عُرف،[٣١] وسوق الرهادنة أو الرهادنية؛ وهم باعة الأقمشة والثياب المتجوِّلون، فكان من الأسواق النشطة بتونس وقدرت مجابيه في عهد الخليفة أبي فارس عبد العزيز (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) «ثلاثة آلاف دينار ذهبًا»،[٣٢] وسوق القطانين بالقرب من جامع الزيتونة، وكان يشرف على ذلك السوق الأمين ومقره سوق الكتبيين.[٣٣]

بالإضافة لسوق الجبة بتونس الذي اشتهر ببيع الجبب الصوف،[٣٤] وسوق القشاشين الشهير ببيع الثياب،[٣٥] وسوق الأبارين والذي كان يقع شمال جامع الزيتونة بتونس «من الأسواق النادرة التي يُتعامل فيها بالفضة لا بالذهب.»[٣٦] لأن التعامل التجاري به يتم بالنقد على عكس الأسواق الأخرى؛ ما يعكس الأهمية التجارية لأسواق الغزل.[٣٧]

وسوق المغازل بمراكش عُدَّ من أنشط الأسواق مع سوق الدخان وسوق الصابون وسوق الصفر (النحاس)[٣٨] وسوق خيوط الكَتَّان بفاس، وهو بناءٌ كبيرٌ محاط بأربعة أروقة كبيرة، خُصص رواق منها لباعة الأقمشة الكَتَّانية ومن يُزيِّنون الخيوط، كما خُصص رواقان آخران للنساء اللائي يبعن الخيوط، وزُرعت بساحة السوق أشجار التوت لنشر الظل، هذا ويذهب الناس لهذا السوق من أجل التسلية؛ فتقع بعض المناوشات من جانب النساء داخل هذا السوق،[٣٩] وبفاس أيضًا سوق للحرارين،[٤٠] وسوق المركطين وخُصص في بيع الثياب المستعملة،[٤١] وسوق الهبط لبيع الثياب المستخدمة، كما تذكر المناقب عن أحد المتصوفة قوله: «وكانت عندي جبة ألبسها تحت الجلابية بعتها ببعض أسواق الهبط بثلاثة دراهم.»[٤٢] وبفاس أيضًا سوق الورقة الذي خُصص لتهيئة ورق التوت لصناعة الحرير،[٤٣] وسوق التيالين وهو السوق المخصص لصناعة الغرابيل،[٤٤] بالإضافة لسوق البز بتلمسان.[٤٥]

أما عن أسواق الأندلس فعديدة وكثيرة، وخاصة في المدن الكبيرة والشهيرة، فبقُرْطُبَة ربض الطرازين Tegedores،[٤٦] وسوق الكتانين، وسوق للبز؛ الذي تعرض لحريق

عام ٥٢٥هـ/١١٣٠م، وهو ما أكده ابن القطَّان[٤٧] بقوله: «وقعت النار بسوق الكتانين بقُرْطُبَة واتصلت بسوق البز، فاحترقت أموال الناس.» كما وُجد بقُرْطُبَة سوق الخيط Crodoneros وسوق الحصارين Eivnagerors، بالإضافة لشارع الخياطين Calle de Los Alfayates،[٤٨] أما إشبيلية فكثيرة الأسواق والبيع والشراء وأهلها مياسير،[٤٩] وبها سوق البزازين وسوق الخياطين،[٥٠] كما وجد بها سوقٌ صغير لبيع القرمز بالقرب من المسجد الجامع بإشبيلية،[٥١] بالإضافة لسوق باعة الحصر بطليطلة،[٥٢] وحي السقاطين وهم بائعو الثياب المستعملة، فأورد ابن قزمان[٥٣] في مجموع أزجاله لفظ آخر لسوق السقاطين أو السقطيين وهو سوق المرقطال، وقد ظل هذا الحي لفترة قريبة يحمل الاسم السقاطين Zacatin في الأندلس،[٥٤] في حين ذكر السبتي[٥٥] عن أسواق سبتة سوق السقاطين وخُصص لبيع الآنية الصفرية، وبغرناطة شارع يُعرف بشارع الصبغ،[٥٦] وسوق الصباغين في مدينة لبلة،[٥٧] ومالقة كان بها سوق مخصص للغزل اشتهرت به.[٥٨]

كما وُجد بصِقِلِّيَّة في مدينة بليرم بعض الأسواق المتخصصة في النَّسيج كسوق الطرازين وسوق القطانين وسوق الحلاجين، وقد تجاورت تلك الأسواق بعضها لبعض.[٥٩]

(١-١) الحوانيت

ارتبطت الحوانيت بالعملية التجارية داخل الأسواق والمدن لعرض السلع والبضائع، فنُظِّمت حوانيت الصُّناع والتجار على أساس التخصص الحرفي لكل منهم، فقد: «رُتِّبت كل صناعة منها على حسب ما يُشكَّل لها، وأمن فيها التجار بأموالهم وقصد إليها الناس من أقطارهم.»[٦٠] وحوانيت تجار النَّسيج بُنيت داخل الأسواق وحول المساجد، وتكوَّنت من طابقٍ أرضي، وتتم عملية البيع خارج الحوانيت ولا يدخلها المشتري إلا في أضيق الحدود،[٦١] والحانُوت من الداخل عبارة عن حجرة تُنظَّم وتُصَفُّ فيها السلع في صفوف داخل رفوفٍ متراصة بعضها فوق بعض، أو داخل تجويفات تحيطها العقود المتجاوزة، ويواجه الحانُوتَ حاجزٌ خشبي لبيع السلع عليه.[٦٢]

ويذهب المشترون لأصحاب الحوانيت لشراء ما يحتاجون من المَنْسوجات بعد أن يحددوا ويسمُّوا ما يحتاجون، في حين نهى الفقهاءُ التجارَ عن تسمية وتحديد نوعيةٍ معينة من الثياب للمشترين،[٦٣] وقد اعتاد بعض تجار النَّسيج الجلوس في حوانيتهم في جوٍّ مظلم أو ذي إنارةٍ ضعيفة لبيع سلعهم ليُواروا عيوبها، وبعضهم اعتاد فتح حانُوته

في آخر النهار لقلة ضوء الشمس، فتحسن الثياب والمَنْسوجات في أعين مشتريها،[٦٤] فحوانيت ودكاكين البزِّ غالبًا كان يسترها التاجر ويغطِّيها فلا تكاد السماء أن تُرى من كثرة الحجب، فتبقى مظلمة؛ فتحسن الخرقة بسبب الظلام، فإذا خرج بها إلى الضوء ظهرت عيوبها من الغلظ والخفة وغيرهما،[٦٥] ويذهب المشتري للحانُوت ويختار ثيابًا بعينها أو يعرض التاجر عليه بعض الثياب سواء بالقطعة أو بالجملة،[٦٦] ومن عوائد التجار عند البيع أن لهم غلمانًا وصبيانًا يعملون لديهم اعتادوا أخذ مبلغ من المال — هبة — من المشتري كنوع من العطف، وفي الغالب برضاء التاجر لأنه «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه.»[٦٧]

ولجأ بعض التجار أحيانًا للجلوس داخل الحوانيت أثناء البيع ليمعن النظر للنساء أثناء مرورهن في الأسواق أو عند شرائهن، أو أن بعض النسوة اعتدن الإتيان بأزواجهن ليشتروا ما تختاره، فإذا جلست على الدكان ذهب زوجها إلى مكانٍ آخر وتركها؛ فيستغللن تورع التجار فيتمايلن ويتكلمن برقة لتسهيل أمور البيع والشراء،[٦٨] فضلًا عن نشوب الخلافات والخصومات بين النسوة أنفسهن وقت ازدحام السوق، فوصل الأمر في بعض الأحيان لتبادل الشتائم والضرب بينهن.[٦٩]

ولموقع الحانُوت وقربه من مكان اكتظاظ الناس وتوافدهم عليه أثره في العملية التجارية وفي قيمة الحانوت وازدياد سعره خاصة القريب من المساجد ومداخل المدن، فسعر الحانُوت بقيسارية غرناطة عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م ٧٥٠ دينارًا من الذهب،[٧٠] وتتم عملية البيع بعقود يُذكر فيها مكان الحانُوت والسوق التابع له والمدة والمساحة والمؤجر.[٧١]

وكان بفاس في عصر المنصور الموحدي ٩٠٨٢ حانوت،[٧٢] بالإضافة لحوانيت ودكاكين الكمادين التي استقرَّت بتونس،[٧٣] وقُرْطُبَة التي بها كثير من الحوانيت قُدِّرت بـ ٨٠٤٥٢ حانوتًا،[٧٤] من حوانيت الشقاقين وحوانيت الصوَّافين بالإضافة إلى حوانيت الحرارين.[٧٥]

(١-٢) القيساريات

ومن الأسواق التي عُرف عنها التخصص في العالم الإسلامي «القيساريات»، وهي عبارة عن مؤسسةٍ تجاريةٍ عامةٍ متسعة الطرق، بها مجموعة من الحوانيت والدكاكين، ضمت مباني كالمخازن والحوانيت والمساكن لمبيت التجار،[٧٦] استقرَّت بموضع أو بحيٍّ منعزل يُغلق ليلًا؛ لأن العادة جرت أن يكون للقيسارية باب يُغلق ليلًا، وتلك الأبواب تُفتح

في ساعات الحركة التجارية وتُحرس عن طريق مراقبين مخصَّصين لهذا الأمر،[٧٧] وبها متاجر متنوِّعة يُباع فيها الحرير الخام والملفوف في رزم، ولا يُباع فيها أي نوعٍ آخر غير الحرير، على الرغم من أن الأقمشة المختلفة كانت تُغزل فيها وتُنسج في قديم الزمان.[٧٨]

ومن القيساريات التي اشتُهرت بها مدن الغرب الإسلامي وزخرت بتجارة النَّسيج، قيسارية القيروان التي كانت من الأماكن المشهورة، والتي تقع بالقرب من مسجد القيروان بسوق الضرب،[٧٩] بالإضافة لقيسارية سوسة، واشتهرت بإعداد الكَتَّان المنسوج وبيعه،[٨٠] وقيسارية بجاية الشهيرة، وقيسارية مراكش التي تقع في شرق المدينة بالقرب من باب الصالحة وباب الشريعة،[٨١] وأمر المنصور الموحدي بعمارة هذه القيسارية في ٥٨٥هـ/١١٨٩م، ولعل تاريخ إنشائها يرجع إلى ٥٨٠هـ/١١٨٤م،[٨٢] وقد تعرضت لحريق كبير عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م وأُحرقت حوانيت بيع النَّسيج، فقد ذكر ابن عذاري[٨٣] أن «الضرر الجاري بقيسارية مراكش ... فتمكنت النار بيابس العيدان وشفوف الثياب.» وأعاد الناصر الموحدي بناء القيسارية رغم ما أصابها من جراء هذا الحريق الذي قضى على معظمها وأغلب تجارتها.[٨٤]

وقيسارية تلمسان الواقعة بالقرب من الجامع الكبير بتلمسان، وهي عبارة عن سوق كبيرة وموضع مهم للتجار العرب والأوروبيين، تُعرض فيها الثياب والأقمشة القادمة من أوروبا وخاصة من أراجون، وهو ما عكسته العلاقات والاتفاقات التجارية بين الحكام، كالاتفاق الذي تم بين السلطان الزياني أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (٦٨١–٧٠٧هـ/٦٨٣–١٣٠٧م) وألفونس الرابع حاكم أراجون؛ حول تعيين قس في القيسارية.[٨٥]

ومن أشهر قيساريات الغرب الإسلامي التي هي خير مثال لقيساريات النَّسيج؛ قيسارية فاس،[٨٦] فيصفها ابن الصباح[٨٧] (فاس) قائلًا: «وهي مدينة فيها أسواق ومقاصير وعلالي وقيساريات وتجار من أقصى البلاد شرقًا وغربًا.» ومن خلال نص ابن الصباح يذكر أن بفاس قيسارياتٍ عدة، أو أنه بالغ في وصف قيسارية فاس الشهيرة لضخامتها وكثرة أسواقها، فبفاس قيساريتان إحداهما بعدوة القرويين والأخرى بعدوة الأندلس على وادي مصمودة،[٨٨] فهي من القيساريات المرتبة المنسقة، خُصص معظمها لأمور النَّسيج، وبها كل سوق على حدة، كسوق الملف وسوق خياطين الملف، وسوق الكَتَّان الخام، وسوق القُطْن المغزول، وسوق الحرير المنسوج وغير المنسوج، وسوق صناع الحرير، وسوق الحرير المطبوخ، وسوق المَنْسوجات البالية، وسوق المفصل الجديد،

وسوق الحاكة، وسوق الخياطين، وسوق الجلابية، وسوق البرنس، وسوق الكاغد، وسوق الإبر والمقص والمخيط والمساس.[٨٩]

وإبان القرن ١٠هـ/١٦م وصف الوزان[٩٠] القيسارية وصفًا دقيقًا، بأنها عبارة عن سوقٍ مُنظَّم حسب التخصص المهني والحرفي، احتوت على اثني عشر بابًا، أمام كل باب سلسلة تحجب دخول الحيوانات، وضمت القيسارية خمسة عشر حيًّا، منها اثنان اختصا بتجارة الأقمشة الحريرية من بيع الأشرطة والشراريب لكسوة الخيول، ومثلوا خمسين حانوتًا، بالإضافة لباعة الحرير الملوَّن لتطريز القمصان والوسائد، وكان لهم ما يعادل الخمسين حانوتًا أيضًا، فضلًا عن حيَّيْن لباعة الأقمشة الصوفية القادمة من أوروبا ومعظمها من غرناطة، وبائعي الأقمشة وقلانس الحرير، ووُجد بها مكانٌ مُخصَّص لصنع الفرش والوسائد والزرابي، وبها العديد من حوانيت الخياطين فكانوا يشغلون ثلاثة أحياء، بالإضافة لحي صناع عمائم الرأس، وبعض الأحياء الخاصة ببيع الأقمشة الكَتَّانية وباعة القمصان والثياب النسائية، وحي خاص بصناع البرانس وحواشيها، وحي مخصص لبيع الثياب الصوفية الأوروبية الصنع، وحي آخر لبيع الثياب المستعملة وبخاصة الكتانية.

ووُجد بها أيضًا بعض الحوانيت الصغيرة الخاصة ببيع الزرابي التي كانت تُباع بالمزايدة، وقيسارية سبتة التي كان موقعها خلف المسجد الجامع الأعظم،[٩١] هذا بالإضافة لقيسارية أسفي التي ذخرت بالعديد من التجارات.[٩٢]

ومن أهم قيساريات الأندلس؛ قيسارية أَلَمِريَّة الواقعة في الجانب الغربي من المدينة، ويصفها العذري[٩٣] بقوله: «فقد رُتِّب كل صناعة فيها حسب ما يشكل لها.» فقُسِّمت ونُظمت فيها الحوانيت بشكلٍ منتظم ومنسق، كلٌّ حسب حرفته وتجارته. وقيسارية إشبيلية التي ضمَّت سوق الثياب، وسوق الخياطين، وسوق الصباغين، وسوق السقاطين. وقد أمر الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي في٥٧٢هـ/١١٧٦م ببناء القيسارية حول المسجد الجامع، ونُقل إليها سوق الخياطين وسوق البزازين، فكان لها أربعة أبوابٍ ضخمة تحيطها، وسُقِّفت تلك القيسارية بألواح الخشب المزخرفة.[٩٤]

وقيسارية قُرْطُبَة واتخذها المستنصر بالله (٣٥٠–٣٦٦هـ/٩٦١–٩٧٦م) بعد حريق سوق قُرْطُبَة عام ٣٤٠هـ/٩٣٥م، فاكتظت بالأسواق؛ ما جعل المستنصر ينقل دار البرد منها.[٩٥]

وقيسارية غرناطة التي اشتهرت ببيع أنواع الحرير وصنوف السلع الفاخرة، وكثرت بها الحوانيت والأسواق، فوُصفت بأنها كقيسارية فاس من حوانيت للقراقين والصاغة

وغيرها، وتعرضت لسيل عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م نزل على معظم المدينة حتى وصل إلى رحبة الجامع الأعظم فأثَّر على المدينة والقيسارية.[٩٦]

وقيسارية بلنسية الواقعة قرب الباب المسمى بباب القيسارية في الجنوب الغربي من سور بلنسية،[٩٧] وقد ذكر ابن الأبار[٩٨] عن قيسارية بلنسية أن لابن منتيال الوراق (ت٦١١هـ/١٢٤١م) دكانًا بتلك القيسارية يقعد فيه للتجارة وبيع الكتب، وبطليطلة قيساريةٌ كبيرة تعرضت لحريق في عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م،[٩٩] كما وُجدت بعض القيساريات الأخرى كقيسارية بليش، بالإضافة لميورقة فكان بها قيساريتان إحداهما خاصة بالعطارين.[١٠٠]

(١-٣) الفنادق

أدى ازدياد النشاط التجاري في بلدان الغرب الإسلامي، وكثرة عدد التجار الأجانب الواردين إليها، إلى بناء عدد من الفنادق داخل الأسواق التجارية لمبيت التجار سواء للراحة أو لقضاء الليل.[١٠١]

وقد شغلت هذه الفنادق مكانةً مهمة في العمران الاقتصادي، وكثرت تلك الفنادق بصفةٍ خاصة في مراكز المدينة حول المسجد الجامع،[١٠٢] وبجوار حمامات المدن،[١٠٣] وتأثر المسلمون بنظام الفندق اليوناني المعرف باسم Agroa والروماني المعروف باسم Horrea، وقد ظل اسم الفندق الإسلامي في الأندلس معروفًا في إسبانيا المسيحية وعرف باسم Alhondiga أو Alfondiga واشتُقَّت منه كلمة Fonda الإسبانية.[١٠٤]

وسُميت الفنادق بأسماء البضائع والسلع التي تُباع فيها من الحبوب والكَتَّان والخضراوات والتين والخمر وغيرها، كفندق الخمر،[١٠٥] وفندق الرماد الذي خُصص لتبييض الغَزْل، واشتُري الرماد من السلطة، المخزن،[١٠٦] وفنادق صباغي الحرير بغرناطة،[١٠٧] وبعضها نُعتت بأسماء أصحابها كفندق زائدة بغرناطة،[١٠٨] وفندق السلطان،[١٠٩] أو ببلد من نزل بها من التجار مثل فندق الجنوية والشامية.[١١٠]

وتحولت الفنادق بمرور الوقت من مجرد نُزل يقطُن به التجار أثناء عمليات البيع والشراء، إلى سوقٍ صاخب يختلط فيه التجار المقيمون بالقادمين مع سلعهم وبضائعهم، كما كانت تتم داخل الفندق الصفقات التجارية فضلًا عن أمور البيع بالمزاد.[١١١]

وخُصص الفندق في المغرب لتخزين الثياب والأقمشة القادمة من أوروبا خاصة؛ فكانت تطل على الأسواق لتوفير الوقت والجهد، وحَوَت العديد من المخازن الكبيرة التي تتسع لسلع التجار المقيمين بها،[١١٢] فكان بسبتة ٣٦٠ فندقًا،[١١٣] وبفاس ٤٦٧ فندقًا،[١١٤] وعن فنادق طليطلة فكان بها ما يقارب ٦٠٠ فندق خُصصت لخزن الأقمشة والحرير والبضائع،[١١٥] وقُرْطُبَة بها أكثر من ١٦٠٠ فندق.[١١٦]

بالإضافة للفنادق وُجدت بعض الخانات، التي يأوي إليها الناس، وأشار ابن دحية[١١٧] لبعض الخانات بضواحي فاس، كما وُجد بغرناطة الخانات الخاصة بصابغي الحرير وتقع بالقرب من حمام البيازين.[١١٨]

كما وُجدت التربيعات وهي عبارة عن سوقٍ مربع الشكل به حوانيت ودكاكين خُصصت لبيع بعض السلع وبخاصة المنسوجات،[١١٩] تختلف في مساحتها حسب موقعها؛ فمنها ما وُجد بها مسجد؛ نظرًا لكبر مساحتها، وكان بفاس — أيام المرابطين والموحدين — أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثة وستين تربيعةً معدةً لأمور النَّسيج،[١٢٠] ووُجد بسبتة تربيعات للقزازين والحرارين «إحدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والأسواق خلال الأطرزة، من أول المدينة إلى آخرها، أعظمها التربيعة التي بأسفل زقاق خطاب سامية في الهواء كأنها معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفي صحنها مسجد.»[١٢١] كما وُجد بتلمسان العديد من تربيعات الصوف بدرب شاكر في تلمسان خُصص أغلب هذا الدرب للعاملين بالصوف وحياكته،[١٢٢] ووُجد بمراكش العديد من التربيعات.[١٢٣]

(٢) نظم النَّسيج التجارية في الغرب الإسلامي

قبل الحديث عن النظم التجارية التي اتبعت في الغرب الإسلامي والخاصة بتجارة النَّسيج والتي خضعت لمتطلَّبات العرض والطلب ورغبة المشترين والبائعين في ممارستها، لا بد من إيضاح أصناف تجار النَّسيج في الغرب الإسلامي:

(٢-١) فئات تجار النَّسيج في الغرب الإسلامي

اختلفت فئات تجار النَّسيج من ريف أو حضر أو بادية، أو من علماء أو ذميين أو تجار قوافل أو تجار جملة، مارست تلك الأعمال واعتمدت على النشاط الحرفي والصناعي،

واختلف دور كل منهم لاختلاف تلك الفئات، وشكَّل هؤلاء التجار الفئة الأكثر تمركزًا في المدن والحواضر وعواصم الغرب الإسلامية.

(أ) التجار العلماء

حثَّ الإسلام على طلب الرزق وخاصة في ميدان التجارة، فقال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾،[١٢٤] وجاء في الأثر أن تسعة أعشار البركة في التجارة، وفي رواية تسعة أعشار الرزق في التجارة: «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق.»[١٢٥] كما قال ﷺ: «التَّاجر الأَمِين الصَّدُوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة.» وقال ﷺ: «ثلاثة يُظلِّهم الله يوم لا ظل إلا ظله التاجر الأمين والإمام المقتصد وراعي الشمس بالنهار.»[١٢٦] فكان لذلك أثره في الْتحاق الكثير من علماء الغرب الإسلامي في ممارسة الأعمال التجارية، على الرغم من اختلاط أمور الغشِّ والتدليس والخديعة بها، التي قام بها بعض التجار، إلا أن هؤلاء تميَّزوا بالأخلاق العالية التي تبوَّءوا بها عند الناس والتي جلبت لهم الاحترام والتوقير، قال رسول الله ﷺ: «أطيب الكسب كسب التجار: الذين إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يُخلِفوا، وإذا ائتُمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذمُّوا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا.»

ومن أشهر العلماء الذين زاولوا الأعمال التجارية الخاصة بالنَّسيج العالم أبو محمد عبد الله الشريف، عمل بالخياطة والتجارة بأسواق بجاية،[١٢٧] والعالم والفقيه عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهمذاني الوهراني أبو القاسم (ت٤١١هـ/١٠٢٠م) ابن الخراز من أهل بجانة، كان يتَّجر بثياب يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قُرْطُبَة ويبتاع في ثمنها ما يصلح لبجانة،[١٢٨] وخليل القرطبي كان شيخًا صالحًا، محترفًا بالتجارة وكان حيًّا سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م،[١٢٩] وكذلك أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بابن الخلاف من أهل الورع والفضل والزهد له حانوت يبيع فيه القُطْن بالقيروان،[١٣٠] وأبو جعفر حمديس القطان تاجَر في القُطْن مع عبد الجبار بن خالد بسوق الأحد بالقيروان، وكذلك الشيخ الفقيه أبو بكر بن هذين بالقيروان كان يشتري الكَتَّان لزوجته لتَصنع منه أبدانًا يقوم هو ببيعها في الأسواق حتى يتعايشا، ويذهب لبيع تلك الأبدان،[١٣١] بالإضافة إلى الشيخ القشتالي التلمساني فكان لديه حانوت بقيسارية أسفي يعمل به بعد الانتهاء من دروسه.[١٣٢]

(ب) التجار الذمِّيون

وفَّرت الشريعة الإسلامية لأهل الذِّمة قدرًا كبيرًا من الحقوق والواجبات،[١٣٣] كحرية البيع والشراء والتنقل فحَمَت أموالهم ودماءهم؛ ما كان له الأثر الأكبر في ازدياد تجارة اليهود وحياتهم بصفةٍ خاصة.[١٣٤]

وكان للتجار اليهود — وبخاصة الأندلسيون — دورٌ مهم في استمرار الحركة التجارية في البحر المتوسط بين الغرب المسيحي والغرب والمشرق الإسلاميين؛ فأخذ هؤلاء التجار السلع التي تصل إلى الأندلس من بلاد المشرق، وتُصَرَّف في بلدان الغرب المسيحي، فباعوها في بلاد الغال (فرنسا) التي كانت المركز الرئيس الذي تنتقل منه هذه السلع إلى دول أوروبا، وهو ما ذكره الحميري[١٣٥] في معرض وصفه لمدينة مغانجة الواقعة في بلاد الفرنجة: «ويختلف إلى مدينة مغانجة أهل بردون واليهود بجهاز الأندلس، وذلك غزل الحرير والخز والبياض والشقيق والزئبق الأحمر واللاذن والزعفران، وغير ذلك من السلع والبضائع.»

وعلى أثر ذلك تمتع يهود الغرب الإسلامي بالمكانة والنفوذ التجاريين في كافة أرجاء البحر المتوسط، فكوَّنوا ثرواتٍ طائلةً من جراء ممارستهم لمعظم الأنشطة التجارية داخل مدن الغرب الإسلامي؛ فعملوا وسطاء بين التجار،[١٣٦] ومارسوا أعمال السمسرة وانتشروا في الأسواق،[١٣٧] وهذه الثروات استطاع يوسف بن تاشفين أن يحصل على معظمها بفرضه ضريبةً ثقيلة عليهم «افترض على اليهود في تلك السنة [٤٦٤هـ/١٢٦٥م] فريضةً ثقيلة اجتمع له منها جملة مال استعان به على ما كان بسيلية.»[١٣٨]

وخُصص لصانعيهم وتجَّارهم أحياءٌ خاصة بهم، فخَصص لهم أبو يوسف يعقوب المريني حي الملاح بالقرب من القصبة بمدينة فاس، ومنطقة الجمعة الجديدة التي كانت أحياؤها ودكاكينها منظمة بدرجةٍ كبيرة،[١٣٩] كما تدلُّ أسماء الشوارع والحارات في الأحياء اليهودية في عددٍ من المدن الأندلسية على أن يهود الأندلس عملوا بكلِّ أصنافِ التجارة، لكنَّهم تخصَّصوا في تجارة الأنسجة والملابس الحريرية، ففي عام ٧٣٦هـ/١٣٣٧م وفي قيسارية قلعة أيوب صدر حكم بعقاب وحجز ممتلكات أربعة من تجار الثياب والقماش اليهود؛ نظرًا لقيامهم بالبيع خارج القيسارية، وبلغت قيمة العقوبة خمسمائة دينار من الذهب،[١٤٠] ومنهم من عمل بالدَّلالة بحمل الأمتعة لبيعها في البيوت للنساء،[١٤١] كما تضيف وثائق الجنيزة عن عددٍ كبير من التجار اليهود الذين مارسوا تجارة النَّسيج في

مصر والحجاز والمدن الإيطالية وغيرها،[١٤٢] وليهود مدينة تفزة بالمغرب الأقصى أكثر من مائتي بيت ومعظمهم باعة وصناع قصدهم التجار الغرباء يشترون منهم البرانس،[١٤٣] ومن أسلم من اليهود أُتيح له ممارسة بعض الحرف التي قُصِرت على المسلمين كما بفاس «وأما من أسلم من اليهود فاحترف بخياطة الملف والثياب وضفر القيطان الذي يُخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيفها.» وهذا يعكس أن اليهود زاولوا معظم أنشطة النَّسيج الصناعية والتجارية وبخاصة في فاس.[١٤٤]

(ج) تجار القوافل

وبجانب تجار الذمة كان تجار القوافل، وهؤلاء هم التجار الذين قصدوا بلدان الغرب الإسلامي برحلاتهم بغرض الاتِّجار بسلعهم وبضائعهم، ومن بينها النَّسيج، كتجار مدينة أغمات، فكانوا «أملياء مياسير، يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من أنواع النحاس الأحمر والأكسية والثياب والعمائم والمآزر.»[١٤٥]

تجار الجملة سيطروا على معظم التجارة، يجمعون المَنْسوجات المحلية لعدم قدرة أصحابها على بيعها، خاصة من الحاكة وصغار النساجين بعد عرضها داخل الأسواق، أو عن طريق المزايدات التي تُعقَد ثم بيعها إلى تجار المفرَّق،[١٤٦] فمنهم من يتجمع عند مداخل الأسواق لاستقبال التجار الوافدين فيشترون منتجاتهم قبل دخولها للأسواق،[١٤٧] وهؤلاء بالنسبة لتجارة النَّسيج من أنشط التجار، فلديهم مجموعة من الوسطاء والتجار الذين لهم الخبرة الكافية، فعادة ما يبدءون عملهم من الحقول للحصول على النَّسيج الخام الجيد والموثوق؛ لأنهم أجادوا التعامل مع المزارعين ماليًّا.[١٤٨]

(٢-٢) أصناف تجار النَّسيج في أسواق الغرب الإسلامي

(أ) الدَّلَّال

هو الشخص الذي يُخبِر ويُعلِم القادمين من التجار بموضع السلع في البلد، وهو من يُعَرِّف أصحاب السلع بالتجار، ويُرشد البائع على المشتري والمشتري على البائع،[١٤٩] فمن مَهامِّه إرشاد المشترين على التجار المعروفين بعدم وفائهم بالعطاء الذي يرسو في المزاد؛ لأن في ذلك ثقة ومكانة له داخل السوق،[١٥٠] هو من يفتح البيع بالمزايدة، وينادي السِّمْسار الذي يصيح ببداية الشراء والبيع «والدَّلَّال يقول هذا مفتاح الباب، والسمسار

يصيح قام النِّدا فما تنتظرون بالثبات.»[١٥١] وينادي ويصيح على الثوب المراد بيعه حتى يصل إلى المبلغ المناسب فيبيعه باتفاق مع صاحب الثوب،[١٥٢] لذلك فهو كثير الكذب بإيهام التجار والمشترين أنه مُشترٍ مثلهم، ويعتبر ذلك بابًا من أبواب المعيشة له كما ذكر الدمشقي،[١٥٣] فيوهم المشترين عن سلعةٍ ما راكدة بأنها مطلوبة في السوق وأن غيرهم من التجار أقبلوا عليها وهي ليست كذلك،[١٥٤] فجاء العامة بأمثالهم ليعبروا عن صفات الدَّلَّال بقولهم «من استمع من دَلَّال، بقا بلا فضل، بلا رأس مال.» ما يدل على كثرة نفاقه وكذبه،[١٥٥] وكثيرًا ما تَشارك الدَّلَّال مع أصحاب الحوانيت لجذب التجار الغرباء والمشترين، بأن لجأ بعض تجار البز إلى شراكة الدَّلَّال أو المنادي، بأن يكون البيع معهم؛ ما اعْتُبِرَ من أبواب الغش والتضليل،[١٥٦] كما استُؤجر لينادي على بيع السلع مقابل أجرٍ معلوم،[١٥٧] فيبذل مجهودًا لبيع الثياب بالاستقصاء والبحث عن أفضل سعر سواء بعد مشورة صاحب الثوب أو من دون مشاورته.[١٥٨]

وفَضَّل بعض التجار والمشترين الدَّلَّال عند الشراء عن الجلَّاس لما عُرف بالغش والتدليس في البيع كجلاسين الحرير؛ فكانوا يأخذون أجرة البيع مرَّتَين، واحدة من المشتري وأخرى من البائع؛ مما دفعهم لرفع ثمن السلعة كي تزيد أجرتهم،[١٥٩] والجلاسون هم أصحاب حوانيت داخل السوق يتم فيها البيع بالمزاد لحساب التجار وخاصة النصارى، وأسوأ الجلاسين سلوكًا باعة القرق.[١٦٠]

ويبدأ الدَّلَّال عمله بأن ينادي على سلعة بسعرٍ معين، ويزيد عليها في الثمن لصالحه دون علم صاحبها،[١٦١] أو يتخذ الثياب الجيدة لنفسه كي يتَّجر بها لصالحه، خاصة أنهم عرفوا بأمور الربا والبيع الفاسد في كثير من الأحيان،[١٦٢] فمنهم من تواطأ مع بزاز بتبادل الإشارات «الغمز» مع التجار لشراء سلعة بعينها بسعرٍ بخس، فعند قدوم أحد التجار لبيع بعض المتاع ينادي عليه بسعر غير المتفق عليه، وعمد بعض الدَّلَّالين إلى إعطاء التجار المعروفين أموالًا ليحتكروا بيع مصنوعاتهم في السوق.[١٦٣]

ومن طرق البيع التي اتُّبعت عند الدَّلَّالين، ما عُرف بـ «إعكام البز» بأن يستأجر دلال على بيع البز، ويتفق معه على أجرةٍ معلومة مقابل بيعها بأن «يُقال صِحْ على هذه السلعة، فإن بعتَها بعشرة دنانير فلَكَ من كل دينار سدسه.»[١٦٤] كما مارس الدَّلالة كل من تعرَّض للخسائر أو الإفلاس من التجار أصحاب الحوانيت؛ فاضطروا للعمل بها لخبراتهم في البيع والشراء وإقناع المشترين.[١٦٥]

(ب) السمسار

السماسرة أو الدَّلَّالون أو الطوَّافون،[١٦٦] وهو الوسيط بين التاجر والمشتري،[١٦٧] والسمسار كما عرَّفه ابن رحال[١٦٨] بأنه «الذي يطوف بالسلعة ويدور بها على التجار ويقول من يزيد عليها.» وسماسرة النَّسيج نوعان؛ الأول: من يقوم بأمور السمسرة في الحقول مع المزارعين البسطاء ومع التجار الراغبين في شراء المحصول مقابل عمولاتٍ نقدية يحصل عليها، ولهم مطلق الحرية في إبداء رغباتهم في نوعية النَّسيج وجودته؛ لأنهم مفوَّضون من قِبل التجار، وتذكر خطابات الجنيزة أن هؤلاء التجار كانوا على علم بمواعيد الحصاد وبمواعيد الحلج والتصنيع؛ فأرسل تجار النَّسيج اليهود أقاربهم إلى مصر لشراء الكَتَّان من الحقول لإرساله إلى بلدان الغرب الإسلامي، فحرص التجار على إرضاء السماسرة كي لا يقعوا في خلافات معهم.[١٦٩] والثاني: من يحمل الثياب ويهتف وينادي عليها لجذب المشترين.[١٧٠]

ومن عادات السمسار التكلُّم بالكذب، فتارة يشيع أن السلعة نادرة بالأسواق ولم يبقَ في السوق غيرها، وتارةً أخرى يشيع أن سعرها سيزيد، أو الراغبين فيها كُثر ليتهافت الناس على شرائها دون تردُّد ومفاصلة،[١٧١] وكثيرا ما ترك أصحاب الثياب الأمر في تحديد السعر للسمسار بأن يقولوا له «اعمل فيه برأيك.»[١٧٢] لهذا يلخص ابن رحال[١٧٣] السمسار في أنه هو «الحاذق العالم بالبيع والشراء يجلس في الحانوت يبيع لمن أراد البيع ويشتري لمن أراد الشراء.»

وعن ضمان السمسار اختلف الفقهاء؛ فذكر القاضي عياض[١٧٤] بوجوب تضمينه «إذا ادعوا الضياع ... وقل المؤتمن.» أو كما ذكر ابن رحال[١٧٥] بقوله عن خلاف ضمان السمسار: «وأما مسمى السمسار ففي ضمانه ما دفع له يبيعه وما لبه من ربه لمُتشرٍ أمره بشرائه، ثالثها: ما لم يكن مأمونا، ورابعها: فيما دُفع لهم، لا فيما طلبوه.» لهذا فكثيرًا ما سُئل الفقهاء عن مدى تضمين السمسار عند تضييعه للثياب التي يأخذها ليبيعها ثم يدعي تلفها.[١٧٦]

وأدَّى السمسار دورًا فاعلًا في أمور السوق وفق تقاليدَ وطرقٍ معهودة،[١٧٧] فمن عادته عند البيع أن يزين السلعة في عين المشتري «ولا يبينون له ما فيها من الغش ثم يضيفون إلى ذلك الحلف بالأيمان الكثيرة ليؤكدوا له صدق كلامهم، أو يقوموا بإغراء صاحب السلعة بخلط جيدها برديئها حتى تكثر ويجني أرباحًا كثيرة.»[١٧٨] لأنه يعلم عيوبها؛ ما اعْتُبر نوعًا من الغش من السمسار[١٧٩] وكثيرًا ما يحدث الخلاف بين السمسار

وصاحب الثوب على الثمن، خاصة بعد قيام السمسار بعرضه للبيع، فيعطي صاحب الثوب التاجر ولا يعطي السمسار أجرته، أو يفقد الثياب بتركها عند أحد التجار فيضيع بعلم صاحب الثوب[١٨٠] أو أن يتركه في أحد حوانيت التجار فيضيع، أو عند من استقر عليه البيع، أو يُعطيه أحدهم ثَوْبًا مسروقًا لكي يبيعه،[١٨١] أو يفقد قيمة الثوب نتيجة تمزيقه عند طيه أو نشره لعرضه على التجار والزبائن.[١٨٢]

لكل هذا سعى السماسرة على البيع وجلب أفضل الأسعار ليأخذوا أفضل العمولات، وفي بعض الأوقات يأخذ بعض السماسرة أجرة سواء باع أو لم يبع،[١٨٣] أو يُخلف أحد التجار وعده بأن يأمره لكي يأتيه بثوب ليشتريه، فيخرج صاحب الحانوت ثَوْبًا من عنده فيشتريه التاجر، ولا يشتري من السمسار[١٨٤] وفي هذا دليل على أن السمسار بالإضافة لجلوسه في الأسواق وفي الطرقات جلس في حوانيت التجار والصناع.

وحرصًا من السمسار على إرضاء المشترين يعرض عليهم أكثر من صنف للاختيار، عن طريق أخذ عدة أثواب من عدة تجار وحوانيت، وفي هذه الحالة عليه أن يُميِّز كل ثَوْب أخذه حتى لا تضيع الثياب وتتبدَّل، واتفق السماسرة، فيما بينهم، على البيع منفردًا ليجنوا أرباحًا أكثر ثم يقتسموا الربح فيما بينهم،[١٨٥] وفي بعض الأحيان يشتري السمسار الثوب لنفسه أملًا في بيعه في وقتٍ آخر، ويأخذ أجرة السمسرة فيه.[١٨٦]

(ج) الباعة الجائلون

هم التجار الصغار الذين يُنادُون على بضائعهم في الشوارع، وأسعارهم أقل مما يُباع في الحوانيت والدكاكين، وكثيرًا ما يُسبِّبون الإزعاج لأصحاب الحوانيت التي يقفون أمامها أو بالقرب منها، وانقسم الباعة الجائلون إلى صنفَين: مَن يفترش الأرض وعُرفوا بأرباب المقاعد خاصة بائعي الأطعمة، والصنف الآخر منهم من ينادون ويدورن على بضائعهم،[١٨٧] فكانوا يمرون على البيوت لعرض سلعهم، كما تشاركوا فيما بينهم من أجل الدَّور على المنازل والقرى والأماكن البعيدة عن الأسواق «اشترك فلان وفلان الدَّلَّالان للدُّور أو للرقيق أو للبز على الدَّلالة على الدُّور أو الضياع والسعاية في ذلك مجتمعَين لا يفترقان، وعليهما في ذلك تقوى الله تعالى وأداء الأمانة.»[١٨٨] فألزم ابن عبدون[١٨٩] بأن «لا يكون دلال الدُّور شابًّا، إلا شيخًا عفيفًا قد شُهِر خيره.»

كما مارس بعض النسوة الدَّور على المنازل وعُرفن بالدلالات أو السواقات «السوَّاقة» فكن يعرضن ما يمتلكن من أمتعة لبيعها للنساء،[190] كما ذكر ابن فرحون[191] بقوله: «وهؤلاء النساء اللائي يبعن على الدور ما دُفع إليهن من الثياب والحلي والجوهر.» وفي وقت الحر كانت تخرج عليهم النساء سافرات الوجه لشراء الأمتعة والسلع منهم.[192]

(٢-٣) مقاييس النَّسيج في الغرب الإسلامي

حرص صناع وتجار الغرب الإسلامي عند الشروع في أمور الصناعة أو عند البيع بذكر القياس والإعلام به؛ لأن التاجر قد يتعرض للخسائر نتيجة لعدم الدقة «وهو أن يشتري المقطع على أنه ثلاثون ذراعًا، فيجده إحدى وثلاثين؛ فيأخذ الزائد لنفسه ثم يخبر المشتري بالثمن الذي اشتراه به ولا يذكر له الزيادة.»[193] أو تنشب الخلافات بين الحائك وصاحب الثوب حول مقدار القياس فيقول: «أمرتني بأن أنسج ثَوْبك ثلاثًا في ست، وقال ربه: بل تسعًا في أربع.»[194] أو يأمره بأن ينسج غزلًا «سبعًا في ثمانٍ» فنسجه «ستًّا في سبع»[195] فمن بين تلك المقاييس:

الأصبع: وتساوي الأصبع «ست شعيرات معترضات ظهرًا لبطن»؛ أيْ ما يوازي ١ / ٤٢ من الذراع عند الحنفية، وعند المالكية يساوي ١ / ٣٦ من الذراع؛[196] أيْ «٢سم».[197]

القبضة: تساوي أربع أصابع «بالخنصر والبنصر والوسطى والسبابة» وتساوي عند المالكية ٥,٨٨٨سم،[198] أي تساوي ما بين ٩سم و٨سم.[199]

الشِّبْر: اختلف طول الشِّبْر من مكان لآخر كغيره من المقاييس المعتمدة على أعضاء الجسم؛ فلم تكن مستقرة لاختلاف البشر في طول وقصر القامة، ويعادل الشبر ست أصابع،[200] أي يساوي ثلاث قبضات أي نصف ذراع وهو ما يعادل ٠,٢٤سم[201] فيذكر ابن حوقل[202] عند ذكره للبود الأندلسية «قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار.»

الذراع: بسط اليد ومدها، وأصله من الذراع وهو الساعد، وهو ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى، ما يعادل ثلاثة أشبار أي ٦٧سم[203] والذراع عند المالكية يساوي ٤٦,٣٧سم[204] والذراع في المغرب يقارب ٦٨,٣٥سم وهي ذِراع البز، واختلف قياسه وقدره من موضع لآخر وحسب المادة المراد قياسها،[205] والذراع اليد

المصرية وهي عين الذراع الشرعية تراوحت ما بين ٥٠,٣سم و٤٨,٥٤سم حسب طول الأصبع.[٢٠٦] ومن الأذرع الأخرى ببلدان الغرب الإسلامي:

(أ) الذراع الملكية:

ارتبط استخدام هذه الذراع في مدينة تلمسان بتجارة النَّسيج بالدرجة الأولى، التي مُورِست في قيساريتها، وعُرفت تلك الذراع بـ «الذراع الملكية»، نسبة إلى السلطان أبو تاشفين الأول عبد الرحمن (٧١٨هـ/١٣١٥م–٧٤٩هـ/١٣٤٨م) الذي وضعها لتكون الذراع المرجعية على باب القيسارية التي أُنشئت في عهده، وهي عبارة عن قطعةٍ صفراءَ شفافةٍ مثبتة بجدار في حانوت أمين التجار، كُتب عليها عبارة «الحمد لله والشكر لله هذا قياس آلة الذراع بالقيسارية عَمَّرها الله في شهر ربيع الثاني عام ثمانية وعشرين وسبعمائة»[٢٠٧] ويُرجع إليها عند الاختلاف بين تجار النَّسيج والزبائن، وقُدِّر طول هذا الذراع بـ ٤٧سم، وكان معهودًا نصب لوحة من مقياس «ذراع» في واجهات أسواق الثياب؛ لتكون مرجعًا لمن يرغب في شراء أو بيع نَسِيج أو قماش، أو من يتخلله الشك في القياس ومدى دقته، فيحتكم إلى ذلك القياس،[٢٠٨] كما حدث في ١٢ من ذي القعدة ٩٨٤هـ/١٥٧٧م، أن رجلًا اشترى من تاجر قطعتين من الثياب الصفاقسية على أن كل واحدة منهما قياسها ثلاثون ذِراعًا، ثم باعها المشتري لرجلٍ آخر فوجد بها نقص ثلاث أذرع. مثل هذه الواقعة توضح أنه في بعض الأوقات لجأ التجار للغش في أداة القياس نفسها،[٢٠٩] أو يخطئ التاجر في القياس لمصلحة المشتري، بأن يشتري أحدهم ثَوْبًا مقاسه «سبعة في ثمانٍ» فيجده المشتري أكبر من ذلك.[٢١٠]

لهذا حرص التجار عند بيع النَّسيج — قُطْنًا أو كتانًا أو صوفًا — أو شَق الثياب على ذكر نوع وبلد الذراع المنسوب إليه النَّسيج، «قلت: في شقة كتان أو قُطْن بيضاء صافية البياض جيدة الكمد صفيقة رقيقة طولها كذا وعرضها كذا بذراع كذا.»[٢١١]

(ب) الذراع الرشاشية:

حدد ابن غالب[٢١٢] عند حديثه عن جامع قُرْطُبَة ومدينة الزهراء قياس الذراع الرشاشي: «وهو ذِراع واحد وثلث ذِراع.» كمقياس، ويعادل ١/٣ من الذراع العادي (اليدوي)؛ لأن الذراع العادي يقابل ثلاثة أرباع الذراع الرسمي (الرشاشي) الذي كان من ٣٢ أصبعًا، واستمر استخدام ذلك الذراع بصفةٍ عامة في الأندلس بعد سقوط الحكم الإسلامي بها، فظل تجار قيسارية طليطلة يستعينون بهذا الذراع في قياس أقمشتهم.[٢١٣]

القالة: مقياسٌ قريب من الذراع، ولعله اسْتُخدم لتعويض الذراع في بعض الأوقات ولقياس المنسوجات،[٢١٤] واختلف طول القالة حسب طبيعة المَنْسوجات نفسها، فمنها:

- القالة الإدريسية: ضبط السلطان أبو عنان المريني المقاييس وأعلنها للناس، فوضع على جدران مدينة فاس القديمة مقياسًا للذراع خُصص لقياس الثياب، وأُلْصِقت تلك الذراع «القالة» داخل مقر المحتسب، الذي كان موجودًا في الساحة الصغيرة لباعة الحناء الواقعة بسوق العطارين بفاس، كانت على حائط في ارتفاع ٥٠سم عن الأرض، وهي عبارة عن قطعة من الرخام الأبيض كُتب عليها العبارة التالية: «الحمد لله، أَمر بعمل هذه القالة: مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله ونصره، وذلك عام خمسة وخمسين وسبعمائة.» فكان طول هذه القالة ٤٦سم، وخُصت لقياس الثياب الصوفية، لهذا أُطلق عليها «القالة الدرازية» أي مقياس المَنْسوجات المطرَّزة، كما سُميت بـ «القالة الإدريسية» نسبة لمدينة فاس.[٢١٥]
- القالة السوسية: وُجدت تلك القالة بشارع سوق العطارين بالقرب من موضع القالة الإدريسية، أُلصقت على أحد الحوائط بين دكانين طولها ٥٥سم، خُصصت لتجار الجوخ والحرير والكتان؛ لهذا سُميت بـ «القالة الكتانية» و«مقياس القُطْنيات» و«القالة السوسية»، وهي عبارة عن رخامةٍ بيضاء كُتب عليها: «الحمد لله، هذا مقياس ذراع قالة القيسارية [...] وذلك عن أمر مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو عنان، أيده الله ونصره، وذلك عام خمسة وخمسين وسبعمائة.»[٢١٦]

وأشار برنشفيك[٢١٧] بظهور مقياسٍ إيطالي آخر لقياس الثياب وهو «الكانة» Canna واسْتُعملت في بلاد المغرب في القرن ٨هـ/١٥م لقياس الأقمشة المستوردة، واختلفت الكانة من موضع لآخر، فكانة تونس أطول من كانة مدينة أنكونة، وكانة مدينة طرابلس أطول من كانة مدينة البندقية؛ إذ بلغ طولها ٢,٢٠ متر.[٢١٨]

ومن اللافت للنظر أن القالة التي خُصصت في العصر المريني لقياس الثياب والقماش هي نفسها الكانة التي خُصصت لقياس الأقمشة المستوردة؛ ما دعا الوزان[٢١٩] لأن يذكرها بـ «الكنا»، ولعل ابن الوزان وبرنشفيك قصدا بها القالة السوسية أو الإدريسية.

ومن الممكن أن لفظ القالة لفظ ليس بالعربي، وفي هذا دليل على اختلاف المقاييس حسب نوع الثياب، أي أن القماش الخام — صوف أو قُطْن أو حَرِير — كانت له مقاييس خاصة به، والثياب المقصورة لها مقاييس اختلفت في طولها عن سابقتها، وهو يوضِّح ما وصل إليه تجار ومحتسبو أسواق الغرب الإسلامي في تنظيم أمور البيع والشراء.

البيت: نوعٌ آخر من المقاييس اسْتُخْدم في قياس النَّسيج، وشدَّد المحتسِبون على ضرورة تحديد نوع البيت ووصفه عند الاتفاق مع الصناع والتجار، خاصة مع الحرير؛ لأن جودة ثِياب الحرير تُحدَّد بعدد بيوتها: «فإذا قلَّ عن اثنين وأربعين بيتًا في المنسج.»[٢٢٠] وكذلك عند البيع والشراء يُحدَّد عدد البيوت، وهو ما ذكر «عن رجل اشترى من رجل زمائل زرقًا، والتزم له البائع المذكور بثمانية بيوت من الشعر.»[٢٢١] أو ما ذُكر في أحد العقود «عقد تاريخه شعبان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، فيه أنه دفع إلى مفرج بن مبارك النساج، عشرة مثاقيلَ قديمةٍ طيبة على نسج أربعين شقة خز، كل شقة من ستين بيتًا، سعة كل شقة أربعة أشبار وطولها ستة عشر ذراعًا.»[٢٢٢]

وعدد البيوت من علامات ضبط صناعة الحصر الجيدة فذكر ابن بسام:[٢٢٣] «وهي أبيات أعلاها مائة، وما دونه تسعون، وما دونه ثمانون، وما دونه سبعون، وما دونه ستون.»

الشُّقَق أو القطع: اسْتُعملت هذه الوحدات لقياس المَنْسوجات واخْتُلف في أطوالها، وتُقاس الشُّقق أو القطع بالجريدة، ويصل طول القطعة أو الشقة ثمانية جرائد.[٢٢٤] ولعل الشُّقة كانت تعادل ٢٤ ذراعًا، أي ١٥,٨٤ مترًا لو الذراع يساوي ٦٦سم.[٢٢٥]

اللفة: لا يُعرف طولها بشكلٍ محدَّد؛ فهي تُقارب وحدة القياس السابقة وهي الشُّقق من حيث الطول،[٢٢٦] فالملابس والمَنْسوجات قُدِّرت في بعض الأماكن باللفة، فثياب الرجل من برنس أو جبة تحتاج لثلاث لفات، واختلف طول اللفة نفسها من مكان لآخر؛ فطولها في أسفي في المغرب كان يزيد عن لفة مونبيليه في فرنسا بحوالي ٢,٥٪ عنه في كتالونيا.[٢٢٧]

القصبة: اسْتُعملت القصبة لقياس المساحات من الأراضي، كما استخدمت في قياس الأثواب؛ فهي تعادل ستة أذرع هاشمية وستة أذرع وثلثي ذراع بز، أي ما يعادل

٣,٩٩ أمتار،[٢٢٨] وتعادل في إيطاليا نحو المترين وفي البرتغال ما بين ١,٧٢ و٢,٩٨ متر،[٢٢٩] وهو ما أكده ديوفريك كذلك عندما أشار إلى أن القصبة تزيد على مترَين حيث نوَّه لأن قصبة طرابلس تعادل ٣,٢٥ أمتار لمثيلتها في مدينة فانيس الإيطالية.[٢٣٠]

وعلى الرغم من كثرة أدوات القياس في أسواق الغرب الإسلامي وحرص المحتسبين على مراقبة الأسواق لمنع أي أعمال غشٍّ وتدليس تضرُّ بالمشترين وكذلك بالتجار؛ غالبا ما لجأ التجار للغش عند القياس؛ بأن يأخذ أحد التجار ثِيابًا من تاجرٍ آخر يكون أحد أطرافها أطول من الطرف الآخر؛ ما يفسد الثوب،[٢٣١] أو يشتري التاجر الثياب على طولٍ وقياسٍ متفق عليه ثم يجده ناقصًا؛ فيلجأ لتقسيم ثمن القياس الناقص على ثمن الثياب كافة؛ حتى يُعوِّض النقص فلا يخسر، وهو من الأشياء غير المباحة في الشرع، أو يبيع القياس الزائد عن المتفق عليه من الثياب بسعرٍ إضافي على الثمن، كما كان بعض التجار عند شرائهم الثياب يقيس قياسًا واسعًا وافيًا فيُرخون أثناء القياس، على عكس بيعهم، فكانوا يمطُّون القياس ويشدون بأيديهم، أو يوهمون المشتري بأنهم تركوا له قياسًا إضافيًّا، فإذا قاسها بعد شرائه وجدها منقوصة.[٢٣٢]

(٢-٤) موازين النَّسيج في الغرب الإسلامي

اسْتُخْدمت بعض الأدوات لوزن وتقدير النَّسيج كمثله من التجارات التي تُحدَّد أسعارها على أوزانها؛ لأن الغَزْل من الأشياء التي تُباع وتُسلَّم وزنًا كما يذكر الحميري[٢٣٣] أن بسوسة «يُباع الغَزْل بها زنة المثقال بمثقالين.» لجودة صنعتها، فلكل سوق أوزانه المعروفة به، وتُحدَّد الأوزان حسب البلدان والأسواق،[٢٣٤] ومن بين تلك الموازين:

الرطل: معيار يُوزَن به ويُكال، اسْتُخدم في زنة الحرير؛ لأن الحرير غالبا ما يُباع وزنًا،[٢٣٥] فيذكر المازري[٢٣٦] عن «من اسْتُؤجر على كَبِّ أرطال من حَرِير ...» وهو ما يؤكد استعمال الرطل في وزن النَّسيج وبخاصة الحرير، أو لقسمة لوز الحرير؛ فبعض الصناع ومربي الحرير أرادوا قسمته بالوزن أو بالعدِّ، لكن الفقهاء أوجبوا أن يُقسَّم بالوزن؛ لأن العدَّ تُؤثر عليه الأحجام.[٢٣٧]

وتباينت أوزان الأرطال من منطقة لأخرى: «فكان لكل إقليم ... المعاملة على أرطال تتضاءل في الزيادة والنقصان.»[٢٣٨] وحدَّد ابن رشد[٢٣٩] رطل الحرير في جيان كمقياس للوزن بقوله: «ثلاثة أرطال إلا ثلث رطل بوزن الحرير الجاري بجيان.»

وذكر المقدسي[٢٤٠] أن الأرطال المستخدمة في المغرب بغدادية في الإقليم كله إلا الذي يُوزن به الفلفل، وذكر القلقشندي[٢٤١] أن «زنة كل رطل ست عشرة أوقية، كل أوقية أحد وعشرون درهمًا من دراهمها.» في حين ذكر ابن غالب:[٢٤٢] «الرطل ست وثلاثون أوقية، يُغدَق عليهم من عشرة أرطال إلى رطل واحد.»

واختلف وزن الرطل من وقت لآخر، فوزن الرطل في المغرب خلال القرن ٥-٦هـ/١١-١٢م يساوي حوالي ١٣٠ درهمًا أي ما يعادل ٤٠٦,٢٥ جرامات، فأصبح بعد ذلك ١٤٠ درهمًا ما يوازي ٤٣٧,٥ جرامًا، وفي القرن ٨هـ/١٤م زاد وزن الرطل لما يقارب ١٥٠ درهمًا ويساوي ٤٦٨,٧٥ جرامًا، وفي الأندلس وصل وزن الرطل في الوقت نفسه إلى ٤٥٢,٣ جرامًا، وإبان القرن ١٠هـ/١٦م كان ١٢ أوقية، كل أوقية تساوي ١١,١٣ درهمًا أي ٤٤٠ جرامًا،[٢٤٣] وذكر ابن العطار[٢٤٤] المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي أن الرطل يساوي ثلاث عشرة أوقية، حيث يذكر في أحد العقود أن «رطلًا من حَرِير استغزال أحمر نقي طيب غاية الطيب كل رطل من ثلاث عشرة أوقية بوزن سوق كذا.»

وقيمة وزن الرطل اختلفت كذلك حسب نوع السلعة،[٢٤٥] فأوزان الغَزْل قبل الصناعة حُدِّدت بالأوقية، وقبل الشروع في نسجه أو غزله، فيُذكِّر السقطي[٢٤٦] بضرورة أن يكون ثَوْب الحرير الجيد «٢١ أوقية في الوزن».

الربع: ويجب أن تكون أرباع الكيل ضيقة الأعناق؛ لأن المُتسعة تحتمل الزيادة وفيها ظلم للبائع ويكون الطابع في أعناق الكيل، ويجب ألا تكون الأرباع مختلفة إلا ربع الكَتَّان وربع القُطْن وربع الصوف، فكلها لها ربع معلوم من أجل أثقالها.[٢٤٧]

القنطار: استُخدم القنطار لتحديد أوزان النَّسيج، فيساوي ما يقارب ١٠٠ رطل، واختلف وزنه من مكان لآخر، ففي مصر وزن قنطار الفلفل يعادل مائة رطل أي ما يوازي ٤٢,٣٣ كيلوجرامًا،[٢٤٨] وأشار برنشفيك[٢٤٩] أن القنطار يوازي ٥٠,٤ كيلوجرامًا في العموم، ولكن بالنسبة للأقمشة فكان يساوي ١٠٢ و١٠٥ و١١٠ أرطال في التجارة بالنسبة للقنطار الواحد، وقنطار الكَتَّان في بجاية يزن ١٥٠ رطلًا، أي ما يعادل ٧٦,٤ كيلوجرامًا، في حين اختلف وزنه في عنابة ليقل عنه أربعة أرطالٍ كاملة، ويشير ديوفريك[٢٥٠] أن قنطار الصوف كان يُباع على وزن القنطار الذي يبلغ وزنه مائة رطل.

وتوضح نازلة للبرزلي اختلاف وزن القنطار، فيذكر «أن الكَتَّان بوزن الإسْكَنْدَرِية ثلاثة وأربعون قنطارًا بالميزان، وإن صح له في تونس سبعة وأربعون قنطارًا

بالتونسي، وقد شهد ثقات أن الوزن بالإسْكَنْدَرِية والوزن بتونس يخرج إلى أكثر مما ذكره بكثير.»[٢٥١]

الرِّزْمة: استُخدمت الرِّزَم لتحديد أوزان الحرير والكتان، فكانت الرزمة تزن ما يقارب ٦٠٠ رطل كما تذكر وثائق الجنيزة،[٢٥٢] ورزمة الكَتَّان تزن ما يقارب ٦٠٠ رطل،[٢٥٣] بالإضافة للعدول، فيزن العدل تقريبًا ٣,٣ قناطير ما يعادل ١٥٠ كيلوجرامًا،[٢٥٤] وذكرت وثائق الجنيزة العديد من بالات الكَتَّان أو العدول التي أُرسلت من مصر لتونس لصناعة السوسيات، والعدل عادة يحتوي على خمسمائة رطل مربوطة ربطةً واحدة، والوزن الحقيقي لها كان ٤٥٠ رطلًا وينقص في أغلب الأحيان.[٢٥٥] واسْتُخدمت الربط كذلك في أوزان النَّسيج، فالعالم أبو عمر هاشم بن مرور التيمي «يشتري الكَتَّان فيجعل في كل ربطة رطلًا ويصرمها.»[٢٥٦]

(٢-٥) طرق بيع النَّسيج في أسواق الغرب الإسلامي

خضعت تجارة النَّسيج لأمور العرض والطلب كغيرها من التجارات، فتباينت معها أنواع البيوع، بما يلائم حاجات المشترين وظروف البائعين، والبيوع في العموم على أربعة أوجه: بيع المرئي، وبيع المعيَّن، وبيع الغائب، وبيع السلفة،[٢٥٧] مما سهل أمور الشراء والبيع للنسيج داخل الأسواق، وقد جاءت معظم هذه البيوع متماشية مع قواعد الشريعة الإسلامية، والقليل منها حاف ومال نحو الجاهلية والربا، فمن أنواع البيوع التي اتُّبعت في تجارة النَّسيج:

البيع بالمُقايضة والمبادلة: حَمل التجار سلعهم وبضائعهم للأسواق لمُبادلتها بسلع وبضائعَ أخرى، كما فعل تجار المغرب الأقصى؛ فكانوا يدخلون مدينة تكرور «بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم.» وكان التجار في مدينة غانة يحملون إليهم التين والملح والنحاس مقابل الذهب، بالإضافة لمدينة زويلة، التي كانت محطًّا للقوافل، فتتم بها عملية المقايضة ببيع الرقيق مقابل «ثياب حمر» لعلها قادمة من البصرة مع سكان كانم،[٢٥٨] وتجار قسنطينة قايضوا الأقمشة الكَتَّانية مقابل التمر والعبيد مع سكان وتجار منطقة نوميديا في الجنوب،[٢٥٩] وكذلك سكان كرت فكانوا يبتاعون ويشترون كل ما يحتاجونه في مقابل الكتان.[٢٦٠]

وسارت عملية المقايضة والمبادلة على شروط تتفق مع البائع والمشتري حسب قيمة السلعة نفسها، فاشْتُرط في المُبادلة أن يُعرَف فيها الوزن والقيمة لتكون سليمة،[٢٦١]

فيُباع ثَوْب الصوف في صوف، أو ثَوْب الكَتَّان في الكَتَّان وذلك بأجرٍ معلوم،[٢٦٢] ومن أمور المقايضة أيضًا أنها تكون في عمل، بأن يشتري أحدهم ثَوْبًا بثمنٍ معلوم ولأجلٍ مُحدَّد، ويريد أن يُسدِّد ثمنها مقابل عمل بأن يصبغها أو يخيطها ويستقطع أجره من ثمن الثوب، ولكن الفقهاء أفتوا بعدم إجازة هذا البيع.[٢٦٣]

بيع الغبن: من البيوع المُتدارَكة في بلاد الغرب الإسلامي بيوع الغبن، وهو أن يبيع الرجل ثَوْب الحرير بثمنٍ معلوم ويكتشف أنها تساوي أكثر من الثمن الذي باعه، فيقول لو علمت أنه حَرِير ما بعته بهذا الثمن، ويقول المشتري: «لو لم أظن أنه من حَرِير ما اشتريته بهذا.»[٢٦٤]

بيع المرابحة: بيع المرابحة هو «البيع المرتب ثمنه على ثمن بيع قبله»[٢٦٥] ويُعرِّفه ابن القباب[٢٦٦] بأنه «أن يقول بكم اشتريت سلعتك هذه وأنا أربحك فيها كذا.» فكثيرًا ما كان يبيع أحد التجار ثَوْبًا لغلام له أو لتاجر يجاوره في السوق بعشرة دراهم، ثم يشتريه مرةً أخرى منه بخمسة عشر ليجبر به في البيع، فهذا هو بيع المرابحة.[٢٦٧]

غير أن ابن أبي زيد[٢٦٨] يُحَمِّل جزءًا من ثمن السلعة خاصة في القصارة والخياطة والصباغة، وكذلك الفتل والكمد وتطرية الغَزْل والطراز، في حين لا يُحملها في أمور الكراء. ومن شروط بيع المرابحة التبيين والتوضيح في البيع كي يكون سليمًا وصحيحًا.[٢٦٩]

بيع الخيار: بيع الخيار هو طلب خير الأمرين مع استكمال البيع أو فسخه، وليكون بيع الخيار صحيحًا لا بد أن يكون «على مشورة دون اشتراط النقد وإيقاف الثمن.» وإذا كان البيع بالخيار وعلى مشورة فأجاز الفقهاء عدم دفع الثمن إذا كان عينًا، فإن شاء ترك عند أحد التجار الثقة أو يدفعه المشتري للبائع؛ فكلاهما جائز،[٢٧٠] وانتشر بيع الخيار في تجارة النَّسيج، ومن أمثلته أن يشتري أحدهم ثَوْبًا من تاجر وثوبًا من تاجرٍ آخرَ على أن يُفاضِل بينهما في الشراء، أو يشتري ثَوبَين من تاجرٍ واحد ويفاضل بينهما على أن يضمنهما،[٢٧١] أو يشتري ثَوْبًا لمدة يومَين أو ثلاثة يختار فيهما الثوب على ألَّا يُطيل المدة المتَّفق عليها.[٢٧٢]

بيوع المزايدة: يتم فيها تحديد ثمن السلعة بعد المُزايدة بين الراغبين في الشراء، وتبدأ عملية البيع بـ «الاستفتاح» بعرض السلعة الموجودة للنداء عن طريق أهل السوق العالمين والعارفين بالسعر للمزايدة حتى يستقرَّ البيع على الراغب في الشراء وصاحب

أعلى سعر،[٢٧٣] وتبدأ عملية المُزايدة من الظهر حتى العصر وتستمر طوال النهار، ويحصل المُنادي على أجرةٍ معلومة، وتزيد أجرته بزيادة البيع،[٢٧٤] وكان يُقام في فتراتٍ معينة من كل يوم مُناداة على سلعٍ محدَّدة كالأقمشة والصوف الخام وبعض السلع اليومية، أما البضائع الأخرى فيُعقد المزاد مرة أو مرتين أسبوعيًّا، والعادة أن ينعقد المزاد بعد صلاة العصر،[٢٧٥] ولصاحب العطاء الأخير أخذ السلعة التي نُودي عليها من السمسار أو الدلال «ليس للسمسار إخراجه من عنده لأن بيع المزايدة لازم لصاحب العطاء أخيرًا.»[٢٧٦] فكانت تُباع الزرابي وأغطية السرر في سوق فاس بالمزايدة.[٢٧٧]

بيع النسيئة: ارتبط بيع النسيئة بتجارة النَّسيج، وهو أن يشتري أحدٌ ثِيابًا ثم يدفع ثمنها بعد فترة تصل إلى عدة شهور أو عام، ويُكْتَب عقد يكون مُلزِمًا للطرفين وبشهادة الشهود لضمان حفظ الحقوق؛[٢٧٨] لأن بيع السلعة أو الثوب لأجلٍ مجهولٍ وغير محدَّد يضرُّ بالبائع لعدم ضمان سلعته،[٢٧٩] وبعض الأعمال من الحياكة أو الخياطة تكون وفاءً لدين على الصانع، فيلجأ لبيع النسيئة لسداد هذا الدين، وقد اختلف الفقهاء على مدى شرعيته.[٢٨٠]

بيع الملامسة: وفيه يلمس المشتري الثياب المراد شراؤها دون العلم بحاله ولكن بمجرَّد النظر إليه،[٢٨١] فلجأ كثير من تجار الثياب والشُّقق لتحسين وجهها لتحسُن في عيون ناظريها فتُباع سريعًا،[٢٨٢] فيقول بعتك هذا الثوب الذي معي بالذي معك «فإذا لمس كل واحد منهما ثَوْب الآخر فقد وجب البيع.»[٢٨٣]

بيع المضغوط: من البيوع التي مورست بأسواق في الغرب الإسلامي، وهو أن يبيع الثوب ويشترط أنه متى جاء بالثمن استرجعه.[٢٨٤]

بيع الرهن: كثُرت بيوع الرهن في النَّسيج في أسواق الغرب الإسلامي بأن يقول أحدهم: «رهنتك ثَوْبًا جديدًا، قال المرتهن: كان خلقًا وهو هذا واتفقنا على الدين.»[٢٨٥] ويُحدَّد عند الارتهان نوع الرهن والوقت والمبلغ وكذلك صفة ونوع النَّسيج، نتيجة لغياب الثقة في بعض الأحيان بين التجار أنفسهم أو بين التجار والمشترين، لكثرة الخلافات ولانتشار أمور الغش والتدليس؛ فكثيرًا ما كان يقوم تجار النَّسيج وبعد الاتفاق على السعر والقياس المحدد والقطع بأن يُسلم الثوب لصاحبه، ويتبقى له من سعره دون اتفاق مسبق، فيضطر التاجر للانتظار — لو كان من معارفه — وإن كان غير ذلك يلجأ إلى أخذ رهن،[٢٨٦] وهناك نازلة توضح ذلك: «من باع من أحد حريرًا لثلاثة أعوام،

ورهن بيده في ذلك أصل توت مشترطًا المنفعة.»[٢٨٧] فاحتاط التجار عند عملية البيع «فعلى كل واحد منهما إذا تَشاحًّا أن يمد يده بثوبه فإذا تحاذيا قبض كل واحد منهما ما اشتراه.»[٢٨٨]

بيع المشروط: هو أن يشترط أحد الطرفين شرطًا لإتمام البيع والصفقة.[٢٨٩]

بيع الحصاة: من البيوع التي انتشرت في الجاهلية ومُورست بشكلٍ محدود في بلدان الغرب الإسلامي، فالرجل يشتري الثوب فإن أعجبه ترك عليه حصاة. فقد ذكر المازري[٢٩٠] هذا النوع من البيوع بقوله: «وقيل كان الرجل يسوم بالثوب وبيده حصاة فيقول إذا سقطت من يدي وجب البيع.»

البيع بالصفقة: بأن يشتري أحدهم جملة من الثياب مرةً واحدة بغرض المتاجرة أو اللباس،[٢٩١] وتكون الثياب صفقةً واحدة سواء من نوعٍ واحد أو مختلفة، وبها نوع أحسن من نوع، أو نوع أطول في القياس من الآخر: «إذا اشترى بيعة من القماش وهي نوعٌ واحد وبعضها أحسن من بعض أو أطول في القياس، وإن قلَّ أو هما معًا، ألَّا يجعل لكل قطعة منها قيمة معلومة.»[٢٩٢]

بيع المكايسة: وفيه يساوم الرجل فيها صاحب السلعة في سلعته وبضاعته فيبتاعها منه بما يتفقان في الثمن.[٢٩٣]

البيع بدون مشاهدة (بيع الجزاف): وتكون عملية البيع من غير مشاهدة أو فحص، كبيع حزم ولفائف الكَتَّان دون فحص؛ لأن فحصها وفرزها يضر بالكتان،[٢٩٤] أو شراء أو بيع ورق التوت دون وزن، وهو ما عُرف بالتحري، واشتُرط التحري لجواز البيع في تلك الحالة،[٢٩٥] فكان من الضروري عند البيع أن يكون على صفة؛ بأن تُوصف السلعة بطولها ووزنها وشكلها، وإلا كان البيع فاسدًا،[٢٩٦] خاصة في عقود البيع «وإن كان في كَتَّان قلَّت: في كذا وكذا ربعًا من كَتَّان بلد كذا طفلي أبيض الطرف أملس صحيح.»[٢٩٧] ولأن البعض نسب بعض الثياب إلى مكان غير الذي صُنعت به لأجل بيعها، أو نسبها لصانع ماهر اشتهر بالغَزْل غير الذي صنعها فيُغالي الناس في شرائها،[٢٩٨] ومن طرق بيع الجزاف في بلاد السودان أن يترك المشتري عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب، فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب.[٢٩٩]

بيع المنابَذة: يتمثل هذا البيع في «أن يقول البائع للمشتري: بعتك هذا الثوب الذي معي بالثوب الذي معك، فإذا نبذ كل واحد منهما ثوبه إلى الآخر، فقد وجب البيع.»[٣٠٠]

الشراكة: نوع من المعاملات التجارية التي مُورست مع تجارة النَّسيج، وهي عبارة عن اتفاق بين طرفَين يُلزم بالعقد، يتم بمقتضاه خلط وسائل الإنتاج ورأس المال والعمل وغيره، فكانت منها شركات أموال وأبدان وذمم أو أَعَمِّيَّة وَأَخَصِّيَّة كما ذكر ابن عرفة،[٣٠١] وتمثلت تلك الشراكة، وخاصة فيما تعلق بتجارة النَّسيج، إما في ثَوْب أو في نَسِيج خام أو منسوجات، بأن يقوم الصباغ بعد صبغ الثوب بتسليمه إلى صاحبه، فيجد صاحب الثوب قد أفلس وليس معه مال، وهنا أجاز الفقهاء في شراكة الصباغ لصاحب الثوب أن يكون شريكًا في ثَوْبه، وذلك على قدر ثمن صبغه،[٣٠٢] أو من أعطى نَسَّاجًا غَزْلًا ليصنع منه ثَوْبًا، فلا يستطيع صاحب الغَزْل أن يعطي النساج أجرته؛ فيصبح النساج شريكًا لصاحب الغَزْل في الثوب على قدر أجرته؛ تفاديًا للخلافات وبالاتفاق، أو أن أحدهم يشارك آخر في شراء ثَوْب.[٣٠٣]

أو تكون الشراكة في تجارة النَّسيج بالتشارك في السفر معًا لبيع الثياب والمَنْسوجات وشراء موادَّ أخرى من صوف وغيرها،[٣٠٤] أو يُقدِم أحد على شراء حَرِير وليس لديه نقد لشرائه، فيقترح على أحد أن يدفع له النقد ويكون شريكًا له في الحرير، وهذا اعْتُبر شراكة في رأس المال.[٣٠٥]

وجاز لرب المال الحرية في أن يبيح لشريكه المتاجرة في أصناف من السلع والمتاجر، وإن خالف الشريك تعليمات صاحب المال فعليه أن يضمن ما يتلفه، وإن باعه وخسر فعليه ضمان الخسارة،[٣٠٦] وفي بعض الأحيان يُقَيَّد الشريك ببعض الأمور التي تمنعه من حرية التصرُّف في التجارة ما اضطرهم لكتابة عقود بينهما بحسب ما يقع عليه الاتفاق ويتوافق مع الشرع «وصارت في يده وازنة طيبة ليديرها في متجر البزازين أو الخياطين بسوق كذا ولا يتعدى المتجر المذكور إلى غيره.»[٣٠٧]

(٢-٦) أسعار النَّسيج في الغرب الإسلامي

خضعت أسعار المنتجات للحالة الاقتصادية داخل الأسواق، ولم يكن الاستقرار السياسي — مع أهميته الكبيرة — هو وحده الحاكم في انخفاض الأسعار وارتفاع مستوى المعيشة؛ لأن الشروط الاقتصادية للسوق تتأثر ولأسبابٍ مختلفة بالتقلُّبات التي تنشأ في

بعض الحالات من كثرة المعروض من السلع أو لِقلَّة الطلب عليها، ما يعني أن الأسعار كانت متغيِّرة طبقًا لمعايير الجودة وعمليتَي العرض والطلب،[٣٠٨] لدرجة تؤدي لانخفاض أسعارها مقارنة بسلعٍ أخرى تحافظ عليها؛ لذلك فإن قيمة الأسعار تُحدَّد بشكلٍ تنافسي بين التجار، بالإضافة للتغيرات الاقتصادية الأخرى، فأحيانًا يشتري التجار الثياب ثم تهبط أسعارها لعدم الطلب عليها؛ فيتعرض التجار للخسارة.[٣٠٩]

وتجارة النَّسيج كغيرها من التجارات تخضع للتَّسْعِير؛ فهو المؤشر الدال على أهمية تلك السلعة؛ لذا فمراقبة الأسعار وضبطها كانت من الأمور الضرورية للمحتسب داخل الأسواق منعًا للزيادة وكذلك معاقبة المخالف في التسعير من التجار، وعلى الرغم من ذلك فإن عملية فرض التَّسْعِير لم تكن تتم إلا عن رضًا حتى لا يُظلَم أحد، فمن كان يُكرِه الناس على سعرٍ معين «فقد أخطأ.»[٣١٠] فلا يُؤمر التاجر بأن يبيع بأقل من السوق، ولكن يؤمر بالالتزام بالسعر داخل السوق،[٣١١] ولكن جودة المنتَج نفسه وصفته كانت تفرض زيادة في السعر عن باقي السلع السيئة، فكان سعر الورق في بلدان المغرب يختلف ثمنه حسب صفته وجودته،[٣١٢] وهو ما أكده العقباني[٣١٣] عند حديثه عن الأسعار وجودة السلع؛ فيذكر أن «لجودة ما لديه دونهم لم يُمنع وإن لم تكن له جودة عما بأيديهم مُنع، فإن حط عن سعرهم وباع بأرخص مما يبيعون به تُرك وبيعته، ولم يُؤمر الباقي باللحاق به.»

هذا وكانت للعملة أهميةٌ كبيرة في ازدهار وتطور العملية التجارية، فكلما ارتفعت قيمتها النقدية ساعد ذلك على رواج النشاط التجاري للسلع، والعكس عند انخفاضها، وهو ما أشارت إليه إحدى خطابات الجنيزة؛ فقد أدى انخفاض العملة في عام ٥٥٦هـ/١٠٦٠م لانخفاض أسعار بعض السلع، فانخفضت قيمة الدرهم من ٢٠٠ نقدًا وصار ١٦٠ نقدًا، وكان له الأثر على بيع الكَتَّان في سوسة وقلة الطلب عليه.[٣١٤]

ودفع قيمة البضائع والسلع كان له أثره على أسعارها خاصة الدفع المقدم أو الدفع بالآجل، والشراء بالدين أو الاقتراض من أجل الشراء، خاصة من قبل التجار اليهود، ففي رسالة أرسلها التاجر جوزيف بن فرج القبيصي إلى ابن أخيه التاجر فرج بن إسماعيل، في مصر في هذا الوقت، ينصحه بأن يدفع ثمن كمية الكَتَّان كلها رغم أن نصفها ما زال لم يُحلَج بعدُ، على الرغم من التوصيات والتعهدات التي بينهما بعدم الدفع المقدَّم للمزارعين، وهو ما أشار إليه التاجر اليهودي إسماعيل لابنه فرج في ٥٥١هـ/سبتمبر ١٠٥٦م في بداية موسم البيع والشراء فهو يُحذِّره «أن يحتاط من الفخِّ الذي قد يكون المزارعون نصبوه له، بأن يعطوه كتانًا لم ينضج بعدُ.»[٣١٥]

واشتهرت عدة مناطق بارتفاع أثمان منسوجاتها نظرًا لجودة إنتاجها؛ كحصن بكيران فكان «تُصنع به ثِيابٌ بِيضٌ تُباع بالأثمان الغالية ويُعمَّر الثوب منها سنين كثيرة.»[٣١٦] ومدينة أندراش حريرها يوصف بأنه ذهب،[٣١٧] ومدينة بلنسية ثيابها الكَتَّانية الغالية الثمن «تقصر الثياب الغالية من الكَتَّان وتنسج.»[٣١٨] وصِقِلِّيَّة اشتهرت بتصدير الكَتَّان والثياب المقلَّمة الغالية الثمن.[٣١٩]

وتميَّزت المَنْسوجات التي اختُصَّ بها الحكام والسلاطين بارتفاع أثمانها وجودتها؛ فعمائم ملوك صنهاجة المذهَّبة كانت تساوي العمامة ما بين ٥٠٠ دينار و٦٠٠ دينار وأزيد، فالصانع كان يأخذ على تعميم العمامة الواحدة «دينارَين وأزيد»،[٣٢٠] كما ارتفعت أسعار اللبود الثلاثينية لسلاطين الأندلس؛ فاللبد الواحد يساوي ما بين خمسين وستين دينارًا،[٣٢١] وبالمثل الثياب المصنَّعة من صوف البحر كانت باهظة الثمن، نظرًا لجودتها وحسنها بالإضافة لِقِلَّتها لاحتكار أهل السلطة لها، فكانت تُنقل سرًّا، فتهادى بها الملوك والحكام والأمراء.[٣٢٢]

غير أن تلك الأسعار اختلفت تبعًا لعدد من الأمور، منها: عملية التعبئة أو التصنيع، خاصة للصوف المعدِّ للتصدير لبلدان الغرب المسيحي لميورقة وكتالونيا؛ فكان يُضاف سعر النقل للسعر الأساسي للصوف وهو ما مثَّل عبئًا على التجار، فقد نُقل قنطار من الصوف من تلمسان إلى ميورقة أضيف إلى ثمنه ٣,٥ فلوس (ميورقية) على سعره؛ فضجر التجار من ذلك.[٣٢٣]

أما عن أسعار الحرير في بلدان الغرب الإسلامي، فقد وصل سعر الحرير الأندلسي في الإسْكَنْدَرِية إلى ٢١ و٢٣ دينارًا لكل عشرة أرطال، وذلك عام ٤١٠هـ/١١١٩م، وسعر الحرير الخزاج الأجود منه ستة مثاقيل والأقل منه خمسة مثاقيل، والحرير الخز ما بين تسعة وتسعة ونصف مثقال، والحرير الخش جدًّا ما بين ثلاثة وثلاثة ونصف مثقال،[٣٢٤] وسعر رطل الحرير في الأندلس وصل خمسة عشر درهمًا أي دينار ونصف،[٣٢٥] وارتفع سعر رطل الحرير بعد ذلك إلى ستة دنانير للرطل.[٣٢٦] وبالنسبة لأسعار بعض المواد الخام، فسعر قنطار القُطْن في القيروان إبان القرن ٤هـ/١٠م ساوى دينارًا ونصف الدينار،[٣٢٧] وسعر سبع بالات من القُطْن في عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، خُزِّنوا عن طريق تجار من برشلونة، عشرة دنانير،[٣٢٨] وقنطار كتان في صِقِلِّيَّة سعره في الشتاء وصل لسبعين (ربع دينار)، وفي الصيف لأربعين (ربع دينار).[٣٢٩]

وسعر دست الورق في مدن المغرب ساوى ما بين ثلاثة إلى أربعة دراهم،[٣٣٠] مما أثر على سعره في صفاقس؛ ففي عام ٥٥٧هـ/١٠٥٩م مثلًا، انخفض من ٧٠ إلى ٤٠ في

غضون فترةٍ قصيرة من الزمن لكنه وصل إلى ٨–١٤ (ربع دينار)، وعقب وصول خمس وعشرين سفينة من المشترين في مازارا بصِقِلِّيَّة،[٣٣١] وسعر واحد وعشرين قنطارًا من الكَتَّان خُزِّنوا في المغرب عن طريق تجار برشلونيين ثمانية وعشرون دينارًا.[٣٣٢]

ولتباين الأسعار واختلافها من مكان لآخر أثره في تأرجحها بين الزيادة والنقصان، وهو ما توضحه نازلة أوردها البرزلي عن بعض فروق الأسعار والموازين بين الإسْكَنْدَرِية وبلاد المغرب، فتذكر أن سعر خمسة قفاف من النيل ٣٧٧ دينارًا، وسعر خمسة حصر من الكَتَّان ٢١٣ دينارًا قدر وزنهم بـ ٤٣ قنطارًا إلا الثلث، وأن ثمن تسعة قناطير من جزز الصوف بيعوا في مدينة أصيلة في عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م باثني عشر دينارًا للقنطار، وبعد ذلك التاريخ بعدة شهور وصل سعر قنطار الصوف إلى ١,٧٥ دينار للقنطار،[٣٣٣] وبعدها وصل سعر قنطار الصوف ثلاثة دنانير،[٣٣٤] وهو ما يعكس الارتفاع المستمر في أسعار الصوف نتيجة للطلب المتزايد عليه سواء في الأسواق الداخلية أو الخارجية.

وعن أسعار المَنْسوجات الأخرى فقد تأرجحت أسعارها حسب الطلب عليها، فعمائم سوسة كانت تساوي الواحدة منها مائة دينار للعمامة وتزيد،[٣٣٥] لارتفاع أسعار الغَزْل؛ إذ بلغ زنة المثقال من الغَزْل المثقال بمثقالين،[٣٣٦] وسعر قماش الشقرة إبان القرن ٦هـ/١٢م، أربعة دنانير بالنسبة للجيد منها والرديء كان دون ذلك، وسعر الفوطة المقصرة سبعة دنانير للعشر فوط، وجبة خز سعرها أقل من أربعة دنانير،[٣٣٧] وثوب الكَتَّان في المهدية عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، سعره أقل من عشرة دراهم،[٣٣٨] وسعر أغطية السرر بمنطقة جبل بني زياغة إبان القرن ٩هـ/١٥م، ما بين ثلاثة أو أربعة دنانير للأغطية،[٣٣٩] وثمن الثوب في مراكش عشرة دراهم،[٣٤٠] وثمن جبة في أغمات عشرة دنانير، وثمن الكفن ثلاثة دراهم، وثمن ثَوْب مستعمل عشرة دراهم،[٣٤١] وثمن جبة ما بين ثلاثة وأربعة دراهم،[٣٤٢] هذا بالإضافة لأسعار بعض الأمور الأخرى المتعلقة بالنَّسيج كالخياطة، فثمن خياطة جبة في القرن ٦هـ/١٢م «عشرة دراهم».[٣٤٣]

وسعر برنس صنع في جزر البليار أو في كتالونيا وبيع في المغرب في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م ما يعادل ٢٥-٢٦ فلسًا ميورقيًّا، خُصص ثلث الربح للوسطاء الذين أجروا عملية البيع من التجار الميورقيين.[٣٤٤] وفي غرناطة إبان القرن ٩هـ/١٥م، وصل ثمن ثماني مخدات من الحرير ٢٦٢,٥ دينارًا، وثمن مرفقة من الحرير سبعة وستون دينارًا، وثمن لحاف في غرناطة ٣٣٧,٥ دينارًا، وسعر كُلَّة من الحرير ١٨٧,٥ دينارًا،[٣٤٥] وثمن مِلَفٍّ بِيع في غرناطة اثنان وعشرون دينارًا، وبساط قطيفة ثمنه ثلاثون درهمًا،[٣٤٦] وثمن ثمانية وربع من الكَتَّان اثنان وعشرون مثقالًا.[٣٤٧]

كما ذكر الونشريسي[٣٤٨] في إحدى نوازله أن ثمن ثلاثة أرطال من الحرير ثمانية دنانير في بجاية، فقد قُدِّر وزن ثلاثة عشر رطلًا من الحرير بـ ٣٤,٦٦ دينارًا، أي أن ثمن الرطل الواحد ٢,٦٦ دينار.

ويُظهِر أحد عقود القسمة في غرناطة في نفس الفترة، أن ثمن منشف خمسة دراهم، وثمن مقدار من غزل الكَتَّان ستة دنانير من الفضة، وأن ثمن منشف غزل اثنا عشر درهمًا، وثمن قطيفة من الصوف ثمانية دنانير، وسجادة درهمان، وملحفة سرير أربعة دنانير من الفضة، وثمن سروال نساء عشرة دراهم، ومنديل مرقوم بستة عشر درهمًا، وخمس مخدات من الحلف خمسة عشر درهمًا، وملحفة رأس ثمانية عشر دينارًا فضية عشرية، وبساط من الجلد ثلاثة عشر درهمًا، وأن فضلة شقة ثمنها ستة وثلاثون درهمًا، وشملة ملف ثمانية دراهم، ومرفعة ثمانية دراهم، ولحاف ثمانون درهمًا.[٣٤٩]

هكذا اختلفت أسعار المَنْسوجات وتباينت أثمانها من مكان لآخر ومن حين إلى حين، باختلاف المعروض من المَنْسوجات وقيمة العملة المتداولة.

(٢-٧) الضرائب على النَّسيج

مع حاجة الدولة لجني الأموال سعت لفرض عدد من الضرائب، الهدف منها السيطرة على الأسواق وملء الخزائن التي هي أحد المصادر التي يقوم عليها كيان الدولة،[٣٥٠] فمن المؤكد أنه فُرضت بعض الضرائب على المَنْسوجات داخل أسواق الغرب الإسلامي، سواء القادمة من المناطق المحيطة بها، أو الواردة إليها من الأسواق الخارجية، خاصة من مناطق غير تابعة للدولة الإسلامية، التي كان يُمنع استيرادها، مثلما حدث مع تجار طليطلة عام ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، فكان يُحظَر عليهم استيراد أو جلب المَنْسوجات والأقمشة من المناطق المسيحية نظرًا للظروف السياسية آنذاك.[٣٥١]

فتواجدت مكاتب لتحصيل تلك الضرائب داخل الأسواق مثل «مكتب المكاسين» بفاس، وقبل أن تبدأ عملية بيع الأقمشة الصوفية المجلوبة من الأسواق المحلية وبيعها بالمزاد العلني، حَمل المكلَّفون ببيعها لهذا المكتب، ويقوم المختصون بهذا المكتب بجمع الضريبة وختم السلعة، أو كما يذكر الوزان «كي يبصموها» وكان يُدفع عن كل قطعة قماش مبلغ يُقدَّر من جانب هؤلاء المكاسين.[٣٥٢]

فمن بين تلك الضرائب التي فُرضت على النَّسيج في الغرب الإسلامي:

القبالة: فرضت السلطة القبالة على التجار والصناع وأصحاب الحرف والسلع منذ فترةٍ طويلة في بلدان الغرب الإسلامي؛ ففي عصر الأغالبة والفاطميين في المغرب «كانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة ... مثل الدهان والصابون والصفر والمغازل.»[٣٥٣] وفُرضت القبالة أيضًا على بعض المقارِّ التجارية مثل الفنادق، كفندق الرماد بتونس، فحين قَلَّت أرباحه وضعفت قبالته ارتفعت أسعار أُجرته، كي يصرف نظر الحرفيين وصناع النَّسيج عن كرائه من قبل السلطة؛ ما أجبر الحرفيين على ترك الفندق وحُوِّل بعد ذلك إلى مكان لغسل الغزل، ما يبرهن على وقوف القبالة في وجه التطور الحرفي وبخاصة لصناعة وتجارة النَّسيج.[٣٥٤]

المكوس: نوع من الضرائب أتت على التجار والمزارعين الوافدين على الأسواق لبيع سلعهم،[٣٥٥] وفرضت المكوس في الأندلس على بعض المَنْسوجات القادمة من المغرب خلال القرن ٦هـ/١٢م.[٣٥٦]

ضريبة الشراء: تذكر وثائق الجنيزة نوعًا من الضرائب فُرِضَ على السلع والبضائع وتُقدَّر على قدر حجمها وثمنها، فورد ذكر ضريبة الشراء في المهدية عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م، وبلغت قيمتها ٢,٧٪ من قيمة السلعة.[٣٥٧]

ضريبة التعتيب: من الضرائب[٣٥٨] التي اسْتُحْدثت في النظام المالي لبعض بلدان الغرب الإسلامي، ففُرضت في ألمرية «ومدينة ألَمَرِيَّة كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة، وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج ... وعدد فنادقها التي أخذها عد الديوان في التعتيب ألف فندق إلا ثلاثين فندقًا.»[٣٥٩] وكان من صفات المختص بجمع هذه الضريبة — المعتب — الشدة والقسوة حتى لا يتهاون الناس في تسديدها،[٣٦٠] وعلى أثر ذلك اضطُرَّ سكان غرناطة إلى دفعها تحت التهديد والوعيد، في حين امتنع سكان قُرْطُبَة عن دفعها لما كانوا يعانونه من ضائقةٍ ماليةٍ متدهورة في بعض الأوقات، خاصة خلال القرن ٦هـ/١٢م؛ ما جعل أهل السوق والتجار يرجمون القاضي ابن المناصف بالحجارة احتجاجًا على دفعها؛ فأمرت السلطات بإلقاء القبض على كل من شارك في هذا الأمر وكان من بينهم الزجال ابن قزمان.[٣٦١]

ضريبة الفائد: فُرضت هذه الضريبة في العهد الحفصي على الوافدين من أهل البادية عند أبوابها، فقدرت ضريبة الفائد على الصوف ٥,٢٥ بيزات وتعادل دينارًا تقريبًا، وعلى القنطار من الصوف ربع درهم، وعلى قنطار القُطْن ما يقارب ٢ بيزا نصف دينار تقريبًا، وعلى رطل الحرير ١,٢٥ بيزا.[٣٦٢]

ضريبة تارطيل: فُرضت هذه الضريبة في الأندلس في عهد بني نصر (٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م–٨٩٧هـ/١٤٩٢م) والملكين الكاثوليكيين، تُدفع على إنتاج الحرير وبيعه وشرائه وتُدَوَّن بشكلٍ سنوي، وتُسدَّد ضريبته في قيسارية مالقة التي أصبحت من أحسن القيساريات وأوفرها إيرادًا لبيت المال، ومثلت هذه الضريبة عنصرًا مهمًّا من مصادر الدخل في غرناطة آنذاك.[٣٦٣]

ضريبة الوزن: من بين الضرائب التي فُرضت على أهل السوق، فيذكر الونشريسي[٣٦٤] في نازلة عن من يبيع الكَتَّان ويشترط على المشتري دفع ضريبة الوزن بقوله عندما سُئل «فيمن باع كتانًا وشرط على المشتري أن يغرم لصاحب الوزن.» وتلك النازلة تعكس الضرائب أو الرسوم التي كانت تُدفع وتُسدَّد عند الوزن، وفُرضت بعض الضرائب على العديد من مواد الصباغة وبخاصة الصبغة الزرقاء والصبغة الصفراء وكذلك الحنة.[٣٦٥]

واستمرت السلطات الحاكمة في فرض الضرائب على صناع النَّسيج في محاولة منها لجمع الأموال لتغطية النفقات الخاصة بالسلطة، فجُمعت من صناع النَّسيج سواء من يعملون في الحوانيت أو داخل منازلهم، فلجأ بعض صغار الصناع إلى العمل داخل المنازل لتجنُّب دفع الضرائب في بعض الأوقات وهم الفقراء ممن يتقوَّتون يومهم من العمل في النَّسيج وبخاصة من النساء.[٣٦٦]

وبجانب الضرائب والجبايات تعرَّض بعض صناع وتجار النَّسيج للابتزاز وفرض الإتاوات من قبل السلطات الحاكمة؛ فقد تعرَّض صناع وتجار جبال إقليم قسنطينة لدفع إتاوات على ما يصنعونه من مَنْسوجات وما يربُّونه من خيول، حتى يأمنوا على أنفسهم،[٣٦٧] وما تعرض له قصارو صفاقس من قِبل الأعراب واللصوص بفرضهم الإتاوات عليهم.[٣٦٨] لهذا سعى الصناع والتجار للوقوف في وجه تلك المحاولات الابتزازية عن طريق التكتل وتكوين ما يشبه النقابات كي يحافظوا على مصنوعاتهم وتجارتهم، وهو ما عمد إليه صناع النَّسيج في سلا لأخذ درهم من الحاكة على كل شُقة نَسِيج تُباع،

وتُحفظ للتصدي لأية مظلمة تقع على هؤلاء الصناع أو في مواجهة الضرائب التعسفية التي تُفرض عليهم من قبل السلطة أو من «الجانب المخزني».[٣٦٩]

وهو نفسه ما فعله تجار سوق الصوافين إبان القرن ٧هـ/١٣م في بجاية؛ فقد شكلوا بينهم ائتلافًا مهنيًّا موحَّدًا ومنظمًا، يدافع عن مصالحهم المشتركة ويقف في وجه التعسف والتعدي على تنظيمهم، فجنحوا لجمع الضرائب من أرباب المهنة حسب خطة وتقديرٍ معين، اشْتُرط فيها «الانتظام في سلكهم»،[٣٧٠] ويذكر أن هذا العَسف الضريبي قد ساعد — إلى حدٍّ بعيد — في زيادة الوعي الحرفي والاجتماعي وفي تكوين الرابطات المهنية لأصحاب الحرفة داخل مجتمع الغرب الإسلامي.[٣٧١]

ويتضح من إجمالي ما تتحصل عليه السلطة من ضرائب إصرارها على جبايتها والسعي على استمرارها من حصيلة الضرائب والجمارك، فعلى سبيل المثال جربة كانت نسبتها كبيرة نظرًا لتجارتها مع الإسْكَنْدَرِية وتونس وبلاد الترك،[٣٧٢] وكذلك رسوم الشحن على النَّسيج وغيره من التجارات التي كانت تُدفع في بداية عملية النقل أو عند الوصول إلى الميناء، كما جاء في الخطاب الذي أرسله التاجر جوزيف بن موسى من المهدية يُكلف فيه التاجر نيهوراي بن نسيم Nehorai b. Nissim بدفع رسوم شحن ثلاث حمولات من الكَتَّان كانت في طريقها إلى الإسكندرية،[٣٧٣] وأيضًا الضرائب على السلع النَّسيجية المحمولة لمدن الغرب المسيحي، فقد قام «ريسبيس غيدو دي بونو Respectus Guido de Bono» بحمل قُطْن له من بجاية وسدد رسوم الشحن التي وصلت إلى ما يقرب من إحدى عشرة ليرة،[٣٧٤] بالإضافة لرسوم مرور تجارة الجوخ في بلاد تغت، فكانت تُفرض على كل حمل جوخ أو من ثِياب الكتان، وكانت على تجارة النَّسيج فقط دون غيرها فكانوا لا يدفعون على المواشي أو الخيل أية ضرائب.[٣٧٥]

وتفيد الإحصائية التي ذكرها الترجمان،[٣٧٦] عند حديثه عن الضرائب التي ألغاها السلطان أبو فارس نظرًا لضخامتها، وكيف أنها شكلت ضغطًا على أصحاب التجارات والسلع طوال هذا العهد، فيذكر «أن مجبا سوق الرهادنة وقدره ثلاثة آلاف دينار ذهبًا ... ومجبا رحبة الماشية وقدره عشرة آلاف دينار ... ومجبا فوائد الأسواق وهو مال ضربه بعض الملوك المتقدمين على مَن بوادي بحيرة وغيرهم وهم أهل خيام وعمود، ثبت ذلك عليهم مدة طويلة حتى أبطله الملك أبو فارس وقدره ألف دينار ... ومجبا سوق القشاشين وقدره مائتا دينار.» وقُدِّرت الجبايات في الأندلس في زمن الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن وبخاصة من كورة البيرة «مائة ألف وتسعة آلاف وستمائة دينار وثلاثة دنانير، وألفا رطل حرير، وألفا رطل عصفر.»[٣٧٧]

وعلى الرغم من ذلك فقد سعت السلطات الحاكمة في بعض الأوقات لتسهيل وتشجيع عمليات التبادل التجاري؛ فأسقطت الضرائب على بعض السلع، مثلما حدث في ٧١٣هـ/١٣١٣م، على التجار البيزيين في موانئ الغرب الإسلامي على سواحل بلاد المغرب فجاء «إذا باع بيشاني كتانًا أو قُطْنًا أو غير ذلك من السلع الموزونة فلا يؤدي في ذلك رطلًا وطعمًا للديوان ولا للتراجمة.»[٣٧٨]

(٢-٨) الحسبة على تجار النَّسيج

الحسبة من أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد أشار ربنا جل جلاله لهذا الأمر في قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾،[٣٧٩] ما أوجب الرقابة على الأسواق فكانت الحسبة.

فقد بلغ من اهتمام ولاة الأمر بالأسواق والإشراف عليها، وحرصهم على سلامتها من المعاملات غير الشرعية التي قد يقع فيها الكثير من التجار ويجهلون حكمها، بأن عُيِّن لكل سوق علماء يتولَّون القضاء والفصل فيها، وعُرفوا بالمحتسبين أو أصحاب السوق،[٣٨٠] فالمحتسب كما يعرفه ابن أصبغ:[٣٨١] «صاحب السوق كان يُعرَف بصاحب الحسبة؛ لأن أكثر نظره فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة ودَين وتفقد مكيال وميزان.»

فكان للمحتسبين ديوان خاص بهم، له قدر من الهيبة والاحترام؛ لأن الحسبة «من أعظم الخطط الدينية، وهي بين خطة القضاء وخطة الشرطة جامعة بين نظرٍ شرعيٍّ ديني وزجرٍ سياسيٍّ سلطاني.»[٣٨٢] واشترط السقطي[٣٨٣] في المحتسب أن يكون «فقيهًا في الدين، قائمًا في الحق، نزيه النفس، عالي الهمة، معلوم العدالة، ذا أناة وحلم … يستعمل اللين من غير ضعف، والشدة من غير عنف.» ومنهم من أوجب أن يكون ذكرًا ليس أنثى، بالغًا، مسلمًا ليس كافرًا.[٣٨٤]

ومن واجبات المحتسب ضبط الأسواق مراعاتها واحترام الأيام المباركة داخل الأسواق وبخاصة في شهر رمضان؛ فمنع في زقاق الروم بالقيروان صناع وباعة الحرير من رفع أصواتهم والتكبير على بضائعهم وسلعهم خلال تلك الأيام،[٣٨٥] هذا وكان للمحتسب سجل يدون به ملاحظاته الخاصة بالتجار وبالسوق بصفةٍ عامة، كما كان له خاتمه الخاص يوقع به على السجلات والمكاتبات،[٣٨٦] خاصة أن بعض التجار والصناع غشُّوا ودلَّسوا في أمور بيعهم وصنعتهم فكان منهم من «نسب الكَتَّان إلى أسماء عمال معروفين فيشترون

على ذلك.»[٣٨٧] أو عمل مقاعد السراويل من بعض الثياب والخرق البالية ما اعتبر نوعًا من الخداع للمشترين،[٣٨٨] أو صنع الثياب من قُطْن أو صوف بالٍ غير جيد، وهو ما ألْزم المحتسبين بردِّها؛ لأن ذلك من أمور الخديعة،[٣٨٩] ومنهم من يصبغ الديباج لإخفاء عيوب الثوب أو لإظهاره على ما ليس به،[٣٩٠] أو يرش الحرير بماء الخبز ليصفق ويشتد أو يغيِّر لونه؛ لأن «لون الحرير لا يُعلم فساده حتى يدخله العمل.»[٣٩١] أو ترقيع الفرو والثياب لعدم إظهار ثقوبها،[٣٩٢] أو تندية الفرو حتى يُشدَّ ويُمدَّ ويطول أو بتحسينها،[٣٩٣] ومنهم من يقوم بخياطة الثياب البالية وبيعها على أنها جديدة، أو يقوم برفو الثياب لخداع المشترين.[٣٩٤]

وخلط صانعي وبائعي الورق الورق الخفيف بالورق الجيد، لأن الخفيف منه لا يحتمل الكشط لخفته ورِقَّته، فحرص المحتسبون على مراعاة تلك الأمور، ومن عوائدهم أيضًا ارتداؤهم خرقةً صغيرة على عوراتهم تصفها عند ابتلالها بالماء؛ فحرص المحتسبون على النهي عن ذلك.[٣٩٥] كما حرص المحتسبون على أن يكون بيع النَّسيج على الصفة فـ «لا يُباع الساج المدرج في جراب على الصفة.»[٣٩٦] ووجب عدم طيها لإخفاء عيوبها، واعتاد تجار البز بيع سلعهم في حوانيتهم وهي مظلمة وهو ما نهى عنه المحتسبون.[٣٩٧]

وعمد المحتسبون إلى سَنِّ القواعد والشروط التي وجب اتباعها داخل السوق لمنع أمور الغش والتدليس وخديعة المشترين،[٣٩٨] بتوضيحها للتجار والزبائن داخل الأسواق لتكون واضحة لهم، فنُصبت لوحة في مدخل السوق عليها مقياس الذراع المستعمل في بيع النَّسيج يُلجأ إليها عند الاختلاف في القياس منعًا للغش،[٣٩٩] ومن يقوم بتلك الأمور من الغش والتدليس وخصوصًا تجار وبائعي النَّسيج والمَنْسوجات «يؤدَّب».[٤٠٠] وأُمر المحتسب «بحرق الملاحف والشقق ونحوها التي نُسجت على غير وجهها.»[٤٠١] وفي بعض الأحيان يُطاف بالغاشِّ مع إصلاح وتعويض ما يغشُّه،[٤٠٢] فكان بفاس إبان القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، مصطبة لكل طائفة تُعرَض عليها المصنوعات الرديئة، وعليها أسماء الصناع والتجار المهملين في عملهم، ليعلم كل الوافدين على السوق وأهل فاس بهم، فمنهم من ترك المدينة بعد أن شُهِّر به.[٤٠٣]

وتوضح نازلة ذكرها البرزلي[٤٠٤] كيف راقب التجار والمشترون بعضهم بعضًا داخل الأسواق، فقد ذُكر عن قاضٍ رُفع إليه أنه قُبض على يهودي وبيده حَرير أتى لبيعه في السوق وكان «شُوهد من تخبيله وتمريثه ما أوجب الريبة.» فأُخذ للقاضي، ولكن في النهاية أُثبت أنه قد جلب الثوب من قافلة وأنه «أمين».

وحرص المحتسبون على أن تكون حوانيت ودكاكين الصباغين وأفران غلي الغَزْل خارج أسوار المدن أو على أطرافها؛ لحجب الضرر والأصوات المرتفعة والروائح الكريهة، فكان بخارج مدينة فاس «الكوش والأفران المعَدَّة لطبخ الغزل».[٤٠٥]

هوامش

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٣.

(٢) المقدمة، ج٢، ص٨٤٩.

(٣) خاص الخاص، ص٦٤.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٧٠.

(٥) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٨٤.

(٦) أحمد مختار العبادي: مظاهر الحياة الاقتصادية، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع١، ١٩٨٠م، مج١١، ص١٥٧.

(٧) ابن المناصف: تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، ورقة ٨١ب.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٠.

(٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣١.

(١٠) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٣٣.

(١١) المصدر السابق، ص٣٤٢.

(١٢) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٥١.

(١٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٧.

(١٤) البكري: المغرب، ص١٥٥.

(١٥) السبتي: اختصار الأخبار، ص٣٩.

(١٦) جمال طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي، ص١٠١.

(١٧) عبد الباسط بن خليل: الروض الباسم، ص٣٦.

(١٨) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٣٠٨.

(١٩) البيان المغرب، ج٣، ص٥٧.

(٢٠) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٤٤٩.

(٢١) الدباغ: معالم الإيمان، ج٢، ص٣٤٣.

(٢٢) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، ص٣٩٦.

(٢٣) ابن القطان: نظم الجمان، ص٢٦٨.

(٢٤) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٢.

(٢٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤١٤.

(٢٦) ابن المناصف: تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، ورقة ٨١ب.

(٢٧) الزجالي: الأمثال العامة في الأندلس، ص١٢٨.

(٢٨) المازري: فتاوى المازري، ص٢٣٢؛ البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٤، ص٣٠٠.

(٢٩) المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص٢٧٥.

(٣٠) سُمي بسوق الوزر؛ لابتياع أنواع من الألبسة تسمى الوزرة. ابن عظوم: كتاب الأجوبة، ج١، ص٢٤٧.

(٣١) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٥.

(٣٢) عبد الله الترجمان: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق: عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص٨٨؛ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص١١٦.

(٣٣) محمد حسن: المرجع السابق، ص٤٧٦.

(٣٤) الأبي: الإكمال، ج٥، ص٣١.

(٣٥) الترجمان: المصدر السابق، ص٨٨؛ الزركشي: المصدر السابق، ص١١؛ جميلة مبطي المسعودي: المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها، ص١٢١.

(٣٦) محمد حسن: المرجع السابق، ص٤٨٣.

(٣٧) البرزلي: المصدر السابق، ج٣، ص٨٥.

(٣٨) مقديش: نزهة الأنظار، ج٢، ص٦٢.

(٣٩) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٣.

(٤٠) المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٧٢.

(٤١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٣٩٦.

(٤٢) التادلي: التشوف، ص٣٦٨.

(٤٣) عبد الوهاب الدبيش: توزيع المرافق الاقتصادية بفاس المرينية، ضمن كتاب «أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب»، جامعة الحسن

الثاني، عين الشقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ج٢: ص٤٠، هامش ٢٧.

(٤٤) عبد الوهاب الدبيش: المرجع السابق، ص٤١، هامش ٣١.

(٤٥) المقري: نفح الطيب، ج٧، ص١٣٣.

وينشد الشاعر في سوق البز بتلمسان:

تركتك سوق البز لا عن تهاون   وكيف وظبيٌّ سانح فيك بارحُ
وإني وقلبي في ولائك طامع   وناظر وهمي في سماطك طامحُ

(٤٦) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٢٦١.

(٤٧) نظم الجمان، ص٢٢٢؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٤٩.

(٤٨) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٤٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم: قُرْطُبَة حاضرة الخلافة في الأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ج١: ١٩٩٧م، ص١٨١.

(٤٩) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٤١.

(٥٠) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، ص٣٨٣، ٣٨٥-٣٨٦.

(٥١) توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٥١.

(٥٢) نفس المرجع، ص٤٤٢.

(٥٣) فمن ضمن أزجاله:

داب نمضي للمرقطال بالجري
إن دريت آش في بالي أن نشتري
والل يا قوم لقد هو ثوبا رفيع
كامل القد واسع التربيع
لس تجد فيه خلق ولا تقطيع

ديوان ابن قزمان، ص٧٧-٧٨.

(٥٤) توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٨٥.

(٥٥) اختصار الأخبار، ص٣٦.

(٥٦) توريس بالباس: نفس المرجع، ص٤٨٥.

(٥٧) محمد سيد الناقة: الأسواق التجارية والصناعية في الأندلس، ص١٩٣.

(٥٨) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص١٩٥.

(٥٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٩.

(٦٠) العذري: ترصيع الأخبار، ص٨٦.

(٦١) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٤٤٩.

(٦٢) سيد الناقة: الأسواق التجارية والصناعية، ص٣٩٠.

(٦٣) ابن أبي زيد: النوادر، ج٦، ص٣٣٨.

(٦٤) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٦٢.

(٦٥) فرحون: تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٢٦؛ ابن الحاج: المصدر السابق، الجزء السابق، ص٦٠.

(٦٦) ابن أبي زيد: المصدر السابق، الجزء السابق، ص٣٣٨.

(٦٧) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٦٢.

(٦٨) ابن الحاج: المصدر السابق، الجزء السابق، ص٣٣.

(٦٩) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٥.

(٧٠) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥١٥؛ الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٨.

(٧١) الجزيري: المقصد المحمود، ج١، ص١٥١؛ البرزلي: نوازل البرزلي، ج٤: ص٤٥٧.

(٧٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨؛ الجزنائي: جني زهرة الآس، ص٤٤.

(٧٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٨١.

(٧٤) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٣٢؛ السيد عبد العزيز سالم: قُرْطُبَة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج١، ص١٨٣.

(٧٥) أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٣.

(٧٦) أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٦٨.

(٧٧) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥٠٦-٥٠٧؛ أحمد الطوخي: المرجع السابق، ص٦٩.

(٧٨) توريس بالباس: المرجع السابق، ص٥١٠.

(٧٩) البكري: المغرب، ص٢٢-٢٣؛ أحمد الطوخي: نفس المرجع، ص٨١.

(٨٠) أحمد الطوخي: نفس المرجع، ص٨٢.

(٨١) محمد رابطة الدين: قيسارية مراكش الموحدية، ضمن كتاب «أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب»، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ج٢، ص٩.

(٨٢) مجهول: الاستبصار، ص٢١٠؛ محمد رابطة الدين: المرجع السابق، ص١٠.

(٨٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٥٧.

(٨٤) ابن عذاري: المصدر السابق، ص٢١٨.

(٨٥) بلوط عمر: الفنادق في مدينة تلمسان الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية الإنسانية والاجتماعية، قسم الآثار، ٢٠٠٤م، ص٧٥.

(٨٦) المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٧٢.

(٨٧) أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص٤٧.

(٨٨) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨.

(٨٩) مجهول: ذكر قصة المهاجرين، ص٢٤٧.

(٩٠) وصف أفريقيا، ص٢٤٥–٢٤٧؛ أحمد الطوخي: القيسارات الإسلامية، ص٧٨-٧٩.

(٩١) السبتي: اختصار الأخبار، ص٣٦؛ أحمد الطوخي: المرجع السابق، ص٨١.

(٩٢) أحمد الطوخي: المرجع السابق، ص٨١؛ عبد العزيز بن عبد الله: الحرف والصناعات التقليدية، ص٢٢٠.

(٩٣) ترصيع الأخبار، ص٨٦.

(٩٤) أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٥.

(٩٥) الطوخي: المرجع السابق، ص٨٤.

(٩٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٣٩٦-٣٩٧؛ أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٥.

(٩٧) العذري: ترصيع الأخبار، ص١٨.

(٩٨) التكملة، ص٥٠٦ (رقم ١٤٣).

(٩٩) الطوخي: المرجع السابق، ص٨٤.

(١٠٠) توريس بالباس: المرجع السابق، ص٥١٤؛ الطوخي: مظاهر الحضارة في عصر بني الأحمر، ص٢٧٨؛ الطوخي: نفس المرجع، ص٩٣-٩٤.

(١٠١) محمد رابطة الدين: توزيع المرافق الاقتصادية بفاس المرينية، ص٤٤.

(١٠٢) سالم: العمارة المدنية، ص١٤٣.

(١٠٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٩، ٥٧٥؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٥٤.

(١٠٤) محمد سيد الناقة: الأسواق التجارية والصناعية، ص٣٧٨.

(١٠٥) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٤٦.

(١٠٦) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٤٠٠؛ ج٥، ص١٨٦.

(١٠٧) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٤٨٥.

(١٠٨) سالم: المرجع السابق، ص١٤٣.

(١٠٩) ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص٥٧٦-٥٧٧.

(١١٠) سالم: المرجع السابق، ص١٤٣.

(١١١) صالح بعزيق: بجاية في العهد الحفصي دراسةٌ اقتصادية واجتماعية، منشورات جامعة تونس، ٢٠٠٦م، ص٢٥٦.

(١١٢) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٤٥٤.

(١١٣) السبتي: اختصار الأخبار، ص٣٨.

(١١٤) ابن أبي زرع: الروض القرطاس، ص٤٧؛ الجزنائي: جني زهرة الآس، ص٤٣.

(١١٥) بالباس: نفس المرجع، ص٤٥٣.

(١١٦) المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، ١٩٥٥م، ص١٥٩؛ توريس بالباس: الأبنية الإسلامية، ص١٠٩.

(١١٧) المصدر السابق، ص١٢٤.

(١١٨) توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٥٥.

(١١٩) محمد رابطة الدين: توزيع المرافق الاقتصادية بفاس المرينية، ص٤٣.

(١٢٠) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨.

(١٢١) السبتي: المصدر السابق، ص٣٧.

(١٢٢) ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص١٨٨-١٨٩.

(١٢٣) محمد رابطة الدين: المرجع السابق، ص٤٣.

(١٢٤) سورة النساء آية ٢٩.

(١٢٥) رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن: «تسعة أعشار الرزق في التجارة.» ورجاله ثقات، ونعيم هذا قال فيه ابن منده: ذُكر في الصحابة ولا يصح. وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان: إنه تابعي؛ فالحديث مُرسَل.

(١٢٦) رواه الحاكم عن أبي هريرة.

(١٢٧) الغبريني: عنوان الدراية، ص١٩٥.

(١٢٨) ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٤٧٥ (رقم ٦٩٧).

(١٢٩) ابن الأبار: التكملة، ج١، ص٣٠٩.

(١٣٠) الدباغ: معالم الإيمان، ج٣، ص١٢٥.

(١٣١) الدباغ: المصدر السابق، ج٢، ص٢٠١، ص٢٦٦–٢٦٧.

(١٣٢) عبد العزيز بنعبد الله: الحرف والصناعات التقليدية، ص٢٢٠.

(١٣٣) فيذكر ابن عبدون في هذا الشأن أنه: «مُنِعَ أهل الذمة من الإشراف على المسلمين في منازلهم، والتكشيف عليهم، ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، أو بما هو من أُبَّهة، ومن ركوب الخيل بالسروج والزي بما هو زي المسلمين ... ويَمنع المسلمين أن يحاولوا لهم كل ما فيه خساسة أو إذلال للمسلمين، كطرح الكُنَاسة ونقل آلات الخمر، ورعاية الخنازير، وشبه ذلك، لما فيه من علوِّ الكفر على الإسلام، ويُؤدَّب من فعل ذلك.» رسالة في القضاء والحسبة، ص١٢٢.

(١٣٤) يذكر جواتيان، وهو مؤرِّخ ومستشرق يهودي، أنَّ القدر الهائل من حرية الحركة الذي تمتَّع به اليهود والذي عكست صورته أوراق الجنيزة، كان من المستحيل أن يتحقَّق ما لم يكن لهم وضعٌ تشريعي، وما لم يسمح بذلك مناخ السياسة العامة؛ فمارس أهل الذمة في بلدان الغرب الإسلامي التجارة على أوسع نطاقها. دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ص٢١٢–٢١٣.

(١٣٥) الروض المعطار، ص٥٥٦.

(١٣٦) الزجالي: أمثال العوام في الأندلس، ص١٨٢.

(١٣٧) مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٣٨.

(١٣٨) مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص٢٥.

(١٣٩) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص٤٤.

(١٤٠) توريس بلباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥٣٤.

(١٤١) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص١٩٧.

(١٤٢) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 93–96.

(١٤٣) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٨٤.

(١٤٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص٢٤.

(١٤٥) مقديش: نزهة الأنظار، ج١، ص٦٠.

(١٤٦) لوترنو: فاس في عصر بني مرين، ص١٥٨-١٥٩؛ القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ص١٦١.

(١٤٧) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٤، ص٤٥٧-٤٥٨.

(١٤٨) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 94.

(١٤٩) ابن رحال: كشف القناع عن تضمين الصناع، ص١٠٠.

(١٥٠) الإبياني: مسائل السَّمَاسِرَة، ص٢٨-٢٩.

(١٥١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص٢٤٧.

(١٥٢) ابن فرحون: تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٤٥؛ الإبياني: المصدر السابق، ص٣٧.

(١٥٣) محاسن التجارة، ص٤٤؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢١٦.

(١٥٤) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٤.

(١٥٥) الزجالي: الأمثال العامة في الأندلس، ص٢٩٦.

(١٥٦) الشيزري: المصدر السابق، ص٦٣؛ ابن عبد الرءوف: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص٨٥؛ ابن الأخوة: المصدر السابق، ص٢١٦.

(١٥٧) القباب: شرح مسائل ابن جماعة في البيوع، ص٢٦٦.

(١٥٨) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٣٥٦؛ الإبياني: نفس المصدر، ص٣٣.

(١٥٩) السقطي: آداب الحسبة، ص٦١.

(١٦٠) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٣٦٥-٣٦٦.

(١٦١) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٤؛ الونشريسي: المعيار، ج٥: ص٢٢٠.

(١٦٢) المجليدي: التيسير في أحكام التسعير، ص١١٤.

(١٦٣) الشيزري: نفس المصدر، ص٦٣-٦٤؛ السقطي: المصدر السابق، ص٥٩؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢١٧.

(١٦٤) القباب: شرح مسائل البيوع، ص٢٦٨-٢٦٩.

(١٦٥) التادلي: التشوف، ص٣٩٣.

(١٦٦) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٤، ص٢٤٠.

(١٦٧) ابن رحال: كشف القناع عن تضمين الصناع، ص١٠١؛ القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص١٦٣.

(١٦٨) المصدر السابق، ص١٠٠.

(١٦٩) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 87-88.

(١٧٠) الونشريسي: المصدر السابق، ج٨، ص٣٦٣.

(١٧١) الدمشقي: محاسن التجارة، ص٤٤.

(١٧٢) الونشريسي: نفس المصدر، ج٨، ص٣٥٦.

(١٧٣) كشف القناع عن تضمين الصناع، ص١٠١.

(١٧٤) ابن رحال: المصدر السابق، ص١٠٩.

(١٧٥) ابن رحال: نفس المصدر، ص١٠١؛ القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص١٦٣.

(١٧٦) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٤٩٤.

(١٧٧) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٥١٦.

(١٧٨) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣٥.

(١٧٩) الإبياني: مسائل السماسرة، ص١٨.

(١٨٠) الإبياني: المصدر السابق، ص١٨-١٩.

(١٨١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٣٥٧؛ الإبياني: نفس المصدر، ص٢٠، ٣٦، ٣٨.

(١٨٢) البرزلي: المصدر السابق، ج٣، ص٥٦١؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج٨: ص٣١٨.

(١٨٣) الإبياني: مسائل السماسرة، ص٥٠.

(١٨٤) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٣٥٨.

(١٨٥) الإبياني: المصدر السابق، ص٤٥، ٤٨، ٤٩.

(١٨٦) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٥٦٠؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج٨: ص٣٦٣؛ الإبياني: نفس المصدر، ص٤٤.

(١٨٧) محمد علي قويدر: التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين (٥٤١-٦٦٨هـ/١١٤٧-١٢٦٩م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠١٠م، ص١١٩.

(١٨٨) الجزيري: المقصد المحمود، ج٢، ص٣٤٧.

(١٨٩) رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٩.

(١٩٠) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص١٩٤.

(١٩١) تبصرة الحكام، ج٢، ص٢٤٥.

(١٩٢) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص١٩٧.

(١٩٣) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣١.

(١٩٤) ابن أبي زيد: النوادر، ج٧، ص٨١.

(١٩٥) ابن زمنين: منتخب الأحكام، ص٣٤١.

(١٩٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٤٧؛ علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، القاهرة، القدس للإعلان والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص٥١.

(١٩٧) برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٦٣.

(١٩٨) القلقشندي: المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٧؛ علي جمعة: المرجع السابق، ص٥١.

(١٩٩) فالتنس هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص٩٥٤؛ برنشفيك: المصدر السابق، ج٢: ص٢٦٣.

(٢٠٠) علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ص٥٢.

(٢٠١) برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٦٣.

(٢٠٢) صورة الأرض، ص١١٤.

(٢٠٣) عثمان المنصوري: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠١م، ص٨٦.

(٢٠٤) علي جمعة: المرجع السابق، ص٥٠.

(٢٠٥) فالتنس هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٨٤.

(٢٠٦) فالتنس هنتس: المرجع السابق، ص٩١.

(٢٠٧) عبد الهادي التازي: دور المحتسب في السوق، ص١٣٤؛ بلوط عمر: الفنادق في مدينة تلمسان الزيانية، ص٧٦-٧٧.

(٢٠٨) عبد الهادي التازي: دور المحتسب في السوق، ص١٣٤.

(٢٠٩) ابن عظوم: كتاب الأجوبة، ج١، ص٢٠٦.

(٢١٠) ابن أبي زيد: النوادر، ج٦، ص٣١٧.

(٢١١) الجزيري: المقصد المحمود، ج١، ص٢٢٠.

(٢١٢) المصدر السابق، ص٣١.

(٢١٣) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥٣٣.

(٢١٤) عثمان المنصوري: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، ص٨٧.

(٢١٥) محمد المنوني: ورقات عن الحضارة، ص١٤١–١٤٣.

(٢١٦) المصدر السابق، ص١٤١–١٤٣.

(٢١٧) Sarah. C. Davis: Sicily and the Medieval Mediterranean, p. 161.

(٢١٨) برنشفيك: إفريقية في العهد الحفصي، ج٢: ص٢٦٣.

(٢١٩) وصف أفريقيا، ص١٢٨.

(٢٢٠) السقطي: آداب الحسبة، ص١٢٠.

(٢٢١) ابن عظوم: كتاب الأجوبة، ج١، ص٢٢١.

(٢٢٢) ابن إصبغ: ديوان الأحكام، ص٣٨٠.

(٢٢٣) معالم القربة، ص٣٤٠.

(٢٢٤) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, L'Ibérie chrétienne et le Maghreb: XIIe–XVe siècles, [edited by Jacques Heers and Georges Jehel], 1990, p. 483.

هذه المقالة ترجمها الأستاذ الدكتور جمال طه وهي بعنوان «الأسعار ومستوى الحياة في بلاد المغرب وكتالونيا في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر» مقالة تحت الطبع.

(٢٢٥) عثمان المنصوري: التجارة بالمغرب، ص٨٨.

(٢٢٦) عثمان المنصوري: المرجع السابق، ص٨٨.

(٢٢٧) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 483.

(٢٢٨) فالتنس هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٩٤.

(٢٢٩) عثمان المنصوري: المرجع السابق، ص٨٨.
(٢٣٠) Dufourcq: Op.cit., p. 485.
(٢٣١) ابن أبي زيد: النوادر، ج٩، ص٢٦٨.
(٢٣٢) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣١.
(٢٣٣) الروض المعطار، ص٣٣١.
(٢٣٤) ابن العطار: الوثائق والسجلات، ص٥٣.
(٢٣٥) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص٦٣، ١٣١.
(٢٣٦) نوازل المازري، ص٢٣٢.
(٢٣٧) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص١٣٠.
(٢٣٨) البكري: المُغرب، ص١٧.
(٢٣٩) فتاوى ابن رشد، ص٣٣٠-٣٣١.
(٢٤٠) أحسن التقاسيم، ص٢٤٠.
(٢٤١) المصدر السابق، ج٥، ص١١٤، ١٧٧.
(٢٤٢) فرحة الأنفس، ص٢٧.
(٢٤٣) فالتنس هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٣٦-٣٧.
(٢٤٤) الوثائق والسجلات، ص٥٣.
(٢٤٥) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٥.
(٢٤٦) آداب الحسبة، ص١٢٠.
(٢٤٧) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٠.
(٢٤٨) فالتنس هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٤١.
(٢٤٩) إفريقية في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٦١.
(٢٥٠) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 481.
(٢٥١) فتاوى البرزلي، ج٣، ص٤٥٠.
(٢٥٢) أوليفيا رمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص١٤٩، ٢٤٤-٢٤٥.
(٢٥٣) أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص٢٤٣.
(٢٥٤) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 89.
(٢٥٥) جواتيان: النظم الإسلامية، ص٢٤٢.

(٢٥٦) الدباغ: معالم الإيمان، ج٢، ص٣٤٢.

(٢٥٧) ابن إصبغ: نوازل ديوان الأحكام، ص٢٨٤.

(٢٥٨) البكري: المغرب، ص١١؛ الحميري: الروض المعطار، ص٢٩.

(٢٥٩) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٢٨.

(٢٦٠) مجهول: الاستبصار، ص١٨٩.

(٢٦١) ابن سراج: فتاوي قاضي الجماعة، ص١٦٩.

(٢٦٢) القباب: شرح مسائل البيوع، ص٢٠٣: ٢٠٦.

(٢٦٣) الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص١٩٧.

(٢٦٤) القباب: المصدر الساق، ص٣١١.

(٢٦٥) ابن الرصاع: شرح حدود ابن عرفة (الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية)، تحقيق: محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص٣٨٤.

(٢٦٦) شرح مسائل البيوع، ص٣٠٩.

(٢٦٧) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٦٥.

(٢٦٨) النوادر، ج٦، ص٣٤٦.

(٢٦٩) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٩–٣٥٦؛ ابن رشد: فتاوى ابن رشد، ص٧١٦.

(٢٧٠) القباب: شرح مسائل البيوع، ص٢١٣.

(٢٧١) ابن أبي زيد: النوادر، ج٦، ص٣٩٤.

(٢٧٢) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٦، ص٣٨٦.

(٢٧٣) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٣٨؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ص٥١٧.

(٢٧٤) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٢؛ محمد علي أحمد قويدر: التجارة الداخلية في المغرب، ص١١٨.

(٢٧٥) روجيه لوترونو: فاس في عصر بني مرين، ص١٥٥؛ ابن الوزان: المصدر السابق، ص٢٣٧، ٢٤١.

(٢٧٦) الإبياني: مسائل السماسرة، ص٦٠.

(٢٧٧) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٢٤٦.

(٢٧٨) ابن العطار: الوثائق والسجلات، ص١٤٦.

(٢٧٩) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٢.

(٢٨٠) ابن العطار: الوثائق والسجلات، ص١٤٩.

(٢٨١) الجبي: شرح غريب ألفاظ المدونة، ص٥٧.

(٢٨٢) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٢٨-٢٩.

(٢٨٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢١٣.

(٢٨٤) اللخمي: التبصرة «كتاب البيوع الفاسدة، كتاب التدليس بالعيوب، كتاب الاستبراء، كتاب بيع الخيار، كتاب العرايا، كتاب التجارة بأرض الحرب، كتاب الأقضية، وكتاب الشهادات» تحقيق: هاشم محمد حسين ناقور، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٣٠هـ، ص٥٧؛ ابن الرصاع: الهداية الكافية، ص٣٥٤؛ ابن هلال: الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، ص١٢٥: ١٢٨.

(٢٨٥) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج١٠، ص٢٣٢.

(٢٨٦) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣٤-٣٥.

(٢٨٧) ابن إصبغ: نوازل ديوان الأحكام، ص٢٠٨.

(٢٨٨) اللخمي: التبصرة، ص٧٧.

(٢٨٩) ابن رشد: فتاوى ابن رشد، ص٢٤٨.

(٢٩٠) اللخمي: المصدر السابق، ص٥٧؛ المازري: فتاوى المازري، ص٢٢٥؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢١٣.

(٢٩١) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٦، ص٣١٣؛ ابن رشد: المصدر السابق، ص٧١٦.

(٢٩٢) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣٠.

(٢٩٣) القباب: شرح مسائل البيوع، ص٣١١.

(٢٩٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٥١٨.

(٢٩٥) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٢٤١.

(٢٩٦) العقباني: تحفة الناظر، ص١٤٣؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص١٩٠.

(٢٩٧) الجزيري: المقصد المحمود، ج١، ص٢٢٠، ٢٢٧.

(٢٩٨) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٢٩؛ اللخمي: التبصرة، ص١١٩.

(٢٩٩) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٢٩.

(٣٠٠) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦٣؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢١٣.

(٣٠١) الرصاع: شرح حدود ابن عرفة، ص٤٣١؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ص٥٢٧.

(٣٠٢) ابن أبي زيد: النوادر، ج١٠، ص٦١.

(٣٠٣) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج١٠، ص٧٠، ج٦، ص٣٠٦.

(٣٠٤) ابن عظوم: الأجوبة، ج٧، ص٩٠.

(٣٠٥) الإمام سحنون: المدونة الكبرى، ج٣، ص٦١٤؛ الونشريسي: المعيار، ج٦، ص١٨٩.

(٣٠٦) ابن العطار: الوثائق والسجلات، ص١٩٢–١٩٥.

(٣٠٧) الجزيري: المقصد المحمود، ج٢، ص٣٧٤.

(٣٠٨) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 479.

(٣٠٩) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣٠.

Avner Greif: Reputation and Coalitions in Medieval Trade: Evidence on the Maghribi Traders, The Journal of Economic History, Vol. 49, No. 4 (Dec., 1989), p. 861.

(٣١٠) المجليدي: التيسير في أحكام التسعير، ص٤٩.

(٣١١) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٣١.

(٣١٢) ابن الحاج: المصدر السابق، ص٨١.

(٣١٣) تحفة الناظر، ص١٣٦.

(٣١٤) جواتيان: النظم الإسلامية، ص٢٤٣.

(٣١٥) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 89.

(٣١٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٧٧.

(٣١٧) عيسى الذيب: التجارة في عصر دولة المرابطين ٤٤٨–٥٤٠هـ/١٠٥٦–١١٤٥م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٠م، ص٢٨٤.

(٣١٨) الزهري: الجغرافية، ص١٠٢.

(٣١٩) رسلان: دراسة للنسِيج المذهب، ص١٠.

(٣٢٠) مجهول: الاستبصار، ص١٢٩.

(٣٢١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٤.

(٣٢٢) ابن دحية: المطرب من شعراء أهل المغرب، ص١٧٢.

(٣٢٣) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 483.

(٣٢٤) الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، ص١٥١–١٥٤.

(٣٢٥) ابن رشد: فتاوى ابن رشد، ص٣٣٠-٣٣١.

(٣٢٦) البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٣، ص١٣١.

(٣٢٧) المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص٣٢٨.

(٣٢٨) Dufourcq: Prix et niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 482.

(٣٢٩) Goitien; A Mediterranean Society, Vo. 1, p. 302; Moshe Gil; The Jewish Merchants in the Light of Eleventh-Century Geniza Documents, p. 291; The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 93–96.

(٣٣٠) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص٧٩.

(٣٣١) Avner Greif: Reputation and Coalitions in Medieval Trade, p. 861.

(٣٣٢) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, P. 482.

(٣٣٣) Dufourcq: Op.cit., p. 481.

(٣٣٤) Michele Amari: I Diplomi Arabi R. Archivio Florention, Frienze, 1863, p. 48.

(٣٣٥) مجهول: الاستبصار، ص١١٩.

(٣٣٦) البكري: المغرب، ص٣٦؛ مجهول: الاستبصار، ص١١٩.

(٣٣٧) الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، ص١٤٨-١٤٩.

(٣٣٨) Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 47.

(٣٣٩) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٣٦٤.

(٣٤٠) التادلي: التشوف، ص٣٢٢.

(٣٤١) عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص٤٠٣ (الملحق ٦).

(٣٤٢) التادلي: التشوف، ص٣٦٨.

(٣٤٣) التادلي: المصدر السابق، ص٣١٦.

(٣٤٤) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 483.

(٣٤٥) لويس سيكو دي لوثينا: وثائقُ عربيةٌ غرناطية من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦١، وثيقة رقم ٦هـ بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر ٨٥٨هـ/١٩ أبريل ١٤٥٤م، ص١٩.

(٣٤٦) لويس سيكو: المصدر السابق، وثيقة رقم ٤٧أ بتاريخ شوال ٨٨٨هـ/١٦ نوفمبر ١٤٨٣م، ص٨٧.

(٣٤٧) نفس المصدر، وثيقة رقم ٥٥، ص٩٨.

(٣٤٨) المعيار، ج٥، ص١٠٧-١٠٨.

(٣٤٩) لويس سيكو: وثائقُ عربيةٌ غرناطية من القرن التاسع الهجري، ص١٤٤.

(٣٥٠) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص٢٠٠.

(٣٥١) أوليفيا كونستبل: التجارة والتجَّار في الأندلس، ص١٧٢.

(٣٥٢) وصف أفريقيا، ص٢٤٧.

(٣٥٣) الحميري: الروض المعطار، ص٥٤١.

(٣٥٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ص٥٤٦.

(٣٥٥) ابن عروس: وشي الطروس، ص٤٩٢؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص١٩٤، هامش ٤؛ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص١٦٧.

(٣٥٦) أوليفيا كونستبل: التجارة والتجار، ص١٧١.

(٣٥٧) الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، ص١٤٤.

(٣٥٨) التعتيب: من الضرائب التي أُخذت من النساجين صانعي العتابي في عصر المرابطين، وخُصصت لإقامة أسوارٍ جديدة حول المدن وترميم القديم منها. بوتشيش: أثر الحروب على الضرائب في المغرب، مجلة الاجتهاد، ع٣٤-٣٥، ١٤١٧هـ، ص٨٩.

(٣٥٩) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٣-٥٦٤.

(٣٦٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٧٣-٧٤.

(٣٦١) بوتشيش: أثر الحروب على الضرائب في المغرب، ص٨٩.

(٣٦٢) والبيزا تقابل الدينار التونسي الذي يتكون من ٨ دراهم. محمد حسن: المدينة والبادية، ص٥٤٠.

(٣٦٣) الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص٢٦٨.
(٣٦٤) المعيار، ج٥، ص٢٦٠.
(٣٦٥) Serjeant: Material for a History of Islamic Textiles, p. 33.
(٣٦٦) Maya Shatzmiller: Women and Wage Labour in the Medieval Islamic West, p. 194-195.
(٣٦٧) مارمول: أفريقيا، ج٣، ص١٦.
(٣٦٨) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٦٠؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج٢، ص٢٩٩.
(٣٦٩) العقباني: تحفة الناظر، ص٩٧؛ الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٢٩٧.
(٣٧٠) الغبريني: عنوان الدراية، ص١٩٥-١٩٦.
(٣٧١) المدينة والبادية، ص٤٦٧.
(٣٧٢) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٦٨.
(٣٧٣) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 88.
(٣٧٤) Hilmar C. Krueger: Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century, Speculum, Vol. 8, No. 3 (Jul., 1933), p. 386.
(٣٧٥) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٠٦.
(٣٧٦) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ص٨٧.
(٣٧٧) العذري: ترصيع الأخبار، ص٩٣.
(٣٧٨) Amari: I Diplomi Arabu del R. Archivio Fiorentino, p. 93.
(٣٧٩) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.
(٣٨٠) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص٧٧.
(٣٨١) ديوان الأحكام، ص٢٨؛ الأبي: الإكمال، ج٥، ص٢.
(٣٨٢) المجليدي: التيسير في أحكام التسعير، ص٤٢.
(٣٨٣) في آداب الحسبة، ص٥: ٩؛ نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، ١٩٧٦م، ص١٢٢.
(٣٨٤) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٥١؛ المجليدي: المصدر السابق، ص٤٣-٤٤؛ ابن الديبع: بغية الإربة في معرفة أحكام الحسبة، ص٥٨-٥٩.
(٣٨٥) جمال طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص١٠١.

(٣٨٦) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٥٢.
(٣٨٧) ابن أبي زيد: النوادر، ج٦، ص٣٦٢.
(٣٨٨) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص٥١.
(٣٨٩) ابن رشد: فتاوى ابن رشد، ص٩٢٣؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص٥٢؛ العقباني: تحفة الناظر، ص١٢٤.
(٣٩٠) العقباني: المصدر السابق، ص١٢٣.
(٣٩١) ابن أبي زيد: المصدر السابق، ج٦، ص٢٧٥؛ اللخمي: التبصرة، ص١٤٥.
(٣٩٢) الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص٥٨؛ العقباني: المصدر السابق، ص١٢٣.
(٣٩٣) ابن أبي زيد: نفس المصدر، ج٦، ص٢٦٨، ج٩، ص٢٦٧؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص٥٠؛ العقباني: نفس المصدر، ص١٢٢.
(٣٩٤) ابن المناصف: تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، ورقة ٨٣أ.
(٣٩٥) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٤.
(٣٩٦) ابن أبي زيد: النوادر والزيادات، ج٦، ص٣٦٢.
(٣٩٧) ابن الحاج: المدخل، ج٤، ص١٧.
(٣٩٨) العقباني: تحفة الناظر، ص١٢٢.
(٣٩٩) عبد الهادي التازي: المحتسب، ص٥٤.
(٤٠٠) الونشريسي: المعيار، ج٩، ص٢٦٨؛ العقباني: المصدر السابق، ص١٢٢.
(٤٠١) المجليدي: التيسير في أحكام التسعير، ص١٠٥، ملحق ١.
(٤٠٢)

أيضًا للمحتسب التمزيق والكسر والإراقة والتخريق
والضرب والطواف بالمضروب ويتلف الشيء الذي يعيب

(٤٠٣) لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ص١٥٤.
(٤٠٤) فتاوي البرزلي، ج٤، ص١٦٦.
(٤٠٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٩.

الفصل السادس

المُبادلات التجارية للنسِيج في بلدان الغرب الإسلامي (٥–٩هـ/١١–١٥م)

كان لمنطقة الغرب الإسلامي دورٌ بارز في تنشيط حركة التجارة للنسِيج؛ لما تمتعت به مُدنه من كثرة وتنوِّع الإنتاج وتصدير ما يفيض عن الحاجة في الأقاليم والمُدن والقرى المعروفة بوفرة هذا الإنتاج، فضلًا عن العديد من المراكز الصناعية المعروفة بالمهارة والدقة؛ فتنوعت صادراته ووارداته بين منتجات خام ومنتجات مُصنَّعة حُمِلَتْ للخارج والداخل وباتجاهاتٍ مختلفة، نتيجة لاتساع رُقعتها خاصة على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي؛ مما ساعد على سهولة الاتصال والتبادل التجاري للنسِيج وعكست تشعُّب العلاقات التجارية لتلك المنطقة.

(١) أشكال المُبادلات التجارية للنسِيج في بلدان الغرب الإسلامي

اعْتُبِرَ الغرب الإسلامي مُوردًا ومُستهلكًا للنسِيج خلال فتراتٍ طويلة من تاريخه خاصة إبان فترات الازدهار السياسي والاقتصادي، فشهدت مُدنه تطورًا ملحوظًا فيما يتعلق بصناعة وتجارة النَّسيج؛ لذلك ازدهرت علاقاته التجارية مع المناطق المختلفة خاصة الغرب الأوروبي،[١] فعمد بعض التجار إلى الوفاء بتعهداتهم في جلب السلع والبضائع النَّسيجية، وإن اضطرهم الأمر إلى أن يدفعوا من أموالهم مقابل عدم فقدانهم لسمعتهم التجارية، ففي رسالة من مازرا بصِقِلِّيَّة عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م، ونظرًا لبعض الأمور وتأخر وصول سفن التجار المحمَّلة بالكَتَّان انخفض سعره عما كان مقررًا، ففي البداية رفض التجار أن يدفعوا، ولكن للمحافظة على مكانتهم التجارية دفعوا فقط خوفًا من أن يفقدوا سمعتهم.[٢]

(١-١) المُنتجات النَّسيجية الخام

من بين المنتجات التي دارت في فَلك المبادلات التجارية للنسِيج في مُدن الغرب الإسلامي؛ القُطْن، فكان يُنقَل من إِفْرِيقِيَّة وغيرها من البلاد كما في البَصْرة «ولها غلاتٌ كثيرة من القُطْن المحمول إلى إِفْرِيقِيَّة وغيرها.»[٣] ومن مدينة تادلة ذات الإنتاج الوفير فكان «يخرج القُطْن كثيرًا ويسافر إلى كل الجهات.»[٤] ونفس الأمر في مدينة داي فبها كثير من القُطْن حتى إن أهلها لا يحتاجون لأي قُطْنٍ آخر بخلاف ما تُنتجه أراضيهم لكثرته وجودته،[٥] وصَدرت سِجِلْماسَة القُطْن إلى سائر بلاد المغرب لكثرة إنتاجه.[٦]

واعْتُبر القُطْن من السلع الأندلسية المهمة التي صُدِّرت للعديد من المناطق، فيذكر ابن غالب[٧] عن شهرة الأندلس بالقُطْن فأصبح من السلع التي تدخل في قائمة صادراتها، قائلًا: «ويعم آفاق الدنيا منها، ويتجهَّز إلى القَيْروان وغيرها.» وفي جبل الشرف ونظرًا لطبيعة تربته التي جعلت قطنه يتميز بالكثرة والجودة؛ ففاض عن حاجتها فيصدر إلى باقي البلدان،[٨] وما اشتهرت به إِشْبِيلِية بتصدير القُطْن فيذكر العذري:[٩] «ويجتاز به المتجهزون من التجار إلى إفريقية.» وأشار ياقوت الحموي[١٠] لشهرة إِشْبِيلِية بتجارة القُطْن حيث يقول: «فإنه يُحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب.» وهو ما أكده الحِمْيَري[١١] بقوله: «ويتجهز به التجار إلى إِفْرِيقِيَّة وسِجِلْماسَة وما والاها.»

بجانب القُطْن وُجِدَ الكَتَّان على رأس المبادلات التجارية كمادةٍ خام نسيجية في بلدان الغرب الإسلامي ومنتجٍ مهم في تجارته، فاشتهرت البَصْرة بإنتاج الكَتَّان فكان سكانها يتبايعون به،[١٢] وحُمل من تونس للقيروان «فيظهر الانتفاع به.»[١٣] وإلى إِفْرِيقِيَّة وغيرها من البلاد،[١٤] واشتهرت كل من فزرونة ومتجية بالكَتَّان الجيد؛ فمنها يُحمل إلى العديد من البلدان.[١٥]

وأدرج الكَتَّان ضمن صادرات الأندلس،[١٦] خاصة من فحص إِلْبيرَة فصُدر لأقاصي البلاد،[١٧] وحُمل من مدينة لاردة إلى جميع نواحي الثغور.[١٨]

فضلًا عن صِقِلِّيَّة التي اشتهرت بتصدير الكَتَّان الجيد والرقيق،[١٩] فكان يُتجهز بالكَتَّان الكثير خاصة من قرية ميلاحي.[٢٠]

وعُدَّ الكَتَّان من أهم الواردات لُمدن الغرب الإسلامي بمختلف أصنافه إبان القرن ٥هـ/١١م خاصة القادم من مصْر كي يلبِّي احتياجاتها من صناعة الثياب والمَنْسوجات وبخاصة المُدن التونسية لإنتاج المَنْسوجات الكَتَّانية الفاخرة كالثياب السوسية،[٢١] فقد

ذكرت وثائق الجنيزة العديد من بالات وعدول الكَتَّان التي أُرسلت من مصْر إلى تُونس لعمل ثِياب السوسيات،[٢٢] وذُكر أن تاجرًا يهوديًّا أرسل إلى إِفْرِيقِيَّة ١٧٩ عدلًا من الكَتَّان يتراوح وزن الواحد منها ما بين ٤٥٠ إلى ٦٠٠ رطل.[٢٣]

واعْتُبِر الصوف من المواد الخام النَّسيجية التي وردت من بلدان الغرب الإسلامي وصُدرت له من كثير من المناطق، فحُمل الصوف من تلمسان إلى الأندلس،[٢٤] ونُقل إلى بلدان الغرب الأوروبي من مرسى هنين ووهران ومستغانم وتنيس وشرشال إلى ميورقة،[٢٥] والجمهوريات الإيطالية وفرنسا،[٢٦] وصُدرت الأغنام — الغنم والمعز والأبقار — للأندلس من مرسى فُضالة،[٢٧] ونُقل الصوف — في بعض الأوقات — لميورقة مع جزز الأغنام المغربية لباقي مُدن الأندلس، وورد الصوف من المشرق خاصة من الإسْكَنْدَرِيَّة كما تذكر وثائق الجنيزة، ففي رسالة مستهل القرن ٦هـ/١٢م أُرسلت شحنة من الصوف من الإسْكَنْدَرِية إلى أَلَمَرِيَّة «حَمَلَت الصوف على ظهر المركب ... إجمالي تكاليف الشحن ستة دنانير، دُفعت منها ثلاثة دنانير، وسوف يُدفع الباقي في أَلَمَرِيَّة بعد الوصول بالسلامة.»[٢٨] كما قصد التجار مدينة عِنَابة لشراء الصوف،[٢٩] وزودت مديونة مدينة فاس بالبرانس المديونية الصوفية الشهيرة التي لا ينفذ منها المطر،[٣٠] كما ورد لسبتة الصوف من جنوة في أواخر القرن ٦هـ/١٢م،[٣١] وصُدر الصوف من بجاية وتونس وجربة وطرابلس إلى مُدن مرسيليا وجنوة وبيزة والبندقية،[٣٢] وعلى الرغم من ذلك فقد حُمِلَت الأغنام من جبل الشارات بقُرْطُبَة لباقي المُدن والأقاليم الداخلية والساحلية، وضرب بها المثل في جميع الأقطار، وفي هذا الصدد يقول الإدريسي:[٣٣] «وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد.»

وعن الحرير فقد اشتهرت عدة مُدن وبلدان غرب إسلامية بإنتاجه، كالحرير القَابِسي والسوسي بالإضافة إلى الحرير الأندلسي، والخز، والحرير السيراكوزي الصقلي؛ فالحرير القَابِسي كان من بين المنتجات التي صُدرت للعديد من البلدان إبان القرن ٥هـ/١١م، فقد ذكر التاجر بارهون بن موسى التاهرتي الحرير القَابِسي في خطاب مؤرخ عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م، وذَكر التاجر سلامة بن موسى في عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م يشتكي من قلة الكميات المتوافرة منه.[٣٤]

وَعُدَّ حَرِير اللاسين Lasin أرخص أنواع الحرير وهو نوع متدني الجودة يُنتَج في بعض مُدن المغرب وصِقِلِّيَّة، وقد أُشير إليه في وثائق الجنيزة، ففي رسالة أرسلها التاجر نسيم بن خلفون ذكر أن سعره لا يتعدَّى درهمًا للرطل الواحد، بالإضافة لأنواعٍ

أخرى من الحرير، فعلى سبيل المثال طلب التاجر نيهوراي بن نسيم من التاجر يوشا بن إسماعيل المخموري أن يفحص ويراجع قافلة من الحرير قادمة إليه من الإسكندرية تحمل أنواعًا مختلفة من الحرير كالحرير «المفتول، المنجود، المصلب، والحرير التقاط» وغيرها، ولعل هذه هي صفات حَرِيرية وليست أنواعًا.[٣٥]

وخرجت شحنات الحرير من المُدن الأندلسية إلى أسواق البلدان الأخرى، واعْتُبر واحدًا من المنتجات الأساسية في التجارة بين الأندلس وبين مصْر، والشاهد على ذلك أحد حسابات التاجر نيهوراي بن نسيم لعام ٤٣٨هـ/١٠٤٦م، التى يُستشهد منها بوجود دخلٍ مالي وأرباح نتيجة المتاجرة بالحرير الأندلسى،[٣٦] كما ذكر ابن حوقل[٣٧] أن «بالأندلس غير طراز يرد إلى مصْر ومتاعه، وربما حُمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها.» ويقول[٣٨] أيضًا: «فأما أرديتهم المعمولة ببجانة فتُحمَل إلى مصْر ومكة واليمن وغيرها.» ويشير ابن الفقيه[٣٩] إلى أن الخز والوبر من دبر السمور كانت من الصادرات الأندلسية المهمة.

واستمر نقل الحرير الأندلسي من غَرْنَاطَة في عصر بني نصر إلى العديد من البلدان، ففي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م شُحنت كمية من الحرير الغرناطي إلى ميناء بروجس بأوروبا،[٤٠] كما أُرسلت شحنات الحرير إلى ميورقة، فيقول الزهري[٤١] عن ذلك: «ولا يعرفون الحرير ولا ثمرته إلا ما يُجلب إليهم من بلاد الأندلس والشَّام.»

واعْتُبرت صِقِلِّيَّة أحد المراكز المهمة في الحرير؛ فكان من أكثر الصناعات والتجارات المتداولة بها،[٤٢] فغادرت شحنات الحرير الصقلي متجهة نحو مُدن الشرق خاصة من الموانئ الجنوبية لصِقِلِّيَّة في طريقها للإسكندرية ومنها إلى الفسطاط، واختلفت نوعياته ما بين حَرِيرٍ خام ومغزول أو منسوج،[٤٣] فهناك دلائلُ أوليةٌ على وجود قوافلَ تجاريةٍ كبيرة من الحرير متجهة من صِقِلِّيَّة إلى مصْر، وهذا يظهر من خلال خطاب التاجر موسى بن يحيى المجانى إلى التاجر بنيامين بن يوسف عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م، وكذلك في خطاب التاجر صامويل الدانى من باليرم، الذي كتب في ذلك التاريخ خطابًا إلى أبي إسماعيل بن إبراهيم يذكر فيه أنه أرسل أكثر من عشرة أرطال من الحرير بتكلفة عشرة دنانير إلى زوجته المطلَّقة في مصْر؛ ليوفي لها ما اشْتُرط عليه في عقد الزواج، وهناك إشارات أخرى تظهر في خطاب التاجر حسن بن إسحاق الخولانى إلى ابن حوقل في مطلع القرن ٥هـ/١١م — ربما كُتب في الإسكندرية — يشير إلى نوع من الحرير قادم من صِقِلِّيَّة معبأ بين شحنة من الجلود من أجل حمايته من الماء، بالإضافة لإشارةٍ أخرى

تشير لنوعٍ آخر من الحرير السيراكوزي وردت في أوراق الجنيزة في خطاب مؤرَّخ عام ٤٤٠هـ/يناير ١٠٤٨م.[٤٤]

واشتهرت مدينة لقنت بالحَلْفاء، ومنها يتجهز إلى جميع بلاد البحر كمادةٍ خام أو على هيئة مصنوعات ومنتجات صُنعت من الحَلْفاء،[٤٥] واختصت مدينة شاطبة بالكاغد؛ فَعُدَّ من أهم الصادرات الأندلسية التي لها رواج في أسواق بلاد المشرق والمغرب، وفي هذا يقول الإدريسي: «بها [أي شاطبة] من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب.»[٤٦]

(١–٢) المنتجات الصناعية (المَنْسوجات)

نشأت علاقاتٌ تجارية بين بلدان الغرب الإسلامي والبلدان والمُدن المختلفة خاصة فيما يتعلق بتجارة المَنْسوجات؛ ففي الأندلس اعْتُبرت تجارة المَنْسوجات أكثر أهمية بالنسبة للاقتصاد الأندلسي، وبالأخص المَنْسوجات الحريرية، على الرغم من أن الكَتَّان والصوف والقُطْن نالوا قسطًا من التجارة الدولية للنسِيج الأندلسي.[٤٧]

ويشير الونشريسي[٤٨] إلى أن تجار النَّسيج في قيسارية بجاية ربطتهم صلات تجارية مع تجار من مازونة[٤٩] في شراء وبيع الحرير والمَنْسوجات خاصة الحنابل، بالإضافة للأقمشة الكَتَّانية والصوفية والحريرية التي حُمِلَتْ لمختلف الأقطار والبلدان فوصلت إلى الهِنْد،[٥٠] كما اعْتُبر من أهم الواردات لأسواق الغرب الإسلامي من مُدن الغرب المسيحي الأقمشة القُطْنية، وأقمشة الكَتَّان، وأقمشة القُنَّب الخشنة، وبعض الأقمشة الصوفية والأغطية الصوفية، والأقمشة القادمة من فلورنسا، وإنجلترا، وإيطاليا،[٥١] وقَدِمت لأسواق الغرب الإسلامي الأقمشة الحريرية المطعمة بالذهب والديباج من بلدان الغرب المسيحي،[٥٢] بالإضافة للأقمشة القادمة من فرنسا وجنوة وميلان.[٥٣]

وحظيت مَنْسوجات وأقمشة المغرب بشهرة في مصْر وبالأخص القاهرة، ففي رسالةٍ مؤرَّخة في أواخر القرن ٥هـ/١١م مُرسلَة للتاجر أبى الفرج بن نسيم الرقي بالإسكندرية، من التاجر سلمان بن إبراهيم الرقي بالفسطاط، تذكر بشأن الأقمشة المغربية: «أخبرت أبا سعد عن الأقمشة التي أحضرتها من المغرب، فقال إنه أوصى بإحضارها إلى هنا [الفسطاط] … أرجو إرسال هذه الأقمشة إذا وُجد من ينقلها.» وفي هذا اشارة إلى كثرة الطلب على الأقمشة المغربية لجودتها، على عكس جباب الصوف؛ فلم تلاقِ الرواج الأمثل في ذلك الوقت بسبب حالة الركود التي أصابت الأسواق المصْرية في هذا الوقت، على عكس

الأقمشة «فجباب الخز لا تسوى شيئًا؛ فالجبة تُباع بأقل من أربعة دنانير، الرجاء إعلام أبى الحسن بذلك.»[٥٤]

ومن مُدن المغرب الأدنى التي اشتهرت بمَنْسوجاتها قابس؛ فكانت كثيرة الحرير والصوف،[٥٥] بالإضافة لسجاد قابس الذي عُرف باسم «القيلة» أو العرش فهو من النوعيات القيمة الحسنة، ويتكوَّن من قطعتَين باللون الأخضر، فكان على رأس السلع المصدَّرة لباقي البلدان،[٥٦] كما جُلبت أنواع من الأقمشة الصوفية من القَيْروان إلى أسواق أَوْدَغَسْت،[٥٧] واشتهرت سوسة بجودة مَنْسوجاتها وغزلها فحُمِلَتْ شرقًا وغربًا،[٥٨] وعلى وجه الخصوص الثياب الرفيعة السوسية المرتفعة الثمن والمعروفة فَصُدِّرت إلى العديد من البلاد،[٥٩] فصُدِّرت لمصْر وخاصة لمدينة الإسكندرية،[٦٠] لهذا كانت سوسة مقصدًا للتجار، عامرة بالناس، كثيرة المتاجر «قاصدون وعنها صادرون بالمتاع الذي يعدم قرينه من أنواع الثياب والعمائم المنسوبة إليها.»[٦١] وتونس التي اشتهرت بالقماش الإفريقي «ولجودته أُطلق عليها النصافي البغدادية، وعُدَّت من أحسن كساوي المغرب.»[٦٢] وحُمِلْت الثياب الكَتَّانية من تونس إلى تلمسان عن طريق التجار «أن قافلة وردت من تونس وكانوا يجلبون ثِياب الكتان ويحملون ثِياب الصوف.»[٦٣]

هذا وتُجهَّز من المهدية بالثياب الرفيعة إلى العديد من البلدان فيقول الحميري:[٦٤] «وتُعمل بها الثياب الرفيعة الجيدة ويُتَجَّهز بها إلى الآفاق.» كما عمل بقسطيلية الصوف في أغلب نواحيها وبمختلف أنواعه من «الشقة والكُسى والحَنْبَل، إلى سائر ما يُعمل منه، يُحمل منها إلى جميع الأقطار.»[٦٥]

ومن مُدن المغرب الأوسط؛ قسنطينة التي اعْتُبِرَت من مراكز إنتاج المَنْسوجات الكَتَّانية حيث منها صُدرت لمُدن الجنوب في السودان،[٦٦] ومَنْسوجاتها الصوفية لأنها «كثيرة الخصب ... بها الصوف من أغنام العربان.»[٦٧] وجربة مقصد التجار فحَملوا منها الأكسية والمَنْسوجات الصوفية الناعمة من عمائم وأردية صُدِّرت للعديد من البلدان،[٦٨] وقد عُرِفَت بـ «الأكسية الملاح»،[٦٩] فيذكر عبد الباسط بن خليل:[٧٠] «فأوسق التجار منها الزيت الكثير وأنواع الأكسية.»

وقصد التجار مدينة وهران خاصة التجار الفلنديين لشراء مَنْسوجاتها وأكسيتها، فيقول ابن عبد الباسط:[٧١] «في يوم تاسع عشرينه، ورد إلى ساحل مدينة وهران شونةٌ عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين برسم الاتجار في الجوخ، وكانت وردت من المحيط من بلاد فلنده ونحوها من بلاد الفرنج بالمحيط، وتجهَّز كثير من تجار وهران وتلمسان

للسفر فيها إلى جهة بلاد تونس.» بالإضافة لتلمسان وثيابها المعروفة والمشهورة بالثياب التلمسانية والمصنَّعة من صوف وحَرير، فذاعت شهرته في كثير من المواضع،[٧٢] فَيُحمل منها الصوف وسروج الخيل إلى أقاليم بلاد المغرب،[٧٣] فيذكر ابن سعيد:[٧٤] «تُحمَل ثِياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب.»[٧٥]

وصَدَّرت مُدن المغرب الأقصى منتجاتها النَّسيجية كسبتة؛ فقد حُملت مَنْسوجاتها الكَتَّانية إلى البلدان في الشرق والجنوب والشمال بفضل تجارها والتجار الواردين إليها، فكان «الكبوط» الكتاني يُصدَّر إلى بلدان الغرب المسيحي،[٧٦] اشتهرت مدينة ونة «بتجارة الغنم والصوف والماشية من الدواب.»[٧٧] ومرسى فضالة؛ فمنه يُحمل الغنم والمعز المصدر الأساسي للأصواف،[٧٨] وحُمِلَتْ ثِياب نفزاوة إلى المُدن المصْرية وبخاصة الإسكندرية؛ لدقة صنعتها وجودتها العالية، فلاقت رواجًا ومطلبًا كبيرًا،[٧٩] ومَنْسوجات مكناسة ذائعة الصيت خاصة المصنَّعة من الحرير والقُطْن أو القُطْن والصوف، فانتشرت في بلدانٍ كثيرة لنعومتها وجودتها، فبيعت في مدينة فاس بشكلٍ كبير،[٨٠] بالإضافة لتاجرفت التي اشتهرت بالأردية الصوفية،[٨١] كما عُرِفَت مدينة محرس بأقمشتها الصوفية التي حملها تجار القيروان،[٨٢] وأغمات التي عُرِفَت بالأكسية والمَنْسوجات الصوفية من عمائم وأردية فَحُمِلَتْ إلى بلدان السودان،[٨٣] ونُقل لمنطقة أرجان — إحدى مُدن السوس الأقصى — من الأندلس «ثياب الكَتَّان والحرير وغير ذلك من متاع الأندلس.»[٨٤] ويسجل ابن حوقل[٨٥] نصًّا تفصيليًّا عن المنتجات والسلع التي كانت تَرِدُ إلى المغرب الأقصى من بلاد الأندلس قائلًا: «الزيبق والحديد والرصاص ومن الصوف قطع كأحسن ما يكون من الأرمني المحفور الرفيع الثمن إلى حسن ما يُعمَل بها من الاغاط ولهم من الصوف والأصباغ فيه ... وبالأندلس مصبغ اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز ويُجلب منها الديباج ... ويُعمل عندهم الخز السكب والسفيق.»

واشتهرت المناطق الأندلسية بمَنْسوجاتها التي غزت الأسواق الخارجية والداخلية في مناطق الغرب الإسلامي، فأكد ابن حوقل[٨٦] على تصدير الديباج الأندلسي بقوله: «ويُجلَب منها الديباج.» ويخبر المقدسي[٨٧] أن «من الأندلس بزٌّ كثير وخصائص وعجائب.» وتُجلَب الأقمشة الكَتَّانية والأردية الأندلسية الجيدة إلى مصْر واليمن ومكة «ويُعمل في أقطار بلدهم الكَتَّان الدني للكسوة، ويُجلب إلى غير مكان، حتى ربما وصل إلى مصر منها الكثير، فأما أرديتهم المعمولة ببجانة فتُحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها.»[٨٨]

وحُمِلَت الثياب السرقسطية المشهورة بالجمال والبراعة من قِبَل التجار إلى سائر المُدن والأقاليم الأخرى،[٨٩] وعُرِفَت بلنسية بالنَّسيج البلنسي الذي يُصدَّر إلى بلاد المغرب،[٩٠] والبيرة التي صَدرت الحرير، وفي هذا يذكر الحميري:[٩١] «وحَرِير فحص البيرة هو الذي ينتشر في البلاد، ويعم الآفاق.»

كما حُمِلَت الحلل الموشاة من ألَمِريَّة، ويشير شيخ الربوة[٩٢] بقوله: «وقصدها التجار لشراء الحرير وما يُعمل فيها من الستور وغيرها.» وقد لاقت رواجًا كبيرًا في العديد من البلدان في الإسكندرية وبلاد الشَّام والهِنْد،[٩٣] فضلًا عن الصناعات الحريرية المقلَّدة التي صُنعت بألَمَرِيَّة من نَسِيج الحرير من الديباج والوَشي والسَّقلاطوني والبغدادي والستور،[٩٤] فأنتجت «الأصبهاني والجرجاني بالإضافة إلى الستور الملكية والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير»،[٩٥] التي طابقت في جودتها ودقَّتها أماكنها.[٩٦]

وبيعت المَنْسوجات المقلَّدة من الحرير ذات السمعة الجيدة من الجرجانية وغيرها في ألمرية.[٩٧]

وأنتجت ألمرية كذلك ثِياب الحرير وخاصة المُوَشَّاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة التي تُصدَّر إلى المشرق والمغرب، وتُباع بأغلى الأسعار، وربما تجاوز ثمن الحلة الواحدة الآلاف، واستمرت في إنتاجها حتى القرن ٨هـ/١٤م، وتزعَّمت مالقة إنتاج مَنْسوجات الحرير وصدَّرته بكمياتٍ كبيرة إلى البلدان الخارجية فكانت «أكثر بلاد الله حَرِيرًا.»[٩٨] لأهميتها التاريخية التي انعكست على مكانتها التجارية،[٩٩] كما اتجهت المَنْسوجات الحريرية القادمة من نارجة نحو بلدان المغرب ومصْر والأمراء المسيحيين في ممالكهم، وتشهد المُدوَّنات النصرانية بكثرة إنتاج مالقة للديباج المُوَشَّى من الثياب عند حديثها عن سفن قشتالية قدمت لمالقة عام ٨٠٦هـ/١٤٠٤م، وعادت محمَّلة بالضيافة من مَنْسوجات الحرير المُوَشَّى التي اتصفت بالجودة والرقة،[١٠٠] ومَنْسوجات حصن بكيران البيضاء التي كانت مفضَّلة ومحبَّبة لأهل الأندلس؛ لهذا ارتفعت أسعارها بطريقةٍ كبيرة؛ نظرًا للإقبال عليها، وراجت تجارتها، وأخذ التجار يُصدِّرون كمياتٍ كبيرةً منها،[١٠١] ووصلت الثياب المرسية حتى بلاد الحبشة، وفي هذا يقول الزهري:[١٠٢] «يُجلَب إليها [أي بلاد الحبشة] من بلاد الأندلس ... الثياب المرسية.» وغفارات قلعة أيوب المُذَهَّبة التي حُمِلَتْ للعديد من الجهات،[١٠٣] وأمتعة شاطبة التى صُدِّرت إلى بلاد السودان وغانة وجميع بلدان المغرب.[١٠٤]

وصُدرت البُسُط إلى الكثير من البلدان، وخاصة البُسُط التي تُصنَع بقرية تنتالة «فاختصت بالبسط التنتالية التي تسافر لبلاد الشرق.»[١٠٥] وصدرت الأندلس لمُدن المغرب الألبسة والأقمشة الكَتَّانية والصوفية، بجانب الحرير والديباج والخز إلى جانب اللبود الغالية الثمينة،[١٠٦] بالإضافة إلى العديد من السلع كاللك والبخور والنيلة التي يتم مقايضتها بالحرير الأندلسي،[١٠٧] ولا يُستبعد أن يكون القُطْن الأشبيلي نُقل إلى أسواق أَوْدَغَسْت، كما يُستنتج من قول الحميري:[١٠٨] «والقُطْن يجود بأرضها، يعني إِشْبِيلِية، ويعمُّ بلاد الأندلس ويتجهز به التجار إلى إِفْرِيقِيَّة وسِجِلْماسَة وما والاها.» كما لاقت الثياب الكَتَّانية الصِّقِلِّيَّة رواجًا تجاريًّا في العديد من المناطق خاصة في الأسواق المصْرية؛ فكان الثوب الصقلي المصنوع من الكَتَّان يساوي أكثر من عشرة دنانير مصْرية.[١٠٩]

(٢) المبادلات التجارية للنسِيج في الغرب الإسلامي

(٢-١) الأهمية التجارية لموانئ الغرب الإسلامي

كان للموقع المتميز والفريد، الذي حظيت به مُدن وموانئ الغرب الإسلامي، دور في تيسير عملية الاتصال بالعالم الخارجي وارتباطه بالأسواق الخارجية وموانئ الغرب الأوروبي في جنوب إيطاليا والموانئ الإسبانية والموانئ الفرنسية، إضافة إلى جزر البليار (ميورقة، منورقة، يابسة)، التي اعْتُبِرَت من أهم المحطات الرئيسية للتجارة البحرية في غرب البحر المتوسط، إضافة إلى صِقِلِّيَّة التي كانت من المراكز التجارية المهمة في البحر المتوسط بشقَّيه الغربي والشرقي ومصْر وبلاد الشَّام، ولأقاصي بلاد الشرق في الصين والهند، فلها دور لا يُغفَل في عمليات النقل التجاري وشحن وتوزيع البضائع سواء إلى داخل البلاد أو خارجها، واستقبال البضائع القادمة من السودان ومُدن المغرب الأقصى وغيرها من البلدان، وتصديرها لبلاد الأندلس ومُدن الغرب المسيحي، فكان لها دور في تنشيط حركة التبادل التجاري، فتعددت تلك الموانئ؛ منها ما يقع على ضفاف حوض البحر المتوسط أو على ساحل المحيط الأطلنطي، ويُذكر منها:

ميناء طنجة الذي ازدهرت به الحركة التجارية، واعْتُبر محطةً مهمة لاستقبال وإقلاع الكثير من السفن التجارية،[١١٠] وميناء أصيلة كان مقصدًا بارزًا للسفن التجارية،[١١١] وميناء سلا الذي اعْتُبر من أهم موانئ المغرب الأقصى، والذي يقع على المحيط الأطلنطي، فكان محطًّا للسفن القادمة من الأندلس، كما يصفه الإدريسي[١١٢] بقوله: «ومراكب أهل

إِشْبِيلِية وسائر المُدن الساحلية من الأندلس يُقلعن عنها ويحطون بها بضروب البضائع ... والمراكب الواردة عليها لا تُرسي منها في شيء من البحر لأن مرساها مكشوف.»

وعُدَّ مَرسى باديس من أهم الموانئ التي صَدَّرت السلع التجارية القادمة من فاس ووزَّعتها إلى الأندلس والمُدن المسيحية، ومرسى فُضَالة كان مقصدًا للعديد من التجار الأندلسيين،[١١٣] ومَرسى آنفى الذي تميَّز بكثرة الحركة التجارية منه وإليه،[١١٤] ومَرسى سبتة الذي اعْتُبِر من أهم الموانئ التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، لأهميته التجارية حيث شبهه ابن سعيد[١١٥] بالإسكندرية فقال: «شبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهِنْد وغيرها في صفقة واحدة، ولا يُحوِجون صاحبها إلى تقاضٍ.» ويضيف ابن الخطيب[١١٦] واصفًا إياه بأنه «محطُّ قوافل العصير والحرير والكتان.»

وميناء وهران من الموانئ التجارية المهمة في الغرب الإسلامي، فكان يستقبل العديد من السفن والرحلات التجارية،[١١٧] وميناء بجاية الذي اعْتُبر في المرتبة الثانية بعد ميناء تونس من حيث المكانة التجارية نتيجة للوضع التجاري الذي امتاز به،[١١٨] فكان من أعظم الأسواق لكثرة تردُّد التجار عليه من شتى الأماكن والجهات، فمرساها «مرسًى عظيم، تحطُّ به السفن من كل جهة.»[١١٩] ومرسى تونس تميَّز بطفرةٍ تجاريةٍ كبيرة نظرًا لكثرة السفن القادمة إليه، فيقدم الإدريسي[١٢٠] صورة عن حركة السفن في ميناء تونس بقوله: «وإليه تصل المراكب الحاملة والشواني والحرابي تُرسي هناك ... وأوساق المراكب تفرغ بوقور في زوارقَ صغار.»

كما اعْتُبر ميناء بونة من بين أهم الموانئ التجارية فزخر بشتى أنواع التجارة الواردة إليه «وكانت لها أسواقٌ حسنة وتجارةٌ مقصودة وأرباح موجودة.»[١٢١] وكذلك جزيرة جربة التي كانت مستودعًا لكثير من بضائع الغرب الإسلامي، ودائمًا استفاد منها التجار الصقليون والكتالونيون، وميناء المهدية قصدته العديد من المراكب والسفن من مختلف الأماكن، يقول الإدريسي:[١٢٢] «والمهدية مدينة لم تزل ذات إقلاع وحطٍّ، وهي مقصد للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم.»

أما الموانئ الأندلسية فكانت تمثل الطرف الثاني في العديد من المُبادلات التجارية، وأحد شرايين الرواج الاقتصادي بالبحر المتوسط؛ لما بلغه الأندلس من مكانة تجارية كبيرة عن طريق موانئه وأسواقه التي زخرت بالتجار الوافدين إليه، وساعد ذلك على

حرية الانتقال عبر الخطوط التجارية أو البحرية، والتي وفرت فرصًا أكبر للتواجد التجاري من خلالها،[١٢٣] فتأثرت التجارة الأندلسية نتيجة الهجمات المتكرِّرة من القراصنة الأراجونيين والبرتغاليين خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين/الرابع والخامس عشر الميلاديين، والتي تركَّزت على الموانئ الأندلسية والموانئ المغربية؛ مما أثر سلبًا على الحركة التجارية بها.[١٢٤]

ومن بينها ميناء بلنسية الذي نشأ اقتصادها على التجارة البحرية القائمة على التبادل التجاري بين موانئ البحر المتوسط،[١٢٥] فكانت بلنسية ملتقًى تجاريًّا كبيرًا، تلاقت فيه المصالح التجارية للدول والمُدن المختلفة من جنوة وبيزا وأراجون وإسبانيا والمغرب وغَرْنَاطَة، إلى غيرها من مُدن الحوض الغربي للبحر المتوسط،[١٢٦] وأيضًا ميناء مالقة؛ فموقعها الجغرافي على طرق الموصلات البحرية، ولكونها إحدى قواعد الأندلس التجارية؛ لذا أصبحت مَقصِدًا للمراكب والتجار من المشرق والمغرب وبلاد الإفرنجة وإسبانيا المسيحية والمدن الإيطالية،[١٢٧] فزخرت بالعديد من البضائع والسلع التجارية، واعْتُبرت من أهم المحطات التجارية لنقل وتوزيع البضائع والسلع لمُدن غرب البحر المتوسط،[١٢٨] وميناء لقنت وهو حصن من أعمال لاردة[١٢٩] ومن المراكز التجارية المهمة في الجانب الشرقي من الأندلس، كان يصدر منها نبات الحلفاء إلى جميع بلاد البحر،[١٣٠] ونظرًا لأهميته التجارية فقد تعرَّض لعدة غارات من قِبل القراصنة؛ مما أثر على الحركة التجارية به،[١٣١] وميناء ألمرية فهو مرفأ الأندلس للحطِّ والإقلاع؛ إذ كانت تصل إليها المراكب من المشرق (الشام) ومن الإسكندرية،[١٣٢] ولم يكن في بلاد الأندلس أعظم منها حركة في البحر في القرن ٦هـ/١٢م.[١٣٣] كما وصل إليها التجار من جنوة وبيزا محمَّلين بمختلف الأمتعة، وكذا وصفها الإدريسي:[١٣٤] «لم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالاً ولا أتجر منهم في ... أصناف التجارات تصريفًا وادخارًا.» فكانت من المراكز التجارية المهمة بفعل الإمكانات المادية التي تمتع بها أهلها بسبب سعة نشاطها التجاري، ومما يؤكد نشاط ميناء ألمرية ما قاله المقري[١٣٥] عنها: «وبها كان محطُّ مراكب ... ومجتمع ديوانهم، ومنها كانت تُسفَّر لسائر البلاد بضائعهم، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التي كانت تصلح لهم، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع من أعشارهم، ولم يوجد لهذا الشأن مثلها؛ لكونها متوسطة ومتسعة قائمة بالوارد والصادر.»

(٢-٢) تجارة النَّسيج مع ممالك السودان والبلدان المشرقية

(أ) بلاد السودان والسودان الغربي

استطاعت المَنْسوجات الغرب إسلامية بفضل تنوع أصنافها وجَوْدتها غزو تلك الأسواق الواقعة جنوب الصحراء، ولم يقتصر ذلك على البضائع المصنَّعة بل شمل أيضًا الموادَّ الأولية، التي تختلف قيمتها من بلد لآخر،[١٣٦] ومن الطبيعي أن ترتبط هذه المنطقة مع بلدان الغرب الإسلامي بعلاقاتٍ مميزة، وذلك بدافع وجود بعض المعطيات التي جعلت وجودها أمرًا حيويًّا بانتشار الإسلام في هذه المناطق، وما له من أثر في تقوية أواصر العلاقات السياسية بين الحكام إلى خلق علاقة بين الشعوب، واعتبار هذا الموقع امتدادًا طبيعيًّا لبلاد المغرب التي مثَّلت المنفذ الحيوي الوحيد الذي ربطها بالعالم، كما أن دور العناصر المغربية في نشر الإسلام والمساعدة في قيام بعض الكيانات كقيام دولة الكانم والبرنو أحد المؤثرات التي جعلت العلاقات بين المنطقتين تتجاوز الإطار السياسي لتصبح علاقاتٍ اجتماعيةً واقتصادية وثقافية.[١٣٧]

ووفَّرت بلدان الغرب الإسلامي لممالك السودان احتياجاتها من المَنْسوجات الحريرية التي حملها التجَّار المغاربة، والتي اختصَّت بها الفئة الحاكمة من برانس من حَرِير وديباج،[١٣٨] فزخرت موانئ الغرب الإسلامي وازدهرت بالبضائع والسلع لا سيما القادمة من السودان وأفريقيا كالعاج والأعشاب الطبية بالإضافة إلى المواد الغذائية والنَّسيج والمعادن التي ظلَّت مطلبًا لتجار الغرب الأوروبي لفتراتٍ طويلة،[١٣٩] فقام تجار إِفْرِيقِيَّة بدورٍ كبير في نقل السلع والبضائع القادمة من بلدان الغرب الأوروبي عبر موانئها إلى تلك المناطق، التي تمثل بالنسبة لهم مكانةً عظيمة،[١٤٠] واعْتُبرت سبتة منفذًا مُهمًّا لتجارة المغرب والسودان الغربي ومركزًا لتصريف السلع والبضائع التي تَرِد إليه عن طريق تجار الغرب الأوروبي سواء من جنوة أو مرسيليا أو أراجون؛ مما أهلها لتحتلَّ مركز الصدارة بين موانئ البحر المتوسط الغربي،[١٤١] بالإضافة لتلسمان التي استقبلت تجار الغرب الأوروبي لبيع مَنْسوجاتهم سواء القطنية التي صنعت ببيزا والبندقية، أو الصوفية المصنَّعة في فلورنسا، وكذلك المَنْسوجات الحريرية.[١٤٢]

وحُمِلَت الأقمشة لبلاد السودان عن طريق سكان بزو،[١٤٣] فحصل تُجَّار الكانم على أنواع الثياب كـ «قصار حمر» عن طريق زويلة ومبادلتها بالرقيق،[١٤٤] وحُمِلَ لبلاد الكانم والبرنو من المغرب أيضًا المَنْسوجات والثياب التي كانت تُصنَع محليًّا بها أو القادمة من

بلدان الغرب الأوروبي، وتُصَدَّر إلى بلاد الكانم على هيئة أقمشةٍ صوفية وقُطْنيةٍ ملوَّنة، وكانت الثياب المجلوبة من مدينة سوسة محل إعجاب وقبول في دولة الكانم والبرنو.[١٤٥]

وكان لمدن المغرب الأدنى دور في تجارة السودان، فاكتسبت تاهرت أهميةً تجارية بوصفها محطةً تجاريةً مهمة بين السواحل المغربية وبلدان السودان؛ فكانت محطًّا للقوافل والبضائع، ومثَّلت سوقًا كبيرة ومعروفة، فيصفها اليعقوبي[١٤٦] بقوله: «عراق المغرب»، فقصدها التجار من كافة البلدان، كما كان للواحات المغربية الواقعة ناحية الجنوب دور في قيام حركةٍ تجاريةٍ نشطة بينها وبين المناطق الشمالية لمُدن المغرب الإسلامي وبلاد السودان، بعد أن طُوِّرت تلك الواحات نفسُها بإنتاج صناعات — نَسِيجية أو معدنية — صُدِّرت لأسواق أفريقيا ليتم مقابلتها بالعبيد،[١٤٧] بالإضافة لذلك كانت سِجِلْماسَة قبلة للتجار الغرباء كما ذكر المقدسي.[١٤٨]

وأُرسلت المَنْسوجات المغربية والأندلسية لبلدان السودان من المغرب «الحرير والمتاع وثياب الخز والكتان ... وكذلك يُجلب إليهم من الأندلس ومن إِفْرِيقِيَّة الزئبق والزعفران والثياب المرسية والخز والحرير وقباطي مصر.»[١٤٩] ويُفهَم من قول الزهري[١٥٠] أن الثياب المصرية وبخاصة القباطي كانت تُجلَب للبلدان السودانية عن طريق المُدن المغربية وبخاصة إِفْرِيقِيَّة، التي كانت محطًّا تجاريًّا مهمًّا آنذاك، وتاجَرَ تجار إِفْرِيقِيَّة مع مدينة تنبكت التي تُعتبر من المراكز التجارية المهمة؛ فكانت تُباع بها المَنْسوجات القطنية والأقمشة المصنَّعة في أوروبا، التي حملها تجار إفريقية،[١٥١] بالإضافة لبعض الثياب المصبوغة والحرير والزعفران من الأندلس، وَعُدَّت قسنطينة من مراكز إنتاج المَنْسوجات الكَتَّانية؛ فَصَدَّرت منتجاتها إلى مُدن الجنوب في السودان.[١٥٢]

وأدت مُدن المغرب الأقصى دور همزة الوصل بين السودان والعالم الخارجي حيث تجارة الذهب والعبيد والصمغ الذي اسْتُخدم في صبغ دِيباج الأندلس،[١٥٣] وذلك عبر القوافل التجارية الذاهبة نحو الجنوب، التي كانت من بين ما تحمله الثياب والأقمشة الخاصة القادمة من بلدان الغرب الأوروبي.[١٥٤]

وأغمات «دار للتجهز للصحراء» طبقًا لقول الحميري،[١٥٥] فلها ميناء على ساحل المحيط الأطلسي، وهو ميناء قوز الذي تنزل فيه السفن من جميع البلاد،[١٥٦] وعُرِفَت بالأكسية والمَنْسوجات الصوفية من عمائم وأردية حُمِلَتْ إلى بلاد السودان، إلا أنها فقدت شهرتها في هذا المجال إبان الحكم المريني،[١٥٧] كما لعب تجار مدينة أيجلي — الواقعة آخر بلاد السُّوس — دور الوساطة التجارية بين السودان وبلدان المغرب،[١٥٨] بالإضافة

لدرعة التي كانت نقطة تجارةٍ محوريةً بين بلدان المغرب والسودان،[١٥٩] وارتبطت مدينة فاس وسائر مُدن المغرب الأقصى بالتجارة مع بلاد السودان، فأبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن الصنهاجى التلمسانى الذي استقر في مدينة فاس وبها توفي عام ٥٧٩هـ/ ١١٧٩م، وأعطى أحد التجار المتَّجهين إلى بلاد السودان عددًا من الأردية ليبيعها له في تلك البلاد، لكن التاجر تُوفي هناك، فوصلت تركته إلى مدينة فاس وبها صرة تبر قد كُتب عليها للفقيه أبي الربيع، كانت ثمنًا للأردية التي يبدو أنه باعها في بلاد السودان،[١٦٠] وفَضَّلَ سكان مدينة تادمكة الصوف بالإضافة للمَنْسوجات القُطْنية من بلاد المغرب،[١٦١] وأَوْدَغَسْت التي استوردت أرديةً صُوفيةً كبيرة الأكمام ومَصْبوغة بالأحمر والأزرق.[١٦٢]

وجُلب لسكان تكرور وغانة الصوف والأكسية الصوفية وطواقي وأزرار بواسطة تجار أغمات بجانب المَنْسوجات القُطْنية «والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من القطن.»[١٦٣] بالإضافة إلى الحرير والمَنْسوجات القادمة من المغرب والأندلس في اتجاه بلاد غانة.[١٦٤]

ووُجد ببلاد الكانم والبرنو نوع من القماش يُعرَف باسم دندي كان يُنسَج عندهم على شكل أَثْوَاب ويُقَسَّم إلى قطع من ربع ذراع فأكثر، وكانت جميع الأشياء تُقدَّر قيمتها بسعر هذا القماش، بمعنى أن هذا القماش قد اسْتُخْدم كنوع من أنواع العملة في دولة الكانم والبرنو.[١٦٥]

كما كان للتجارة البرتغالية أواخر القرن ٩هـ/ ١٥م دور داخل مُدن الغرب الأفريقي والسودان الغربي، من خلال سلسلة من المُدن الساحلية المغربية على طول ساحل المحيط الأطلسي ومناطق رئيسية ساهمت في إنجاح تجارة المَنْسوجات البرتغالية، التي سيطرت عليها مثل؛ سبتة وطنجة وأصيلا وأزمور وأغادير وأسفي، واتجهت ناحية الشرق قليلًا، فتواجدت الفنادق التجارية البرتغالية في وهران، وأقامت علاقاتٍ تجاريةً مع تلمسان خاصة في عهد بني عبد الواد، فقد نقل التجار البرتغاليون الأكسية الصوفية منها إلى بلدانهم،[١٦٦] وأقام التجار البرتغاليون محطةً تجارية لهم في مناطق السودان الغربي، فمنذ ٨٠٣هـ/ ١٤٤٠م عَمد التجار البرتغاليون إلى تحويل جزء من تجارة الذهب والرقيق من سِجِلْماسَة عبر القوافل التي عبرت الصحراء والسودان، إلى الساحل الغربي من المحيط الاطلسي وأقاموا محطاتٍ أخرى بديلةً بداية من عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م.[١٦٧]

وتقلَّص حجم المحطات التجارية البرتغالية في مُدن غرب أفريقيا بشكلٍ كبير بين يوليو ٨٩٧هـ/١٤٩١م وحتى نهاية عام ٩٢٩هـ/١٥٢٣م، على الرغم من أن

التجارة البرتغالية مع غرب أفريقيا كانت تمثِّل عنصرًا لا غنى عنه في نجاح التجارة الخارجية للبرتغال؛ لما وفَّرته من منتجاتٍ قيمة غزت الأسواق الأوروبية، كما في عهد مانويل (١٤٩٥-١٥٢١م)، ومع احتكار الذهب القادم من غرب أفريقيا أُعطي للبرتغال الاستقرار الاقتصادي والمكانة الدولية التي لم تشهدها من قبلُ.[١٦٨]

كما انتشرت تجارة الحرير في بلدان السودان، ففي إطار هذا السياق يذكر الزهري[١٦٩] أن الحرير كان يُجلَب من غَرْنَاطَة من بعض أعمالها، ويُصدَّر إلى مناطق السودان الغربي،[١٧٠] وصُدر الكاغد لبلدان السودان من مدينة شاطبة. وفي هذا يقول الإدريسي:[١٧١] «بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعمُّ المشارق والمغارب.» وأمتعتها التي صُدِّرت إلى بلاد السودان وغانة وجميع بلدان المغرب،[١٧٢] كما وصلت الثياب المرسية حتى بلاد الحبشة، وفي هذا يقول الزهري:[١٧٣] «يُجلَب إليها [أي بلاد الحبشة] من بلاد الأندلس ... الثياب المرسية.»

(ب) البلدان المشرقية (الهِنْد والصِّين)

امتد التواصل التجاري للنسِيج بين الغرب الإسلامي إلى بلاد الهند، خاصة أن السفن الهِنْدية كانت تحطُّ بسبتة التي يُشبِّهها ابن سعيد[١٧٤] لأهميتها التجارية بالإسكندرية بقوله: «شبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهِنْد وغيرها في صفقةٍ واحدة ولا يحوجون صاحبها إلى تقاضٍ.»

ويوضح ابن خرداذبة[١٧٥] في القرن ٣هـ/٩م أن التجار الراذانية «الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصِّقِلِّيَّة ... يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق بحرًا ... ويركبون من فنمة في البحر الغربي فيخرجون [يَصِلون] بالفرما ... ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم [البحر الأحمر] إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين ... حتى يرجعوا إلى القلزم ... ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وإن ساروا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي ويخرجون بأنطاكية.»

فمن جملة ما نقله تجار الغرب الإسلامي للهِنْد الثياب الجيدة والنفيسة كثياب السُّندُس، التي صُنعت في الأندلس على حد قول الزهري:[١٧٦] «ويُجلَب إليهم من بلاد

الأندلس الزئبق والكبريت الأحمر وثياب السندس الغالي المحكم.» كما تؤكد رسائل الجِنيزة أن المَنْسوجات الأندلسية ذهبت إلى الهِنْد عن طريق ميناء عدن.[١٧٧]

ولاقى الحرير المغربي والأندلسي رواجًا في سواحل الهِنْد وبخاصة ساحل «ملبار»، فكان الحرير بديلًا عن الذهب بالمقايضة به؛ ما يعكس قيمته وأهميته في المعاملات التجارية،[١٧٨] وفي رسالةٍ أخرى مؤرخة في ٢٩ شوال ٥٣٢هـ/١٠ أكتوبر ١١٣٨م، من التاجر إسحاق بن بروخ المقيم بمدينة ألمرِيَّة إلى التاجر أبى سعيد خلفون الموجود في تلمسان، وهو من التجار الدائمي الترحال بين الهِنْد وعدن والأندلس والمغرب «وكنت أبلغتكم بأنني تسلَّمت المائة مثقال المرسلة منكم من فاس، وقد طلبت مني أن أشتري بالمبلغ حَرِيرًا، والواقع أن سعر الحرير كان معقولًا؛ لذا اشتريت حَرِيرًا بخمسين مثقالًا.»[١٧٩]

وقد حظي التجار التونسيون في بعض الفترات بنوع من السيادة التجارية في البحر المتوسط وبعض من تجارة الهِنْد خلال الفترة من ٣٩١هـ/١٠٠٠م–٥٤٤هـ/١١٥٠م وهو ما أظهرته وثائق الجنيزة.[١٨٠] وساعد على وجود صلاتٍ تجارية بين بلاد الغرب الإسلامي والهِنْد والصِّين والتبادل التجاري بعض المُدن المشرقية الأخرى كمدينة البَصْرة العراقية؛ لأنها محط وملتقًى للتجار القادمين من الغرب الإسلامي والوافدين إليها، لتبادل البضائع والسلع كالحرير وبيعها للتجار المغاربة،[١٨١] وكذلك الأمر بالنسبة لصِقِلِّيَّة، فنُقِلت المنتجات المشرقية لبلدان الغرب الإسلامي باعتبارها محطًّا مهمًّا للصادرات النَّسيجية من الغرب الإسلامي إلى بلاد المشرق، فالسفن المشرقية تأتي لصِقِلِّيَّة محملة بالتوابل والمنتجات الشرقية الفاخرة وتعود بمختلف المنتجات سواء كَتَّانية أو حَرِيرية من الأقمشة المُحَلَّاة بالجواهر والطنافس المصوَّرة؛ فيقول المقدسي:[١٨٢] «ومن صِقِلِّيَّة الثياب المقصرة الجيدة.» وبرزت ألمرِيَّة كمركز لتصدير الحلل المُوشاة التي حظيت برواجٍ كبير في الشَّام والهِنْد،[١٨٣] وأشار شيخ الربوة[١٨٤] إلى ذلك بقوله: «وقصدها التجار لشراء الحرير وما يعمل فيها من الستور وغيرها.» كما نُقلت البسط التنتالية لبلاد المشرق.[١٨٥]

وصَدَّرت الصِّين مُنتجاتها من المَنْسوجات لبلدان الغرب الإسلامي، ومن بينها المناديل الصِّينية التي يصفها الزهري[١٨٦] بقوله: «وهي مصنوعة من حيوان يُسمى السمندل أكبر من الفأر، ومن خصائص هذه المناديل أنها يمسح بها الملوك عند تمام الأكل، وهي مناديلُ راقيةٌ لا تُغسَل لأن ذلك يزيد وسخها، وإنما تُوضع في المجمر فيحترق

الوسخ ويخرج المنديل نقيًّا.» ولعلَّها هي المَنْسوجات والمناديل والعمائم التي حملها التجار البَصْريون لبلاد الغرب الإسلامي لمبادلتها بالذهب.[١٨٧]

وعن السلع المشرقية في أسواق المغرب الأقصى توجد إشارةٌ صريحة ذكرها الزهري عند حديثه عن فاس قائلًا: «إليها يُجلَب من جميع الأقاليم كل شيءٍ حسن من المتاع والسلع الغالية الأثمان من اليَمَن والعِراق والشَّام.» بالإضافة لوصف ابن الصباح بقوله:[١٨٨] «وهي مدينة فيها أسواق ومقاصير وعلاليٌّ وقيساريات وتجار من أقصى البلاد شرقًا وغربًا ... كما أن مملكة المشرق في مصْر يسميها المسافرون مصْر الصغيرة؛ لكثرة أخذها وعطائها.» كما وُجدت منتجاتٌ نَسِيجيةٌ أخرى كالأثواب الواردة من بلاد الشام،[١٨٩] كما جُلب الحرير العراقي الذي ذاع صيته حتى وصلت بضاعته إلى منطقة السوس.[١٩٠]

ومن الصادرات النَّسيجية لبلدان المشرق الإسلامي، وبخاصة العِراق، القُنَّب والحرير بجانب الأكسية الصوفية الرفيعة والدنيئة وجباب الصوف والحرير، كما تردد بعض التجار العراقيين على تونس لشراء الحرير بكل أنواعه من سوسة وشراء الثياب السوسية الرفيعة،[١٩١] وحُمِلَتْ لبلاد الشَّام والعِراق أبسطة القَيْروان،[١٩٢] ووصلت المَنْسوجات الأندلسية أيضًا لبلاد خراسان عن طريق التجار المصْريين.[١٩٣]

وضاهت ثِياب الكَتَّان التونسية ثِياب الحرير «ومنها يُجلَب المتاع إلى أقطار الأرض.»[١٩٤] وصُدِّرت ثِياب صوف البحر لبلدان المشرق، بخاصة دِمَشق. فيذكر العمري[١٩٥] أنه قال: «ورأيت من هذا القماش على أكابر بدمشق، ثم رأيته على بعض سفلة الكتاب بمصْر وهو المسمى بمصْر والشَّام بوبر السمك.» وحظيت الموانئ الشَّامية بنصيب من المَنْسوجات الغرب إسلامية؛ فاستقبلت العديد من السفن المحمَّلة بالمَنْسوجات المختلفة كالبسط التنتيلية، والحلل الموشاة التي كان يُغالى بثمنها هناك لجودتها.[١٩٦]

(ج) البلدان المصْرية

أما بالنسبة لِمصْر فهناك علاقاتٌ تجارٌ رصينة منذ زمنٍ طويل، تركزت على المواد الخام النَّسيجية من كَتَّان وحَرِير، بالإضافة إلى المَنْسوجات الأخرى، فوُجد هذا الربط التجاري عن طريق موانئ الغرب الإسلامي والموانئ المصْرية وبخاصة الإسكندرية،[١٩٧] كما أثرت قوافل الحجاج المغاربة في العمليات التجارية بين الغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي، التي حَمَلَت العديد من السلع والبضائع في طريقها لبلاد الحجاز ومصْر، وعادت بصنوف من السلع وخاصة النَّسيجية إلى الغرب الإسلامي.[١٩٨]

كما كان الحج فرصة للالتقاء بين المصريين والمغاربة، حيث يتوافد المغاربة إلى القاهرة ويستقرون فيها فترة من الزمن لانتظار ركب الحج المصري، وكانت هذه المدة كفيلة بالتأثير والتأثر بين الجانبين؛[١٩٩] مما أدى إلى توطد العلاقات المصرية المرينية، خاصة في المجالات التجارية؛ فلم يقتصر دور قوافل الحج على دعم العلاقات الدينية والسياسية، ولكن امتدت إلى النواحي الاقتصادية؛ لأن مصر تقع في طريق قوافل الحج المسافرة لتأدية الفريضة،[٢٠٠] وقوافل الحج في عودتها تحمل منتجات هذه البلاد إلى الأسواق الغرب إسلامية، كما كانت وسيلةً مضمونة لتصدير السلع المغربية إلى مصر وبلاد المشرق في مواعيدَ محددةٍ من كل عام، يُضاف إلى ذلك ما أحدثته هذه القوافل من تنشيط للصناعات المغربية المختلفة التي حملتها هذه القوافل كهدايا من البلاط المريني لمصر والحجاز.[٢٠١]

وعُرفت هذه الرحلات لدى المغاربة باسم الرحلة الحجازية، وعليها هذه الرحلات المرور بمصر، وكانت الإسكندرية[٢٠٢] هي أولى المحطات الكبرى التي تحطُّ بها قوافل الحجاج المغاربة القادمين عن طريق البحر أو الصحراء، وينتقلون منها إلى القاهرة؛ بوصفها عاصمة الديار المصرية، وكونها مدينة تحط فيها قوافل الحج التي تصحبها قوافل التجارة.

لذلك كانت المراكب المغربية كثيرة الحط والإقلاع على الموانئ المصْرية محملة بالكثير من أنواع السلع والفاكهة،[٢٠٣] كما يذكر ابن الصباح:[٢٠٤] «دخلتُ مدينة تونس وقعدتُ فيها ثلاثين يومًا في أيام الفواكه وركبت منها إلى الإسكندرية في مركب من ثلاثة أظهر، والمشى كنا فيه ألف نفس بين حجاج وتجار وبحريين وعبيد السودان وهم شر التجار ... إلى الإسكندرية.» يأتي في مقدمة تلك المَنْسوجات القماش الأبيض المصنوع في مدينة الإسكندرية،[٢٠٥] بالإضافة لجلب المَنْسوجات، وخاصة ثِياب البوقلمون أو السلاقطون التي يتغير لونها بتغير ساعات النهار؛ فهي نوع من الحرير مطرَّز بخيوط من الذهب، فصُدِّرت من مصْر من جزيرة تنيس،[٢٠٦] وهو ما أشارت إليه وثائق الجنيزة، وما نوه إليه التاجر موسى وإسحاق ولدا برهون الطهارتى في القَيْروان في خطابه عام ٤٠٦هـ/١٠١٥م، إلى إخوة توستاري في الفسطاط، الذين أثنوا على ثِياب السلاقطون التي وصلت إليهم؛ فكانت من أفضل وأجمل أنواع الحرير المفضَّلة بألوانها الذهبية والبراقة، على حد قولهم.[٢٠٧] وجُلبت من دمياط بعض المَنْسوجات من عمائم الشرب المذهبية المنقوشة، فكانت تلاقي رواجًا تجاريًّا في الغرب الإسلامي لأنها غير موجودة في

غيرها من البلاد بنفس الجودة والدقة «منها تُجلب إلى المشرق والمغرب.»[٢٠٨] في حين يؤكد العمري:[٢٠٩] «أن لباس أهل إِفْرِيقِيَّة من الجوخ ومن الثياب الصوفية والأكسية ومن ثِياب القُطْن؛ يعتبر نادرًا وشاذًّا، خاصة القادم عن طريق الإسكندرية.»

واستورد مسلمو الغرب الإسلامي — خاصة في الأندلس — الصوف الخام؛ لأن الاقتصاد الأندلسي لم يركز على إنتاج الصوف، بل اعتمد بشكلٍ جزئي على استيراده، وما تشير له رسائل الجنيزة على أن الصوف شُحن من مصْر إلى الأندلس كما في رسالة مؤرَّخة في القرن ٥هـ/١١م، بأن تاجرًا نقل كمية من الصوف تزن خمسمائة رطل وثمنها ثلاثون دينارًا، وكان ينوي إرسالها من الإسكندرية إلى الأندلس، لكن شريكه في الأندلس نصحه بألَّا يرسل شيئًا؛ لأن السوق يصيبه بعض الركود،[٢١٠] خاصة أن — الجوخ — الأصواف الحمراء كان من الصادرات المغربية لتلبية ما تحتاج إليه دور الطراز الرسمية في مصْر خلال القرن ٧هـ/١٣م.[٢١١]

ويؤكد بنيامين التطيلي[٢١٢] في منتصف القرن ٦هـ/١٢م على وجود تجار مغاربة وأَنْدلسيين في الإسكندرية بغرض المتاجرة فيقول: «وإسكندرية بلدةٌ تجارية فيها أسواق لجميع الأمم يؤمُّها التجار من الممالك النصرانية … وعدوة الغرب وإِفْرِيقِيَّة وجزيرة العرب.»

وفي الفترة ما بين ٤٥٢هـ/١٠٦٠–٤٦٣هـ/١٠٧٠م نُقلت كميات من الحرير الأندلسي عبر تجار من الأندلس إلى الإسكندرية بطريقٍ مباشر دون وساطة تجار مغربيين، وقد استمرت تلك الحالة التجارية حتى القرن ٦هـ/١٢م بين موانئ الأندلس والإسكندرية،[٢١٣] ففي القرن ٥هـ/١١م توجد إشارة إلى أن نخاسًا في مصْر كان يملك من المَنْسوجات الأندلسية «ثوبًا أَنْدلسيًّا جديدًا وثوبًا أَنْدلسيًّا غير فضفاض وخامًا وعشرة أَثْوَاب خام أَنْدلسية» كانت له؛ إما للمتاجرة بها أو لارتدائها.[٢١٤]

ومن المشاكل التي واجهت عملية نقل النَّسيج لبلدان الغرب الإسلامي، التكلفة العالية ومصْروفات النقل؛ فالتاجر اليهودي يعقوب بن سليمان الحريري اشترى بمبلغ من المال قد ادَّخره كمية الكَتَّان، وكان ينوي إرسالها إلى الإسكندرية ومنها في قارب إلى المهدية؛ ونظرًا للتكلفة العالية قرَّر أن يرسل الكَتَّان إلى اللاذقية في سوريا.[٢١٥]

ولعبت الأحوال الجوية دورًا في تعطيل حركة التجارة وبخاصة النَّسيج، ففي إحدى الرسائل المؤرَّخة في عام ٤١٠هـ/١١١٩م أرسل التاجر إسحاق النيسابوري بالإسكندرية إلى التاجر أبي العلاء صاعد يوسف الدمشقي بالقاهرة، وفيها يتحدث عن تعطُّل الملاحة

من الأندلس؛ مما أثر على أسعار الحرير الأندلسي في السوق «أما بالنسبة للحَرِير فإنه عند وصول المركب الأندلسي توقفت الأعمال التجارية فلم يشترِ أحد ولم يبعْ أحد ... وبعد ذلك بأيام بِيعت كميات قليلة بـ ٢١-٢٢ دينارًا لكل عشرة أرطال ... ولما تأخر وصول جميع المراكب رغب التجار في الشراء، إلا أن من عندهم حَرِير احتفظوا به، وقد انقضى اليوم ثلاثة وثلاثون يومًا لم يصل فيها سوى مركبٍ واحد، ولم يقلع سوى مركبٍ واحد؛ يسود قلق واضطراب كبيران بشأن المراكب ... واليوم بيننا وبين عيد الصليب ثلاثة وعشرون يومًا، ولم يصل مركبٌ واحد من المغرب ... وفي هذا اليوم دُفع ثلاثة وعشرون دينارًا ثمنًا للحَرِير الخشن، لم يبع أحد ولن يبيع أحد إلى أن يُعرف ما سيحدث.»[٢١٦]

وأثَّرت الأسعار، وطول المسافة التى تقطعها القوافل، والضرائب المفروضة، وتكاليف الشحن، على حجم المبادلات التجارية بين موانئ الغرب الإسلامي والموانئ المصْرية، ففي خطاب مؤرَّخ عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م، من أحد التجار الأندلسيين بالإسكندرية يشير إلى أن الحرير ازداد سعره نظرًا لتأخر وصول المراكب الأندلسية المحملة بالحرير بسبب الرياح؛ فاستغل التجار هذا الموقف وأحجم كل من لديه كمية من الحرير عن البيع أملًا في زيادة السعر،[٢١٧] وكذلك شحنة من الأرجوان أُرسلت من مصْر إلى تونس في نفس العام، فكان سعر هذه الشحنة ٦٦,٢٥ دينارًا، وعند البيع وصل سعرها بما يعادل ٩٤ دينارًا مصْريًّا، وبلغت تكاليف الشحن والمكوس ١٤ دينارًا،[٢١٨] كما أُرسلت كميةً كبيرة من الكَتَّان إلى صِقِلِّيَّة والمغرب تبلغ ١٣٣ بالة سعرها الإجمالي ٤٩٧,١ دينارًا، وبعد بيعها بلغت عائداتها حوالي ٣١٨,٢ دينارًا، ووصلت تكلفة الجمارك والشحن إلى ما يقارب ١٧١ دينارًا، أي ما يزيد قليلا عن ٧ في المائة من الإجمالي العام،[٢١٩] وفي عام ٥٣٨هـ/١١٤٣م شحنة من الحرير تَزن ١٤٤,٥ رطلًا القيمة التقديرية لها ١٩٠,٥ دينارًا، فُرضت عليها ضرائب ومكوس في الإسكندرية ما يقارب من ٨ دنانير أو حوالي ٤ في المائة، وتكاليف الشحن يُفترض أن تُنقل من جزيرة صِقِلِّيَّة أو تونس ٣,٣ دنانير، وهو ما يزيد قليلًا على ١,٥ في المائة، وفي ٤١٥هـ/١٠٢٤م بالة من المَنْسوجات بلغت قيمتها نحو ٦٠٠ دينار، أُرسلت من تونس إلى مصْر، بلغت قيمة الضرائب المفروضة عليها ٦,٧٥ دنانير، أي ١ في المائة من قيمتها.[٢٢٠]

ونُقلت الأبسطة الأندلسية لمصْر وهو ما تؤكده الجنيزة، ففي رسالة عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م نُقل سجاد أَنْدلسي من تونس إلى مصْر، وفي رسالة أخرى ذُكر فيها طلب «مدادتين رفيعتين صناعة جيدة طول الواحدة أربعة وعشرون ذراعًا، وأربعة بسط بيضًا

ممتازة، اثنين زرقاوين واثنين خضراوين واثنين حمر.» وفي ٤٣٥هـ/١١٤٣م هناك طلب مماثل يذكر إرسال «مَدَّةٌ أَنْدلسية ... ومدةٌ صغيرة، وبساط صلاة وقطعة مَدَّة.»[٢٢١]

وأما الكَتَّان القادم من مصْر فسيطر عليه التجار اليهود الذين سعوا جاهدين لتوفير الكميات المطلوبة في أسواق الغرب الإسلامي من المزارع والحقول المصْرية، نظرًا لخبرتهم الواسعة في هذا المجال التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، فوضع التجار اليهود جداول توضِّح أهم المناطق المنتجة للكَتَّان في مصْر وأهم الأسواق بالمغرب، كما خصصوا أماكن لإقامة التجار اليهود بمراكز الإنتاج في مصْر كانت معلومة ومعروفة لمعظم التجار اليهود، وفي بيانٍ تجاري موقع من أبناء التاجر اليهودي إسحاق التاهرتي يوضح كميات الكَتَّان الكبيرة التي غادرت مصْر في طريقها لأسواق الغرب الإسلامي، والمؤرخ في ٤١٦هـ/١٠٢٥م، والتي بلغت ثلاثة أطنان من الكتان، وفي بيانٍ آخر عام ٤٣٨هـ/١٠٤٦م لصالح التاجر نيهوراي بن نسيم يذكر شحنات ضخمة من الكَتَّان زنة كل شحنة ٤٥٠ رطلًا أو ٢٠٠ كيلو، وذكر أنه نُقِلَ ١٥ شحنة من الكَتَّان وبعدها نُقلت ثماني شحنات أخرى، وفي خطاب مؤرَّخ في ٤٤٣هـ/أبريل ١٠٥١م مرسل من الإسكندرية، كتب التاجر نيهوراي بن نسيم أنه نُقل ٢٢ حمولة وتوقع وصول شحنات إضافية، كما ذكر التاجر الفرج بن إسماعيل في مصر باحتمال وصول ١٠٠ شحنة، وكتب التاجر جوزيف بن موسى التاهرتي في صيف ٤٣٠هـ/١٠٣٨م عن ١٢٦ شحنة كَتَّان بتفاصيلَ بسيطةٍ وعن كيفية الحصول عليها ونقلها.[٢٢٢]

وفي خطاب مؤرَّخ في ٤٤٠هـ/يناير ١٠٤٨م من التاجر برهون بن إسحاق التاهرتي من المهدية إلى نيهوراي المسافر لمصْر لشراء الكَتَّان ينصحه قائلًا: «اجمع أفضل أنواع الكَتَّان التي يمكنك أن تجمعها من الصعاليك.» وفي نفس الرسالة ينصح أحد التجار اليهود، وهو جوزيف بن موسى، أخاه الأكبر برهون بالتأكد من أن يكون هناك شخصٌ آخر معه عندما يذهب لشراء الكَتَّان، وأن يأخذ معه هدية لسمسار «أعطه قدر ما تستطيع لأنه الوحيد الذي سيساعدك.»[٢٢٣] وكان الكَتَّان المصْري من أكثر الأنواع مبيعًا في صِقِلِّيَّة، وهو ما تؤكده رسائل الجنيزة خاصة خلال القرن ٥هـ/١١م،[٢٢٤] كما توضح الرسالة المؤرَّخة في ٤٤٢هـ/١٠٥٠م أن تاجرًا ينصح ابنه المقيم في مصْر في قرية البوصير بشراء النوعية الجيدة من الكَتَّان لأنها مطلوبة في صِقِلِّيَّة.[٢٢٥]

وذكر ابن بطوطة[٢٢٦] عند زيارته لإحدى المُدن المصْرية وهي بوش، فيصفها بأنها أكثر البلدان كتانًا، ومنها يصدر إلى إفْرِيقِيَّة فيقول: «ثم سرت منها إلى مدينة بوش،

وهذه المدينة أكثر بلاد مصْر كتانًا، ومنها يُجلب إلى سائر الديار المصْرية والى إفْرِيقِيَّة، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة دلاص وهذه المدينة كثيرة الكَتَّان كمثل الذي ذكرنا قبلها، ومنها يُحمل أيضًا لديار مصْر وإفريقية.» وفي هذا دليل على أن تصدير الكَتَّان المصْري استمرت إلى قرابة القرن ٨هـ/١٤م طبقًا لقول ابن بطوطة.

وبيعت كمياتٌ كبيرة من الحرير والكَتَّان المصْري في أسواق صِقِلِّيَّة، ففي إحدى الرسائل المؤرخة في عام ٤١٨هـ/١٠٢٧م، اتجه قارب من الفسطاط مُحمل بكميةٍ كبيرة من الكَتَّان والحرير بالإضافة إلى توابل في طريقه لصِقِلِّيَّة، ولظروف طارئة حُوِّل مسار الرحلة من صِقِلِّيَّة إلى المهدية. ويذكر في الخطاب المؤرَّخ في ٤٢٢هـ/١٠٣٠م عن وصول شحنة من الكَتَّان لصِقِلِّيَّة، ونتيجة لتأخر وصول السفينة ولتعرضها للغرق رطب الكَتَّان نتيجة لوصول الماء إليه؛ وعليه بيع الكَتَّان على أيام ولم يجنِ الأرباح المُنتظَرة،[٢٢٧] وفي خطابٍ آخر عام ٤٢٢هـ/١٠٣٠م يظهر أسعار كمية من الكَتَّان في صِقِلِّيَّة قادمة من باليرمو عن طريق طرابلس، فسعر الكَتَّان متوسط الجودة دينار لكل قنطار في الفسطاط وبيع في باليرمو بـ ٥٠ إلى ٧٠ ربع دينار للقنطار.[٢٢٨]

وفي القرن ٩هـ/١٥م وبالأخص عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م، يذكر ابن عبد الظاهر[٢٢٩] أن سفينةً أقلعت من الإسكندرية في طريقها إلى تونس محملة بالكَتَّان «في يوم الجمعة حادي عشرة ركبت البحر الملح من مينا ثغر الإسكندرية بشواني البنادقة فأقلعوا، وكان معهم جماعة من تجار المسلمين بأصناف البضائع وأكثرها الكتان، وساروا متوجهين إلى جهة تونس المغرب.»

(٢-٣) تجارة النَّسيج مع بلدان الغرب الأوروبي

(أ) الأهمية النسبية لتجارة الغرب الإسلامي مع بلدان الغرب الأوروبي

ظلت العلاقات التجارية مفعَّلة وسارية — رغم فتورها في بعض الأوقات — بين بلدان الغرب الإسلامي والغرب الأوروبي عن طريق عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية بين السلطات لتوفير الظروف المناسبة لاستمرار تلك العلاقات والعمل على تنشيطها، وهو ما أظهرته من أهمية التجارة لأغلب مجتمعات البحر المتوسط،[٢٣٠] ما قد ساعد استقرار الأسعار واتزانها في بلدان الغرب الإسلامي وزيادة فرص التعامل التجاري بين تجار الغرب الأوروبي ومُدن الغرب الإسلامي وبخاصة خلال القرن ٧-٨هـ/١٣-١٤م.[٢٣١]

وتعدَّدت أوجه التبادل التجاري بين بلدان الغرب الإسلامي والغرب الأوروبي؛ ما يُعطي دليلًا على وجود حراكٍ تجاريٍّ مزدهر للعديد من السلع كالتوابل والحرير والقُطْن، هذا بالإضافة للحضور المنتظم لسفن الغرب الأوروبي إلى موانئ الغرب الإسلامي؛ فكثيرًا ما كانت تحط أشرعتها على موانئه بشكلٍ مستمر طوال العام، بعد أن سيطرت التجارة البحرية على جُل المبادلات التجارية في ذلك الوقت عبر البحر المتوسط، بما في ذلك مُدن البحر المتوسط في المشرق، مصْر وقبرص، اللتَين كانتا محطتَين هامتَين وسوقًا رئيسيًّا للمنتجات من الجلود والصوف، والقمح، والشمع، والعاج والمرجان؛ القادمة من الهِنْد والجزيرة العربية، لبلدان الغرب الإسلامي ولمُدن إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ولبقية مُدن الغرب الأوروبي.[٢٣٢]

واتسمت الحركة التجارية في الغرب الإسلامي في بدايتها بنوعٍ من البطء التجاري لم يُساير القوى التجارية الموجودة آنذاك؛ مما دفعها لأن تلعب دور الوسيط التجاري في العديد من المُبادلات التجارية بين البلدان الإِفْرِيقِيَّة والغرب الأوروبي،[٢٣٣] خاصة أن حكومات الغرب الإسلامي لم تُحبِّذ التعامل في البداية مع كيانات الغرب الأوروبي التجارية، إلا مع من امتلك الخبرة الكافية في مجال التجارة وركوب البحر الذي وجد في المُدن الإيطالية بصفةٍ خاصة، كما ساهم تطور الطرق البحرية وعمليات الشحن التجارية في الغرب الأوروبي في أواخر القرن ٦هـ/١٢م في النمو السريع لبعض الموانئ التجارية وعلى نشاطها التجاري والبحري؛ فأدَّى في النهاية إلى سيطرة الغرب الأوروبي على الطرق والمواصلات والتجارة البحرية في البحر المتوسط وحصوله على العديد من الامتيازات التجارية المهمة.[٢٣٤]

كما ازدهرت حركة التجارة في فترات توقف الحروب الصليبية،[٢٣٥] وأصبحت الموانئ المغربية تمثل أسواقًا بديلة للتجار المسيحيين عن تلك الموانئ الموجودة في المشرق؛ نتيجة لكثرة الصعوبات والمعوقات التي حالت دون ترددهم عليها بسبب الحروب الدائرة والموقف المشحون تجاهها.[٢٣٦]

فكان لعامل الأمن والسلام الداخلي والخارجي — في بعض الأوقات — أثره في نشر الأمن والطمأنينة في ربوع البلاد وتوفير الحماية للطرق والمسالك البرية والبحرية ومراقبة الموانئ والثغور البحرية؛ ما أدى إلى الرواج التجاري مع الموانئ المسيحية وعلى رأسها بيزا وجنوة، التي أبرمت معها العديد من المعاهدات التجارية؛ كمعاهدة عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م مع بيزا، التي اعْتُبرت من أقدم المعاهدات التجارية والبحرية، ومعاهدة

عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م،[٢٣٧] بالإضافة إلى ما حصلت عليه جنوة من امتيازاتٍ تجاريةٍ عديدة نتيجة تلك العقود والاتفاقيات،[٢٣٨] وغيرها من المُدن والبلدان المسيحية،[٢٣٩] ومن أبرزها كتالونيا؛ فقد قُدِّرت مداخيل خزائن بني مرين على خلفية المتاجرة مع كتالونيا خلال فترة من الفترات ما يقدر بـ ٦٠٠٠٠ دينار سنويًّا،[٢٤٠] كل هذا يعطي صورة شبه واضحة للسياسة التي اتبعتها مُدن الغرب الأوروبي تجاه التبادل التجاري مع البلدان الإسلامية.

فسعت تلك المُدن إلى استغلال كل الفرص التي أُتيحت لها لتوطيد تجارتها وترسيخها في موانئ المغرب الإسلامي لما امتلكته — بيزا وجنوة — من المقومات التي ضمنت لها التفوق على الصعيدَين البحري والتجاري،[٢٤١] فقد جنت ثمار الصراع الدائر بين الموحدين وإسبانيا المسيحية، وعن طريقه زادت من امتيازاتهما التجارية في كافة الموانئ؛ مما ترتَّب عليه تخفيض الضرائب المفروضة عليها، واستطاعت توفير أرباحٍ تجاريةٍ طائلة.[٢٤٢]

ونتيجة لاستمرار تلك السياسية التجارية كُثِّف النشاط التجاري في العديد من موانئ الغرب الإسلامي — خاصة ميناء تونس وجربة وبجاية — التي شهدت حالة من الرخاء الاقتصادي والتجاري استمرت خلال الفترة من القرن السادس إلى نهاية القرن العاشر الهجري/الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي، فساعد على ذلك السلع التي كانت مطلبًا دائمًا للرحلات التجارية القادمة من شتى البلدان سواء من حبوب أو مَنْسوجات،[٢٤٣] وما تؤكِّده قيمة الضرائب التي تحصَّلت عليها السلطة الحفصية من ميناء تونس التي قُدِّرت بـ ١٥٠٠٠٠ دينار سنويًّا.[٢٤٤]

(ب) أبرز الموانئ التجارية للغرب الأوروبي

تميَّزت الموانئ المسيحية عن نظيرتها الإسلامية؛ فنطاقها التجاري كان أوسع واشمل، وامتدَّت إلى مُدن المغرب والمشرق الإسلامي ووصلت حتى الهِنْد والأندلس، بالإضافة إلى أن منتجاتها غزت الأسواق المسيحية عامة.

فمن بين تلك الموانئ المهمة موانئ الجمهوريات الإيطالية (جنوة، بيزا، البندقية، أمالفي)، فكان لوضعها الجغرافي دور محوري في تجارة البحر المتوسط،[٢٤٥] فمثلت محطة لإعادة توزيع البضائع سواء القادمة من أوروبا أو من المشرق إلى بلدان البحر المتوسط.[٢٤٦]

واعْتُبر ميناء جنوة من أعظم الموانئ في البحر المتوسط نظرًا لحجم التجارة المتداولة من خلاله، ولأن تُجَّاره جابوا جميع البلاد والأماكن وجلبوا شتى أنواع التجارات، وقد ساعد على ذلك ما امتلكوه من قوةٍ بحريةٍ ضخمة أهَّلتهم لذلك، هذا بخلاف شعبها الذي كان يُعتبر من أمهر صناع السفن في منطقة البحر المتوسط؛ ولهذا تُعتبر سفنها الأَمْيَز والأفضل،[٢٤٧] لذلك شهد ميناء جنوة الكثير من التوسعات لاستقبال أكبر عدد من السفن والمراكب، كما حدث في ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، ٨٦٦هـ/١٤٦١م،[٢٤٨] في الوقت الذي غيرت فيه جنوة من سياستها الاقتصادية والسياسية خاصة مع بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.[٢٤٩]

أُضيف إلى ذلك ميناء بيزا التجاري، فكان من أبرز الموانئ التجارية في البحر المتوسط لما تمتع به من مكانة؛ نتيجة قوة أسطوله البحري الذي جاب أرجاء البحر المتوسط تجاريًّا وحربيًّا،[٢٥٠] فكانت بيزا مركزًا بحريًّا لنقل البضائع والمنتجات من وإلى منطقة البحر المتوسط بشقَّيه الغربي والشرقي،[٢٥١] فاشتهرت بالعديد من الصناعات والتجارات ومن أكثرها وأشهرها تجارة المنسوجات والأقمشة والصوف وإعادة توزيعها، حيث ساهمت في زيادة النمو التجاري لبيزا.[٢٥٢]

ولكن مع بدايات القرن ٨هـ/ ١٤م بدأت بيزا تفقد أهميتها التجارية بعد أن كانت من أهم المحطات التجارية في غرب البحر المتوسط خاصة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني والثالث عشر الميلاديين؛ فلم تَعُدْ قادرة على أن تلبِّي الاحتياجات اللازمة لحركة الرواج التجاري من مسايرة التقدم والتطور البحري ولتفكُّكها السياسي والنزاعات الداخلية، مما حال دون المحافظة على مكانتها التجارية الرائدة في شبكة التجارة البحرية في البحر المتوسط.[٢٥٣]

واعْتُبرت موانئ جزر البليار (ميورقة، منورقة، يابسة) من المحطات التجارية في البحر المتوسط، فميورقة ملتقًى تجاريٌّ كبير بين موانئ البحر المتوسط الغربي سواء من جنوب إيطاليا أو برشلونة وأيضًا الموانئ الفرنسية، فاعْتُبرت نقطة البداية للعديد من الرحلات التجارية الكتالونية والإيطالية والفرنسية إلى الشمال الإفريقي، واعْتُبرت جزر البليار وسيلةً بحرية آمنة للطريق البحري الذي ربط الموانئ الإيطالية بإسبانيا.[٢٥٤]

وعلى الرغم من ذلك فقد عانى التجار الكتالونيون في كثير من الأوقات من ويلات الضرائب التي فرضتها ميورقة عليها؛ مما أدى إلى قلة التبادل التجاري بينهما، خاصة في ظل الصراعات التي كانت موجودة.[٢٥٥]

وبرزت أهمية الموانئ الكتالونية في عملية التجارة سواء مع مُدن الغرب الإسلامي أو الغرب الأوروبي التي أصبحت مع بداية ق٨هـ/١٤م ذات نشاطٍ تجاريٍّ متميز على صعيد التجارة مع بلدان البحر المتوسط كافة،[٢٥٦] وظهر تأثير القراصنة واضحًا من خلال حجم المبادلات التجارية بين الموانئ الكتالونية ومُدن المغرب الإسلامي خلال القرن ٩هـ/١٥م، خاصة على المنتجات الزراعية والجلد والصوف والأقمشة وغيرها من البضائع، وبالأخص من قِبل قراصنة ميورقة.[٢٥٧]

ولعبت الصراعات الدائرة بين كتالونيا — باعتبارها مسيطرة على ميورقة بعد سقوطها من قبضة الحكم الإسلامي — والدول المحيطة بها؛ دورًا في قلة التبادل التجاري معها، فقد برزت أهمية الموانئ الكتالونية في النشاط التجاري مع مُدن الغرب الإسلامي والمسيحي، التي تطورت مع بداية ق٨هـ/١٤م، مع بلدان البحر المتوسط كافة،[٢٥٨] واستمرت حتى القرن ٩هـ/١٥م.[٢٥٩]

ميورقة

محطةٌ تجاريةٌ مهمة في عمليات التبادل التجاري بين عالمي الغرب الإسلامي والغرب المسيحي؛ فمنها تبدأ الرحلات التجارية منطلقة لموانئ البحر المتوسط في النصف الثاني من يوليو من كل عام، باعتبارها وسيلةً بحريةً آمنة للطريق البحري الذي ربط موانئ الحوض الغربي للبحر المتوسط بعضها ببعض، فاعْتُبرت نقطة البداية للعديد من الرحلات التجارية الكتالونية والإيطالية والفرنسية إلى الجنوب لطرابلس، وجربة، وإفريقية، ووهران، وبجاية، وبقية موانئ المغرب مواصلة بعد ذلك إلى الأندلس ومملكة أراجون ومملكة جنوب إيطاليا والموانئ الفرنسية،[٢٦٠] ولكن في الأوقات التي كان فيها تعنت من أراجون مُنع بيع البضائع القادمة من بجاية وإِفْرِيقِيَّة على التجار الذين لا يحملونها على سفن ميورقية.[٢٦١]

واعتبرت ميورقة أن رواجها التجاري مع المناطق المجاورة مع كلٍّ من صِقِلِّيَّة وسردينيا ومُدن الغرب الإسلامي ليس من أجل النمو الاقتصادي لها فحسب، ولكن من أجل الاستقرار السياسي المصاحب لهذا النمو في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهو ما ينعكس بدوره على اقتصادها.[٢٦٢]

فحظيت موانئ المغرب بواحدة وثلاثين رحلةٍ تجارية مقارنة بإِشْبِيلِية وجزيرة يابسة لكل واحدة رحلتان ورحلة لجنوة سنويًّا،[٢٦٣] ويرجع ذلك للعلاقات الجيدة

والمعاهدات التجارية واستمرار التبادل التجاري حتى في فترات النزاع، ففي ٦٧٣هـ/ ٦ أغسطس ١٢٧٤م سمح ملك أراجون لاثنين من التجار الميورقيين بالتجارة في تلمسان،[٢٦٤] وعلى النقيض من ذلك لاقى التجار الكتالونيون في بعض الأوقات الضرر من ويلات الضرائب التي فُرضت عليهم من سلطة ميورقة جراء الصراعات والاضطرابات الدائرة بينهم.[٢٦٥]

وما تُظهره معاملات التبادل التجاري بين التجار الميورقيين وتجار الغرب الإسلامي من خلال عمليات البيع والشراء، التي تعكس هذا التواجد التجاري داخل بلدان الغرب الإسلامي واستعانتهم بالوسطاء التجاريين لترويج سلعهم وبضائعهم وبخاصة النَّسيجية،[٢٦٦] فحظي الغرب الإسلامي بنصيبٍ كبير من التجارة الميورقية وخاصة القُطْن، التي دلَّت عليها التصاريح التجارية، وذلك ما بين عامي ٧٤٢هـ/١٣٤١م-٧٤٣هـ/١٣٤٢م، والتي بلغت ٣٨ تصريحًا من ٨٧ تصريحًا لكافة موانئ البحر المتوسط، وهذا يوضِّح الأهمية التجارية التي عادت على جزر البليار جراء حركة التبادل التجاري مع الغرب الإسلامي وخاصة الساحل المغربي،[٢٦٧] وصدَّرت ميورقة المنتجات النَّسيجية — الصوفية — لبلدان المغرب الإسلامي لما امتلكته من مُقوماتٍ صناعية وزراعية أهَّلتها لأن تكون في هذه المكانة، وهو ما أشار إليه التبادل التجاري بينهما خاصة خلال القرن ٨هـ/١٤م.[٢٦٨]

وعن دور ميورقة كمركز لتوزيع السلع والبضائع القادمة من الغرب الأوروبي، فكانت الأقمشة الكَتَّانية والمَنْسوجات البيضاء القادمة من بلاد الفلندر، ومن شمال فرنسا، بالإضافة للمَنْسوجات الصوفية، وتوزيعها وإرسالها إلى الغرب الإسلامي وبخاصة لتونس عن طريق التجار الميورقيين، ففي ٦٤٥هـ/أبريل ١٢٤٧م رتب التاجر الميورقي جون دي باس Joan de Bas لنقل كمية من قماشٍ فلامنكي وبرفانسي من ميورقة إلى تونس.[٢٦٩]

ومن بين السلع والبضائع ذات الأهمية الاستراتيجية التي صدرتها ميورقة الصوف؛ فاحتلت تجارته مرتبة مرموقة بين المبادلات التجارية،[٢٧٠] في حين أصبحت الأصواف الإسلامية ولفتراتٍ طويلة بفضل جودتها مطلبًا لعديد من المُدن سواء ميورقة وجنوة وبيزا وما أظهرته العديد من الرسائل والوثائق،[٢٧١] وما حظيت به ميورقة من دورٍ تجاريٍّ مهم في إعادة تصدير الأصواف والمنتجات؛ لما امتلكته من مقوماتٍ صناعية وزراعية أهَّلتها لتكون في هذه المكانة، وما أشارت إليه عمليات التبادل التجاري خلال القرن ٨هـ/١٤م[٢٧٢] جعلها تُعيد تصنيع وتصدير المنتجات النَّسيجية — الصوفية —

لبلدان الغرب الإسلامي وغيرها من البلدان، ففي عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م وصل ثمن برنوس من صوف مغربي صُنع في جزر البليار إلى ما بين ٢٥ إلى ٢٦ فلسًا ميورقيًّا،[٢٧٣] ومارست نفس الأمر مع مُدن المناطق الشمالية خاصة توسكان.[٢٧٤]

وأرسلت في منتصف ٨هـ/١٤م كمية من الصوف قُدرت بـ ٥٠٠ كيلوجرام لميورقة بيعت بعشرين دينارًا، وأرسلت تسعة قناطير من جزز الأغنام المغربية عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م وبيعت باثني عشر دينارًا أي بسبع وعشرين فلسًا برشلونيًّا للقنطار الواحد، وهو ما يعادل ٤٤ فلسًا ميورقيًّا،[٢٧٥] ومع بدايات القرن ٩هـ/١٥م تحول الأمر بالنسبة لميورقة، فقد اعتمدت على ما تنتجه من أصواف وما يُجلب إليها من الشواطئ الإسبانية والموانئ الإنجليزية عن طريق التجار والبحارة الميورقيين الذين اعتادوا التردد على تلك المناطق، فكان من أبرز هؤلاء التجار الذين اشتهروا بتجارة الصوف التاجر التوسكاني «دانتي» Datini وهو من أبرز التجار الذين عملوا بالتجارة الميورقية خلال القرن ٨-٩هـ/١٤-١٥م، وكانت له العديد من الشركات التجارية، ويُعتمد على سجلاته التجارية كوثيقة للمعاملات التجارية لجزيرة ميورقة.[٢٧٦]

ووصل بعض التجار الميورقيين لألَمِريَّة في٧٣١هـ/١٣٣٠م على متن قاربٍ محمَّل بأربعين بالة من قماش وصوف وغيرها من البضائع والسلع الأخرى، فمن بين ما نقل هذا القارب ١٢ كيسًا من القطن، ١٦٦ جرارًا من الزيت، ١٦ من سلال التين،[٢٧٧] وفي ٧٣٢هـ/١٣٣١م أَبحَر خمسة تجار ميورقيين على ظهر سفينةٍ ميورقية مُحمَّلة بالشمع والجلد والأصواف بيعت في تلمسان بأكثر من ٥٠٠ دينار ثم عادت إلى ميورقة.[٢٧٨]

وحَمل-loos التاجر الميورقي برناط دي طوس Bernât de Tous، القمح والجلد من تونس والحرير من ألَمِريَّة على إحدى السفن الميورقية للتاجر هاجينت فالنتي Huguet Valenti، كما وصل التاجر علي بن محمد في عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م لميورقة قادمًا من تونس على إحدى السفن الميورقية محملًا ببعض السلع من إِفْرِيقِيَّة ومن غَرْنَاطَة ومنتجات من مناطقَ أخرى، قُدِّرت هذه الشحنة بسبعة عشر قنطارًا من النيلة، والصوف، والجلود، والشمع.[٢٧٩]

وبالإضافة للصوف كان الحرير من بين تلك البضائع التي أُرسلت لميورقة وخاصة القادم من المناطق الأندلسية ومن المشرق الإسلامي؛ لأنها لم تشتهر بالحرير ولا صناعته، يقول الزهري[٢٨٠] عن ذلك: «ولا يعرفون الحرير ولا ثمرته إلا ما يُجلَب إليهم من بلاد الأندلس والشَّام.» والورق أو الكاغد لميورقة، ففي عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م اشترى ديوان

القنصلية في ميورقة عددًا من فرائد الورق من فاس بسعر ٦٤ فلسًا للفريدة الواحدة، خاصة عن طريق الوسطاء التجاريين من اليهود الذين تعهدوا بتوريد الورق إلى ملك أراجون.[٢٨١]

وأجرى أبو العباسي أحمد أبو سليم أمير تلمسان في عام ٧٨٤-٧٨٥هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٣م عملية مبادلةٍ تجارية مع تجار ميورقة ببعض البضائع الموجودة في المخازن السلطانية من الزيت، الفلفل الغاني، ومبادلتها بأصوافٍ قادمة من ميورقة، فكانت هذه المبادلة سببًا في حدوث نزاع بين الطرفين نظرًا لمطالبة الأمير بدفع قيمة الأصواف نقدًا،[٢٨٢] وجرت الاستعانة ببعض الوسطاء التجاريين لترويج بعض السلع والبضائع القادمة من ميورقة — خاصة النَّسيجية منها — لمُدن الغرب الإسلامي.[٢٨٣]

هذا التبادل الكبير للنسِيج وحجم المبادلات التجارية بين الموانئ الكتالونية ومُدن المغرب الإسلامي خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وميورقة؛ جعل تجارة النَّسيج والأقمشة عُرضة للعديد من غارات القرصنة في حوض البحر المتوسط الغربي،[٢٨٤] وبالأخص قراصنة ميورقة على المنتجات الزراعية والجلد والصوف والأقمشة وغيرها من البضائع.[٢٨٥]

وأغارت في شوال من عام ٧٠٢هـ/١٣٠١م ثلاث سفن تابعة لقراصنة كتالونيين على مرسى تونس واستولوا على مركب لتجار بيزيين محمل بالصوف قيمته ثلاثون ألف دينار «بتاريخ شهر شوال من عام اثنين وسبعماية وصل للحضر العلية غراب وشيطيان للقطلانيين فأخذوا في المرسى بها طريدًا للبيشانيين بالصوف قيمتها بما فيها ثلاثون دينارًا وأخذوا شيطيا للجنويين فيه وسق للمسلمين البونيين قيمته بما فيه عشرة آلاف دينار وسلورة للبيشانيين بالقطر وفي هذا هناك حرم المرسى ونقض للصلح.» واستولوا على مركبٍ جنوي موثق بسلع لبعض تجار بونة قيمته عشرة آلاف دينار، وفي نفس الشهر خرج من ميورقة مركب «شيطي» ليغير على مدينة بنزرت واستولى على مركب لتجارٍ مسلمين قادم من بجاية ومحمل بمَنْسوجات وأقمشة قُدِّرت قيمتها بـ ٤٠ ألف دينار، واستولى أيضًا على جفن لتجار من بونة قيمة ما كان عليه من بضائع خمسة آلاف دينار،[٢٨٦] وفي صفر ٧٠٤هـ/١٣٠٤م سطا مراكبان كتالونيان على مركب لتجارٍ مسلمين محمل بمَنْسوجات وملابس وغيرها من السلع قُدِّر ثمنها بـ ٥٠٠٠٠ دينار.[٢٨٧]

وتعرَّضت السفن المحمَّلة بالصوف لغارات القراصنة الذين سعوا لاقتناصها والاستيلاء عليها خاصة السفن الإيطالية المنوطة بنقل الصوف من إنجلترا، كما

تعرَّضت سفينةٌ أخرى محمَّلة بالصوف قادمة من ميورقة في طريقها لبرشلونة عام ٨٠٠هـ/١٣٩٧م، لغارة القرصان الباسكي بيرو بايا Pero Paya فاستولى على السفينة وما بها من بضائع، وبعد أن فرغ من نهبها وسرقتها حرقها.[٢٨٨]

الجُمهوريات الإيطالية

من بين المناطق التي نشطت معها تجارة الغرب الإسلامي وبالأخص تجارة النَّسيج؛ الجُمهوريات الإيطالية (جنوة، بيزا، البندقية، أمالفي)، فكان لوضعها الجغرافي دورٌ محوري في تجارتها عبر البحر المتوسط،[٢٨٩] ومحطة لإعادة توزيع البضائع سواء القادمة من الغرب الأوروبي أو المشرق الإسلامي لبلدان البحر المتوسط،[٢٩٠] من الكَتَّان المصْري والصقلي الذي نقله التجار الجنويون لمُدن الغرب الأوروبي وجنوة ليُعاد تصنيعه وبيعه ومن ثم تصديره إلى مُدن وبلدان الغرب الإسلامي.[٢٩١]

واحتلت تجارة الأصواف مكانةً كبيرة في المبادلات التجارية بين الغرب الإسلامي والجمهوريات الإيطالية،[٢٩٢] فكانت كل من بجاية وتونس وجربة وطرابلس من أكثر المُدن المصدرة للصوف إلى مرسيليا وجنوة وبيزة والبندقية،[٢٩٣] وطلب الصوف الأندلسي للممالك الإسبانية على الرغم من أن مواصفاته أقل من الصوف الإنجليزي في صناعة المَنْسوجات الصوفية الخشنة وذلك على حد قول أوليفيا ريمي كونستبل،[٢٩٤] لأن الجمهوريات الإيطالية أنتجت صوفًا رديئًا نسبيًّا مقارنة بالأصواف الأخرى؛ لذا اضطرت إلى الاعتماد على الصوف القادم من غرب البحر المتوسط.[٢٩٥]

ونظرًا للاضطرابات السياسية في المغرب الأقصى في القرن ٧هـ/١٣م، تقلص عدد الرحلات التجارية في ذلك الوقت وتركَّزت على مدينة بجاية وتونس،[٢٩٦] وعلى الرغم من توقُّف العلاقات التجارية وتعطُّلها بينهما زمن الحملة الصليبية على تونس عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م فإنها لم تنقطع وبدأت مرةً أخرى، فعاد الهدوء والسلام النسبي بينهما،[٢٩٧] وعلى الجانب الآخر استوردت بلدان الغرب الإسلامي الأقمشة من فرنسا وجنوة وميلان.[٢٩٨]

وكان لموانئ وهران وهنين وسبتة دورٌ مهم في ربط التجارة الأوروبية بمُدن الغرب الإسلامي خاصة وهران؛ فانتظمت بها الحركة التجارية وكُثِّفت باتجاه مرسيليا، فاحتلت المرتبة الأولى في تجارتها في ذلك الوقت التي استمرت لمنتصف القرن ٨هـ/١٤م.[٢٩٩]

واعتبرت بجاية من بين أكثر الموانئ المغربية أفضلية بالنسبة لجنوة من حيث قيمة وقدر المبادلات التجارية بصفةٍ عامة، فبين عامي ٥٥٠هـ/١١٥٥م-٥٥٩هـ/١١٦٤م بلغت قيمة التعامل التجاري بينهما ٥٢٢٨ ليرة جنوية، وحظيت سبتة بتعامل تجاري وصل لـ ١٦٨٣ ليرة، وتونس لـ ٨٠٢ ليرة، وسلا لـ ٣٩٠ ليرة، وطرابلس لـ ١٤٢ ليرة.[٣٠٠]

وتبرز العقود التجارية التي ورد ذكرها في الوثائق الجنوية حجم المبادلات التجارية للنسِيج، خاصة القادم من المُدن الإيطالية، وبالأخص جنوة في اتجاه أسواق الغرب الإسلامي، ففي عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م أرسل التاجر اليهودي إسماعيل لشريكه في بجاية حُمولة من القُطْن تبلغ ثلاثة عشر قنطارًا بواسطة شركةٍ تجارية ليمونوس دي نيرفي Raimundus de Nervi، بالإضافة إلى سبعة قناطير أخرى؛ لتُباع في الأسواق المغربية؛ لأن التجارة الجنوية مع موانئ الغرب الإسلامي شكلت جانبًا مهمًّا في جنوة؛ فكانت تمثل ضمانات لقروض بحرية تجارية،[٣٠١] وفي عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م أُبرم عقدٌ تجاري بين التاجرين الجنويين دي ريفينو De Rufine ودي دالنو De Dalneo، لإرسال شحنةٍ تجارية لبجاية من الفلفل والتوابل والقُطْن بما قيمته ٥٣ ليرة جنوية، وحَمل التاجر الجنوي ريسبيس غيدو دي بونو في عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م، قطعًا من القُطْن بعد أن سدَّد رسوم الشحن التي قاربت إحدى عشرة ليرة لإرسالها لبجاية،[٣٠٢] ونقل كمية من الأبسطة عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م لمدينة سبتة عن طريق التجار الجنويين، حَمل بوتاروليوس Botarolius أربعة منها،[٣٠٣] ونقل التاجر الجنوي أيدو وليام في عام ٥٥٧هـ/١١٦١م، عشر قطع من الحرير الفاخر إلى بجاية بما قيمته ٣٢ ليرة جنوية،[٣٠٤] كما تعاقد تاجرٌ جنوي آخر في عام ٥٥٧هـ/١١٦١م على نقل ٩٤ رطلًا من الحرير الخام وعشرة أثْوَاب من الكَتَّان الإسباني لبلاد المغرب،[٣٠٥] ووقَّع التاجر جيوفاني سكريبا عقدًا في نفس العام من أجل شحن عشر قطع ثِياب أَنْدلسية له.[٣٠٦]

واتفق التاجر أنفوساس ناتا Anfossus Nata عام ٤٥٣هـ/١١٦١م على نقل كمية من الكَتَّان لبجاية لصالحه يستغل ربحها في شراء بعض السلع المغربية والمتاجرة بها، بالإضافة لكمية أخرى لمصلحة بلانكاردوس Blancardus،[٣٠٧] وحَمل التاجر بونوسيوهيانس ليركاريوس كمية من الحرير والكَتَّان الإسباني إلى بجاية، فتلقَّى تعليمات بشراء الشمع أو حجر الشب أو الذهب من ربح عملية البيع في أيٍّ من الأماكن على ساحل المغرب أو في وهران أو سبتة، ليسدِّد ثمن بعض مَنْسوجات قد اشْتُريت من جنوة؛ لأن السداد ارتبط بالوصول الآمن للسفينة ولحمولتها.[٣٠٨]

وفي عقدٍ آخر سُجِّل في العام ذاته نقل التاجر الجنوي بونوسيوهانيس Bonus-iohannis كمية من الحرير لصالح التاجر ويليام مالوناس William Mallonus بقيمة ٩٤ ليرة جنوية لبجاية،[٣٠٩] وعام ٥٥٥هـ/١١٦٣م قام إنجو بيديلوس Ingo Bedellus بنقل كميات من الحرير والورق بما يفوق ٣٢ ليرة إلى تونس لصالح ويليام كيريولاس William Ciriolus، وفي عام ٥٥٧هـ/١١٦٤م نُقلت كمية من القُنَّب لبجاية بقيمة ٤٤ ليرة،[٣١٠] وحُمِلَتْ كميةٌ كبيرة من المَنْسوجات الجنوية إلى بجاية في عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م قُدرت قيمتها بـ ٤٤ ليرة.[٣١١]

وشحن في عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م فاسالوس سترالير Vasallus Straleira كمية من الحرير بقيمة ثماني عشرة ليرة لسبتة، واحتفظت مَنْسوجات الغرب الإسلامي بتواجدها في الأسواق الإيطالية، وهو ما أظهرته بعض العقود التجارية؛ ففي عقدٍ مؤرَّخ في ٥٨٠هـ/١١٨٤م ذُكر فيه جملة من قطع النَّسيج مكونة من ستة أثْوَاب من صوفٍ غرناطي أربعة منهم خضر واثنان باللون البني.[٣١٢]

واتفق التاجر رولاندوس دي ساويا Rolandus de Suddea في عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م على شحن ما يقرب من ٢٨ قطعة من الأبسطة قيمتها ٢٨ ليرةً جنوية، والتاجر أوتو دي كاستيلو Otto de Castello الذي حَمل ٤٩ قطعة قيمتها ٢٤,٥ ليرة لمصلحة أوتو مالوناس Otto Mallonus، بالإضافة لبعض من قطع السجاد المصنوع من السَّاج والمُطعَّم بالمجوهرات واللؤلؤ والمُعطر بالمسك، كما حُمِلَتْ بعض الأقمشة الصوفية كالسَّاج لبجاية ولعلها قادمة من مصْر أو بلاد المشرق، وفي عام ٥٨٧هـ/١١٩١م نُقلت كميةٌ كبيرة من الساج لسبتة بواسطة التجار الجنويين، وفي العام التالي نُقلت كميةٌ أخرى لسبتة وبجاية بقيمة ٢٣ ليرة.[٣١٣]

وشغل قماش الفستيان Fustians حيزًا في المبادلات التجارية بين جنوة والمغرب، فلاقى رواجًا كبيرًا، وجُلب بواسطة التجار اللومبارديين من مراكز تصنيع الأقمشة الشهيرة في مدينتي ميلانو وبافيا Milan & Pavia ثم إلى جنوة،[٣١٤] ففي عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م حمل التاجر اللمباردي فيسكيانو إيكموس Ficiano Iacomus بالَتَين من قماش فستياني غير مصبوغ إلى بجاية.[٣١٥]

وظلت تونس لفتراتٍ طويلة من أهم الأماكن المصدِّرة للصوف للمُدن الإيطالية؛ لأن نسبةً كبيرة من سكانها كانوا دباغين وتجار أصواف وفراء، فبين عامي ٥٩٢-٥٩٤هـ/١١٩٥-١١٩٧م باع بعض التجار التونسيين كمية من جلود الأغنام، قُدِّرت

بتسعة قنطارات، لعدد من التجار البيزيين، كما حصل التاجر البيزي باسي باسنو Pace Pisano على شحنة من جلود الأغنام بلغت قيمتها ١٥١٨ دينارًا،[٣١٦] وحصل عدد من التجار البيزيين والجنويين على ٢٣٤٠ قنطارًا من الجلد المدبوغ وجلود المواشي،[٣١٧] وهذه الكميات الكبيرة من الجلود والأصواف تظهر الطلب المتزايد لتلك السلعة التي دائما كانت مطلبًا لعدد من المُدن في ميورقة وجنوة وبيزا.[٣١٨]

وأُرسلت في عام ٥٩٤هـ/١١٩٧م كمية من الكَتَّان من جنوة بقيمة ٥٣ ليرةً إلى سبتة، وفي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م أُرسلت شحنة أخرى من الكَتَّان بقيمة ٥٩ ليرةً لسيدة تُدعى ياكوبا زوجة التاجر أيدو مالوناس Ido Mallonus في بجاية، ولعلها مرسلة من مدينة شامبين Champagne أحد مراكز صناعة الكَتَّان المهمة في الغرب المسيحي، بالإضافة إلى مدينة كولون الألمانية وشبة الجزيرة الأيبرية، فمنها يُعاد تَصدير وبيع الكَتَّان لموانئ الغرب الإسلامي عن طريق التجار الجنويين، ونقل التاجر الجنوي بونوسيوهانيس Bonusiohannis كمية من الكَتَّان الأندلسي لبجاية تقدر بـ ٤٣ مقياسًا — كانة — لصالح التاجر ويليام مالوناس William Mallonus.[٣١٩]

ومع بداية القرن ٧هـ/١٣م شهدت العلاقات التجارية الجنوية مع بلدان الغرب الإسلامي نشاطًا ملحوظًا، فوقَّعت جنوة عددًا من المعاهدات التجارية للحصول على بعض الامتيازات التجارية، التي من خلالها تستطيع الحصول على المواد والسلع التي ترغب في المتاجرة فيها،[٣٢٠] فتصدر ميناء سبتة قائمة المعاملات التجارية الجنوية خلال النصف الأول من هذا القرن، تليها بجاية التي بدأت أهميتها التجارية تزداد.[٣٢١]

وهناك إشاراتٌ تدل على أن المَنْسوجات الغرب إسلامية — خاصة الأندلسية — وُجدت بأسواق أوروبا من خلال قائمة الضرائب التي فرضتها مونبيليه بفرنسا،[٣٢٢] كالتي فُرضت على مَنْسوجات أَنْدلسية على المناطق الواقعة على طول نهر يبرو Ebro، كما وَضع حكام طليطلة عام ٦٠٤هـ/١٢٠٧م ضريبة على المَنْسوجات الأندلسية، وهو ما أبرزته العقود الجنوية خلال تلك الفترة التي ذكرت أصنافًا من الحرير الأندلسي بيعت في جنوة خاصة في مجموعة من العقود الجنوية المؤرخة في ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، و٦٢١هـ/١٢٢٤م و٦٣٦هـ/١٢٣٨م.[٣٢٣]

ففي إحدى الرسائل التجارية التي أرسلها التاجر التونسي «محرز القابسي» يشكو فيها من تاجرٍ بيزي تأخر عن دفع ثمن شحنة من الجلود والصوف، قُدرت بتسعة

قناطير وثمنها ٢٩,٥ دينارًا، وأنه دفع منها خمسة دنانير فقط، فيذكره بقوله: «فأنت يا صديقي ذكرك ذكر خير عندنا، وأنت مشكور الأحوال عند التجار، وعند من سافر معك.»[٣٢٤] فضلًا عن كميات من الجلود وجزز الشياه — التي استخلص منها الصوف — فكان من جملة ما بيع في إحدى الصفقات التجارية لبعض التجار البيزيين ١٤٨٥ جلد خروف بقيمة ٢٥١,٦ دينارًا،[٣٢٥] فيظهر الاحترام المتبادل والعلاقات الودية بين التجار البيزيين والتونسيين من خلال قول محرز القابسي في رسالته: «أنت أيها الصديق العزيز لك سمعةٌ طيبة في بلادنا، وتتمتع أنت ومن يأتي معك باحترام التجار.»[٣٢٦] ما يعكس رغبة تجار الغرب الإسلامي في استمرار تلك العلاقات قائمة، رغم الفتور السياسي في بعض الأوقات، أو تعنت تجار المُدن الإيطالية عن سداد ما عليهم لصالح التجار المسلمين.

كما كان لبعض العائلات التجارية الجنوية نشاطٌ ظاهر داخل مناطق الغرب الإسلامي، خاصة عائلة التاجر الجنوي ماندويل Manduel ففي ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، الذي كلف ابنه بالسفر من جنوة إلى وهران لنقل ست شحنات من القُطْن في اتجاه ميناء وهران ومنطقة تلمسان، وهذه العائلة لم تتردَّد في الحصول على منافذَ تجاريةٍ تلمسانية،[٣٢٧] لأن تلمسان من المناطق التي تعاملت معها الجمهوريات الإيطالية، لجلب الأكسية الصوفية والقطنية وكذلك الكتانية والحريرية، لا سيما تجار بيزا والبندقية،[٣٢٨] وفي الاتجاه المقابل تواجد تجار الغرب الإسلامي في أسواق جنوة، ففي عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م سافر التاجر السبتي محمد بن معلم إلى جنوة على ظهر سفينةٍ جنوية، ومعه العديد من السلع لبيعها.[٣٢٩]

ولم يَغب التجار الفرنسيون عن المشهد التجاري في الغرب الإسلامي؛ فأرسل التاجر المرسيلي بيار قاروت Pierre Garotier في عام ٦٢٧هـ/١٢٣٣م وسْقَين من القُطْن مع التاجر هوق دي تامبل Hugues du Temple من مرسيليا لبيعها في بجاية،[٣٣٠] وفي عقدٍ جنوي مؤرخ في ٦٢٢هـ/١٢٢٥ يشير إلى أن ١٨٠,٥ رطلًا من الحرير الأندلسي بيعوا لتجار من جنوة،[٣٣١] كما أرسل التاجر الجنوي ماندیال Manduel شحنة من القُطْن ومعها اثنتا عشرة قطعة من الحرير والقماش الكتاني لبجاية في٦٣٠هـ/١٢٣٣م، ونقل التاجر بيار فلقيي Pierre Falguiers من مرسيليا إلى بجاية كمية من قماش القُطْن وبعض المَنْسوجات الأخرى كاللحف.[٣٣٢]

وفي المقابل ونتيجة للغزو التجاري للأسواق الأوروبية من قِبَل مدن الغرب الأوروبي التي طوَّرت نشاطها الاقتصادي والتجاري فيما يتعلق بالصوف والكَتَّان والقطن وكذلك

الحرير، فعلى الرغم من ذلك ظل الحرير الأندلسي محافظًا على قيمته التجارية فلم يجد منافسًا قويًّا لفتراتٍ طويلة، لأن مصانع الغرب الأوروبي رغبت في تصنيع الصوف الخام والكَتَّان والقُطْن أكثر من الحرير، وهو ما تؤكده عقود التجارة؛ ففي مملكة أراجون في عهد الملك جيمس الأول هناك غيابٌ تام لمَنْسوجات الغرب الإسلامي خاصة الأندلسية في أسواق أراجون، في حين توافرت المَنْسوجات الفلامندية والإيطالية وكذلك من ميلانو وبرشلونة والعديد من المُدن المسيحية، بعد أن منح جيمس الأول للتجار المحليين بعض الامتيازات التجارية لإجادتهم أعمالهم وما يتعلق بتجارة النَّسيج.[٣٣٣]

فقد طلب تاجر من دينة ومونبيليه يُدعى سيمون ريكارد Simon Ricard عن طريق وكيله في مدينة مرسيليا عام ٦٤٦هـ/١٦ مارس ١٢٤٠م، إعطاء ٥٤٣ Sous للتاجر المرسيلي جان فيلافور Jean Villefort والمسافر إلى سبتة ليشتري بها كمية من الحرير،[٣٣٤] وفي عام ٦٥٩هـ/١٢٥٧م قام التاجر الجنوي بوونجيونفاني براسيو Buongionvanni Baurratio بنقل أربعة عشر رطلًا في كيس من القُطْن القادم من بلدان المشرق.[٣٣٥]

وتُظهر العديد من الوثائق أهمية تجارة الصوف في العلاقات التجارية بين الغرب الإسلامي ومُدن الغرب المسيحي؛ ففي الخمسة شهور الأولى من عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م نقل تجارٌ جنويون كميةً كبيرة من الصوف [قُدرت بثمانية مكاييل] لعدد من المُدن والموانئ المسيحية، وما حصل عليه أحد التجار الجنويين بعد أن كلف نائبه بشراء ٤٠٠ قنطار من الصوف و٩٠ قنطارًا من الجلد المدبوغ، وأيضًا ما تعاقد عليه التاجر البيزي فرانسيس ميلا Frances Mella في ٢٤ أبريل عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م لشراء ١٥٠ قنطارًا من الصوف شُحن من مدينة بونة،[٣٣٦] وفي جمادى الأولى ٦٩٠هـ/مايو ١٢٩١م، حمَّل تاجر بيزي على ظهر سفينة بندقية كميةً كبيرة من الصوف والشمع من ميناء عنابة.[٣٣٧]

وتوجد إشارات عن التبادل التجاري للنسِيج بين موانئ الغرب الإسلامي وموانئ جزيرة قُبرص عن طريق التجار الجنويين، كالتاجر الجنوي سيموني دي بارا Simone de Barra الذي وفر السفن التجارية للعديد من التجار لحمل كميات تحوي ما بين ٦٠-٨٠ قنطارًا من القُطْن من جزيرة قبرص لميناء بجاية، وكان ذلك عام ٧٠١هـ/١٣٠١م عن طريق التاجر أنطونيو إليونيس دارنزانو Antonio Elianis de Arenzano.[٣٣٨]

وتدلُّ بعض الوثائق الجنوية أن صوف المرينو صُدِّر إلى جنوة عن طريق تجارٍ تونسيين لأسواق الغرب المسيحي، ففي رسالة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، الصادرة من قنصل

الجالية الجنوية في مدينة بيزا، تذكر أن سيمون ستاتكوني الموكل من قبل بسكال أوسوديماري أن تارتارنيودي نيجرو تسلم ٤٩ كيسًا من الصوف المريني أرسلها جابر بن بسكال من تونس والمناطق المجاورة.[٣٣٩]

وتُظهر معاهدةٌ تجارية بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ٧١٣هـ/ ١٤ سبتمبر ١٣١٣م، جاءت في فقرةٍ صريحة تقضي بعدم دفع التجار البيزيين لأي ضرائب عند بيعهم الكَتَّان أو القُطْن: «وإذا باع بيشاني كتانًا أو قطنًا أو غير ذلك من السلع الموزونة، فلا يؤدي في ذلك رطلًا ولا طعمًا للديوان ولا للتراجمة.»[٣٤٠]

وفي عام ٧٥٨هـ/١٣٥٦م وضمن الاتفاقية الموقَّعة بين طرابلس والبندقية التي نصت على أن هناك ضريبة تُدفع على الصوف، وخاصة أردأ الأنواع من الصوف؛ فكان يُدفَع «تومين» واحدٌ على كل بيزنظي من ثمن الصوف، وتلك الضريبة تُدفع للتراجمة، وهم من يقومون بالوساطة التجارية في الصفقات من السلع والبضائع،[٣٤١] وهذه الاتفاقية تُدلِّل على أن العلاقات التجارية بين مدن الغرب الإسلامي والبندقية قد استمرت حتى منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م، ولعلها استمرت بعد ذلك.

وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية ومدن الغرب الإسلامي، وخاصة مدن المغرب ومن ضمنها جربة، التي قصدتها القوارب والسفن التجارية القادمة من بيزا وجنوة لتحميل الأصواف الناعمة التي اشتهرت بها؛ لما امتلكته من ثروةٍ حيوانية ومقوِّماتٍ زراعية أهَّلتها لأن تكون الوجهة المفضَّلة لشراء الصوف إبان القرن ٨هـ/ ١٤م.[٣٤٢]

واتجهت المبادلات التجارية للنسِيج مع بلدان الغرب الإسلامي في القرن ٩هـ/ ١٥م إلى بدائلَ أخرى خاصةٍ مع الغرب الأوروبي،[٣٤٣] فمراسلات التاجر التوسكاني دانتي Datini تفيد بأن المغرب الإسلامي لم يفقد أهميته التجارية بالنسبة للصوف مع ميورقة، وتؤكد على قيام العديد من المبادلات التجارية للصوف في معظم بلدان المغرب عن طريق التاجر اليهودي استيرش إكسبيلي Asturuch Xibili،[٣٤٤] وفي عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٤م منع المجلس البلدي البندقي تصدير القُطْن القادم من بلاد الشَّام إلى المغرب؛ لأن التجار البنادقة أعادوا تصدير القُطْن السوري إلى موانئ بجاية،[٣٤٥] كما وقعت بعض الخلافات في عام ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م بين التجار الجنويين تُظهِر أن التاجر الجنوي جورج جرجير ستيلا كان من أبرز التجار الذين اهتموا بتوريد بعض المَنْسوجات والمواد الخام لطرابلس، ومن مستوردي الصوف والكَتَّان خاصة من قسنطينة قبل عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، بالإضافة إلى العديد من الأعمال التجارية الأخرى التي تعامل معها وغيره من التجار الجنويين.[٣٤٦]

هوامش

(١) عبد العزيز العلوي: صناعة النَّسيج، ص٦٠.
(٢) Avner Greif: Reputation and Coalitions in Medieval Trade, p. 870.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٨٦؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٥٤.
(٤) الإدريسي: المصدر السابق، ج١، ص٢٤١؛ الحميري: المصدر السابق، ص٢٣١.
(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣١؛ مقديش: نزهة الأنظار، ج٢، ص٦٩.
(٦) الإدريسي: المصدر السابق، الجزء السابق، ص٢٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٠٥.
(٧) فرحة الأنفس، ص٢٣-٢٤.
(٨) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٥٩؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص٦١-٦٢.
(٩) ترصيع الإخبار، ص٩٦؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩٥.
(١٠) المصدر السابق، ص١٥٩.
(١١) صفة جزيرة الأندلس، ص٢١.
(١٢) مجهول: الاستبصار، ص١٨٩.
(١٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٤.
(١٤) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٨٠؛ الإدريسي: المصدر السابق، ج٢: ص٥٣٠-٥٣١.
(١٥) البكري: المغرب، ص٦٥-٦٦.
(١٦) الزهري: الجغرافية، ص١٠٩.
(١٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص٩١؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٢٤.
(١٨) الحميري: نفس المصدر، ص١٦٨.
(١٩) رسلان: دراسة للنسِيج المذهب في صِقِلِّيَّة، ص١٠.
(٢٠) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٩٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص٥٦٠.
(٢١) أمين توفيق الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب، ص٤٥٧.
(٢٢) جواتيان: النظم الإسلامية، ص٢٤٢.
(٢٣) جمال طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٦٦.

(٢٤) الزهري: الجعرافية، ص١١٣-١١٤.

(٢٥) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد، ص٢٠٥.

(٢٦) Dufourcq: Espagne Catalane et Le Maghrib, p. 545.

(٢٧) الإدريسي: المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢٨) توفيق الطيبي: المرجع السابق، ص٤٦٥.

(٢٩) مارمول: أفريقيا، ج٣، ص٨.

(٣٠) ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٤١.

(٣١) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century: Speculum, Vol. 12, No. 1 (Jan., 1937), p. 67.

(٣٢) برنشفيك: إِفْرِيقِيَّة في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٧٣.

(٣٣) نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٥٢؛ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة ليدن، ١٨٩٣م، ص١٨٨؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٣٢-١٣٣.

(٣٤) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents, p. 33.

(٣٥) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص٢٦٤.

Moshe Gil: Op.cit., p. 34.

(٣٦) Moshe Gil: Ibid., p. 32.

(٣٧) صورة الأرض، ص١٠٥.

(٣٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٠٩.

(٣٩) مختصر كتاب البلدان، ص٨٤.

(٤٠) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٣٣١.

(٤١) الجغرافية، ص١٢٩.

(٤٢) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents, p. 33.

(٤٣) Sarah. C. Davis: Sicily and the Medieval Mediterranean, p. 213.

(٤٤) Moshe Gil: Op.cit., p. 33.

(٤٥) الإدريسي: صفة المغرب، ص١٩٣؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٧٠.

(٤٦) نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٥٦؛ صفة المغرب، ص١٩٢؛ الحموي: معجم البلدان، ج٥: ص١١٤-١١٥.

(٤٧) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٦٢.

(٤٨) المعيار، ج٥، ص١٠٧-١٠٨.

(٤٩) مازونة: مدينة بالقرب من مستغانم وتقع على بعد ستة أميال من البحر ولها بساتين وأسواقٌ عامرة. الحميري: الروض المعطار، ص٥٢١.

(٥٠) الجغرافية، ص١٠٩، ص٣١.

(٥١) De Mas Latrie: Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen-âge/recueillis par ordre de l'empereur et publiés avec une introduction historique, Paris, H. Plon, 1866, p. 211.

سلفاتوري بونو: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط، ص٣٢٨.

(٥٢) De Mas Latire: Op.cit., p. 31.

(٥٣) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese, p. 59-60.

(٥٤) الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب، ص٤٦٤.

(٥٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٠؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٣٣٩.

(٥٦) جواتيان: النظم الإسلامية، ص٢٣٩.

(٥٧) مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، هوداس باريس، ١٩٦٦، ص١٠٠.

(٥٨) السراج الأندلسي: الحلل السندسية، ص٢٨١.

(٥٩) التجاني: رحلة التجاني، ص٢٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٣١؛ الأندلسي: المصدر السابق، ص٢٨١.

(٦٠) Lombard; Les Textiles, p. 33.

(٦١) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٤٥.

(٦٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٤٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص١٠٢؛ الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٤٧؛ برنشفيك: إِفْرِيقِيَّة في العهد الحفصي، ج٢: ص١٤١.

(٦٣) ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، ص١٩٠.
(٦٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٨٢؛ الروض المعطار، ص٥٦١.
(٦٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٩٤.
(٦٦) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٢٨.
(٦٧) ابن الصباح: أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص٦٠.
(٦٨) التجاني: رحلة التجاني، ص١٢٢؛ الأندلسي: الحلل السندسية، ص٣٥٧.
(٦٩) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص١٩٣؛ ابن سعيد: الجغرافيا، ص١٤٥.
(٧٠) الروض الباسم، ص٣٦.
(٧١) المصدر السابق، ص٦٧.
(٧٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص٩٨.
(٧٣) الزهري: الجغرافية، ص١١٣-١١٤.
(٧٤) محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، ص١٠٨.
(٧٥) كتاب الجغرافيا، ص١٤٠.
(٧٦) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص٩٩.
(٧٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٦.
(٧٨) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٤٠.
(٧٩) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص١١٣.
(٨٠) الزهري: المصدر السابق، ص١١٥؛ الوزان: وصف أفريقيا، ج١، ص١١٤، ٢٢٠؛ مارمول: أفريقيا، ج٢، ص١٤١.
(٨١) البكري: المغرب، ص١٤٧.
(٨٢) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٦٦؛ محمد حسن: المدينة والبادية، ص٣٩.
(٨٣) الإدريسي: المصدر السابق، ج١، ص٢٣٢.
(٨٤) المصدر السابق، ص١١٨.
(٨٥) المصدر السابق، ص١١٤.
(٨٦) صورة الأرض، ص١٠٩.
(٨٧) أحسن التقاسيم، ص١٣٩.
(٨٨) المصدر السابق، ص١٠٩-١١٠.
(٨٩) العذري: ترصيع الأخبار، ص٢٢.
(٩٠) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٢٠٧.

(٩١) صفة جزيرة الأندلس، ص٢٤.

(٩٢) شيخ الربوة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ١٨٦٥م، ص٣٢٠-٣٢١.

(٩٣) الزهري: الجغرافية، ص١٠١؛ الإدريسي: صفة المغرب، ص١٩٧؛ المقري: المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٧.

(٩٤) ابن غالب: وصف الأندلس، ص٢٨٣-٢٨٤.

(٩٥) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٢؛ محمد الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس، ص٢٠٨.

(٩٦) محمد مرسي الكحلاوي: المرجع السابق، ص٢١١.

Sharon Hoshta: Almeria Silk and the French Feudal Imaginary Toward .a “Material” History of the Medieval Mediterranean, p. 168

(٩٧) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٢٣.

(٩٨) الزهري: الجغرافية، ص٩٤.

(٩٩) خالد بن عبد الله: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، ص٢٥٢-٢٥٣.

(١٠٠) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص١٤٠؛ المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٤٢٤؛ المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٢١٩-٢٢٠، ج١، ص١٨٧؛ خالد بن عبد الله: المرجع السابق، ص٢٥٢-٢٥٣؛ ريكاردو: الصناعات المتوسطية، ص٢٤٦.

(١٠١) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، ص٢٠٠-٢٠١.

(١٠٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

(١٠٣) الحميري: الروض المعطار، ص٤٦٩.

(١٠٤) العذري: نصوص الأندلس، ص١٩.

(١٠٥) المقري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٢١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤: ص٢٤٩.

(١٠٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٤.

(١٠٧) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ص٢٦٥.

(١٠٨) الحميري: الروض المعطار، ص٥٩.

(١٠٩) فائق بكر الصواف: بعض مظاهر الحضارة في صِقِلِّيَّة، ص١٢٧.

(١١٠) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٢٩؛ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٤، ص١٢٧.

(١١١) العمري: المصدر السابق، ج٤، ص١٠٠.

(١١٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٣٩.

(١١٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٤٠.

(١١٤) ابن الخطيب: خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ص١٠٢.

(١١٥) كتاب الجغرافيا، ص١٣٩.

(١١٦) المصدر السابق، ص٩٩.

(١١٧) الحميري: الروض المعطار، ص٦١٢: ٦١٣.

(١١٨) العمري: مسالك، ج٤، ص٩١.

(١١٩) الحميري: المصدر السابق، ص٨١.

(١٢٠) المصدر السابق، ج١، ص١١٢.

(١٢١) الإدريسي: نفس المصدر، ج١، ص٢٩١.

(١٢٢) نزهة المشتاق: ج١، ص٢٨١.

(١٢٣) أوليفيا ريمي كونستبل: التجار المسلمون في تجارة الأندلس، ص١٠٦٣.

(١٢٤) Edourdo Aznar: Course et Piraterie dans Les Relations enter La Castle et Le Maroc, p. 65.

(١٢٥) Jose Hinojosa Montalvo: El Rino de Valencia, Frontera maritime enter Aragon y Granada, La frontera oriental nazarí comosujeto histórico (ss. XIII–XVI). Almería, 1997, p. 414.

(١٢٦) Jose Hinojosa: Op.cit., p. 416.

(١٢٧) الزهري: الجغرافية، ص٩٣؛ الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٣؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٤٥.

(١٢٨) طافور: رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، تحقيق: حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م، ص٦.

(١٢٩) الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص١٨١.

(١٣٠) الإدريسي: صفة المغرب، ص١٩٣؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص١٧٠.

(١٣١) M. A. Santon. et R. G. de Linares: Los Documentos Arabes, p. 12.

(١٣٢) الزهري: الجغرافية، ص١٠١؛ الحميري: المصدر السابق، ص١٨٤.

(١٣٣) الزهري: المصدر السابق، ص١٠١.

(١٣٤) نفس المصدر، ص١٩٧؛ الحميري: نفس المصدر، ص١٨٣-١٨٤.

(١٣٥) نفح الطيب، ج٤، ص٢٠٦.

(١٣٦) عبد العزيز العلوي: صناعة النسيج، ص٥٩.

(١٣٧) مفتاح يونس الرباطي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية، ٢٠٠٥م، ص١٤٩.

(١٣٨) البكري: المغرب، ص٣٢٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٢٥؛ عبد العزيز العلوي: صناعة النسيج، ص٦٤.

(١٣٩) محمد المراني علوي: الإطار العام للعلاقات، ص٢١٥.

(١٤٠) منى سيد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الحفصية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية، ١٩٨٦م، ص١٤٩.

(١٤١) أمين توفيق الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٩٧؛ جمال طه: العلاقات التجارية بين مُدن المغرب الشمالية ومُدن جنوب فرنسا، ص٦٢.

(١٤٢) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط، ص٢١٠.

(١٤٣) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص١٧٧.

(١٤٤) البكري: المصدر السابق، ص١١١.

(١٤٥) مفتاح يونس الرباطي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، ص١٥٤.

(١٤٦) البلدان، ص٣٥٣.

(١٤٧) الحبيب بو لقطيب: الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي ادس، ص٩٢-٩٣.

(١٤٨) أحسن التقاسيم، ص٢٣١.

(١٤٩) الزهري: الجغرافية، ص١٢٤.

(١٥٠) المصدر السابق، ص١٢٧.

(١٥١) ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٥٤١؛ منى سيد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الحفصية، ص١٤٨.

(١٥٢) ابن الوزان: المصدر السابق، ص٤٢٨؛ مارمول: أفريقيا، ج٣، ص١١.

(١٥٣) البكري: المغرب، ص١٥٧-١٥٨.

(١٥٤) منى سيد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الحفصية، ص١٤٩.

(١٥٥) الروض المعطار، ص٤٦.

(١٥٦) البكري: المغرب، ص١٥٣.

(١٥٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص٢٣٢؛ مارمول: أفريقيا، ج٢، ص٦١.

(١٥٨) مجهول: الاستبصار، ص٢١٢.

(١٥٩) موسى: النشاط الاقتصادي، ص٣١١.

(١٦٠) التادلى: التشوف إلى رجال التصوف، ص٢٨١-٢٨٢.

(١٦١) الحميري: المصدر السابق، ص١٢٩.

(١٦٢) البكري: نفس المصدر، ص١٥٩.

(١٦٣) الإدريسي: صفة المغرب، ص٣.

(١٦٤) الزهري: الجغرافية، ص١٢٧.

(١٦٥) مفتاح يونس الرباطي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، ص١٥٦.

(١٦٦) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد، ص٢١٢.

(١٦٧) John Vogt: Notes on the Portuguese Cloth Trade in West Africa, 1480–1540, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 8, No. 4 (1975), p. 631.

(١٦٨) John Vogt: Notes on the Portuguese Cloth Trade in West Africa, p. 632.

(١٦٩) الجغرافية، ص٩٦.

(١٧٠) الزهري: المصدر السابق، ص١٢٧.

(١٧١) نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٥٦؛ صفة المغرب، ص١٩٢؛ الحموي: معجم البلدان، ج٥: ص١١٤-١١٥.

(١٧٢) العذري: ترصيع الأخبار، ص١٩.

(١٧٣) المصدر السابق، ص١٢٤.

(١٧٤) كتاب الجغرافيا، ص١٣٩.

(١٧٥) المسالك والممالك، ص١٥٣-١٥٤.

(١٧٦) الجغرافية، ص٣١.

(١٧٧) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٦٨.

(١٧٨) جواتيان: النظم الإسلامية، ص٢٦٩.

(١٧٩) الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٦٨-٤٦٩.

(١٨٠) جواتيان: المرجع السابق، ص٢٢٧.

(١٨١) سوادي عبد محمد: صلاتٌ تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع، مجلة المؤرخ العربي، السنة ١٦، ع٤٣، ١٩٩٠م، ص١٦٢.

(١٨٢) أحسن التقاسيم، ص٣٣٩؛ أماري: المكتبة العربية الصِّقِلِّيَّة، ص٥٧؛ فائق بكر الصواف: بعض المظاهر في صِقِلِّيَّة، ص١٢٨.

(١٨٣) الزهري: الجغرافية، ص١٠١؛ الإدريسي: صفة المغرب، ص١٩٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٢٠٧.

(١٨٤) نخبة الدهر، ص٣٢٠-٣٢١.

(١٨٥) المقري: المصدر السابق، ج٣، ص٢٢١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤: ص٢٤٩.

(١٨٦) المصدر السابق، ص٥١.

(١٨٧) سوادي عبد محمد: صلاتٌ تجارية بين البصرة والمغرب، ص١٦٢.

(١٨٨) أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص٤٧.

(١٨٩) الجزنائي: جني زهرة الآس، ص٧٩؛ النميرى: فيض العباب، ص٨٤، ٩١-٩٢.

(١٩٠) النميرى: المصدر السابق، ص٦٩.

(١٩١) التجاني: رحلة التجاني، ص٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص٣٣١. Lombard; Les Textiles, p. 33.

(١٩٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٩٧؛ سواد عبد محمد: صلاتٌ تجارية بين البصرة والمغرب، ص١٦٢-١٦٣.

(١٩٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص١١٤.

(١٩٤) الزهري: الجغرافية، ص١٠٩.

(١٩٥) مسالك الأبصار، ج٤، ص١٦٠.

(١٩٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٦٢؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٢٠٧.
(١٩٧) Lombard; Op.cit., p. 22.
(١٩٨) لورتنو: فاس في عهد بني مرين، ص٥.
(١٩٩) سامية مصطفى مسعد: المغاربة ودورهم الثقافي في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاحتماعية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص٢٤.
(٢٠٠) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص٥٦٠.
(٢٠١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٢٧.
(٢٠٢) سامية مصطفى مسعد: المرجع السابق، ص٢٣.
(٢٠٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٦٩–١٩٧.
(٢٠٤) ابن الصباح: أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، ص٤٧.
(٢٠٥) ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص٢٨٥.
(٢٠٦) ميلاد بن لطفي: إِفْرِيقِيَّة والمشرق المتوسطي، ص٢٧٧.
(٢٠٧) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents, p. 35.
(٢٠٨) الزهري: الجغرافية، ص٥٠.
(٢٠٩) مسالك الأبصار، ج٤، ص١٦٠.
(٢١٠) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٤٤.
(٢١١) Goitien: A Mediteeranean Society, Vol. 1, p. 171.
(٢١٢) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ص٢٥٨.
(٢١٣) أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص٢٤٤.
(٢١٤) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٦٧.
(٢١٥) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 91.
(٢١٦) الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب، ص١٥١.
(٢١٧) Goitein: A Mediterranean society, Vol. 1, p. 303.
(٢١٨) الطيبي: المرجع السابق، ص١٥٢.
(٢١٩) Goitein: A Mediterranean society, Vol. 1, p. 343.
(٢٢٠) Ibid., p. 345.
(٢٢١) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٧٣.

(٢٢٢) Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean, p. 88, 89-90.

(٢٢٣) Moshe Gil: Op.cit., p. 87.

(٢٢٤) Sarah. C. Davis; Sicily and the Medieval Mediterranean, p. 210.

(٢٢٥) Sarah. C. Davis: Op.cit., p. 209.

(٢٢٦) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة التراث، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٢٣.

(٢٢٧) Sarah. C. Davis; Sicily and the Medieval Mediterranean, p. 209.

(٢٢٨) Sarah. C. Davis; Op.cit., p. 210.

(٢٢٩) الروض الباسم، ص١٧.

(٢٣٠) أمين توفيق الطيبي: العلاقات بين جزيرتي جربة وصِقِلِّيَّة، ص٢٥٠؛ جمال طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي، ص١٥٢؛ أحمد مصطفى: الحياة الاقتصادية في المغرب، ص٢٣٠.

(٢٣١) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 582.

(٢٣٢) Mas de Liter: Traités de paix et de commerce et documents, p. 223-224.

(٢٣٣) محمد المراني علوي: الإطار العام للعلاقات المغربية مع جمهوريات المُدن الإيطالية، ص٢٢٥.

Tahar Mansouri: Produits Agricoles et Commerce Maritime en L'frqiya aux XIIe-XVe siècles, Médiévales, Année 1997, Volume 16, Numéro 33, p. 125.

(٢٣٤) أوليفيا ريمي كونستبل: التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ضمن كتاب «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس»، الجزء الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص١٠٨١.

(٢٣٥) Tahar Mansouri: Op.cit., p. 129.

(٢٣٦) كلود هوكت: العلاقات الملاحية والبحرية في البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، ص٢١١.

(٢٣٧) ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وتأثيرها الحضاري، ص٦٥٤؛ أمين توفيق الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي، ص٤٤٨؛ جمال أحمد طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي، ص١٣٢؛ شوقي محمد يوسف: الدور المغربي للبحرية المغربية، ص٢٧٣.

(٢٣٨) بلغ مجمل العقود التجارية التي حصلت عليها جنوة خلال الفترة من عام ٥٥١هـ/١١٥٥م إلى ٥٦٠هـ/١١٦٤م ثلاثة وسبعين عقدًا تجاريًّا. ممدوح حسين: المرجع السابق، ص٦٥٤.

(٢٣٩) ابن الحاج النميري: فيض العباب، ص١٠١: ١٠٢.

(٢٤٠) ج. د. يفيس: أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، ص٦٥٠.

(٢٤١) صابر محمد دياب: دراسات في التاريخ الإسلامي «أضواء على العلاقات بين المُدن الإيطالية والدول الإسلامية بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلادي»، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص٩١؛ أحمد مصطفى: الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب، ص٢٥٢.

(٢٤٢) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص٢١٧؛ عبد الفتاح عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢٦، ج١-٢، ١٩٦٤م، ص٥٣؛ نجاة الباشا: التجارة في المغرب الأقصى، ص٧٢.

(٢٤٣) عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية، ص١٧٧.

(٢٤٤) ج. د. يفيس: أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، ص٦٥٠.

(٢٤٥) كرستين مازولي: مدينة عظيمة لملك عظيم، مدن شرقية وغربية وطرق تجارية في زمن ابن خلدون، ضمن كتاب «ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات»، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص١٩٩.

(٢٤٦) محمد المراني علوي: طبيعة العلاقات، ص٢١٣.

Silvia Orvietani Busch: Medieval Mediterranean Ports, p. 239.

(٢٤٧) طافور: رحلة طافور، ص١٠.

(٢٤٨) Ángel Luis Molina: Los Viajes Por Mar en La Edad Media, Cuadernos de Turismo, No 5, 2000, p. 119.

(٢٤٩) Silvia Orvietani Busch: Op.cit., p. 158.

(٢٥٠) طافور: رحلة طافور، ص٢٤٨؛ ريمي كونستبل: التجار المسلمون في التجارة الأندلسية، ص١٠٨١.

.Silvia Orvietani Busch: Medieval Mediterranean Ports, p. 176

(٢٥١) .Silvia Orvietani Busch: op.cit., p. 158

(٢٥٢) Mas Latrie: Aperçu des Relations, p. 25; María Teresa: Trans- .portistas y Corsarios vascos en el Mediterráneo Medieval, p. 512

(٢٥٣) .Silvia Orvietani Busch: op.cit., p. 158

(٢٥٤) David Abu Lafia: Op.Cit., p. 368; A Mediterranean Emporium .The Catalan kingdom of Majorca, p. 7

(٢٥٥) .David Abulafia: Commerce and The Kingdom, p. 363

(٢٥٦) Silvia Orvietani: The Catalan and The Northern Tuscan Coasts, .p. 158

(٢٥٧) Edourdo Aznar: Course et Piraterie dans Les Relations enter La .Castle et le Maroc, p. 67; David Abulafia: A Méditerranéen Emporium, p. 7

(٢٥٨) .Silvia Orvietani: Op.cit., p. 158

(٢٥٩) .David Abulafia: Commerce and The Kingdom of Majorca, p. 366

(٢٦٠) Daouadi Belkacem: Les relations commerciales entre le roy- aume Abdel Wadide de Tlemcen et les villes du sud de l’Europe Occiden- tale a partir du milieu du XIIIe jusqu’au milieu du XVIe, Université Jean Moulin-Lyon III/CNRS, BIBLID [1133–8571] (16), 2009, p. 122; David Abu- .lafia: Commerce and The Kingdom of Majorca, p. 361–368

(٢٦١) صالح بوعزيق: بجاية في العهد الحفصي، ص٣٣٧.

Dufourcq: Espange Catalane et Le Maghrib aux XIIIè et XIVè siècles, .p. 420

(٢٦٢) .David Abulafia: Commerce and The Kingdom, p. 346

(٢٦٣) .David Abulafia: Op.Cit., p. 361

(٢٦٤) .Daouadi Belkacem: Les relations commerciales, p. 130

(٢٦٥) .David Abulafia: Op.Cit., p. 363

(٢٦٦) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribin, p. 485.

(٢٦٧) David Abulafia: Op.Cit., p. 366.

(٢٦٨) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribin, p. 487.

(٢٦٩) David Abulafia: Op.Cit., p. 360.

(٢٧٠) جمال طه: العلاقات التجارية بين مُدن المغرب الشمالية ومُدن جنوب فرنسا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، مجلة كلية الآداب بسوهاج، ع٢٥، أكتوبر ٢٠٠٢م، ج٢، ص٧٢.

(٢٧١) Amari: I Diplomi Arabi, p. 48, 50, 57, 63.

(٢٧٢) Dufourcq: Op.cit., p. 505.

(٢٧٣) Dufourcq: Op.Cit., p. 487.

(٢٧٤) David Abulafia: Op.Cit., p. 366.

(٢٧٥) Dufourcq: Op.cit., p. 481.

(٢٧٦) David Abulafia: Commerce and The Kingdom, p. 371; A Méditer-ranéen Emporium The Catalan Kingdom of Majorca, p. 16.

(٢٧٧) Dufourcq: Commerce du Magherb, p. 183.

(٢٧٨) Dufourcq: Op.cit., p. 188.

جمال طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٧٤-٧٥.

(٢٧٩) Dominque Valerian: Ifrîqiyan Muslim Merchants in the Mediter-ranean at the End of the Middle Ages, Mediterranean Historical Review, Vol. 14, No. 2, Published By Frank Cass, London, December 1999, p. 54.

(٢٨٠) الجغرافية، ص١٢٩.

(٢٨١) Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 488.

(٢٨٢) Dufourcq: Commerce du Magherb, p. 168;

جمال طه: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص٧٤-٧٥.

(٢٨٣) Dufourcq: Op.cit., p. 165.

(٢٨٤) María Teresa: Transportistas y Corsarios vascos en el Mediter-ráneo, p. 514-515.

(٢٨٥) Edourdo Aznar: Course et Piraterie dans Les Relations enter La Castle et le Maroc, p. 67; David Abulafia: A Méditerranéen Emporium The Catalan kingdom of Majorca, p. 7.

(٢٨٦) M. A. Santon: Los Documentos Arabes, p. 259; Dufourq; Espagne Catalane et Le Maghrib aux XIIIè et XIVè siècles, p. 181.

(٢٨٧) M. A. Santon: Op.cit., p. 264; Dominque Valerian: Ifrîqiyan Mus-lim Merchants in the Mediterranean, p. 54.

(٢٨٨) María Teresa: Transportistas y Corsarios vascos en el Mediter-ráneo, p. 513.

(٢٨٩) كرستين مازولي: المرجع السابق، ص١٩٩.

(٢٩٠) محمد المراني علوي: طبيعة العلاقات، ص٢١٣.

Silvia Orvietani Busch: Médiéval Méditerranéen, p. 239.

(٢٩١) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese-African, p. 60-61.

(٢٩٢) جمال طه: العلاقات التجارية بين مُدن المغرب الشمالية ومُدن جنوب فرنسا، ص٧٢.

(٢٩٣) برنشفيك: إِفْرِيقِيَّة في العهد الحفصي، ج٢، ص٢٧٣.

(٢٩٤) التجارة والتجار في الأندلس، ص٣٣٧.

(٢٩٥) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط، ص٢١٠.

(٢٩٦) سلفاتوري بونو: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب، ص٣٢٣.

(٢٩٧) Daouadi, Belkacem; Les relations commerciales entre le roy-aume Abdel Wadide de Tlemcen et, p. 125.

(٢٩٨) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange, p. 59-60.

(٢٩٩) Daouadi, Belkacem Op.cit., p. 127.

(٣٠٠) Hilmar C. Krueger: Genoese Trade with Northwest Africa, p. 380.

(٣٠١) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange, p. 59-60.

(٣٠٢) Hilmar C. Krueger; Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century, p. 379; The Wares of Exchange, p. 60.

(٣٠٣) Hilmar C. Krueger; The Wares of Exchange in the Genoese-African, p. 61.

(٣٠٤) Hilmar C. Krueger: Genoese Trade with Northwest Africa, p. 382.

(٣٠٥) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٤٤.

(٣٠٦) أوليفيا: المرجع السابق، ص٢٧١.

(٣٠٧) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese-African, p. 60.

(٣٠٨) Ibid., p. 69.

(٣٠٩) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese-African., p. 60.

(٣١٠) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٧١.

(٣١١) Hilmar C. Krueger: Op.cit., p. 61.

(٣١٢) أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص٢٧١.

(٣١٣) Ibid., p. 61.

(٣١٤) Ibid, p. 59.

(٣١٥) Hilmar C. Krueger: Genoese Trade with Northwest Africa, p. 384.

(٣١٦) Tahar Mansouri: Produits agricoles et commerce maritime en Ifriqiya 130.

جمال أحمد طه: دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ص٦٦.

(٣١٧) Tahar Mansouri: Op.cit., p. 131.

(٣١٨) Amari: I Diplomi Arabi, p. 48, 50, 57, 63.

(٣١٩) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese-African, p. 60.

(٣٢٠) سلفاتوري بونو: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب، ص٣٢٠.

(٣٢١) صالح بو عزيق: بجاية في العهد الحفصي، ص٣٢٠.

(٣٢٢) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٦٦.
(٣٢٣) أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص٢٧٠-٢٧١.
(٣٢٤) Amari: I Diplomi Arabi, p. 48-49.
(٣٢٥) Amari: Op.cit., p. 60.
(٣٢٦) Ibid., p. 49.
(٣٢٧) Daouadi, Belkacem; Les relations commerciales entre le roy-aume Abdel Wadide de Tlemcen, p. 125.
(٣٢٨) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد، ص٢١٣.
(٣٢٩) Dufourcq: Commrce du Maghreb Medieval, p. 177.
(٣٣٠) صالح بعزيق: بجاية في العهد الحفصي، ص٣٤٧.
(٣٣١) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٢٦٦.
(٣٣٢) صالح بعزيق: المرجع السابق، ص٣٤٧.
(٣٣٣) أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص٣٣٣.
(٣٣٤) جمال طه: العلاقات التجارية بين مُدن المغرب الشمالية ومُدن جنوب فرنسا، ص٦٦.
(٣٣٥) ميلاد بن لطفي: إِفْرِيقِيَّة والمشرق المتوسطي، ص٢٨٣.
(٣٣٦) Amari: I Diplomi Arabi, p. 63.
(٣٣٧) برنشفيك: إِفْرِيقِيَّة في العهد الحفصي، ج١، ص١٣٧.
(٣٣٨) ميلاد بن لطفي: المرجع السابق، ص٢٨٣.
(٣٣٩) الطيبي: دراسات وبحوث، ص٣٤٠؛ نجاة باشا: التجارة في المغرب، ص٤٨.
(٣٤٠) Amari: I Diplomi Arabi, p. 93.
(٣٤١) De Mas Latrie: Traités de paix et de commerce et documents, p. 226.
(٣٤٢) De Mas Latrie: Op.cit., p. 228.
(٣٤٣) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار، ص٣٣٤.
(٣٤٤) David Abulafia: Commerce and The Kingdom of Majorca, p. 374.
(٣٤٥) ميلاد بن لطفي: إِفْرِيقِيَّة والمشرق المتوسطي، ص٢٨٣.
(٣٤٦) برنشفيك: إِفْرِيقِيَّة في العهد الحفصي، ج١، ص٢٩٩.

الخاتمة

أوضحت الدراسة أن زراعة الكتان في بلدان الغرب الإسلامي انتشرت بكثرة مقارنة بباقي المحاصيل النسيجية الأخرى كالقطن والقنب، خاصة في مدن المغرب؛ نظرًا لتوافر المقومات الزراعية، التي ساعدت على نموِّه وانتشاره، في حين انتشرت زراعة القطن في معظم مدن الأندلس وصقلية بوفرة، مقارنة بمدن المغرب، وهو ما يوضح تأثير الأحوال المناخية والطبيعية على زراعة المحاصيل النسيجية.

وأبرزت الدراسة ازدهار إنتاج الحرير في مناطق الغرب الإسلامي في مدن الأندلس، خاصة في ألمرية وجيان، في حين قلَّت مناطق إنتاج الحرير في مدن وقرى المغرب، على الرغم من أن قابس كانت من مراكز إنتاج الحرير في المغرب خلال القرن ٦هـ/١٢م؛ وعليه فقد احتل الحرير الأندلسي مكانةً مرموقة وسط صادرات الغرب الإسلامي النسيجية لمعظم البلدان، فعلى الرغم من النمو الصناعي والتجاري لمدن الغرب المسيحي، التي طورت نشاطها الاقتصادي فيما يتعلق بالنسيج من إنتاج الصوف والكَتَّان والقطن وكذلك الحرير، لكن ظل الحرير الأندلسي ولفتراتٍ طويلة محافظًا على قيمته الصناعية والتجارية، فلم يجد منافسًا قويًّا له في الأسواق الأوروبية، وذلك لأن مصانع الغرب المسيحي لجأت لتصنيع الصوف الخام والكَتَّان والقُطْن أكثر من الحرير.

كما بينت الدراسة أن بلاد المغرب الإسلامي عُرفت بإنتاجها الوفير من الأغنام والأصواف؛ لكثرة مراعيها الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى بطون الصحراء، التي ساعدت على تعدُّد أصناف إنتاج الصوف بها، والتي تميَّزت بأصوافها الجيدة والحسنة، فلاقت رواجًا تجاريًّا خاصة في أسواق الغرب المسيحي، كما ساهمت بلاد المغرب في نقل الأغنام — من غنم، ومعز، وبقر — إلى البلدان الأندلسية، ولعل تلك الأغنام التي يُطلق عليها أغنام المرينو Merinas-Merino، والتي جُلبت لبلاد الأندلس منذ القرن

الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين؛ تميزت بجودة صوفها. ويُرجِع البعض أصل لفظ المرينو إلى لفظ «مرن» للدلالة على نعومة الأصواف ودقَّتها ومرونتها، في حين نسبها البعض الآخر لبني مرين؛ وعليه فقد شكلت تربية الأنعام دعامةً أساسية في النظام الفلاحي والحيواني في بلاد المغرب، وكانت لخدمة الحياة اليومية لسكان الغرب الإسلامي وساهمت في البناء الاقتصادي لأُسره؛ لذلك لم يتركَّز الاقتصاد الأندلسي على إنتاج الصوف، بل اعتمد بشكلٍ جزئي على استيراده من البلدان المجاورة خاصة من المغرب وميورقة والممالك المسيحية.

وأظهرت الدراسة اهتمام العديد من فئات مجتمع الغرب الإسلامي بممارسة صناعة النسيج من علماء، ونساء، وصبية، وأهل ذمة، وغيرهم من مكونات هذا المجتمع؛ نظرًا لملاءمة طبيعة صناعته بعاداته وتقاليده، فضلًا عن إكسابه العديد من الصفات الحسنة من صبر والسعي على الرزق الحلال، كما ساعد النسيج في ترابط أُسَره وأوجد روح التعاون والتقارب بين أفراد أُسَره، ومن أبرز صور هذا التعاون «التويزة» وهي خروج نساء القرية أو المدينة للاجتماع في مجالسَ خاصةٍ بالنساء ليغزلن عند امرأة منهن يخترنها بأنفسهن، ما تدعوهن هي لغَزْله سواء من كَتَّان أو صوف، فيتشاركن في الغَزْل؛ لهذا أطلق البعض على هذا الترابط «دولة النساء»، ولم تمارس النساء الأعمال الأخرى المرتبطة بالنَّسيج من قصارة أو كمادة أو صباغة؛ لأنها من الأعمال الصعبة التي استلزمت القوة لتأديتها، ولكن من المؤكد أنهن مارسن أمور الغَزْل والنسج والخِياطة، وهي المهن التي تماشت وما نهى عنه الدين الحنيف والظروف الاجتماعية من عادات وتقاليد؛ لذا ساهم النسيج عبر مراحله في إبراز دور المرأة الغرب إسلامية في أسرتها ومجتمعها من خلال النسيج.

كما بينت الدراسة تعدُّد مراكز صناعة النسيج في الغرب الإسلامي، فيكاد لا تخلو قرية ولا مدينة إلا وكانت بها فئة تمارس النسيج، سواء في الجبال أو الوديان أو الصحاري أو على ضفاف البحر والمحيط؛ مما أدى لظهور بعض التجمعات الكبرى، وبخاصة حول الحواضر والمدن لتجميع الغَزْل من المناطق المحيطة، كما حول الناحية الجنوبية من مدينة تُونس التي تُعرف بـ «مسبحة مقرين للغَزْل»، فكانت مستودعًا كبيرًا للغَزْل المتجمع من المدن والبوادي ولمعامل ومصانع الغَزْل المختلفة، لتُعَدَّ وتدخل مرحلة التصنيع، وقد حرصت السلطة على حماية هذا الموضع لأهميته الصناعية والتجارية. كما كان لصُناع الغرب الإسلامي — في بعض المدن — شاراتٌ خاصة بهم تميزهم؛ فكانت

لكل صنعة شارة تميزها عن غيرها، وتبرز كل فرقة من أهل الصِّناعة عن الأخرى خاصة عند الاقتضاء والنزاعات التي قد تنشب بينهم، والشارة عبارة عن علم يحمل شعار كل صنعة وما يناسبها.

وتُظهر الدراسة كيف أن حرفيي الغرب الإسلامي ساهموا في تطوير صناعة النسيج في العديد من مناطقه، بل وأدخلوا أساليبَ جديدةً عليه، بعد أن أدخل الصناع المسلمون دود القز إلى صِقِلِّيَّة لصناعة الحرير بها، بالإضافة لصناعة الورق عن طريق المسلمين الفاتحين، كما كان لصناع المغرب دور في ازدهار صناعة الورق بالأندلس، خاصة خلال القرن الرابع الهجري، ومنها انتقلت إلى معظم بلدان الغرب المسيحي، فأنتج صنَّاعُه الورق الملوَّن في العصر المرابطي.

ورصدت الدراسة كيف أن بلدان الغرب الإسلامي تميزت بإنتاج أنواعٍ معينة من المنسوجات اختلفت عنها في باقي المدن؛ فانتشرت العديد من مراكز الصناعة، التي لاقت شهرةً واسعة، بإنتاجها نوعياتٍ فريدةً ومتميزة خاصة مراكزها الحريرية، بإنتاج المنسوجات الحريرية، كالقَابِسي، والتلمساني، والثياب السفسارية، والوطاء البسطي، والثياب السرقسطية، والحرير السيراكوزي، فضلًا عن مراكزها الصوفية، فمن جملة الثياب الصوفية التي عُرف بها الغرب الإسلامي الثياب السوسية، والأكسية العبيدية، وثياب الصوف التلمسانية، والقماش الدرجيني، الأشكري أو الإشكرلاط، والوطاء الجنجالي، والبسط التنتالية. وكذلك مراكزها القطنية، فصنعت جملة من المنسوجات القطنية كالقماش السفساري. هذا بخلاف مراكزها الكتانية، التي انتشرت في العديد من المناطق فأنتجت، كالقماش الأفريقي الذي اعْتُبر من أحسن كساوي المغرب، والثياب السوسية المهدوية، والثياب الرفيعة السوسية، بالإضافة للمناديل المقاوِمة للنار من الكتان باستخدام نوع من الحجارة عرف بـ «تاوطغيت» في درعة، كما بيع بأسواق نكور نوع من البرانس المقاومة للماء.

انقسمت دُور الطِّراز في الغرب الإسلامي إلى: الطِّراز الخاص، وهو ما خُصص إنتاجه للخلفاء والملوك. والطِّراز العام ووُجِّه إنتاجه لعامة الناس والبلاط أيضًا، وكلاهما خضع للمراقبة من قِبَل السلطة، حتى تستطيع تلبية احتياجات المجتمع الغرب إسلامي من منسوجات وثياب.

وأفادت الدراسة أن بلدان الغرب الإسلامي انتشرت بها العديد من الأسواق التخصصية للنسيج في مدنه وقراه، وكان من أشهرها: أسواق الغَزْل، وأسواق الأقمشة الصوفية وأسواق الصباغين والخياطين والبزازين والثياب والقراقين، والوزر، وأسواق

الرهادنة، وسوق الجبة، والقشاشين، والأبارين، والمغازل، وخيوط الكَتَّان، والحرارين، والمركطين. وخُصِّص في بيع الثياب المستعملة الهبط، وسوق الورقة الذي خُصِّص لتهيئة ورق التوت، وسوق التيالين وهو السوق المخصَّص لصناعة الغرابيل، بالإضافة لسوق البز، وربض الطرازين، وسوق الخيط، وسوق القرمز، وسوق السقاطين.

وأوضحت الدراسة أن الحركة التجارية في الغرب الإسلامي اتسمت في بدايتها بنوع من البطء التجاري الذي لم يُساير القوى التجارية الموجودة آنذاك؛ مما دفعها لأن تلعب دور الوسيط التجاري في العديد من المُبادلات التجارية بين البلدان الأَفْرِيقِيَّة والغرب المسيحي؛ حيث قامت مُدن المغرب الأقصى بهمزة الوصل بين السودان والعالم الخارجي، وظلَّت علاقاتها التجارية مع الغرب المسيحي مفعَّلة وسارية — رغم فتورها في بعض الأوقات — عن طريق عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية بين السلطات لتوفير الظروف المناسبة لاستمرار تلك العلاقات والعمل على تنشيطها.

وبيَّنت الدراسة أن التواصل التجاري للنسِيج للغرب الإسلامي امتدَّ إلى بلاد الهِنْد والصِّين، وساعد على هذه الصلات التجارية بعض المُدن المشرقية، التي لعبت دور الوسيط في بعض الأحيان كمدينة البَصْرة العراقية. كما أظهرت الدراسة وجود علاقاتٍ تجاريةٍ رصينة منذ زمنٍ طويل مع مصر تركَّزت على المواد الخام النَّسيجية من كَتَّان وحَرِير، بالإضافة إلى المَنْسوجات الأخرى، عن طريق موانئ الغرب الإسلامي والموانئ المِصْرية وبخاصة الإسكندرية.

ورصدت الدراسة كذلك نشاط حركة تجارة المنسوجات في الغرب الإسلامي مع الغرب المسيحي خلال القرن ٦هـ/١٢ حتى منتصف القرن ٧هـ/١٣م، ثم تطورها مع نهاية القرن ٨هـ/١٤م خاصة مع مملكة البرتغال؛ حيث كان للتجارة البرتغالية أواخر القرن ٩هـ/١٥م دور في مُدن الغرب الأفريقي والسودان الغربي، من خلال سلسلة من المُدن الساحلية المغربية على طول ساحل المحيط الأطلسي ومناطقَ رئيسيةٍ ساهمت في إنجاح تجارة المَنْسوجات البرتغالية. وبنهاية ٩٢٩هـ/١٥٢٣م تقلَّصت المحطات التجارية البرتغالية في مُدن غرب أفريقيا بشكلٍ كبير، على الرغم من أن التجارة البرتغالية مع غرب أفريقيا كانت تمثل عنصرًا لا غنى عنه في نجاح التجارة الخارجية للبرتغال.

وأثبتت الدراسة أنه على الرغم من سقوط المدن والممالك الأندلسية في قبضة إسبانيا المسيحية فإن النسيج الإسلامي ظل شامخًا بقيمته ودِقَّته في تلك الأراضي؛ فظلَّ لفظ القُطْن Algodon مستخدَمًا من سكان إسبانيا المسيحية لفتراتٍ طويلة عقب زوال الحكم

الإسلامي من الأندلس. كما ظل اسم القُنَّب Alconba يُطلَق على إحدى القرى في الأندلس، وكذلك بعض الألفاظ والمصطلحات الصناعية للنسيج كلفظ Alfombra، الذي يعني سجادة أو بساطًا، والذي جاء من الكلمة العربية الحمرة أو الخمرة أي الحصير. وظل حي السقاطين Zacatin — وهم بائعو الثياب المستعملة — لفترةٍ قريبة يحمل نفس الاسم في الأندلس. وكذلك استعان تجار قيسارية طليطلة بالذراع الرشاشية في قياس أقمشتهم لفتراتٍ طويلة عقب زوال الحكم الإسلامي من الأندلس.

الملاحق

أسواق النسيج بالغرب الإسلامي كما وردت بالبحث.

اسم السوق	موضعه	المصدر
سوق الرهادنة	القيروان	معالم، ج٤، ص١٤٨.
سوق الغزل	القيروان	الدباغ: معالم الإيمان، ج٢، ص٣٤٣.
غسالة بالقيروان	يبدو أنها لغسل الملابس، وفي موضعٍ آخر يقول: إن مسألة تخصُّ غسالة للجلود	البرزلى: فتاوى، ج٤، ص٤١٣؛ ج٥، ص٤٥٣، ص٥٥١.
سوق قيسارية بجاية	بجاية	عنوان الدراية، ص٢٥٠.
سوق الغزل	إفريقية	البرزلى: فتاوى، ج٣، ص١٨٠.
سوق الأَبَّارين		البرزلى: فتاوى، ج٣، ص١٨٠.
سوق الغزل	سوسة	المازري: فتاوى المازري، ص٢٣٢؛ البرزلي: فتاوى البرزلي، ج٤، ص٣٠٠.
سوق الخياطين	سوسة	المالكي: رياض النفوس، ج٢، ص٢٧٥.
سوق الوزر	سوسة	ابن عظوم: كتاب الأجوبة، ج١، ص٢٤٧.

اسم السوق	موضعه	المصدر
سوق الحرارين	سوسة	محمد حسن: المدينة والبادية، ص٤٧٥.
سوق القطَّانين	جامع الزيتونة	محمد حسن: المرجع السابق، ص٤٧٦.
سوق الجبة	تونس	الأبي: الإكمال، ج٥، ص٣١.
سوق القشاشين	تونس	الترجمان: المصدر السابق، ص٨٨.
سوق الأبَّارين	تونس	محمد حسن: المرجع السابق، ص٤٨٣.
سوق الرهادنة	تونس	عبد الله الترجمان: تحفة الأريب، ص٨٨.
سوق البزازين	تونس	البرزلي: فتاوى، ج٤، ص٤٥٧، ج٥، ص١٧٠.
سوق الغزل	تونس	ابن المناصف: تنبية الحكام، ورقة ٨١ب.
فندق الرماد	بتونس وهو لغسل الغزل وترميده	البرزلي: فتاوى، ج٣، ص٤٠٠، ج٥، ص١٨٦.
سوق المغازل	مراكش	مقديش: نزهة الأنظار، ج٢، ص٦٢.
سوق خيوط الكتان	فاس	ابن الوزان: المصدر السابق، ص٢٤٣.
سوق الحرارين	فاس	المكناسي: جذوة الاقتباس، ص٧٢.
سوق المركطين	فاس	ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٣٩٦.
سوق الهبط	فاس	التادلي: التشوف، ص٣٦٨.
سوق الصباغين	فاس	الروض القرطاس: ٤١٤.
سوق الخياطين	فاس	المن بالإمامة، ص٣٩٦.
سوق البزازين	فاس	المن بالإمامة، ص٣٩٦.
سوق القراقين	فاس	ابن القطان: نظم الجمان، ص٣٦٨.

اسم السوق	موضعه	المصدر
سوق الأقمشة الصوفية	فاس	ابن الوزان: وصف أفريقيا، ص٢٤٢.
سوق السقاطين	سبتة	السبتي: اختصار الأخبار، ص٣٦.
ربط الطرازين	قرطبة	توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٢٦١.
شارع الخياطين	قرطبة	توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٥٠.
سوق الكتانين	قرطبة	ابن القطان: المصدر السابق، ص٢٢٢؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج١، ص١٨١.
سوق البز	قرطبة	ابن القطان: المصدر السابق، ص٢٢٢؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٤٩.
سوق الخيط	قرطبة	توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج١، ص١٨١.
سوق الحصارين	قرطبة	توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج١، ص١٨١.
سوق البزازين	إشبيلية	ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص٣٨٦.
سوق الخياطين	إشبيلية	ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص٣٨٦.
سوق القرمز	إشبيلية	توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٥١.
سوق الحصر	طليطلة	توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٤٢.
شارع الصبغ	غرناطة	توريس بالباس: المرجع السابق، ص٤٨٥.

اسم السوق	موضعه	المصدر
سوق الصباغين	لبلة	محمد سيد الناقة: الأسواق التجارية والصناعية بالأندلس، ص١٩٣.
سوق الغزل	مالقة	ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص١٩٥.
سوق الطرازين	صقلية	ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٩.
سوق القطانين	صقلية	ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٩.
سوق الحلاجين	صقلية	ابن حوقل: صورة الأرض، ص١١٩.

قيساريات النسيج بالغرب الإسلامي كما وردت بالبحث.

موضع القيسارية	المصدر
القيروان	البكري: المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ص٢٢-٢٣؛ أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨١.
سوسة	الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٢.
مراكش	ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٥٧.
بجاية	عنوان الدراية، ص٢٥٠.
تلمسان	إدريس: المجتمع في المغرب، ص١٢٣ بلوط عمر: الفنادق في تلمسان الزيانية، ص٧٥.
فاس-عدوة القرويين	المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص٧٢ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨.
فاس-عدوة الأندلس	ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٨.
أسفى	أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨١؛ عبد العزيز بن عبد الله: الحرف. والصناعات التقليدية، ص٢٢٠.

موضع القيسارية	المصدر
ألمرية	ترصيع الأخبار، ص٨٦.
إشبيلية	أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٥.
قرطبة	أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٤.
غرناطة	ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص٣٩٦-٣٩٧؛ مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ص٥؛ أحمد الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٨٥.
بلنسية	العذري: ترصيع الأخبار، ص١٨.
طليطلة	توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥٣٣.
بليش	توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥١٤؛ الطوخي: مظاهر؛ الحضارة في عصر بني الأحمر، ص٢٧٨؛ الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٩٣-٩٤.
ميورقة	توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص٥١٤؛ الطوخي: مظاهر؛ الحضارة في عصر بني الأحمر، ص٢٧٨؛ الطوخي: القيساريات الإسلامية، ص٩٣-٩٤.

بعض أسعار النسيج في الغرب الإسلامي ٥هـ/١١م إلى ٩هـ/١٥م.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
ق٥هـ/١١م	رطل حرير	١٥ درهمًا	الأندلس	Moshe Gil: The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century, p. 93: 96.
٤١١هـ/١٠٢٠م	قنطار من الكتان	٣,٧٥ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
٤١٨هـ/١٠٢٧م	قنطار من الكتان الأشموني	ما بين ٤,٢٥–٦,٥ دنانير	القيروان	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤١٨هـ/١٠٢٧م	قنطار من الكتان الملال	٧ دنانير – ٢٧٠ درهمًا و٢٨٠ درهمًا للجيد	القيروان	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤١٨هـ/١٠٢٧م	قنطار من الكتان الملال	٥–٥,٥ دنانير للعادي	القيروان	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٢٢هـ/١٠٣٠م	قنطار من الكتان	٤ دنانير، يساوي بالفسطاط دينارًا واحدًا	باليرمو	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٢٢هـ/١٠٣٠م	قنطار من الكتان	٥,٢٥–٧ دنانير	طرابلس	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٢٢هـ/١٠٣٠م	قنطار من الكتان	٧–٧,٧٥ (البيع بربع الدينار)	باليرمو	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٢٢هـ/١٠٣٠م	قنطار من الكتان	٤–٤,٢٥ دنانير (السعر بالدرهم ١٥٥–١٩٠)	باليرمو	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٣٢هـ/١٠٤٠م	قنطار من الكتان الرطب	١,٥ دينار	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٣٧هـ/١٠٤٥م	قنطار من الكتان	٥–٦ دنانير	المغرب	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٠هـ/١٠٤٨م	قنطار من الكتان	٥–٦ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤١هـ/١٠٤٩م	قنطار من الكتان	٥ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان	٥ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان	٨,٥-٨,٧٥ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان الفيومي	٤,٥-٧ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان الملال	٤,٥-٥ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان	٥,٥-٨,٢٥ دنانير (البيع بربع الدينار)	صقلية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان	٣,٥ دنانير (كتان رطب)	صقلية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان الملال	٤,٥-٥ دنانير	صقلية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان	٨-١٠ دنانير	طرابلس	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٢هـ/١٠٥٠م	قنطار من الكتان	١٣-١٥ دينارًا	طرابلس	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٧هـ/١٠٥٥م	قنطار من الكتان	١٤,٥ دينارًا (البيع بربع الدينار)	باليرمو	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٤٨هـ/١٠٥٦م	قنطار من الكتان	١٢ دينارًا	سوسة	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٥١هـ/١٠٥٩م	قنطار من الكتان	٨-١١ دينارًا	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٥٤هـ/١٠٦٢م	قنطار من الكتان	٤,٥-٧ دنانير	تونس	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
٤٥٦هـ/١٠٦٣م	قنطار من الكتان	٤,٥ دنانير	المهدية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٥٦هـ/١٠٦٣م	قنطار من الكتان	تراوح سعر بيعه خلال تلك الفترة بين ٣,٧٥ دنانير و١٨ دينارًا	صفاقس	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
٤٥٦هـ/١٠٦٣م	قنطار من الكتان	٧,٥–١٠ دنانير	صقلية	Moshe Gil: Op.cit., p. 93: 96.
أواخر القرن ٥هـ	القماش الأشقر (شقرة)	أقل من ٤ دنانير	درجة أولى	الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، ص١٤٨-١٤٩.
أواخر القرن ٥هـ	فوط غير مقصرة	٧ فوط (١٠ دنانير)		الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، ص١٤٨-١٤٩.
٤١٠هـ/١١١٩م	١٠ أرطال حرير أندلسي	٢١-٢٢ دينارًا	الإسكندرية	الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، ص١٥١.
٦هـ/١٢م	قنطار الكتان	٧٠ ربع دينار	صقلية	Goitien; A Mediterranean Society, Vol. 1, p. 302.
٦هـ/١٢م	عمائم سوسة	١٠٠ دينار للعمامة	سوسة	مجهول: الاستبصار، ص١١٩.
ق٦هـ/١٢م	ثوب	١٠ دراهم	مراكش	التادلي: التشوف، ص٣٢٢.
٧هـ/١٣م	خمسة حُصر من الكتان	٢١٣ دينارًا		Dufourcq: Prix et Niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins, p. 481.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
٧هـ/١٣م	ثوب مستعمل	١٠ دراهم	مراكش	عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص٤٠٣.
٧هـ/١٣م	كفن	٣ دراهم	مراكش	عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص٤٠٣.
٧هـ/١٣م	ثوب مستعمل	عشرة دراهم	فاس	عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص٤٠٣.
٧هـ/١٣م	جبة	عشرة دنانير	أغمات	عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص٤٠٣.
٧هـ/١٣م	ثوب مستعمل	١٠ دراهم	مراكش	التادلي: التشوف، ص٣٢٢.
ق٤هـ/١٠م	عمامة شرب	٥٠٠–٦٠٠ دينار	صنهاجة	مجهول: الاستبصار، ص١٢٩.
٧٠٧هـ/١٣٠٧م	٧ بالات من قطن	١٠ دنانير	المغرب	Dufourcq: Op.cit., p. 482.
٧٠٧هـ/١٣٠٧م	٩ قناطير من جزز الصوف	١٢ دينارًا	أصيلة	Dufourcq: Op.cit., p. 481.
٧٢٩هـ/١٣٢٩م	قنطار من جزز الصوف	١,٧٥ دينارًا	أصيلة	Dufourcq: Op.cit., p. 481.
٧٠٧هـ/١٣٠٧م	٢١ قنطارًا من الكتان	٣٨ دينارًا	المغرب	Dufourcq: Op.cit., p. 481.
ق٨/ ١٤م	١٠٠ كيلوجرام من الصوف	٢٠ دينارًا	المغرب	Dufourcq: Op.cit., p. 481.
ق٨/ ١٤م	٣–٤ أمتار من الجوخ	١٠ دنانير	ميورقة	Dufourcq: Op.cit., p. 481.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
ق٨/١٤م	٥٠٠ جزة (جلد) غنم	١٠ دنانير	المغرب – ميورقة	Dufourcq: Op.cit., p. 481.
٧٢٥هـ/١٣٢٤م	٤٠–٥٠ فريدة ورق	١ دينار	فاس – ميورقة	Dufourcq: Op.cit., p. 481.
٩هـ/١٥م	٨ مخادَّ من الحرير	٢٦٢,٥ دينارًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	مرفقة من الحرير	٦٧ دينارًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	لحاف	٣٣٧,٥ دينارًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	كلة حرير	١٨٧,٥ دينارًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	ملف	٢٢ دينارًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	بساطٌ قطيفة	٣٠ درهمًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	مقدار من غزل الكتان	٦ دنانير من الفضة	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	قطيفة من الصوف	٨ دنانير	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	سجادة	درهمان	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	ملحفة سرير	٤ دنانير من الفضة	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	سروال نساء	١٠ دراهم	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	منديل مرقوم	١٦ درهمًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.

التاريخ	نوع النسيج	الثمن	ملاحظات	المصدر
٩هـ/١٥م	خمس مخادَّ من الحلف	١٥ درهمًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	ملحفة رأس	١٨ دينارًا من الفضة	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	بساط جلد	١٣ درهمًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.
٩هـ/١٥م	فضلة شقة	٣٦ درهمًا	غرناطة	لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر المخطوطة

(١) ابن المناصف، محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م): تنبيه الحكام في سيرة القضاة وقبول الشهادات وتنفيذ الأحكام والحسبة، مخطوطات الأزهر، النسخة الأزهرية، رقمها ٣٠٣١.

ثالثًا: المصادر المطبوعة

(١) الأبي، الإمام أبو عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي (ت٨٢٧هـ): إكمال إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم (إكمال الإكمال)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

(٢) الإبياني، أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم التميمي (ت٣٥٢-٣٦١هـ/ ٩٦٢-٩٧١م): مسائل السماسرة، تحقيق: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

(٣) ابن الأحمر، إسماعيل (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م): بيوتات فاس الكبرى، أو ذكر بعض مشاهير فاس في القديم، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٢م.

(٤) ابن أخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٧م.

(٥) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي (من علماء القرن السادس الهجري): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزآن، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٦) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة ليدن، ١٨٩٣م.

(٧) ابن إصبغ، أبو الإصبغ عيسى (ت٤٨٦هـ/١٠٩٣م): نوازل ديوان الأحكام كتاب ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق: يحيى مراد، القاهرة، دار الحديث، (د.ت).

(٨) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالإصطخري (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م): المسالك والممالك، ليدن، ١٩٣٧م.

(٩) الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي (ت١١٤٩هـ/١٧٣٦م): الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مطبعة الدولة التونسية، ١٢٨٧هـ.

(١٠) البادسي، إسماعيل بن أحمد بن محمد بن الخضر البادسي الغرناطي (ت٧٢٢هـ/١٣٢٢م): المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق: سعيد أعراب، المطبعة الملكية بالرباط، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(١١) البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي (ت٨٤١هـ/١٤٣٨م): فتاوى البرزلي (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام)، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

(١٢) ابن بسام، محمد بن أحمد (عاش في ق٨هـ/١٤م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

(١٣) بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى (ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م): كتاب الصلة، عُني بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٥م.

(١٤) بصال، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت٤٩٩هـ/١١٠٥م): كتاب الفلاحة، عُني بنشره: خوسيه ماريا بييكروسا ومحمد عزيمان، مطبعة كريماديمس، تطوان، ١٩٥٥م.

(١٥) ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى (ت٧٧٩هـ/ ١٣٨٠م): رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، تحقيق: عبد الهادي التازي، خمسة أجزاء، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة التراث، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(١٦) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز القرطبي (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).

(١٧) بنيامين التطيلي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الإسباني اليهودي (ت٥٦٩هـ): رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م.

(١٨) بيرو طافور (عاش في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي): رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، تحقيق: حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(١٩) البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م): الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).

(٢٠) التادلى، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (٦١٧هـ/١٢٢٠م): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٢، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

(٢١) التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني (ت٧١٩هـ/١٣١٩م): رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.

(٢٢) الترجمان، أبو محمد عبد الله بن عبد الله الميورقي (ت٨٣٢هـ): تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق: عمر وفيق الداعوق، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢٣) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٣٠هـ): خاص الخاص، عُني بتصحيحه: محمود السكري، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٨٠٩م.

(٢٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة، والأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة، عُني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرحمانية، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م.

(٢٥) الجبي: شرح غريب ألفاظ المدونة، تحقيق، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

(٢٦) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت٦١٤هـ/١٢١٧م): رحلة ابن جبير المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، دار صادر، بيروت، (د.ت).

(٢٧) الجرسيقي، عمر بن عثمان بن العباس (توفي في النصف الأول من ق٦هـ/١٢م): رسالة في الحسبة، منشور ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٢٨) الجزنائي، على الجزنائي (كان حيًّا ٧٦٦هـ/١٣٦٥م): جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٦٧م.

(٢٩) الجزيري، أبو القاسم بن يحيى بن القاسم الجزيري (ت٥٨٥هـ): المقصد المحمود في تلخيص العقود، تحقيق: فايز بن مرزوق بن بركي السلمي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

(٣٠) ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي (ت٧٣٧هـ): كتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، مطبعة دار التراث، القاهرة، (د.ت).

(٣١) حامد الغرناطي، أبو حامد الأندلسي الغرناطي (ت٥٦٥هـ/١١٧٠م): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م.

(٣٢) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ): طوق الحمامة في الألفة والألّاف، طبعه دمشق، ١٩٣٠م.

(٣٣) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس، العدد ١-٢، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

(٣٤) ابن الحشاء، أبو جعفر أحمد بن محمد: مفيد العلوم ومبيد الهموم وهو «تفسير الألفاظ الطبية الواقعة في كتاب المنصوري للرازي»، تحقيق: جورج. س. كولان وآخرين، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤١م.

(٣٥) الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م). جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه، والأدب، وذوي النباهة والشعر)، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت).

(٣٦) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.
(٣٧) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، عُني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها: ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
(٣٨) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت٣٦٧هـ): صورة الأرض، دار صادر، بيروت، (د.ت).
(٣٩) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م. والجزء الخامس، اعتنى بنشره: ب. شالميتا وآخرون، المعهد الإسباني للثقافة، مدريد، ١٩٧٩م.
(٤٠) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت٣٠٠هـ): المسالك والممالك، طبع بمطابع ليدن، أبريل، ١٨٨٩م.
(٤١) الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث (ت٣٦١هـ/٩٧١م): قضاة قرطبة، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م.
(٤٢) ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله الوزير الغرناطي (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م): تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.
(٤٣) خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تحقيق: أحمد مختار العبادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار السويدي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
(٤٤) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى، القاهرة (د.ت).
(٤٥) اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.
(٤٦) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٩م): تاريخ ابن خلدون المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
(٤٧) المقدمة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م.

(٤٨) الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، أبو زيد الدباغ (ت٦٩٦هـ): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله: أبو القاسم بن عيسى بن ناجي (ت٨٣٩هـ)، تحقيق: إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م.

(٤٩) ابن دحية، عمر بن حسن أبو الخطاب (ت٦٣٣هـ): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، ١٩٥٥م.

(٥٠) الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ت.ق٦هـ): الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديئها وغشوش المدلسين فيها، مطبعة المؤيد، مصر، (د.ت).

(٥١) ابن الديبع، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (٩٤٤هـ): بغية الإربة في معرفة أحكام الحسبة، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي، مركز إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٥٢) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م): قطعة من الجزء الخامس من كتاب النبات، عُني بنشره: ب. لوين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥٣م.

(٥٣) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ١٩٨٦م.

(٥٤) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): فتاوى ابن رشد، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٥٥) الرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع (ت٨٩٤هـ): شرح حدود ابن عرفة (الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية)، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الطاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

(٥٦) الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٦م.

(٥٧) ابن الزبير، الرشيد بن الزبير (القرن الخامس الهجري): الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد الله، تقديم ومراجعة: صلاح الدين المنجد رحمه الله، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٥٩م.

(٥٨) الزجالي، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (ت٦٩٤هـ): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح ومقارنة: محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب.

(٥٩) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (٧٤١هـ/١٣٤٠م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

(٦٠) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

(٦١) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزركشي (ت. بعد ٨٩٤هـ): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطباعة الثانية، ١٩٦٦م.

(٦٢) زروق، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق (ت٨٩٩هـ): شرح زروق على متن الرسالة، دار الفكر، ببيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٦٣) ابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين الإلبيري الأندلسي (ت٣٩٩هـ): منتخب الأحكام، تحقيق: عبد الله بن عطية الغامدي، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

(٦٤) الزهري، أبو عبد محمد بن أبى بكر الزهري (توفي أواسط القرن السادس الهجري): كتاب الجغرافيا وما ذكرته العلماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت).

(٦٥) ابن أبي زيد، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ): رسالة الإمام ابن أبي زيد القيرواني، جمع: صالح عبد السميع الأبي الأزهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٣٨هـ.

(٦٦) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق: محمد بو خبزة التطواني، دار الغرب الإسلامي، (د.ت).

(٦٧) السبتي، أبو العباس أحمد العزفي السبتي (ت٦٣٣هـ): إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تخريج ودراسة: محمد الشريف، المجمع الثقافي ضمن السلسلة الأندلسية، أبوظبي، ١٩٩٩م.

(٦٨) السبتي، محمد بن القاسم الأنصاري السبتي (كان حيًّا سنة ٨٢٥هـ/١٤٤١م): اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٦٩) السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن أبي الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الشافعي (٧٢٧–٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٣م.
(٧٠) السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت٢٥٥هـ): كتاب النخل، تحقيق: حاتم صالح الضامن، منشورات دار البشائر.
(٧١) سحنون عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون (٢٤٠هـ/٨٥٤م): المدونة الكبرى للإمام مالك من رواية سحنون عن ابن القاسم ويليه مقدمات ابن رشد لما اقتضته المدونة من الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
(٧٢) ابن سراج، أبو القاسم سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج الأندلسي (ت٨٤٨هـ/١٤٤٤م): فتاوى قاضي الجماعة أبو القاسم بن سراج الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، سلسلة فتاوى علماء غرناطة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
(٧٣) ابن سعد، عريب بن سعد: كتاب الأنواء في تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان، نشر دوي تحت عنوان Le Calendrier de Cordove، ليدن، ١٩٦١م.
(٧٤) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م): الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، سلسلة الذخائر ١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٥٤م.
(٧٥) المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م.
(٧٦) كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتبة التجارية للطباعة، بيروت، ١٩٧٠م.
(٧٧) السقطي، أبو عبد الله محمد بن محمد السقطي المالقي الأندلسي: في آداب الحسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، باريس، (د.ت).
(٧٨) السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م): الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
(٧٩) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي (ت٤٥٨هـ): المخصص، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٣١٧هـ.
(٨٠) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الأندلسي (ت٧٩٠هـ): فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

(٨١) شيخ الربوة، الدمشقي (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طربورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، ١٢٨١هـ/١٨٦٥م.

(٨٢) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، عُني بنشره: السيد الباز العريني، إشراف: مُحمد مُصطفى زيادة، القاهرة، ١٣٦٥هـ/١٩٥٦م.

(٨٣) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت٥٩٤هـ/١١٩٨م): تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين «تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين»، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (د.ت).

(٨٤) ابن الصباح، عبد الله بن الصباح الأندلسي: نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية، المجلد الأول، ١٤٣٣هـ/٢٠١١م.

(٨٥) الصومعي، أحمد بن أبي القاسم بن محمد الشعبي التادلي (ت١٠١٣هـ): المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق: علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦م.

(٨٦) عبد الباسط بن خليل، ابن الوزير زين الدين أبو المكارم عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيخي الملطي القاهري (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م): الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق: روبار برنشفيك، باريس، ١٩٣٦م.

(٨٧) عبد الرءوف، أحمد بن عبد الله القرطبي (٤٢٤هـ): آداب الحسبة والمحتسب، نشره وعلق عليه: ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٨٨) ابن عبدون الإشبيلي (عاش في القرن السادس الهجري): رسالة في القضاء والحسبة، منشور ضمن ثلاث رسائلَ أندلسيةٍ في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٨٩) أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس: أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ودار الأمان الرباط، ١٩٩٩م.

(٩٠) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت. بعد ٧١٢هـ/١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

(٩١) العذري، أحمد بن عمر بن أنس بن الدلائي (ت٤٧٨هـ/١٠٤٨م): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبيان في غرائب البلدان والمسالك

إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مطبعة الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٢م.
(٩٢) ابن عروس، عمر بن علي الجزائري الراشدي: ابتسام الغروس ووشي الطروس، طبعة حجرية تونس، الطبعة الأولى، ١٣٠٣هـ.
(٩٣) ابن العطار، محمد بن أحمد الأموي (ت٣٩٠هـ): الوثائق والسجلات، اعتنى بتحقيقه ونشره: اب. سالميثاوف كورنيطي، مجمع الموثقين المجريطي: المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٣م.
(٩٤) ابن عظوم، أبو القاسم بن محمد مرزوق المرادي القيرواني التونسي (ت١٠٠٩هـ/ ١٦٠١م): الأجوبة، تحقيق: محمد الهيلة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، ٢٠٠٥م.
(٩٥) العقباني، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (ت٨٧١هـ): تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، Extrait du Bulletin d’Etudes Orientales du Institut Francis de Damas. R, ١٩٦٧م.
(٩٦) العلمي، أبو الحسن علي بن عيسى بن علي الحسني العلمي (من علماء ق١١هـ): نوازل العلمي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٨٣م.
(٩٧) العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ٢٠٠٣م.
(٩٨) ابن العوام، أبو زكريا يحيي بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي: كتاب الفلاحة، مدريد، ١٨٠٢م.
(٩٩) ابن عيشون، أبو عبد الله محمد بن عيشون الشراط (ت١١٠٩هـ/١٦٩٧م): الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق: زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩٧م.
(١٠٠) ابن غازي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني المكناسي (ت٩١٩هـ): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م.

(١٠١) ابن غالب، محمد بن أيوب (ت في ق٦هـ): نص أندلسي جديد من كتاب فرحة الأنفس من تاريخ الأندلس. تحقيق. لطفي عبد البديع. مصر، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١، الجزء الثاني، ١٩٥٦م.

(١٠٢) الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (ت٧١٤هـ): عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.

(١٠٣) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه: رينورد، والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م.

(١٠٤) ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد (ت٧٩٩هـ/١٣٩٩م): تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تعليق: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(١٠٥) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت٤٠٣هـ/١٠١٢م): تاريخ علماء الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.

(١٠٦) ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذاني (ت٢٩٠هـ/٩٠٢م): مختصر كتاب البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٦م.

(١٠٧) القباب، أبو العباس أحمد بن قاسم الجذامي الفاسي القباب (ت٧٧٨هـ): شرح مسائل ابن جماعة التونسي في البيوع، دراسة وتحقيق: محمد إبراهيم الكشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(١٠٨) ابن قزمان، محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان (٥٥٥هـ/١١٦٠م): ديوان ابن قزمان إصابة الأغراض في ذكر العراض، تحقيق وتصدير: فيديريكو كورينتى، تقديم: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٥م.

(١٠٩) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصر، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م.

(١١٠) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م.

(١١١) ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك المراكشي (منتصف القرن السابع): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، (د.ت).

(١١٢) القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م): رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨م.
(١١٣) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤٢٢م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.
(١١٤) ابن لب، أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب (ت٧٨٢هـ): تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد، تحقيق: حسين مختاري وهشام الرامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
(١١٥) اللخمي، الإمام أبو الحسن علي بن محمد الربعي اللخمي (ت٤٧٨هـ): التبصرة «كتاب البيوع الفاسدة، كتاب التدليس بالعيوب، كتاب الاستبراء، كتاب بيع الخيار، كتاب العرايا، كتاب التجارة بأرض الحرب، كتاب الأقضية، كتاب الشهادات»، تحقيق: هاشم محمد حسين ناقور، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٣٠هـ.
(١١٦) مارمول، مارمول كازبخال (ت أواخر القرن العاشر الهجري): كتاب أفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد زنبير ومحمد الأخضر، ثلاثة أجزاء، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مكتبة المعارف الجديدة، الرباط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
(١١٧) المازري، أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري (ت٥٣٦هـ): فتاوى المازري، تحقيق: الطاهري المعموري، الدار التونسية للنشر، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، ١٩٩٤م.
(١١٨) المالكي، أبو بكر بن عبد الله المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، مراجعة: محمد العروسي المطوي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
(١١٩) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت٤٥٠هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
(١٢٠) مجهول (من كُتاب القرن السادس الهجري): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشئون الثقافية العامة، طبعة خاصة بالمشرق الإسلامي، ١٩٨٦م.
(١٢١) مجهول: تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، هوداس باريس، ١٩٦٦م.
(١٢٢) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، مدريد، ١٩٨٣م.

(١٢٣) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، تحقيق: نوال علي محمد عبد العزيز، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ١٩٩١م.

(١٢٤) مجهول، (أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري): الحُلَل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زماعة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩م.

(١٢٥) المجيلدي، أحمد سعيد (ت١٠٩٤هـ/١٦٨٣م): التيسير في أحكام التسعير، تقديم وتحقيق: موسى لقبال، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).

(١٢٦) أبو المحاسن، أبو أحمد الفاسي محمد العربي بن يوسف الفاسي القصري (ت١٠٥٣هـ): مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تحقيق: محمد حمزة الكتاني دار ابن حزم، بيروت، (د.ت).

(١٢٧) المراكشي، عبد الواحد المراكشي (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة (د.ت).

(١٢٨) ابن مرزوق التلمساني، أبو عبد الله بن محمد التلمساني (ت٧٨١هـ/١٣٧٩): المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(١٢٩) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، مكتبة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(١٣٠) ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد بن أبي شنب، طبعة المطبعة الثعالبية، بالجزائر، ١٣٣٦هـ/١٩٠٨م.

(١٣١) المعداني، أبو علي بن الحسن بن رحال (ت١١٤٠هـ): كشف القناع عن تضمين الصناع، تحقيق: محمد أبو الأجفان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(١٣٢) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت٣٨٥هـ/٩٩٥م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، ١٩٠٩م.

(١٣٣) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
(١٣٤) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي أبي العباس (٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).
(١٣٥) المكناسي، أحمد ابن القاضي المكناسي (ت٩٦٠هـ): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣م.
(١٣٦) الملك المظفر، يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت٦٩٤هـ): المخترع في فنون من الصنع، تحقيق: محمد عيسى صالحية، منشورات مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٩٨٩م.
(١٣٧) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن أبي مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
(١٣٨) النابلسي، عبد الغني النقشبندي (ت١١٤٣هـ/١٧٣٠م): علم الملاحة في علم الفلاحة، مطبعة نهج الصواب، دمشق، ١٢٩٩هـ.
(١٣٩) النميري، إبراهيم بن عبد الله النميري أبو القاسم المعروف بابن الحاج (٧٦٨هـ/١٣٦٧م): فيض العباب وإفاضة قدح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، إعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.
(١٤٠) النويري، محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندراني (المتوفى بعد سنة ٧٧٥هـ): الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية من مخطوطة برلين وبانكي بور، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
(١٤١) ابن هشام اللخمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٥٧٧هـ/١١٨١م): ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مجلة معهد المخطوطات العربي، المجلد الثالث، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٥٧م.
(١٤٢) ابن هلال، أبو سالم إبراهيم بن هلال بن علي السجلماسي (ت٩٠٣هـ): الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، طبعة حجرية، ١٣١٩هـ/١٩٠١م.
(١٤٣) ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسواني (ت٣١٨هـ/٩٣٠م): الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٣م.

(١٤٤) ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي فوارس (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م): خريدة العجائب وفريدة الغرائب الجامع لما هو لطرف الدهور حور ولجيد الزمان عقد، المطبعة العامرية المليجية، ١٣٢٤هـ.
(١٤٥) ابن الوزان، أبو الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بليون الأفريقي (٩٤٤هـ/١٥٣٧م): وصف أفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، مراجعة: علي عبد الواحد، مكتبة الأسرة، سلسلة التراث، ٢٠٠٥م.
(١٤٦) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية للملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
(١٤٧) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٧م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
(١٤٨) يحيى بن عمر (ت.ق٣هـ): أحكام السوق، بقلم محمود علي المكي، فصلة من صحيفة المعهد المصري، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس.

رابعًا: المراجع العربية والمعربة

(١) إبراهيم سيد الناقة (دكتور): الأسواق التجارية والصناعية في الأندلس في عصر الخلافة الأموية والخلافة الموحدية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١٠م.
(٢) إبراهيم القادري بوتشيش: (دكتور) مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧م.
(٣) احمادو تال ديالوا: الصناعة بالقيروان من خلال مدونة سحنون ونوادر ابن أبي زيد، جامعة الزيتونة، منشورات وحدة بحث تاريخ القيروان، ٢٠٠٧م.
(٤) أحمد الطاهري (دكتور): الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد: من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الإنزال الإقطاعي، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م.
(٥) أحمد فكري (دكتور): قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
(٦) أحمد محمد الطوخي (دكتور): مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٩م.

(٧) آدم متز (دكتور): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، المجلد الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).

(٨) أمين توفيق الطيبي (دكتور): دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية، ليبيا، دار اقرأ، ١٩٩٠م.

(٩) دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الجزء الثاني، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٧م.

(١٠) أوليفيا ريمي كونستبل (دكتور): التجارة والتجار في الأندلس، تعريب: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(١١) التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ضمن كتاب «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس»، الجزء الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

(١٢) ج. س. كولان (دكتور): الأندلس، كتب دائرة المعارف الإسلامية، لجنة الترجمة: إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

(١٣) جان ديفيس: أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، ضمن كتاب «تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع: أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر»، المشرف على المجلد، ج. ت. نياني، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو)، عن منظمة الأمم المتحدة، ١٩٨٨م.

(١٤) جمال أحمد طه (دكتور): دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

(١٥) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين ٤٤٨هـ/١٠٥٦م–٦٦٨هـ/١٢٦٩م، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠١م.

(١٦) جواتياين: دارسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تحقيق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م.

(١٧) الحبيب علي الجنحاني (دكتور): دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

(١٨) حسن حسني عبد الوهاب (دكتور): شهيرات تونسيات، بحث تاريخي أدبي في حياة النساء التوابع بالقطر التونسي من الفتح الإسلامي إلى آخر الزمان، المطبعة التونسية، ١٣٥٣هـ.

(١٩) حسن علي حسن (دكتور): الحضارة الإسلامية «عصر المرابطين والموحدين»، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

(٢٠) درويش النخيلي (دكتور): السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٩م.

(٢١) دوزي (دكتور): تكملة المعاجم العربية، دار الشئون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٩٧م.

(٢٢) المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، بغداد، طبعة وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧١م.

(٢٣) راوية عبد الحميد شافع (دكتور): المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٢٤) روبار برنشفيك (دكتور): تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م، ترجمة: حمادة الساحلي، جزآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.

(٢٥) روجي لوترنو: فاس في عهد بني مرين، ترجمة: نقولا زاده، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان، ١٩٦٧م.

(٢٦) ريكاردو كوردوبا (دكتور): الصناعات المتوسطية، ضمن كتاب «ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات»، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.

(٢٧) سامية مصطفى مسعد (دكتور): المغاربة ودورهم الثقافي في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

(٢٨) سحر عبد العزيز سالم (دكتور): مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري للأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

(٢٩) دور الطرز في الأندلس في عصر الدولة الأموية، ضمن كتاب «بحوث مشرقية ومغربية في الحضارة الإسلامية»، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

(٣٠) سعاد ماهر (دكتور): البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار المجمع العلمي، جدة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

(٣١) السيد عبد العزيز سالم (دكتور): تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.

(٣٢) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الثاني، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٤م.
(٣٣) صابر محمد دياب (دكتور): دراسات في التاريخ الإسلامي «أضواء على العلاقات بين المُدن الإيطالية والدول الإسلامية بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلادي»، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م.
(٣٤) صالح بعزيق (دكتور): بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات جامعة تونس، ٢٠٠٦م.
(٣٥) صالح بن قربة (دكتور): انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى، ضمن كتاب «الغرب الإسلامي والغرب المسيحي في العصور الوسطى»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٥م.
(٣٦) عبد العزيز بن عبد الله (دكتور): الحرف والصناعات التقليدية، ضمن كتاب «معطيات الحضارة المغربية»، الجزء الثاني، دار الكتب العربية، الرباط، ١٩٦٣م.
(٣٧) عبد الوهاب الدبيش (دكتور): توزيع المرافق الاقتصادية بفاس المرينية، ضمن كتاب أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، الجزء الثاني، جامعة الحسن الثاني، عين الشقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
(٣٨) عثمان الكعاك (دكتور): العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، الشركة التونسية للتوزيع. د.ت.
(٣٩) عثمان المنصوري (دكتور): التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠١م.
(٤٠) عز الدين أحمد موسى (دكتور): النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ...
(٤١) عصام سالم بسالم (دكتور): جزر الأندلس المنسية «التاريخ الإسلامي لجزر البليار ٨٩-٦٨٥هـ/٧٠٨-١٢٨٧م»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
(٤٢) عصمت عبد اللطيف دندش (دكتور): الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين «عصر الطوائف الثاني ٥١٠-٥٤٦هـ/١١١٦-١١٥١م»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
(٤٣) علي جمعة محمد (دكتور): المكاييل والموازين الشرعية، القاهرة، القدس للإعلان والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

(٤٤) عمر فروخ (دكتور): العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط من فتح المغرب والأندلس إلى آخر عصر الولاة (١٣٨هـ/٧٥٦م)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

(٤٥) غوستاف لوبون (دكتور): حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الطبعة الرابعة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٩٦٤م.

(٤٦) فالتنس هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م.

(٤٧) فرناند بروديل (دكتور): البحر المتوسط، ترجمة: عمر بن سالم، منشورات البحر المتوسط، تونس، ١٩٩٠م.

(٤٨) كريستين مازولي – جوينتار (دكتور): مدينة عظيمة لملك عظيم، مدن شرقية وغربية وطرق تجارية في زمن ابن خلدون، ضمن كتاب «ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات»، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.

(٤٩) كلود هوكت (دكتور): العلاقات الملاحية والبحرية في البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، ضمن كتاب «ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات»، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.

(٥٠) لطفي بن ميلاد (دكتور): أفريقية والمشرق المتوسطي من أواسط القرن ٥هـ/١١م إلى ١٠هـ/١٦م، المغاربيَّة للطباعة والنشر والإشهار، ٢٠١١م.

(٥١) لطيفة بشاري: العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد من القرن السابع للقرن العاشر الهجريَّين (١٣–١٦م)، منشورات وزارة الشئون الدينية والأوقاف، تلمسان، ٢٠١١م.

(٥٢) لوسي بولنز: نباتات الصباغة والنسيج، بحث منشور ضمن كتاب «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس»، الجزء الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

(٥٣) لويس سيكو دي لوثينا: وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦١م.

(٥٤) ليوبولدو توريس بالباس: المُدن الإسبانية الإسلامية، ترجمة إليو دورو دي لابنيا، مراجعة، نادية محمد جمال الدين وعبد الله بن إبراهيم العُمير، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

(٥٥) محمد أحمد أبو الفضل (دكتور): تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي، إسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.
(٥٦) محمد الأمين البزاز (دكتور): حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي: تأملات في رحلة ابن جبير، ضمن كتاب الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تحرير محمد حمام، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الهلال.
(٥٧) محمد حسن (دكتور): المدينة والبادية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
(٥٨) محمد رابطة الدين (دكتور): توزيع المرافق الاقتصادية بفاس المرينية، ضمن كتاب «أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب»، الجزء الثاني، جامعة الحسن الثاني، عين الشقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
(٥٩) قيسارية مراكش الموحدية، ضمن كتاب «أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب»، الجزء الثاني، جامعة الحسن الثاني، عين الشقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
(٦٠) محمد سعيد مغاوري (دكتور): الألقاب وأسماء الحرف والصناعات والوظائف في ضوء البرديات العربية، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠م.
(٦١) محمد عبد الجليل بلقزيز: حضارة وثقافة عبر أنسجة ولباس بطريقة التَّأْثيل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٩م.
(٦٢) محمد المراني علوي (دكتور): الإطار العام للعلاقات المغربية مع جمهوريات المُدن الإيطالية، ضمن كتاب «البحر في تاريخ المغرب»، منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، ١٩٩٩م.
(٦٣) محمد المرزوقي (دكتور): قابس جنة الدنيا (غابتها – خليجها – مدينتها – سكانها – تاريخها – رجالها)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٢م.
(٦٤) محمد المنوني (دكتور): ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، ١٩٧٩م.
(٦٥) محمد الهبضي: فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٨م.

(٦٦) محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
(٦٧) مصطفى أبو ضيف (دكتور): أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين ١١٣٠–١٤٧٢م، دار المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
(٦٨) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مصر، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
(٦٩) ممدوح حسين وشاكر مصطفى (دكتور): الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري ٦٦٨–٧٩٢هـ/١٢٧٠–١٣٩٠م، دار عمار، عمان، ١٩٩٨م.
(٧٠) ميكايل أماري: المكتبة العربية الصقلية نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، ليسبك، ١٨٧٥م.
(٧١) نجاة الباشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، ١٩٧٦م.

خامسًا: المجلات والدوريات

(١) إبراهيم القادري بوتشيش (دكتور): أثر الحروب على الضرائب في المغرب، مجلة الاجتهاد، العدد ٣٤-٣٥، ١٤١٧هـ.
(٢) أحمد الطوخي (دكتور): القيساريات الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.
(٣) أحمد محمد إسماعيل الجمال (دكتور): طرق التجارة الخارجية للمغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي «عصر الموحدين»، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثاني عشر، المجلد ١، ٢٠٠٤م.
(٤) أحمد مختار العبادي (دكتور): مظاهر الحياة الاقتصادية، مجلة عالم الفكر، المجلد ١١، العدد الأول، الكويت، ١٩٨٠م.
(٥) إميل خطار: صنع الورق من نبات الحلفاء، مجلة العرفان، العدد ١٤٣، المجلد ٥، الجزء ١٤، ١٩٢٨م.
(٦) أمين توفيق الطيبي (دكتور): جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من خلال رسائل الجنيزة، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة السادسة، العدد ٢، ١٩٨٤م.

(٧) بوادليه بواتيه: رؤية السلطة والمجتمع إلى الصناع والحرفيين ببلاد الأندلس عصرَي الإمارة والخلافة، دورية كان التاريخية، العدد ١١، ٢٠١١م.

(٨) توريس بلباس: الأبنية الإسلامية، ترجمة: علية إبراهيم، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، السنة الأولى، العدد ١، ١٩٥٣م.

(٩) جمال أحمد طه (دكتور): العلاقات التجارية بين مُدن المغرب الشمالية ومُدن جنوب فرنسا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، مجلة كلية الآداب بسوهاج، العدد ٢٥، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠٠٢م.

(١٠) تطور الشركات التجارية في الغرب الإسلامي، في مجلة المؤرخ المصري، جامعة القاهرة، عدد ٢٠١١م.

(١١) جمال محرز (دكتور): السجاد الإسلامي ومشتقاته في إسبانيا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١١، ١٩٦٣م.

(١٢) الحبيب بو لقطيب (دكتور): الحياة الاقتصادية للحلف القبلي المصمودي في القرنَين الخامس والسادس، مجلة الاجتهاد، العدد ١٨، السنة الخامسة، بيروت، دار الاجتهاد، ١٩٩٣م.

(١٣) حسام شاشية: العائلات المورسكية في تونس بين الحاضر والمستقبل المساهمة والمحافظة، شفشاون، المغرب ٢٨، ٢٩، ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٩م.

(١٤) حميدة محمد البقلي (دكتور): الحرير الطبيعي عند العرب، مجلة منبر الإسلام، العدد ١٩، السنة ٣٦، محرم ١٣٩٨هـ.

(١٥) حنان قرقوتي: ملامح من صناعة النسيج عند المسلمين، مجلة الدارة، العدد ٤، السنة ٢٥، ١٤٢٠هـ.

(١٦) سلفاتوري بونو: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط، ترجمة عمر محمد الياروني، مجلة البحوث التاريخية، ليبيا، العدد ٢، السنة الثامنة، ١٩٨٦م.

(١٧) سوادي عبد محمد (دكتور): صلات تجارية بين البصرة والمغرب الإسلامي من القرن الثاني الهجري حتى أواخر القرن الرابع، مجلة المؤرخ العربي، السنة ١٦، العدد ٤٣، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٨) السيد عبد العزيز سالم (دكتور): ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد ٢٧، ١٩٩٥م.

(١٩) صادق إبراهيم: القُنَّب، مجلة المقتطف، المجلد ٥٨، الجزء ٦، يونيو ١٩٢١م.

(٢٠) صالح أحمد العلي: ألوان الملابس العربية في العهود الإسلامية الأولى، المجمع العلمي العراقي، العدد ٢٦، ١٣٩٥هـ.

(٢١) صالح محمد فياض: الزراعة في الأندلس وأثرها على التصنيع الزراعي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٤٤، ١٤١٢هـ.

(٢٢) صلاح حسين العبيدي (دكتور): صناع النسيج في الآثار العربية الإسلامية في العصر العباسي، مجلة المورد مجلةٌ تراثيةٌ فصلية محكمة تصدرها وزارة الإعلام، المجلد ١٥، العدد ١، ١٩٨٦م.

(٢٣) المنسوجات والسجاجيد العربية الإسلامية وأثرها في الفنون الأوروبية، مجلة المورد، مجلةٌ تراثيةٌ فصليةٌ محكمة تصدرها وزارة الإعلام، المجلد ١٩، العدد ١، ١٩٩٠م.

(٢٤) ظاهر خير الله الشويري: الحرفة وتوابعها، مجلة المقتطف، القاهرة، المجلد ٢٩، الجزء الأول، ١٩٠٤م.

(٢٥) عبد العزيز العلوي (دكتور): صناعة النسيج في المغرب في العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد ٢، ١٩٨٥-١٩٨٦م.

(٢٦) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور): بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢٦، الجزء الأول والثاني، ١٩٦٤م.

(٢٧) عبد الهادي التازي (دكتور): دور المحتسب في السوق، مجلة رسالة التقريب، العدد ٥، ١٤١٥هـ.

(٢٨) عبد المنعم عبد العزيز رسلان (دكتور): دراسة للنسيج المذهب في صقلية، مجلة دارة، السنة التاسعة، العدد ٤٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٢٩) علي أحمد: العاملون في ميدان الاقتصاد والخدمة في المشرق العربي من الأندلسيين والمغاربة منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، مجلة التراث العربي، العدد ٤١، ١٤١١هـ.

(٣٠) علي جمعان الشكيل: صناعة الأصباغ في الحضارة الإسلامية، مجلة آفاق، السنة الثامنة، العدد ٣٢، شوال ١٤٢١هـ/يناير ٢٠٠١م.

(٣١) فاطمة بلهواري: النشاط الرعوي في بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري، دورية كان التاريخية، السنة ٣، العدد ٨، ٢٠١٠م.

(٣٢) لمياء محمد سالم شرف الدين (دكتور): تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء في العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، العدد ٣، السنة ٢٣، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، ٢٠٠١م.

(٣٣) لويس سيكو دي لوثينا: الوثائق العربية الغرناطية وقيمتها التاريخية، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد ٧-٨، ١٩٥٩-١٩٦٠م.

(٣٤) لويس ماسينون: الهيئات الحرفية والمدينة الإسلامية، ترجمة: أكرم فاضل، مجلة المورد، العدد ٣، المجلد ٢، العراق، ١٩٧٣م.

(٣٥) ماجدة كريمي (دكتور): العلاقات التجارية بين السودان والمغرب على عهد المريني، مجلة دعوة الحق، العدد ٦٩، ١٩٨٨م.

(٣٦) محسن جمال الدين: ديوان سعد الدين بن عربي الأندلسي شاعر الحرف والصناعات، مجلة المورد، العدد ٢، المجلد ٢، ١٩٧٣م.

(٣٧) محمد المنوني (دكتور): مشاهد عمالية من واقع مغرب الأمس، مجلة دعوة الحق، العدد ١٤٦ السنة ١٥.

(٣٨) محمد مرسي الكحلاوي (دكتور): مراكز صناعة الحرير في الأندلس من خلال النصوص التاريخية مع تطبيقات على بعض من المنسوجات الحريرية، مجلة كلية الآثار، العدد ٤، ١٩٩٠م.

(٣٩) محمد منير سعد الدين: النقابات عند المسلمين، مجلة التراث العربي، العدد ٤٧، السنة ١٢، ١٩٩٢م.

(٤٠) محمود مكي (دكتور): مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في إسبانيا، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد ٨٠، الجزء الأول، ١٩٩٦م.

(٤١) معجب سعيد (دكتور): صورة المرأة في خطاب ابن رشد، مجلة التراث العربي، العدد ١٠٥، السنة ٢٧، ٢٠٠٧م.

(٤٢) نافذ سويد: الحرفيون ودورهم التاريخي في تطور المدينة العربية الإسلامية، مجلة التراث العربي، العدد ٧٦، السنة ١٩، ١٩٩٩م.

سادسًا: الرسائل العلمية

(١) أحمد إبراهيم رفاعي: مشاكل النقل البري والبحري وأثرها على التجارة في المغرب والأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين (٤٤٨هـ/١٠٥٦م-٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ٢٠١١م.

(٢) أحمد مصطفى محمد عبد الرحيم: الحياة الاقتصادية في بلاد المغرب في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ٢٠٠٧م.

(٣) بلوط عمر: الفنادق في مدينة تلمسان الزيانية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية الإنسانية والاجتماعية، قسم الآثار، ٢٠٠٤م.

(٤) جميلة مبطي المسعودي: المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة ٦٢١هـ وحتى سنة ٨٩٣هـ، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٠م.

(٥) خالد بن عبد الله: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٢٦هـ.

(٦) شوقي محمد يوسف: الدور المغربي للبحرية المغربية في عهد دولة المرابطين والموحدين (٤٤٨-٦٦٨هـ/١٠٥٦-١٢٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م.

(٧) عامر أحمد حسن: دولة بني مرين تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية في إسبانيا، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٣م.

(٨) عبد النبي بن محمد: مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا والأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٩٧٩م.

(٩) عبد العزيز عبد الفتاح عمر حجازي: البحرية القرطاجية دراسة في دورها الحربي ومقوماته وعلاقاته، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٥م.

(١٠) عبد الناصر جبار: بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/الرابع والخامس عشر للميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٠م.

(١١) عيسى محمد الذيب: التجارة في عصر دولة المرابطين ٤٤٨-٥٤٠هـ/١٠٥٦-١١٤٥م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٠م.
(١٢) محمد علي أحمد قويدر: التجارة الداخلية في المغرب الأقصى في عصر الموحدين (٥٤١-٦٦٨هـ/١١٤٧-١٢٦٩م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠١٠م.
(١٣) مصطفى محمد عبد الخالق منصور: علاقة القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط بالمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة (٥١٧-٧١٦هـ/١٢٢٣-١٣١٦م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م.
(١٤) مفتاح يونس الرباطي: العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية، ٢٠٠٥م.
(١٥) منى سيد عبد العزيز: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة الحفصية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية، ١٩٨٦م.
(١٦) نبيلة عبد النظير باكير عبادي: الأوضاع السياسية والحضارية لمدينة أودغست «أودغست منذ القرن الثاني الهجري وحتى سقوط المدينة في القرن السادس الهجري»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، ٢٠٠٢م.
(١٧) نصر عوض حسين: صناعة النسيج في مصر المملوكية، رسالة ماجستير، قسم الآثار، كلية الآداب بسوهاج، جنوب الوادي، ١٩٨٦م.
(١٨) وائل عبد الكريم حسن: أحكام تضمين الصناع وأصحاب الحرف في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠٠١م.

سابعًا: المراجع الأجنبية

(1) Amari Di Michele: I Diplomi Arabi R. Archivio Florention, Frienze, 1863.
(2) Ángel Luis Molina: Los Viajes Por Mar en La Edad Media, Cuadernos de Turismo, No 5, 2000.
(3) Angus Konstam: Piracy: The Complete History, Osprey Publishing, 2008.
(4) Anna Unali: Marineros: Piratas y Corsarios Catalanes en La Baja Edad Media, Sevilla, Renacimiento, 2007.

(5) Anne E. Wardwell: Fifteenth-Century Silk Curtain from Muslim Spain, The Bulletin of the Cleveland Museum of Art, Vol. 70, No. 2 (Feb., 1983).

(6) Avner Greif: Reputation and Coalitions in Medieval Trade: Evidence on the Maghribi Traders, The Journal of Economic History, Vol. 49, No. 4, Dec., 1989.

(7) David Abulafia: A Mediterranean Emporium: The Catalan kingdom of Majorca, Cambridge: Cambridge University Press, 2002.

(8) Commerce and the Kingdom of Majorca 1150—1450, in book "Iberia and the Mediterranean world of the middle Ages: studies in honor of Robert I. Burns S.J./ed. by Larry J. Simon", Leiden; New York; Koaln: Brill, 1996

(9) De Mas Latrie: Apercu des Relations Commercial les L'Itaile avce L'Algerie au Moyen Aage. Extrait du tableau de la situation des etablissements Francais en Algerie 1843-1844.

(10) Relations et Commerce de L'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les Nations Chrétiennes au Mmoyen Age, Paris, 1886.

(11) Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen-âge/recueillis par ordre de l'empereur et publiés avec une introduction historique, Paris, H. Plon, 1866.

(12) Dodds, Jerrilynn, ed: Al-Andalus: The Art of Islamic Spain, New York, 1992.

(13) Dominque Valerian: Ifrîqiyan Muslim Merchants in the Mediterranean at the End of the Middle Ages, Mediterranean Historical Review, Vol. 14, No. 2, December 1999, Published By Frank Cass, London.

(14) Dufourcq: Espagne Catalane et Le Maghrib aux XIIIè et XIVè siècles, Presse Universitaires De France.1966.

(15) Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine Musulmane: données connues et problèmes en suspens, L'Ibérie Chrétienne et le Maghreb: XIIe—XVe siècles, [edited by Jacques Heers and Georges Jehel], 1990

(16) Prix et niveaux de vie dans les pays Catalans et Maghribins: L'Ibérie Chrétienne et le Maghreb: XIIe—XVe siècles, [edited by Jacques Heers and Georges Jehel], 1990.

هذه المقالة قام بترجمتها الأستاذ الدكتور جمال طه وهي بعنوان «الأسعار ومستوى الحياة في بلاد المغرب وكالتونيا في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر» مقالة تحت الطبع.

(17) Edourdo Aznar: Course et Piraterie dans Les Relation enter la Castle et le Maroc, Dans un livre "L'Occident Musulman et l'occident chretien au moyen age", Mohammed Hammam, Faculte des lettres et des sciences humaines-Rabat, 1995.

(18) Goitein: The Main Industries of the Mediterranean Area as Reflected in the Records of the Cairo Geniza, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 4, No. 2, Aug., 1961.

(19) A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, Volume I: Economic Foundations. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.

(20) Hilmar C. Krueger: The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century: Speculum, Vol. 12, No. 1, Jan., 1937.

(21) Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century, Speculum, Vol. 8, No. 3, Jul., 1933.

(22) Imammuddin, S. M.: The Economic history of Spain under the Umayyads "711–1031 A. C.", Pakistan, Dacca, 1963.

(23) John Vogt: Notes on the Portuguese Cloth Trade in West Africa, 1480–1540, The International Journal of African Historical Studies, Vol. 8, No. 4, 1975.

(24) Juan J. Rodriguez Lorente: Prontuario de La Moneda Arabigo Espanola, edira vico, Publicador: Vico, 1982.

(25) Jose Hinojosa Montalvo: El Rino de Valencia, Frontera maritime enter Aragon y Granada, La frontera oriental nazarí comosujeto histórico (ss. XIII-XVI). Almería, 1997.

(26) M. Maximiliano A. Alarcón y Santón y Ramón García de Linares: Los Documentos Arabes Diplomáticos del Archivo de La Corona de Aragón, Madrid, Impr. de E. Maestre, 1940.

(27) Margarita Campos. Kent; Figurative Hispano-Arabic textiles of the Almoravid and Almohad dynasties: historical and ideological implications of their design and iconography, The Ohio State University, 1980.

(28) María Teresa: Transportistas y Corsarios vascos en el Mediterráneo Medieval. Las aventuras Orientales de Pedro de Larraondo (1406–1409): Itsas memoria: revista de Estudios Marítimos del País Vasco, N. 2, 1998.

(29) Ferrer I Mallol: Corso y Piratería entre Mediterráneo y Atlántico en la Baja Edad Media, En: La Península ibérica entre el Mediterráneo y el Atlántico. Siglos XIII-XV, V Jornadas Hispano-Portuguesas de Historia Medieval, Cádiz 1—4, Abril 2003.

(30) Sevilla-Cádiz: Diputación de Cádiz. Servicio de Publicaciones-Sociedad Española de Estudios Medievales, 2006.

(31) Maurice Lombard: textiles dans le monde musulman du VIIe au XIIe siècle, Mouton, 1978.

(32) Maya Shatzmiller: Women and Wage Labour in the Medieval Islamic West: Legal Issues in an Economic Context, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 40, No. 2 (1997).

(33) Michel Mollat: De La Piraterie Sauvage à La Course Réglementée (XIVe-XVe siècle), Mélanges de l'Ecole française de Rome. Moyen-Age, Temps modernes, Année 1975, Volume 87, Numéro 1.

(34) Moshe Gil: References to Silk in Geniza Documents of the Eleventh Century, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 61, No. 1 (Jan., 2002).

(35) The Flax Trade in the Mediterranean in the Eleventh Century A.D. as Seen in Merchants' Letters from the Cairo Geniza, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 63, No. 2, April 2004.

(36) The Jewish Merchants in the Light of Eleventh-Century Geniza Documents, Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. 46, No. 3 (2003)

(37) R. B. Serjeant: Michigan Material for a History of Islamic Textiles up to the Mongol Conquest, Published by: Freer Gallery of Art, The Smithsonian Institution and Department of the History of Art, University of Michigan Stable Ars Islamica, Vol. 15/16, 1951.

(38) Sarah. C. Davis; Sicily and the Medieval Mediterranean: Communication Networks and Inter-regional Exchange, ProQuest, 2007.

(39) Sharon Hoshta: Almeria Silk and the French Feudal Imaginary Toward a "Material" History of the Medieval Mediterranean, Medieval abrications dress, Textiles, Cloth work, and other Cultural Imaginings, Palgrave.

(40) Silvia Orvietani Busch: Medieval Mediterranean Ports: The Catalan and Tuscan Coasts, 1100 to 1235, Leiden: Boston, Brill, 2001.

(41) Tahar Mansouri: Produits agricoles et Commerce Maritime en L'frqiya aux XIIe—XVe siècles, Médiévales, Année 1997, Volume 16, Numéro 33.

(42) Vincent Lagardère: Culture et industrie du lin en al-Andalus au Moyen Âge (VIIIe-XVe s), Studia Islamica, No. 74 (1991).

